

الروس والمجتمع الدولي

١٠٥٤-٩٤٥ م

دكتور

طارق منصور محمد

كلية الآداب - جامعة عين شمس

٢٠٠١

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٩ (١١٣ سابقاً) ش إسلام

حمامات القبة - القاهرة

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٩ (١٣ سابقاً) ش إسلام-حمامات القبة

ص.ب. ٥٧٤٠ هليوبوليس

القاهرة-مصر

تليفون وفاكس ٢٥٦٢٢٦٨

© د. طارق منصور محمد

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف، ولا يجوز الاقتباس أو التصوير
بالآلات الحديثة أو النسخ أو الطبع إلا بإذن كتابي من المؤلف أو الناشر

الطبعة الأولى ٢٠٠١م

البيانات الببليوجرافية لدار الكتب المصرية

المؤلف: د. طارق منصور محمد

العنوان: الروس والمجتمع الدولي ٩٤٥-١٠٥٤م

I- تاريخ روسيا القديم- روسيا الكيفية- تاريخ القوقاز

II- تاريخ الامبراطورية البيزنطية- الحضارة البيزنطية

١- طارق منصور محمد ٢- العنوان

947'02-947'05

949'502

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/١٥٢٦٧

رقم الإيداع الدولي: 977-5471-34-6

طبع في جمهورية مصر العربية

لوحة الغلاف تمثل معركة بين سكان نوفجورود وسكان سوددال
من مدرسة نوفجورود الفنية، الربع الأخير من القرن الخامس عشر

إهداء

إلى أبي وأمي، رمزا للحب والعطاء

بسم الله الرحمن الرحيم

**"وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق
واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً"**

المحتويات

المحتويات.....	١- ب
قائمة المختصرات.....	ج- ع
مقدمة.....	ف- ش
عرض وتقديم مصادر البحث.....	ت- هـ- هـ
التمهيد.....	١٠- ١
الباب الأول: الروس والإمبراطورية البيزنطية	
الفصل الأول: الروس وبيزنطة ومعاهدة ٩٤٥ م.....	١١- ٤٠
أيجور والقسطنطينية ٩٤٤ م.....	١٤
نص معاهدة ٩٤٥ م.....	١٧
تاريخ المعاهدة ٩٤٤ أم ٩٤٥ م.....	٢٤
تحليل المعاهدة.....	٢٦
الفصل الثاني: الروس وبيزنطة والبلقان ٩٤٥-٩٧٢ م.....	
أولجا والعرش.....	٤١
زيارة أولجا للقسطنطينية ٩٥٧ م.....	٤٢
نقور فوقس والبلقان.....	٤٩
غزو سفياتوسلاف لبغايا ٩٦٨ م.....	٥٢
يوحنا تريمسكس وسفياتوسلاف.....	٦١
هزيمة سفياتوسلاف ومعاهدة ٩٧١ م.....	٧٩
مصرع سفياتوسلاف ٩٧٢ م.....	٨٦
الفصل الثالث: الروس بين بيزنطة والقوى الأوربية.....	
الحرب الأهلية وتولى فلاديمير الحكم.....	٨٨- ١٣٦

٩٣.....	بازيل الثاني والقصر صمويل البلغاري
٩٦.....	سفارة بازيل الثاني إلى فلاديمير
١٠٤.....	فلاديمير وغزو خرسون ٩٨٨ م
١١٤.....	فلاديمير والقوى الأوربية
١٢٠.....	الحرب الأهلية وتولى ياروسلاف الحكم
١٢١.....	ياروسلاف وسياسة الأوربية
١٢٧.....	حملة ١٠٤٣ م على القسطنطينية
١٣٦.....	وصية ياروسلاف

الباب الثاني: الروس والقوى الشرقية

١٦٤-١٣٧.....	الفصل الرابع: الروس ومسلمو القوقاز
١٣٨.....	مناخ بلاد الروس وأثره على اتجاه الروس شرقاً
١٤١.....	هجوم الروس على أيسكون ٨٦٤-٨٨٤ م
١٤٢.....	هجوم الروس على أيسكون ٩١٠ م
١٤٤.....	هجوم الروس على جيلان، وطبرستان، وياكو ٩١٢-٩١٣ م
١٥١.....	هجوم الروس على برذعة ٩٤٣-٩٤٤ م
١٥٩.....	هجمات الروس على شروان ١٠٣٠، ١٠٣١ م
١٦٢.....	أسباب هجمات الروس على القوقاز

٢١٨-١٦٥.....	الفصل الخامس: الروس بين البشناق وقوى الفولجا
١٦٦.....	الروس والبشناق
١٨٣.....	الروس والخزر
٢١٥.....	الروس والبرطس والبلغار

الباب الثالث: الروس والتجارة الدولية

٢٣٦-٢٢٧.....	الفصل السادس: الروس والتجارة مع بيزنطة
٢٢٨.....	مناقشة بنود معاهدة ٩٤٥ م التجارية

٢٣٠.....	كتاب وإلى المدينة والتجار الأجانب في القسطنطينية
٢٣٦.....	التجار الروس في القسطنطينية
٢٤١.....	الطريق التجارى العظيم لاندوجا-كريف-القسطنطينية
٢٦٧-٢٤٦	الفصل السابع: الروس وتجارة الفولجا
٢٤٨.....	التجارة مع الخزر
٢٥٣.....	التجارة مع البرطاس
٢٥٥	التجارة مع البلغار
٢٥٥	السلع التجارية في حوض الفولجا
٢٦١.....	الدرامم والنفائير الإسلامية وروسيا
٢٦٥	الطرق التجارية بين المدن الروسية والفولجا
٢٧١-٢٦٩	الخاتمة
٢٧٥-٢٧٢.....	الخرواط
٢٩١-٢٧٦	قائمة المصادر والمراجع
I-XXIV	تقديم باللغة الإنجليزية

خُصْر وتقدِير

أتقدم بخالص الخُصْر والتقدِير إلى أستاذي الضريف الأستاذ الدكتور /
رافعت عبد الحميد، أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة عين شمس،
الذي عملني برعايته وعُمره طوال سنوات إحصاء هذا البحث ولم يهمل علي مطلقاً
بالنصح والتوجيه والإرشاد، والذي تحمل كل صفحة من صفحات هذا البحث بسمة
له، جزاه الله عني خيراً.

شما أتقدم بخالص الخُصْر والتقدِير إلى الأستاذ الدكتور/جوناثان شيرد
Jonathan Shepard ، أستاذ التاريخ الروسي الوسيط والبيزنطي بكلية التاريخ،
جامعة هامبريدج، الذي تحمل عني ثِقلاً معي طوال سنوات الدراسة، ولم يتروك في
ترويدي بالثُتب والمقالات المتخصصة أيضاً، بالإضافة إلى تيسيره لي فرصة الاتصال
ببعض الأساتذة الأوربيين الآخرين. جزاه الله عني خيراً.

ويسرني أن أتقدم بالخُصْر والتقدِير إلى الأستاذ الدكتور/ أحمد عثمان،
أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الذي ساعدني
في السفر إلى اليونان في مهمة علمية، في العام الجامعي ١٩٩٧، فله مني خالص
الخُصْر والتقدِير. ولا يفوتني أن أتقدم بخالص الخُصْر والتقدِير إلى ا.د./ سعيد
ماهور، ا.د./ اسحق سعيد علي ملاحظتهما القيمة التي أُنحت منهما خُبيراً. شما
أتقدم بخالص الخُصْر والتقدِير إلى الدكتور / يهيندي زيلينيف Evgueni
Zelenev مدير المعرض الثقافي الروسي بالقاهرة سابقاً. وأتقدم بخالص الخُصْر
والتقدِير إلى أمناء مكتبة كلية الآداب Φιλοσοφική Σχολή ، جامعة
أثينا، ومكتبة المتحف البيزنطي بأثينا، والمكتبة المركزية لجامعة القاهرة، ومكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومكتبة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة
JFAO، ومكتبة المعرض الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة. أخيراً أتقدم
بخالص الخُصْر والتقدِير ؟إلى كل من مد إلي يد المساعدة سواء بالقول أو بالفعل
ولو يصح المقام هنا لشُكره.

قائمة المختصرات

قائمة المختصرات

<i>AEM</i>	<i>Archivum Eurasie Medii Aevi</i> .
Ahrweiler, <i>Les relations</i>	H. Ahrweiler, "Les relations entre les Byzantins et les Russes au IX ^e siècle", dans : <i>Bulletin d'Information et de Coordination de l'Association International des Etudes Byzantines</i> , 5(Athens, Paris, 1971), pp. 44-73.
<i>AIK</i>	<i>Annales de l'Institut Kondakov</i> .
Anastasijevic, <i>Tzimis-</i> <i>cès</i>	D. Anastasijevic, "Les indications chronologiques de Yahya relatives à la guerre de Tzimisès contre les Russes", <i>Melanges Charles Diehl</i> , 1, tome (Paris, 1930), pp. 1-5.
Angold, <i>Byz. Empire</i>	M. Angold, <i>The Byzantine Empire 1025-1204</i> , (London and New York, 1984).
' <i>Αρχ. Πον.</i>	' <i>Αρχαίων Ποντίου</i> .
Attaleiates	M. Attaliothae, <i>Historia</i> , ed. I. Bekker, <i>CSHB</i> , (Bonnae, 1853).
<i>B</i>	<i>Byzantion, 1924ff.</i>
<i>BACBelg</i>	<i>Bulletin de la Classe des Lettres de l'Académie Royal de Belgique</i> .
Bănescu, <i>Deux études</i>	N. Bănescu, "Deux études byzantines. II La première attaque russe de Constantinople", <i>REB</i> , 6(1948), pp. 191-198.
Baumgarten, <i>Chronologie</i>	N. Baumgarten, "Chronologie ecclésiastique des terres russes, du X ^e au XIII ^e siècles", <i>OC</i> , 17(Roma, 1930), pp. 1-?
Baumgarten, <i>Généologies</i>	N. Baumgarten, "Généologies et mariages occidentaux des Rurikides Russes du X ^e au XIII ^e siècles", <i>OC</i> , IX, 35(1927), pp. 1-94.
Baumgarten, <i>Olaf Tryggwison</i>	N. Baumgarten, "Olaf Tryggwison roi de Norvege et ses relation avec Saint Vladimir de Russie", <i>OC</i> , 24(1931), pp. 3-35.
Baumgarten, <i>Saint Vladimir</i>	N. Baumgarten, "Saint Vladimir et la conversion de la Russie", <i>OC</i> , 27(1932), pp. 3-136.
Benedikz, <i>Varangian</i>	B. Benedikz, "The Evolution of the Varangi-an Regiment in the Byzantine Army", <i>BZ</i> , 62(1969), pp. 20-24.

ByzF	<i>Byzantinische Forschungen</i> .
BICAIEB	<i>Bulletin d'Information et de Coordination de l'Association International des Études Byzantines</i> .
BLSMPARB	<i>Bulletin des Lettres et des Sciences Morales et Politiques de l'Académie Royal de Belgique</i> .
BMGS	<i>Byzantine and Modern Greek Studies</i> , (Oxford, 1975-1983, Birmingham, 1984ff.).
BNJbb	<i>Byzantinische-Neugriechische Jahrbücher</i>
Browning, Bulgaria	R. Browning, <i>Byzantium and Bulgaria</i> , (London, 1975).
BsL	<i>Byzantinoslavica</i> , (Prague, 1929ff.).
Bury, Adm. Sys.	J. B. Bury, <i>The Imperial Administrative System in the Ninth Century</i> , (London, 1911).
Byzantina-Meta	<i>Byzantina-Meta Byzantina</i> , (New York, 1949 ff.).
Byzantina	
BZ	<i>Byzantinische Zeitschrift</i> , (Leipzig, München, 1892 ff.).
Cedrenus	G. Cedrenus, <i>Historiarum Compendium</i> , ed.I. Bekker, CSHB, vol.II., (Bonnae, 1838).
CFHB	<i>Corpus Fontium Historiae Byzantinae</i> , (Washington, 1967 ff.).
Chadwick, Russian History	W. Chadwick, <i>The Beginning of Russian History</i> , (Cambridge, 1946, reprinted 1966).
Chron. Novgorod	<i>The Chronicle of Novgorod 1016-1471</i> , Eng. trans. R. Michell & N. Forbes, with an Introduction by C. R. Beazley and an Account of the text by A. A. Shakhmatov, (London, 1914).
CMRS	<i>Cahiers du Monde Russe et Soviétique</i> , (Paris).
Const.Porph., DeCerimoniis	Constantine Porphyrogenitus, <i>De Cerimoniis Aulæ Byzantinae</i> , ed. I. Reiskii, CSHB, tome I, (Bonnae, 1829).
Court, La Russie	A. Court, "La Russie à Constantinople", <i>RQH</i> , 1 (Paris, 1876), pp. 69-129.
Cross, Churches of Kiev	S. Cross, "The Earliest Medieval Churches of Kiev", <i>SP</i> , 11 (1936), pp. 477-499.
Cross, Contacts	S. Cross, "Medieval Russian Contacts with the West", <i>SP</i> , 10(1935), pp. 137-144.
CSHB	<i>Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae</i> , (Bonnae, 1828-1897).

- DAI, I; II. Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. by R. J. H. Jenkins, (Budapest, 1949); vol. II, *Commentary*, by F. Dvornik, R. Jenkins, B. Lewis, G. Moravcsik, D. Obolensky & S. Runciman, ed. R. J. H. Jenkins, (London, 1962).
- Dimnik, Chernigov M. Dimnik, *The Dynasty of Chernigov 1054-1146*, (Toronto, 1994).
- Diaconu, Petchénèges P. Diaconu, *Les Petchénèges au Bas-Danube*, (Bucharest, 1970).
- DOP *Dumbarton Oaks Papers*, (Cambridge, Mass., 1941 ff.).
- ÉO *Échos d'Orient, Revue d'histoire, de géographie et de liturgie orientales*, (Paris, Bucharest, 1897-1942).
- Fennell, Russian Church J. Fennell, *A History of the Russian Church to 1448 A D*, (London, 1995).
- Fine, Balkans J. V. Fine, *The Early Medieval Balkans*, (Michigan, 1993).
- Finlay Greece G. Finlay, *A History of Greece*, vol. II, (Oxford, 1877).
- Finlay, Byz. Empire G. Finlay, *History of the Byzantine Empire 716-1057 AD*, (New, York, 1913).
- Franklin & Shepard, Rus' S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of Rus' 750-1200*, (London, New York, 1996).
- Frye, Remarks R. Frye, " Remarks on Some New Islamic Sources of the Rus ", *B*, 18 (1944-1948), pp.119-125.
- Frye, Sasanian Trade R. Frye, " Byzantine and Sasanian Trade Relations with North Eastern Russia ", *DOP*, 26 (1972), pp.263-269.
- Gerard, Bulgares C. Gerard, *Les Bulgares de la Volga et les Slaves du Danube*, (Paris, 1939).
- Glycas *Michaelis Glycas Annalium*, in: *Opera Omnia*, ed. J. P. Migne, PG, tome. 158, (Turnholt, 1966).
- Göllner, Jean Tzimis- cès C. Göllner, " Les expéditions byzantine contre les Russe sous Jean Tzimisès (970-971)",

- Grégoire, Der. campaigne* *RHSEE*, 13(1936), pp. 342-358.
H. Grégoire, "La dernière campagne de Jean Tzimiskès contre les Russes", *B*, 12(1936), pp. 167-176.
- Hudud al-'Alam* *Hudud al-'Alam* (372 A.H./983 AD), Eng. trans. V. Minorsky, (Oxford, 1937).
- Ibn Isfandiyar, Tabaristan* *Ibn Isfandiyar, Tarikhe Tabaristan*, Eng. trans. E.G. Browne, (London, 1905).
- Jenkins, Byzantium* R. Jenkins, *Byzantium the Imperial Centuries 610-1071 AD*, (London, 1966).
- Jenkins, Russian attack* R. Jenkins, "The Supposed Russian attack on Constantinople in 907", *SP*, 24(1949), pp. 403-406.
- JOB* *Jahrbuch der Österreichischen Byzantinistik*, 18- Wien, (Köln, Graze, 1969 ff.).
- Karamsin, Histoire* M. Karamsin, *Histoire de l'empire de Russie*, trad. Fra. S. Thomas et Jauffret, tome I, (Paris, 1819).
- Le Clerc, la Russie* Le Clerc, *Histoire physique, morale, civile et politique de la Russie ancienne*, tome I, (Paris, 1783).
- Le traité de Philothée* *Le traité de Philothée*, éd. and trad. Fran.. N.Oikonomidès, dans: *Les listes des préséance byzantines des IX^e -X^e siècles*, (Paris, 1972).
- Leo Diaconus* Leonis Diaconi Caloensis *Historiae Liberi Decem et Liber de Vilitatione Bellica Nicephori Augusti*, ed.C.B.Hase, *CSHB*, (Bonnae, 1828), pp.3-178.
- Macarteny, Petchenegs* C. Macarteny, "The Petchenegs", *SEER*, 8(1928), pp. 342-355.
- Mcgeer, Sowing* E. Mcgeer, *Sowing the Dragon's Teeth*, (Washington, 1995).
- Mcgovern, Sarkel* M. McGovern, "Sarkel a reflection of Byzantine Power or Weakness?", *BsL*, 50(1989), pp. 177-180.
- Minorsky, Commentary* V. Minorsky, *Commentary on the book of Hudud al-'Alam*, in: *Hudud al-'Alam*, pt., (Oxford, 1937).
- Minorsky, Studies* V. Minorsky, *Studies in the Caucasian History*, (London, 1953), with a chapter on *al-Shadādia*.

- Moravcsik, *Magyars* G. Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*. (Amsterdam, 1970).
- Mošin, *Khazares* V. Mošin, "Les Khazares et les Byzantins", *B*, 6(1931), pp. 309-325.
- Nicholas I Nicholas I, Patriarch of Constantinople, *Letters*, ed. and Eng. trans. R. Jenkins and L. G. Westerink, *CFHB*, vol.4, (Washington, 1973).
- Nicole, *BDDE* D. Nicole, *A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire*, (London, 1991).
- Noonan, *Byzantium* T. Noonan, "Byzantium and the Khazars: a Special Relationship?", in: *Byzantine Diplomacy Papers from the Twenty Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990*, ed. J. Shepard and S. Franklin, (Hampshire, 1992), pp. 109-132.
- Obolnsky, *Byzantine Sources* D. Obolnsky, "The Byzantine Sources on the Scandinavians in Eastern Europe", in: *Varangian Problems. Scando Slavica, supplementum 1.*, (Copenhagen, 1970), pp. 149-164.
- Obolnsky, *Cherson* D. Obolnsky, "Cherson and the Conversion of Rus': an anti-revisionist view", *BMGS*, 13(1989), pp. 244-256.
- Obolnsky, *Crimea* D. Obolnsky, "The Crimea and the North before 1204", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978*, ed. A. Bryer, ' *Apχ. ΠΙΟν*, 35(1978), pp.123-133.
- OC *Orientalia Christiana*, (Rome, 1924 ff).
- OCP *Orientalia Christiana Periodica*, (Rome, 1935 ff.).
- ODB *Oxford Dictionary of Byzantium*, (Oxford, New York, 1999), 3 Vols.
- Oikonomidès, *Les listes* N. Oikonomidès, *Les listes des préséance byzantines des IX^e et X^e siècles*, (Paris, 1972).
- Oikonomidès, *Presth-lavitza* N. Oikonomidès, "Presthavitza, the little Preslav", *Sudost-Forschungen*, 42(1983), pp. 1-10. Reprinted also in: *Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade*, (Hampshire, 1992).

OSP	<i>Oxford Slavonic Papers</i> , (Oxford).
Ostrogorsky, <i>Byz. State</i>	G. Ostrogorsky, <i>History of the Byzantine State</i> , (Oxford, 1956).
Pares, <i>Russia</i>	B. Pares, <i>A History of Russia</i> , (New York, 1947).
Pargoire, <i>Saint Mamas</i>	R. Pargoire, "Saint – Mamas le quartier des Russes à Constantinople ", <i>EO</i> , 11(1908), pp. 203-210.
PG	<i>Patrologia cursus completus, series Graeco-Latina</i> , ed. J. P. Migne, (Paris, 1857-1866, 1880-1903, reprinted in Turnhout), 161 vols.
PO	<i>Patrologia Orientalis</i> , ed. R. Graffin et F. Nau, (Paris, 1904 ff.).
Poppe, <i>The political background</i>	A. Poppe, " The Political Background to the Baptism of Rus', Byzantine - Russian Relations between 986-89 ", <i>DOP</i> , 30(1976), pp.195 -244.
Pritsak, <i>Pecenegs</i>	O. Pritsak, " The Pecenegs, a Case of Social and Economic Transformation", <i>AEM</i> , 1(1975), pp. 211-235.
Psellus	M. Psellus, <i>Chronographia</i> , Eng. trans E. R. Sewter, (Penguin Books, 1966).
Ramnaud, <i>la Russie</i>	A. Ramnaud, <i>Histoire de la Russie</i> , (Paris, 1878).
RÉB	<i>Revue des Études Byzantines</i> , (Paris, 1944 ff.)
RHSEE	<i>Revue Historique du Sud-Est Européen</i> , (Bucharest, 1963 ff.).
R.P.C.	<i>The Russian Primary Chronicle</i> , Laurentian text Eng. trans. & ed. by S. H. Cross O. P. Sherbawitz-Wetzor, (Cambridge, Mass., 1953).
RQH	<i>Revue des Questions Historiques</i> , (Paris, 1876 ff.).
Runciman, <i>Bulgarian Empire</i>	S. Runciman, <i>A History of the First Bulgarian Empire</i> , (London, 1930).
Runciman, <i>Romanus Lecapenus</i>	S. Runciman, <i>The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign</i> , (Cambridge, 1963).
Rybakov, <i>Russian History</i>	B. Rybakov, <i>The Early Centuries of Russian History</i> , Eng. trans. J. Weir, (Moscow, 1965).
Schlumberger, <i>L'épopée</i>	G. Schlumberger, <i>L' épopée byzantine à la fin du dixième siècle</i> , Jean Tzimiskès, (Paris, 1896).
Schlumberger, <i>Russes</i>	G. Schlumberger, " Russes et Byzantins dans les

- Schlumberger, *Russes et des Croisades*, (Paris, 1917), pp.22-33.
Slavonic and East European Review.
- SEER J. Shepard, "The Khazars' Formal Adoption of
 Shepard, *Khazars* Judaism and Byzantium's Northern Policy".
OSP, 31(1998), pp. 11-34.
 J. Shepard, " Why did the Russians attack
 Byzantium in 1043? ", *BNJbb*, 22(1979), pp.
 Shepard, *Russians attack* 147-212.
 J. Shepard, " The Russian Steppe-Frontier and
 the Black Sea Zone", in: *The Twelfth Spring
 Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine
 Shepard, Steppe Frontier* Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer,
 'Apχ. Πόλν., 35(1978), pp.218-237.
Seminarium Kondakovianum
- SK J. Smedley, " Archaeology and the History of
 Smedley, *Archaeology* Cherson: A Survey of Some Results and
 Problems", in: *The Twelfth Spring Symposium of
 Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-
 20 March 1978*, ed. A. Bryer, 'Apχ. Πόλν.,
 35(1978), pp. 123-133.
- Soloviev, *Domination* A. Soloviev, " Domination byzantine ou russe
 au nord de la mer à l'époque des Comnènes?"
*Akten des XI Internationalen Byzantinisten
 Kongresses, 1958*, (Munich, 1960), pp. 569-
 580.
- Soloviev, *l'état russe* A. Soloviev, " L' organisation de l'état russe au
 X^e siècle ", *L' Europe aux IX^e-XI^e siècles*,
 (Varsovie, 1968), pp. 249- 268. Reprinted also
 in: *Byzance et la formation de l'état Russe*,
 (London, 1979).
- Sorlin, *Les traités* I. Sorlin, " Les traités de Byzance avec la
 Russie au X^e siècle ", *CMRS*, vol. II-3, (Paris,
 1961), pp. 313-360.
- Sorlin, I., *Le traité de 944* I. Sorlin, " Les traités de Byzance avec la Russie
 au X^e siècle: le traité de 944 ", *CMRS*, vol.-4,
 (Paris, 1961), pp. 447-475.
Speculum.
- SP Symeon Magister ac Logothetae, *Chronogr-
 aphia*, ed.I.Bekker, in: *Theophanes Continuatus*,

- aphia*, ed. I. Bekker, in: *Theophanes Continuatus*, CSHB, (Bonnae, 1838).
- Vasiliev, *Old Russia* A. Vasiliev, " Was Old Russia a Vassal State of Byzantium? ", *SP*, 7(1932), pp. 350-360.
- Vernadsky, *Crimea* G. Vernadsky, " The Rus' in the Crimea and the Russo – Byzantine Treaty of 945 ", *Byzantina-Meta Byzantina*, 1(1949), pp. 249-260.
- Vernadsky, *Kievan Russia* G. Vernadsky, *Kievan Russia*, (New Haven, 1948).
- Vernadsky, *Russia* G. Vernadsky, *The Origins of Russia*, (Oxford, 1959).
- Whittow, *Byzantium* M. Whittow, *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (London, 1996).
- Yahya d'Antioche* Yahya Ibn Sa'id d'Antioche, *Histoire de Yahya d' Antioche*, éd. et trad. J. Kratchkovsky et A. Vasiliev, *PO*, XVIII (Paris, 1924).
- Zonaras* Ioannis Zonaras, *Epitomae Historiarum*, vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, CSHB, (Bonnae, 1897).

مقدمة

لقد قدم المؤرخون الروس المحدثون الكثير من الدراسات التاريخية التي تعنى بتاريخ روسيا في العصور الوسطى. وهؤلاء المؤرخون يمكن تقسيمهم إلى فئتين ، أولهما تعود إلى ما قبل قيام الاتحاد السوفيتي، والثانية تعود إلى ما بعد قيامه . وقد ارتبطت كتابات الكثيرين منهم بالنزعة السياسية للروس في العصور الحديث، الأمر الذي يجعل المؤرخ غير الروسي يتوخى الحذر عند قراءة كتاباتهم عن تاريخ بلادهم. وتلمع في المدرسة التاريخية الروسية، التي قدمت دراسات كثيرة تميزت تارة بالسمو وأخرى بالانحدار، أسماء بعض المؤرخين أمثال شخماتوف Shakhmatov (+)، فيرنادسكي Vernadsky (+)، سولوفيف Soloviev (+)، ريباكوف Rybakov (+)، أوستروجورسكي Ostrogorsky (+)؛ وجميعهم اهتموا بالتاريخ الروسي الوسيط.

ولم يقف المؤرخون الأوروبيون الحديثون ساكنين أمام تكون الاتحاد السوفيتي بل نشطت حركة التاريخ للأمة الروسية في أوروبا، لاسيما عشية الحرب العالمية الثانية. وقد برزت العديد من الأسماء الأوروبية في هذا المجال من أشهرها العالم الإنجليزي ديمتري بولنسكي D.Obolensky، أستاذ كرسي التاريخ الروسي بجامعة اكسفورد، وجوناثان شبرد J.Shepard، أستاذ التاريخ الروسي بجامعة كامبردج، والمؤرخة الفرنسية هيلين أرفيلر H.Arweiler، وإيرين سورلان I.Sorlin، والمؤرخ البلجيكي هنري جريجوار H.Grégoire (+)، والمؤرخ البولندي أندريه بوب A.Poppe؛ وجميعهم قدموا دراسات غاية في الأهمية ، عالجت نواح عديدة في التاريخ الروسي الوسيط.

وبعد..... قد يقف المرء مكتوف الأيدي معقود اللسان لا يستطيع أن يخطو إلى الأمام على الدرب الذي سار عليه هؤلاء المؤرخون السابقون. ولكن ما أن يضع المرء قدميه على ذلك الدرب حتى يجد نفسه محاصراً بالضروريات التي تفرض نفسها

عليه، ليتمكن من محاولة السير إلى جوار هؤلاء المؤرخين وإحراز شيء من النجاح. ويكفى أن نشير إلى أن واحدة من هذه الضروريات هي اللغة! وقد فطن أساتنتي إلى هذا، فشجعتني الأستاذ الدكتور/ رأفت عبد الحميد على إتمام دراستي بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية، وكذلك على دراسة اللغة الفرنسية؛ كما شجعتني الأستاذ الدكتور/ جوناثان شبرد، وبإصرار منه، على تعلم اللغة الروسية. والحق أنه لولا بعد نظر هذين العالمين لما تمكن الباحث من السير على هذا الدرب واختيار هذا الموضوع وإتمامه على هذا النحو.

وقد أثرت أن أتناول بالدراسة هذه الفترة من تاريخ الروس بالذات لما تشكل من أهمية قصوى في تاريخ روسيا القديمة، أو روسيا الكييفية كما يسميها البعض، ولإزالة الغموض الذي يكتنفها أمام القارئ العربي. كما أن هذه الفترة مليئة بالإشكاليات التاريخية المعقدة، التي ربما أكون قد أضفت شيئاً يستحق القراءة حولها، بعد توفير الأستاذ الدكتور/ جوناثان شبرد لي فرصة الاتصال ببعض الأساتذة الأوربيين العلمين في هذا المجال والتشاور معهم بشأنها.

والفترة محل البحث ٩٤٥-١٠٥٤م تبدأ بعهد الأميرة الروسية لولجا Olga، الذي يعكس شكلاً جديداً من أشكال الفكر السياسي الروسي. فقد كانت هذه الأميرة وصية على العرش حتى يشب ابنها Sviatoslav عن الطوق، وهي المرأة الوحيدة التي حكمت الروس حتى الغزو المغولي لبلادهم في القرن الثالث عشر، كما أنها تخلت عن سياسة أسلافها العدوانية تجاه الإمبراطورية البيزنطية، بل ذهبت إلى أكثر من هذا وقامت بزيارة القسطنطينية في عام ٩٥٧م. ويمكن أن نضيف إلى هذا أنها أول حكام الروس الذين اعتنقوا المسيحية، على المذهب الأرثوذكسي، أثناء زيارتها إلى القسطنطينية. كل هذا كان حافزاً للباحث لأن يبدأ هذه الدراسة بعهد الأميرة لولجا.

والآن وقد شب الأمير سفياتوسلاف عن الطوق، وصار مؤهلاً لأن يبدأ في ممارسة سلطته بحرية في البلاد. فجعل هذا الأمير من سياسة أجداده نبراساً يهتدى به في سياسته الخارجية، بل والداخلية أيضاً. فناصر قوى الفولجا العداء وزحف بقواته صوب شبه جزيرة القرم مهدداً الوجود البيزنطي هناك؛ الأمر الذي دفع بالإمبراطور

نقفور فوقاس(٩٦٣-٩٦٩م) إلى أن يجذبه نحو جبهة جديدة ليصرف فيها قواه العسكرية. وبحكم الظروف العصيبة التي كانت تمر بها بيزنطة في ذلك الوقت داخلياً وخارجياً طلب الإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس من سفاتوسلاف أن يعينه على إيقاف التقدم البلغاري في البلقان وزحفهم صوب القسطنطينية. وقد استجاب الأمير الروسي على الفور وتقدم صوب الأراضي البلغارية حتى وصل إلى العاصمة البلغارية، فمات القيصر البلغاري بسكتة قلبية على أثر سقوط بلاده في أيدي الروس. وبعد أن وطأت أقدام الروس أرض البلقان ولمسوا بأنفسهم ثراء وخصوبة هذه البلاد وتميزها الاقتصادي تناسوا تحالفهم مع إمبراطور بيزنطة، وقرروا البقاء فيها وعزم الأمير الروسي على اتخاذ برياسلاف عاصمة لبلاده، سواء رضى الإمبراطور أم أبى. واندلعت الحرب بين الطرفين لتستمر سنوات طويلة بينهما وتسفر في نهاية المطاف عن هزيمة الروس واستدبابهم من البلقان. وقد انتهت هذه العلاقة العدائية بين الطرفين بمصرع سفاتوسلاف على أيدي البشناق فى عام ٩٧٢ م، بتدبير بيزنطى بحت.

وعندما تولى الأمير الروسي فلاديمير I Vladimir الحكم، بعد حرب أهلية عنيفة، أشاح بوجهه عن بيزنطة واتجه بسياسته الخارجية نحو أوروبا ولم يلجأ إلى غزو الأراضي البيزنطية إلا بعد أن خنت الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥ م) بوعده له بتزويجه من الأميرة أنا بورفيروجينا Anna Porphyrognita مقابل تزويده بقوات عسكرية.

ويبدو أن هذه المرحلة من تاريخ الروس فى العصور الوسطى قد حملت سمات معينة فرضت نفسها على الروس. فوفاة الأمير الروسي فلاديمير صارت روسيا الوسطى مسيحية الجسد إلى حد كبير، أما القلب فلازال يحاول التخلص من وثنيته. فالحروب الأهلية التي كانت تشعل بين الأمراء الروس من حين إلى آخر، والتي كانت تقضى على البنية الحضارية للدولة كلما نمت، لم تكن سوى امتداد لطابع وثنى تأصل فى الروس منذ نشأتهم يجعل من الحسام قاضياً نافذ القول بينهم، ولم تفلح المسيحية فى انتزاع هذا الطابع منهم أو تبديله بآخر، على الرغم من تشريعات فلاديمير المسيحية وجهود ابنه ياروسلاف Yaroslav فى هذا المجال.

وجاء ياروسلاف، الملقب بالحكيم، ليجعل من بلاده دولة تخطب ودها الدول والممالك المجاورة؛ فقد نبذ الحرب واتجه إلى البناء والتعمير، كما أحدث نهضة تعليمية

بالبلاذ، بالإضافة إلى أنه ألقي بقتله السياسى نحو الغرب الأوروبى. أما عن بيزنطة فلم يعيرها ياروسلاف اهتماماً اللهم فى عام ١٠٤٣ م حيث شن ابنه فلاديمير، حاكم نوفجورود Novgorod، هجوماً عليها كانت نتيجته فى صالح بيزنطة. وقد عقدت معاهدة بين الطرفين فى عام ١٠٤٦م لا نعرف شيئاً من بنودها سوى زواج الأميرة ماري ابنة الإمبراطور قسطنطين مونوماخوس (١٠٤٢-١٠٥٤م) من فيسولود Vsevolod ابن الأمير الروسى ياروسلاف. ونظراً لأن عهد الأمير الروسى ياروسلاف كان متميزاً فى السياسة الخارجية والداخلية ولم تشهد بلاد الروس نظيراً له بعد ذلك فقد أثر الباحث أن يجعل ختام بحثه بعهد ذلك الأمير.

هذا وقد تم تقسيم البحث إلى ثلاثة أبواب تسبقهم دراسة لأهم مصادر البحث وتمهيد له، ويعقبها الخاتمة والخرواط وقائمة المصادر والمراجع. وقد جعلت الباب الأول يتحدث عن "الروس والإمبراطورية البيزنطية" وجاءت فصوله الداخلية لتمكن لنا التحول فى السياسة الخارجية الروسية ما بين بيزنطة والقوى الأخرى. أما الباب الثانى فيتحدث عن "الروس والقوى الشرقية" وقد احتوى هذا الباب على فصلين الأول منهما يتحدث عن سياسة الروس تجاه المسلمين فى بلاد القوقاز والثانى عن سياسة الروس تجاه البشناق والخزر والبرطاس والبلغار. أما الباب الثالث فيتحدث عن "الروس والتجارة الدولية" وقد احتوى على فصلين أولهما يتحدث عن العلاقات التجارية بين الروس وبيزنطة والثانى يتحدث عن العلاقات التجارية بين الروس من ناحية والخزر والبرطاس والبلغار من ناحية أخرى. وتتبعى الإشارة إلى أن الباحث واجهته العديد من الصعاب طوال فترة إعداد البحث كان من أهمها ندرة المادة العلمية الخاصة به فى المكتبات المصرية، الأمر الذى حدا بالباحث إلى قبول دعوة جامعة أثينا باليونان لزيارتها فى عام ١٩٩٧ م. وقد كان لهذه الرحلة العلمية أكبر الأثر فى إثراء ذهن الباحث وإطلاعه على أحدث المراجع المتخصصة فى التاريخ البيزنطى وتجميع مادة هذا البحث العلمية. وتتبعى هذا الإشارة إلى جهود بعض الأصدقاء المخلصين الذين ساعدونى فى إتمام مادة هذا البحث من إيطاليا والمملكة المتحدة. وفى النهاية يشرفنى أن أكرر شكرى وتقديرى وعظيم امتناني إلى أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور/ رأفت عبد الحميد لما بذله معى من مجهودات ونصائح طوال فترة إعداد هذا البحث ، والذي لولا خبرته الطويلة وصبره العميق لما خرج البحث بهذا الشكل. كما أكرر شكرى إلى الأستاذ الدكتور جوناثان شبرد على مجهوداته الكبيرة ومساعداته الدائمة لإنجاز

هذا البحث على هذا النحو. جزاهما الله على خيراً. ولا يفوتني أن أقدم بخاصة الشكر والتقدير للأستاذ الدكتور/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، والأستاذ الدكتور/ اسحق عبيد على ملاحظتهما القيمة على هذا البحث ، والتي أفدت منها كثيراً. كما أقدم بخاصة الشكر والتقدير إلى كل من مد لي يد المساعدة ولم يسهل المقام هنا لذكره. أخيراً أسأل الله العليّ العظيم أن أكون قد وفقت في إنجاز هذا البحث على أكمل وجه فإن أصبت فمن الله وإن أخفقت فمن نفسي.

عرض وتقديم لأهم مصادر البحث التاريخية

تستهدف هذه الصفحات تقديم رؤية عامة عن أهم المصادر التاريخية التي استخدمت في إجراء هذا البحث ، وليس عرضاً لكل مصادره أو مراجعه . والهدف الرئيسي من هذا العرض هو أن نوضح للقارئ عامة ماذا قدمت هذه المصادر من مادة تاريخية كفلت لهذا البحث الخروج إلى النور ؛ مع ضرورة توضيح أننا لسنا بصدد إعداد دراسة تحليلية نقدية لهذه المصادر ، وهو الأمر الذي قد يحتاج لبضعة سنين من البحث والدراسة ، الأمر الذي يتنافى مع الهدف من البحث .

لقد تم الاعتماد في هذا البحث على عدة مجموعات من المصادر التاريخية ، ثلاثاً منها تقف على قدم المساواة من حيث الأهمية ، وهي مجموعة المصادر البيزنطية ، مجموعة المصادر الروسية ، مجموعة المصادر العربية . ثم تأتي بعد ذلك بعض المصادر الفارسية والمصادر اللاتينية .

أولاً : المصادر البيزنطية :

١. ليو الشماس *Leo Diaconus* ، ولد قرب عام ٩٥٠م في كالوي *Kaloe* في آسيا الصغرى ، وقد درس في القسطنطينية حتى أصبح شاباً ، والتحق بالخدمة الكنسية عند اعتلاء الإمبراطور باسيل الثاني *Basil II* ٩٧٦-١٠٢٥م الحكم؛ وقد صاحب الإمبراطور باسيل الثاني في حربه ضد البلغار في عام ٩٨٦م ، وسرعان ما أصبح ليو شماساً في القصر الإمبراطوري في عهد ذلك الإمبراطور . وقد ترك لنا كتاباً أسماه التاريخ ، ويشمل الأحداث التي وقعت في الفترة من عام ٩٥٩-٩٧٦م ، وهذا الكتاب يقع في عشرة فصول أو عشرة كتب على حد تسمية ليو الشماس نفسه ، مكتوبة باللغة اليونانية البيزنطية . والشيء الذي يتميز به كتاب ليو الشماس أنه كان شاهد عيان في معظم ما كتبه . لذا جاءت روايته ، وإن كانت من وجهة نظره ، دقيقة إلى حد كبير . وقد تحدث في كتابه عن الأحداث التي وقعت في عهد أسلاف باسيل الثاني ، أي الإمبراطورين نفقورفوكاس *Nicephor Phocas* ٩٦٢-٩٦٩م ويوحنا تزيمنسكس *Jean Tzimiskes* ٩٦٩-٩٧٦م ، وعن حروبهما ضد مسلمي كريت ، ومسلمي آسيا الصغرى ، وضد البلغار والروس في أوروبا^(١) . وقد ألقى

^(١) Nicole, D., *A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire*, (London, 1991), p. 75; Kazhdan, A., "Leo the Deacon", *ODB*, vol. 2, (New York, Oxford, 1991), p. 1217

ليو الشمس الضوء على حروب الإمبراطور نقفور فوكاس ويوحنا تريميسكس ضد الأمير الروس سفياتوسلاف Svyatoslav في منطقة البلقان . ويعتبر ليو الشمس هو المصدر الرئيسي لهذه الأحداث، لذلك كان مصدره من المصادر البيزنطية الرئيسية عند حديثنا عن التوسع الروس الخارجى في منطقة البلقان ، فى عهد سفياتوسلاف ، على حساب الوجود البيزنطى هناك، ولا نبالغ إذا قلنا إن تاريخ ليو الشمس كان المصدر الوحيد المعاصر لهذه الأحداث .

٢. جورج كدريونوس G. Cedrenus : يعتبر من مؤرخى القرن الثانى عشر الميلادى. ولا توجد لدينا معلومات عن حياته وسيرته الذاتية . وقد ترك لنا مدونة تاريخية بعنوان التاريخ الشامل Synopsis Historion ويبدأ فيه التاريخ منذ بدء الخليقة وحتى عام ١٠٥٧م، وهو عبارة عن مقتطفات تاريخية استقاها من المدعو سيمون الماجستير Symeon Mag. ومن ثيوفانيس Theophanes ومن جورج هامارتولوس George Hamartolos . وبدءاً من عام ٨١١م فصاعداً يتبع بحرفية يوحنا سكيلتزس John Skylitzes^(١) . وقد ألقى كدريونوس الضوء على العلاقات الروسية - البيزنطية طوال فترة البحث ، فكان اعتمادنا عليه رئيسياً فى معظم فصول الدراسة ، لاسيما الفصلين الثانى والثالث من الباب الأول . وعلى الرغم من انه نقل حرفياً عن يوحنا سكيلتزس إلا أننا أدرجناه فى هوامش البحث تحت اسم Cedrenus فقط ، لأنه تعذر علينا الحصول على الجزء الخاص بسكيلتزس ، الذى طبع حديثاً مستقلاً عنه. ولا غرو، فسند بعض المؤرخين المحدثين يستخدمون Scylitzes فى كتاباتهم بينما نستخدم Cedrenus عند الكتابة ، وكلاهما يشير إلى كتاب واحد .

٣. يوحنا زوناراس I. Zonaras : يعتبر مؤرخاً للقرن الثانى عشر أيضاً . ولا توجد معلومات غزيرة عن سيرته الذاتية . وقد ترك لنا مؤلفاً أطلق عليه اسم 'مختصر التواريخ' Epitomae Historiarum ويقع فى عدة أجزاء . ويبدأ تاريخه منذ بدء الخليقة وحتى اعتلاء الإمبراطور يوحنا كومنينوس Jean Comnenus العرش علم ١١١٨م . وعلى الرغم من أن روايات زوناراس عن الأحداث التاريخية التى وقعت فى بيزنطة ليست تفصيلية ، إلا أنها تتميز بالدقة التاريخية ، لأن مدونها تميز بأنه استقى معظم معلوماته من السجلات الرسمية المحفوظة بالقصر ، من

Kazhdan, A., "Kedrenos", ODB, vol. 2, (1991), p. 1118.

(١)

حلال عمله كقائد للحرس الإمبراطوري^(٢) وقد أمدا روماناس بمعلومات دقيقة عن العلاقات الروسية - البيزنطية خلال فترة البحث . لاسيما الأحداث التي وقعت في البلقان على عهد الإمبراطور يوحنا تريميسكس والأمير الروس سفياتوسلاف ، وكذلك أشار إلى غزو فلاديمير Vladimir لخرسون Cherson وحملة الروس على بيزنطة في عام ١٠٤٣م في عهد ياروسلاف الحكيم Yaroslav . ويمكن القول أن زونارس نهج منهج كدريوس ، وتكاد تكون المعلومات الاثنتين متطابقة ، مما يشير إلى وحدة المصدر الذي استقيا منه معلوماتهما ، أو أن زونارس نقل عن كدريوس .

٤. قسطنطين بورفيروجينيوس Constantine Porphyrogenetus : قد يكون الحديث عن الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجينيوس، ٩١٩-٩٥٩م ، في هذا الموضوع في غير محله، فتاريخ وسيرة هذا الإمبراطور الذاتية معلومة جيدة لكل المؤرخين المحدثين ، لكن ما يهمنا هنا هو قسطنطين المؤلف والمؤرخ . لقد ترك لنا الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجينيوس عدة كتب تاريخية ذات مكانة تاريخية هامة بين كتب التاريخ البيزنطي وهي كتابه عن الإدارة الإمبراطورية *De Administrando Imperio* ، وكتابه عن المراسم *De Cerimoniis Aulae Byzantinae* ، وكتابه عن الثيمات *De Thematis* ، وكتابه عن حياة جده الإمبراطور باسيل الأول *Vita Basilii* ٨٦٧-٨٨٦م . ويمكن القول أنه لا يوجد مؤرخ من المؤرخين البيزنطيين ترك وراءه كل هذا الكم من الكتب ، المتنوعة الموضوعات ، والبالغة الأهمية بالنسبة للبلاط البيزنطي، ومن بين هذه المؤلفات التاريخية الهامة استفاد البحث باثنتين منهما، الأول: كتابه عن الإدارة الإمبراطورية، وثانيهما: كتابه عن المراسم .

ولنبدأ الحديث بالكتاب الثاني " عن مراسم البلاط البيزنطي" . وضع الإمبراطور قسطنطين السابع هذا الكتاب ليكون مرجعاً لأعضاء البلاط البيزنطي لقواعد البروتوكول التي ينبغي العمل بها؛ لكنه مع ذلك جاء كتاباً تاريخياً هاماً ومرجعاً رئيسياً عن الحياة الاجتماعية داخل القسطنطينية في القرن العاشر الميلادي . وهذا الكتاب يقع في جزأين ، كتباً باللغة اليونانية البيزنطية . ومخطوطة هذا الكتاب الأصلية محفوظة في مكتبة جامعة ليبزج Leipzig ، وتعود إلى القرن العاشر الميلادي . وقد

(٢) إيلي عبد الجواد ، الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل ، (القاهرة ، ١٩٨٥) ، ص ١٥

احتوى هذا الكتاب الراقى على عدة موضوعات متنوعة منها ما يتحدث عن المراسم الدينية، الاحتفالات في الهييودروم، التزيينات الرسمية، احتفالات التتويج، الجنائز، مراسم استقبال السفراء الأجانب وغير ذلك من الموضوعات الشيقة^(١). كذلك احتوى هذا الكتاب الشيق على موضوعات عسكرية لعل أهمها الفصلين ٤٥-٤٦ اللذين يتحدثان عن الحملة البيزنطية لاسترداد كريت من أيدي المسلمين، وفي هذين الفصلين يرد ذكر للمرتزقة الروس الذين عملوا في الجيش البيزنطي وللمرتبات التي كانوا يتقاضونها في الأسطول البيزنطي. وقد انفرد هذا الكتاب بذكر تفاصيل استقبال الإمبراطور قسطنطين بورفيروجينيتوس للأميرة الروسية أولجا Olga في علم ٩٥٧م، وقدم تفاصيل دقيقة لم ترد حتى في المصادر الروسية.

أما الكتاب الثاني لهذا الإمبراطور الذي استفاد منه الباحث بدرجة كبيرة عند الحديث عن سياسة بيزنطة تجاه شعوب منطقة السهوب، فكان كتابه عن الإدارة الإمبراطورية. لقد وضع هذا الكتاب الإمبراطور قسطنطين السابع إما بنفسه أو تحت إشرافه وكرسه لابنه رومانوس الثاني Romanos II، ٩٥٩-٩٦٢م. وقد وضع هذا الكتاب لكي يوضح لابنه كيفية التعامل مع الشعوب المجاورة، لهذا فهو يعتبر مرآة صادقة تمكس أسس الدبلوماسية البيزنطية في القرن العاشر الميلادي. ويتكون هذا الكتاب من أربعة محاور رئيسية، علاقة بيزنطة بالأمم والشعوب المجاورة، وكيفية تسخير هذه الشعوب لخدمة الأغراض البيزنطية، كتسليط البشناق على الروس مثلاً؛ وإغداق الهدايا الثمينة عليها لكسب ودها وتحقيق مآربها، وأخيراً وصف مواقعهم الجغرافية وعاداتهم والتغيرات التي طرأت على الإمبراطورية البيزنطية. وكتاب الإدارة الإمبراطورية يحوى مستويين من قاعدة البيانات، الأول عبارة عن أقسام مفيدة للغاية مأخوذة عن وثائق الأرشيف البيزنطي والثاني عن المبادئ التعليمية المتعلقة بوسائل الدبلوماسية في بيزنطة. على أنه ينبغي على المرء أن يفرق بين تاريخ وضع الكتاب (نحو عام ٩٥٠ تقريباً) وبين تاريخ النصوص الواردة به^(٢).

على أية حال، انفرد هذا الكتاب بروايات غاية في الأهمية عن الروس وسياسة بيزنطة تجاههم، وكيفية إيقاع بيزنطة بين شعوب السهوب، وضرب البشناق بالروس، والبلغار بالخزر وغيرهم من الشعوب القاطنة هناك. وتأتى رواية هذا الكتاب عن الطريق المائى العظيم الذى يسلكه الروس إلى القسطنطينية غاية في

^(١) McCormick, M., "De Ceremoniis", ODB, vol. 1, (1991), pp. 595-597.
^(٢) Kazhdan, A., "De Administrando Imperio", ODB, vol. 1, (1991), p. 593

الأهمية والدقة ، بل يمكننا القول أن هذا الكتاب انفرد دون بقية المصادر البيزنطية والروسية بذكر تفاصيل رحلة الروس من نوفجورود *Novgorod* إلى القسطنطينية مروراً بكييف *Kiev* ، ويمكن القول أن هذا الكتاب كان المرجع الرئيسى عند كتابة الفصل الأول من الباب الأول ، والفصل الثانى من الباب الثانى من البحث .

٥. ميخائيل بسللوس *M. Psellos* : لا يمكن للمرء أن يتحدث هنا عن بسللوس ويقدمه فى بضع كلمات سوى بأنه عالم وفيلسوف وسياسى ورجل من رجال الدولة البيزنطية . ولد ميخائيل بسللوس فى القسطنطينية فى عام ١٠١٨م وتوفى إما فى عام ١٠٧٨م أو ١٠٩٦م . وتلقى تعليمه هناك ، وسرعان ما أحرز شهرة كبيرة فى عهد الإمبراطور ميخائيل الخامس *Michael V* وقسطنطين التاسع *Constantine IX* ، الذى عينه فى عام ١٠٤٥م أستاذاً للفلسفة فى الجامعة الإمبراطورية . وعندما توفى هذا الإمبراطور انخرط بسللوس فى سلك الرهبانية، تحت اسم ميخائيل ؛ لكنه سرعان ما عاد للبلاط البيزنطى حيث عمل فى عدة وظائف ، فقد عمل سكرتيراً فى البلاط ، ومستشاراً ، ودبلوماسياً وفى بعض الأحيان صانع ملوك ، على حد قول المؤرخ الإنجليزي ديفيد نيكول *D.Nicole* . وقد ترك بسللوس وراءه العديد من المؤلفات الفلسفية والتاريخية ، يهنا منها كتابه المسمى *Chronographia* . فقد سرد فى هذا الكتاب الأحداث التى مرت بها بيزنطة على مدى أربعة عشر إمبراطوراً وإمبراطورة ، بدءاً من الإمبراطور باسيل الثانى فى ٩٧٦م وحتى اعتلاء نفقور الثالث العرش فى عام ١٠٧٨م ، وهذا الكتاب عبارة عن مذكرات شخصية أكثر منه سرداً تاريخياً^(١) . وتأتى أهمية هذا الكتاب من أن بسللوس قد شارك بنفسه فى صنع الكثير من أحداث هذه الفترة ، فقد كان على مقربة من القصر منذ حداثة سنه ، وعمل فى خدمة تسعة من الأباطرة الذين عاصروهم ابتداءً بميخائيل الخامس وحتى ميخائيل السابع *Michael VII* ، وترقى فى المناصب حتى أصبح الوزير الأول المسئول فى الإمبراطورية^(٢) . ولا ريب، فقد كان بسللوس أعظم متقضى عصره على الإطلاق ، والحارس الأمين على التقاليد القديمة ، وفى الوقت نفسه الضمين الأساسى لكل ما هو جديد فى الفكر ومبتكر ، وهكذا أضفى المسئول الرئيسى عن حركة التجديد والإحياء التى يمكن أن يكون أفضل وصف لها هو "حركة الإنسانيات" . ويضيف أحد المؤرخين المحدثين

(١) Nicole, *BDBF*, p. 109.

(٢) رأفت عبد الحميد ، *بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة* ، (القاهرة ، ١٩٩٧) ، ص ٢٥٨.

أيضاً أن بسلوس كان يتميز بدقة الملاحظة وقوة الذاكرة وحصافة الرأي وبلاغته الأسلوب وسعة الثقافة^(٨).

وقد أمدنا بسلوس بتفاصيل الهجوم الروس الأخير على القسطنطينية في عام ١٠٤٣م، ولا يضاهي روايته عن هذا الحدث سوى المؤرخ البيزنطي كدريوس .

٦. كتاب والي المدينة *Eparchion Biblion* : ألف هذا الكتاب الإمبراطور ليو السادس *Leo VI* ، ٨٨٦-٩١٢م ، وهو عبارة عن مجموعة من القوانين التي كان على والي المدينة تنفيذها بدقة شديدة . وكان غرض الإمبراطور البيزنطي من إصدار مثل هذه القوانين الإبقاء على كل مهنة تجارية أو حرفية في الإطار الدقيق لنشاطها فقط ، وتركيزها في موقع واحد حتى يكون ممن السهل على والي ومساعديه الإشراف عليها ومراقبتها لمنع العاملين فيها من الحصول على أرباح زائدة ، ولمنع تصدير سلع معينة فاخرة كالتياب والأقمشة الحريرية الأرجوانية إلى الخارج . وهذا الكتاب ، الذي يعرف باسم "كتاب والي المدينة" يبين حرص الحكومة البيزنطية على تقيد التجارة ، كما أنه يعطي صورة حية للحياة التجارية في القسطنطينية^(٩) . وقد كان هذا الكتاب خير معين لنا عند كتابة الفصل الأول من الباب الثالث ، والذي يتحدث عن العلاقات البيزنطية - الروسية التجارية . فقد زدنا بمادة وفيرة عن القوانين التي كانت مفروضة على تجارة الحرير والذهب والأسماك عند التعامل فيها مع التجار الأجانب .

هذا وقد استفاد الباحث من الكثير من المصادر البيزنطية الأخرى، إلا أنها استخدمت بدرجة ثانوية أثناء الكتابة، منها كتاب التاريخ لميخائيل أطالياتس *M. Attaleiates* ؛ وحولية إفراموس الراهب *Ephraemus* ؛ وكتاب جورج كودينوس *G. Codinus* عن المنشآت ؛ وقصائد يوحنا الجيومترى *J. Geometrus* في رثاء الإمبراطور نفقورفوقاس ؛ وقائمة فيلوثيوس الحاجب *Philothius* ؛ وحولية ليو النحوي *Leo Grammaticus* ؛ وحولية ميخائيل جليكاس *M. Glycas* ؛ وخطابات البطريرك نيقولا مستيكوس ؛ وحولية سيمون الماجستير واللغثيت *Symeon* ، وغيرها من المصادر الأخرى .

(٨) رافت عبد الحميد ، بيزنطة ، ص ٣٢٢ ، ولمزيد من التفاصيل حول بسلوس وعصره انظر، رافت عبد الحميد ، بيزنطة ، ص ٢٥٣-٣٢٢ .

(٩) وسام عبد العزيز فرج ، الدولة والتجارة في العصر البيزنطي الأوسط ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ٩ (١٩٨٧/١٩٨٨) ، ص ١٩ .

وتأتى المجموعة الثانية من المصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها هذه الدراسة بدرجة رئيسية ومساوية تماما للمجموعة الأولى ، المصادر البيزنطية ، ألا وهى المصادر الروسية .

ثانيا : المصادر الروسية :

١. حولية نمطور *Nestor* : ولد نمطور نحو عام ١٠٥٠م وتوفى فى مستهل القرن الثانى عشر الميلادى . وقد كان راهبا فى دير الكهوف *Caves Monastery* بمدينة كييف منذ بداية الربع الأخير من القرن الحادى عشر تقريبا وحتى مستهل القرن الثانى عشر الميلادى . كتب العديد من السير الذاتية والكتب الأخرى . فقد تركه وراءه كتابا عن سيرة القديسين بوريس *Boris* وجلب *Gleb*، ابنى فلاديمير ، اللذين قُلا على أيدي سفياتوبولك *Svyatopolk* ، نحو عام ١٠٨٠م ؛ وهذه الحولية كانت تعرف باسم "وقائع الأيام الخالية". وقد رسم نمطور من خلال كتبه صورة أدبية عن المواطنين الروس الأوائل باستخدامه تقنيات الكتابة البيزنطية التقليدية لسير القديسين، عندما يورد قصصاً معينة من كييف . وهو بهذا تأثر تأثيراً مباشراً بالهيجورافيا البيزنطية، والتي تظهر خصائصها فى كتاباته بصورة جلية^(١٠) .

وإذا ما تناولنا هذه الحولية بالدراسة ، علينا أن نشير إلى أن هذه الحولية فى نصها الحالى المترجم إلى اللغة الإنجليزية، يطلق عليها نص لورانس *Laurentian text* ؛ وذلك لأن هذه النسخة كانت قد نسخت فيما بين ١٤ يناير و ٢٠ مارس عام ١٣٧٧م على أيدي الراهب لورانس *Lawrence* للأمير ديمترى قسطنطينوفيتش من سوزدال *Dimitriy Konstantinovich of Suzdal*^(١١) . كما أن النسخة التى قام لورانس بنسخها فى القرن الرابع عشر الميلادى ، كانت نقلاً عن نسخة تم نسخها فى عام ١١١٦م . حيث وردت عبارة فى نهاية الحولية يقول فيها الناسخ " .. أنا سيلفستر *Sylvester* ، الراجى غفر ربه ، رئيس دير سان ميخائيل *St. Michaels* ، كتبت هذه الحولية فى عام ٦٦٢٤ (١١١٦م) ، الخمس عشرية التاسعة، أثناء حكم الأمير فلاديمير فى كييف وأثناء رئاستى لدير سان ميخائيل؛ فليذكرنى كل من يقرأ هذا الكتاب فى صلواته^(١٢) . وهذه الحولية يبدأ نمطور الحديث فيها عن البدايات الأولى لمجىء

^(١٠) Franklin, S., & Hollingsworth, P., "Nestor," *ODB*, (1991), p. 1459.

^(١١) *R.P.C.*, p.4.

^(١٢) *R.P.C.*, p.205.

الروس إلى البلاد والمناطق التي كانت تنص بالقبائل السلافية والفنلندية في القرن التاسع الميلادي ، وكيف خضعت للروس وصارت تحمل اسمهم ، ويتوقف في سرده التاريخي ، الذي سار فيه على النظام الحولي ، عند عام ١١١٦م . ومن المحتمل أيضا أن نسطور عند كتابته لهذه الحولية قد تأثر بنظام الكتابة التاريخية عند البيزنطيين ، فالمتصفح لهذه الحولية يشعر كما لو كان يقرأ كتابا كتب بأيد بيزنطية . ولا غرو ، فقد جاءت الثقافة والفكر إلى روسيا عن طريق بيزنطة وكنيستها الأرثوذكسية . وبطبيعة الحال فقد شكلت هذه الحولية عصب الأحداث التاريخية خلال فترة البحث ، وكانت تسير جنبا إلى جنب مع المصادر البيزنطية . ومع هذا ينبغي أن نشير إلى أن الكاتب قد قلب بعض الأحداث وزيف حقيقتها ، فعلى سبيل المثال عندما هزم سفياوسلاف على أيدي يوحنا تزيمنسكي *Jean Tzimisks* ، على حد قول الروايات البيزنطية وعلى رأسها ابو الشماس المعاصر للأحداث ، جعل نسطور الروس في وضع المنتصر . وفي المقابل تميز نسطور بأنه أورد نصوص جميع المعاهدات التي عقدت بين اللوس وبيزنطة ، معاهدة ٩٠٧م ، ٩١١ ، ٩٤٥ ، ٩٧١م ، على نحو مفصل ؛ في الوقت الذي لم تشر فيه المصادر البيزنطية إلا إلى القليل منها . ومن الأشياء التي تؤخذ على نسطور أن نظام التاريخ الزمني عنده ليس دقيقا فيما يتعلق بأحداث القرن التاسع الميلادي وأوائل العاشر . فعلى سبيل المثال يذكر أن المعاهدة التي عقدت بين اللوس وبيزنطة في عام ٩١١م ، عقدت في عام ٩١٢م . لذلك فإن الاعتماد على رواياته عند الكتابة عن تاريخ الروس لا يكفي ، فلا بد من مقارنة رواياته بالمصادر الأخرى سواء بيزنطية أو عربية أو لاتينية حتى لا يقع المرء في أخطاء تاريخية جسيمة . والشيء الملاحظ على نسطور أيضا أنه لم ينطق ببنت شفة عن النشاط الروسي في منطقة القوقاز ضد المسلمين ؛ ولنا نعرف السبب الذي حدا به لذلك . وينبغي أن نشير إلى أن نسطور كان ينظر إلى بيزنطة على أنها مملكة يونانية وإلى أباطرتها على أنهم أباطرة يونانيون يحكمون شعبا يونانيا . وقد يقف المرء أمام رؤية نسطور هذه للبيزنطيين ، ويمضي بخياله ليربط بينها وبين رؤية أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة لهم ، الذين اعتبروا الإمبراطور البيزنطي ملكا على اليونانيين *Rex Graecorum* . ولكن ، هيهات الفارق بين الظروف التاريخية والسياسية للثنتين بعيد . ففي الوقت الذي كان ينظر فيه أباطرة ألمانيا إلى بيزنطة بهذه النظرة ، كانت نظرتهم هذه تركز على أسس سياسية تامة ، وأنهم ورثة قيصر وحاملو اللقب الإمبراطوري

Imperator Romanorum وليس الإمبراطور البيزنطي الذي يحيا على أرض يونانية، ويحكم شعبا يتحدث اليونانية أما نسطور فيبدو أنه لم يذهب به الفكر إلى ألمانيا ، بل استخدم الواقع الفعلي لبيزنطة، من حيث إنها تحيا على أرض يونانية وتحدث اليونانية، والدليل على ذلك أنه عندما يشير إلى حكام بيزنطة يستخدم لقب إمبراطور وليس *Rex*، الذي استخدمه أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة للإشارة إلى البابا سيلايوس البيزنطي. وأخيرا من الضروري أن نذكر أن نسطور غلبت عليه ثقافته الدينية أثناء الكتابة، لذلك كثيرا ما يستشهد بالقصص الدينية للأنبياء السابقين، عدا الرسول محمد عليه الصلاة والسلام؛ كما أنه اهتم بإبراز الحروب الأهلية التي نشبت بين الأمراء الروس مرارا وتأثيرها على البلاد^(١٢).

٢. حولية نوفجورود *The Chronicle of Novgorod* : هي واحدة من الحوليات التاريخية الروسية التي تعنى بتاريخ المدن الإقليمية . فقد استخدم كاتب هذه الحولية الأحداث التاريخية التي مرت بها نوفجورود منذ عام ١٠١٦م وحتى عام ١٤٧١م كمادة تاريخية ، تؤرخ لهذه الإمارة . وفي الواقع فإن هذه الحولية كانت من المصادر الروسية الثانوية في هذه الدراسة ، فلم تمدنا إلا بمادة ضئيلة عن أحداث عصر الأمير الروسي العظيم ياروسلاف الحكيم .

ونأتي الآن إلى المجموعة الثالثة من المصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها هذه الدراسة بدرجة رئيسية ومساوية تماما للمجموعتين الأولى والثانية ، أعنى المصادر الإسلامية . ولما كانت هذه المصادر من الكم ما يصعب معه تقديمه ودراسته ، فسوف نكتفى بأهم المصادر العربية وبماذا أفادت الدراسة .

ثالثا : المصادر العربية :

١. تجارب الأمم لابن مسكويه : المؤلف هو أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه ، الذي توفي عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م . يعتبر كتابه تجارب الأمم من المصادر العربية الهامة للبحث ، لأنه أورد ذكرا لهجوم الروس على بلاد القوقاز الإسلامية في عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م . بل لا نبالغ أن نقول أنه هو المصدر الوحيد الذي ذكر كل

^(١٢) لمزيد من التفاصيل حول الحولية الروسية الأولى ، انظر : R.P.C., pp. 3-35; Obolensky, D., "Early Russian Literature", *An Introduction to Russian Language and Literature*, ed. R.Auty and D. Obolensky, *Companion to Russian Studies 2 Cambridge*, (Cambridge, 1977), pp. 69-71

تفاصيل الهجوم وما ارتكبه الروس في البلاد وكيف خرجوا منها، ومما يزيد روايته أهمية أنه كان شاهد عيان للأحداث، وذلك باعترافه نفسه، وقد نقل بعضاً من حديثه عن هذا الهجوم عن المرزيان نفسه .

٢. الكامل في التاريخ لابن الأثير : يعتبر كتاب الكامل في التاريخ من أهم المصادر العربية التي أفادت البحث وزودته بمادة غزيرة عن هجوم الروس على بلاد التوقاز الإسلامية في عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م . ويتضح من مقارنة روايته عن هذا الهجوم برواية ابن مسكويه ، أنه نقل أحداثه عن الأخير بصورة كاملة . وعلى الرغم من هذا يعتبر هذا المصدر من المصادر الهامة للبحث، لأنه ذكر الروس العاملين في الجيش البيزنطي في مواضع كثيرة أثناء حروب البيزنطيين مع المسلمين .

٣. مروج الذهب للمسعودي : على الرغم من أن هذه الدراسة قد أفادت من كتب المسعودي الأخرى ، ككتابه التنبيه والإشراف أو أخبار الزمان ، إلا أن مروج الذهب يأتي من حيث الأهمية في المقدمة، فقد أنفرد بذكر تفاصيل الهجوم الروسي على بلاد التوقاز الإسلامية في عام ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م، ويمكن اعتباره المصدر الوحيد الذي يتحدث عن هذا الهجوم .

٤. كتاب جامع الدول لمنجم باشي : مؤلف هذا الكتاب هو أحمد بن لطف الله منجم باشي، الذي ألف لنا كتاباً نحو عام ٥٠٠هـ أسماء جامع الدول. وقد قام المستشرق الروس فلاديمير مينورسكي بنشر أجزاء من هذا الكتاب في عام ١٩٥٣ ، تحت عنوان "باب في الشداية" ، وهذا الباب يلقى الضوء على أسرة الشداية التي حكمت آران في القرن الحادي عشر الميلادي . وفي هذا الفصل انفرد منجم باشي بذكر تفاصيل غارتين قام بهما الروس على منطقة آران وشروان في عامي ٤٢١هـ/١٠٣٠م، ٤٢٢هـ/١٠٣١م ، وقد بين كيف تمكن موسى بن الفضل بن محمد بن شداد وأبيه من استخدام الروس كمرتقة في عام ١٠٣١م .

٥. رسالة أحمد بن فضلان : قام الوزير العباسي أحمد بن فضلان في عام ٣٠٩هـ/٩٢١م برحلة ، بناء على أوامر الخليفة العباسي المقتدر ، إلى بلاد بلغار الفولجا استجابة لطلب ملك البلغار ، الذي اعتنق الإسلام لتوه ، وطلب من الخليفة العباسي إرسال فقهاء له وبناء حصن له يحميه من هجمات الخزر . وقد مر الوزير ابن فضلان بالعديد من الأمم والقبائل طوال هذه المرحلة ، وترك وراءه تفاصيل

هذه الرحلة في كتاب أسماء رسالة أحمد بن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالية^(١٤). وقد أعطى صورة صادقة في هذا الكتاب للحياة الاجتماعية لقبائل منطقة السهوب لاسيما الخزر والروس وبلغار الفولجا. ويمكن القول أن المؤرخين الروس المحدثين يعتبرون كتاب ابن فضلان المصدر الوحيد الثمين الذي يقدم معلومات عن المجتمع الروس الأول، لأن كل ما ورد عن الروس لم نعثر له على مثل في المصادر الأخرى بما فيها المصادر الروسية^(١٥). وفي النهاية، لابد لنا أن نؤكد على أن المصادر العربية، خاصة الجغرافية، هي واحدة من أهم المصادر التاريخية التي تتحدث عن تاريخ الروس ونظمهم وحياتهم. وحتى الآن لم تحظ هذه المصادر بدراسة مقارنة مع المصادر الروسية، لوضع صورة كاملة عن المجتمع الروسي الأول ونظمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. هذا، وقد اعتمد البحث على العديد من المصادر الفارسية مثل كتاب زين الأخبار للجرديزي، وكتاب تاريخ طبرستان لابن اسفنديار، والذي انفرد بذكر هجوم الروس على بلاد القوقاز الإسلامية في عام ٢٥٠-٢٧١هـ/٨٦٤-٨٨٤م. كما اعتمدت الدراسة أيضا على كتاب حدود العالم، وهو مؤلف فارسي مجهول المؤلف يعود إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. كما تم الاستعانة ببعض المصادر اللاتينية كتقرير الأسقف ليوتبراند الكريموني *Liutprand of Cremona* عن زيارته للقسطنطينية، وما تعرض له من مشاكل هناك أثناء زيارته الثانية، على أيدي رجال الجمارك البيزنطيين، وكذلك كتاب الأسقف ثيتمار من ميرسبرج *Thietmar of Merseburg*، الذي يعتبر من أهم المصادر عن تاريخ بولندا في العصر الوسيط.

أما عن المراجع المتخصصة والتي اعتمدت عليها هذه الدراسة فهي كثيرة ولا يتسع المجال هنا لعرضها، ويكفي أن نلقي نظرة عامة على بيبليوجرافيا الدراسة لننتعرف عليها. لكن يمكن القول أن أهم المؤرخين المحدثين الذين استفادت منهم هذه الدراسة هم: المؤرخون الإنجليز ديمتري أوبولنسكي *D. Obolensky*، وجوناثان شبرد *J. Shepard*، وسيمون فرانكلين *S. Franklin*، والمؤرخ البولندي أندريه بوب

^(١٤) لمزيد من التفاصيل عن ابن فضلان انظر: رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالية، تحقيق/ سامي الدهان، (دمشق، ١٩٧٨)، ص ١١-٤٧.

A. Poppe ، والمؤرخ البلجيكي هنري جريجوار *H. Grégoire* ، والمؤرخة الفرنسية
أيرين سورلان *I. Sorlin* ، والمؤرخون الروس الكسندر سولوفيف *A. Soloviev* ، و
أ. فازيليف *A. Vasiliev* ، جورج أوستروجورسكي *G. Ostrogorsky* ، ج .
فرنادسكي *G. Vernadsky* ، م. كارامزين *M. Karamsin* ؛ والمؤرخ الأمريكي
صمويل كروس *S. Cross* وغيرهم من المؤرخين المحدثين.

النميد

الروس على الخريطة الدولية في النصف الأول

من القرن العاشر الميلادي

لقد أطلق البيزنطيون اسم روس ' Rus ' بصفة خاصة على الاسكندنافيين الذين اعتادوا غزو الأراضي الواقعة إلى الشرق منهم . وظهروا بهذا الاسم للمرة الأولى في الغرب الأوربي في حوليات برتنياني Bertiniani ، عند ذكرها للسفارة التي بعثها الإمبراطور ثيوفيل Theophilus (٨٢٩-٨٤٢م) إلى الملك الفرنجي لويس الثاني (٨١٣-٨٤٠م)؛ وهذه السفارة كانت تحوي أناساً يطلق عليهم اسم روس، كانوا قد جاءوا إلى القسطنطينية لإبرام اتفاق صداقة؛ وكانت هذه السفارة قد وصلت إلى بلاط الملك الفرنجي في السابع عشر من شهر يونيو من عام ٨٣٩م . وكان على رأس هذه السفارة ثيودور Theodore أسقف خلقدونية ، والاسباثاريوس ثيوفانس Theophanes . وقد نقلت هذه السفارة طلب الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل إلى لويس الثاني لبيعته له بقوات تعينه على صد العرب ، وأن يساعد أعضاء السفارة من الروس في العودة إلى بلادهم سالمين، نظراً لأن الطريق الذي سلكوه للوصول إلى بيزنطة صار مهدداً من البرابرة على حد ذكر الحولية . وقد لقي لويس الثاني هذه السفارة لقاء طيباً ، ورد على رسالة ثيوفيل حيث وعده بعمل كل ما هو مستطاع لعودة هؤلاء الروس إلى بلادهم سالمين^(١) . ويعتقد بعض العلماء أن أعضاء هذه السفارة من الروس كانوا من نوفجورود^(٢) .

^(١) . Baneşcu, N., "Deux études byzantines, II. La première attaque russe de Constantinople 860 ", *REB*, 6 (1948), p.195; Vasiliev, A., *The Russian Attack on Constantinople in 860 AD*, (Cambridge, Mass., 1947), pp. 6-13; Ahrweiler, H., "Les relations entre les Byzantins et les Russes au IX^e siècle ", dans: *Bulletin d'Information et de coordination de l'Association International des Études Byzantines*, 5. (Athens-Paris, 1971), pp.47-56; Sorlin, I., "Les traités de Byzance avec la Russie au X^e siècle", *CMRS*, vol. II-3, (Paris, 1961), p.317; Court, A., "La Russie à Constantinople ", *RQH*, 1 (Paris, 1876), pp. 76-78.

انظر أيضاً، فازيليف، العرب والروم، ترجمة/ محمد عبد الهادي شعيرة (القاهرة، د.ت)، ص ١٦٣-١٦٤.
^(٢) Baneşcu, *Deux études*, p.195.

وفى الثامن عشر من شهر يونيو من عام ٨٦٠م فوجئ سكان القسطنطينية بمائتي قارب وقد ملأت اليوسفور، ونزل راكبوها من المقاتلين الروس إلى السواحل وحول القسطنطينية في الآونة التي كان الإمبراطور ميخائيل الثالث *Michael III* (٨٤٢-٨٧٦م) يقوته في الشرق لقتال المسلمين . وبدأ الروس في تخريب سواحل اليوسفور وتهديد القسطنطينية نفسها . وقد انهارت معنويات سكان القسطنطينية من هول المفاجأة ، ومن التخريب والجرائم التي ارتكبوها ضد البيزنطيين في ضواحي القسطنطينية . وبعد انتهاء الروس من سلب ونهب هذه المناطق كان عليهم الانسحاب سواء كان هذا بسبب العاصفة التي هبت عليهم أو بسبب عودة ميخائيل الثالث إلى عاصمته ونجاحه في القيام بهجوم مضاد للروس^(١) . ويانسحابهم تنقست القسطنطينية الصعداء ، وعرف البيزنطيون جميعاً أن هناك شعباً جديداً يعيش في النواحي الشمالية لهم ، وصاروا يطلقون عليهم آنذاك عدة مسميات منها الروس *Pōs* ، والتاورسكيثيون *Tarpoθκυροι* أو الدروميتيون *Δρομίται*^(٢) ؛ وأن هذا الشعب أصبح يشكل خطراً عليهم عند الجبهة الشمالية . وكذاب بيزنطة في التعامل مع مثل هذه الشعوب ، بعد زوال الخطر عنها ، أرسلت سفارة إلى مملكة الخزر *Χαζαρία* لتجدد علاقاتها بها، وكان على رأس هذه السفارة شاب يدعى قسطنطين التسالونيكى^(٣) . وبطبيعة الحال كانت بيزنطة تبغى من وراء هذه السفارة تقوية علاقتها بالخزر، الذين كانوا القوة الوحيدة المهيمنة على منطقة حوض نهر الفولجا *Volga* وما حوله في منطقة السهوب ، لتضرب بهم الشعوب المناوئة لها كالروس على سبيل المثال .

^(١) Symeon Magister ac Logothetae, *Chronographia*, ed. I. Bekker, in: Theophanes Continuatus, *CSHB*, (Bonnae, 1838), pp.674 – 675; Cedrenus, G., *Historiarum Compendium*, vol. II, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1838), p.173; Zonaras, I., *Epitomae Historiarum*, vol. III, ed. T. Bitter-Wobst, *CSHB*, (Bonnae, 1897), 404; Sorlin, *Les traités*, p.321; Vasiliev, *Russian attack*, pp.150-239; Court, *La Russie*, pp.78-84; Jenkins, R., *Byzantium: the Imperial Centuries A.D.610-1071*, (London, 1966), p.161; Ostrogorsky, G., *History of the Byzantine State*, (Oxford, 1956), pp.202-203.

^(٢) *Symeon Mag.*, p.707; Ahrweiler, *Les relations*, pp.44 - 46; Sorlin, *Les traités*, p. 36, n. 11; Jenkins, R., “ The Supposed Russian Attack on Constantinople in 907 ”, *SP.*, 4 (1949), p.405.

^(٣) Ostrogorsky, *Byz. State*, p. 203.

والآن يسرع الزمان خطاه نحو القرن العاشر ليصوب سهماً جديداً من سهامه نحو بيزنطة ، ويصفق القسطنطينية بلطمة جديدة جاعتها عن طريق الروس في عام ٩٠٧م ولكن قبل أن يمضي بنا الحديث عن هذا الحدث إلى الأمام ، لنتمهل قليلاً ونلقى نظرة سريعة على الخريطة الدولية للعالم الوسيط في تلك الآونة، لما له من فائدة في تقييم وضع ومقام الروس منها .

لنبدأ بكلمات البطريرك نيقولا مستيكوس (٩٠١-٩٠٧ ، ٩١٢-٩٢٥م) التي بعث بها إلى أمير كريت يقول فيها : "... إن ما أعنيه هنا، هو وجود سلطتين تملكان فوق كل السلطات على الأرض ، وهما السلطان السراققة (أي المسلمين) وسلطان الرومان (أي البيزنطيين) ، وهما اللتان تتسعان الضياء كنجمين في السماء..."^(١) بهذه الكلمات البسيطة والتشبيهات البديعة أوجز لنا بطريرك القسطنطينية الحديث عن الخريطة السياسية للعالم الوسيط في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، بيد أن هاتين القوتين لم تكونا من القوة مثلما كانا عليه بدءاً من القرن السابع فصاعداً . فالإمبراطورية البيزنطية كانت مثقنة بالجراح لاسيما في جبهة البلقان بصفة خاصة، حيث كان البلغار في صراع دائم مع بيزنطة من أجل البقاء والحفاظ على امتيازاتهم الاقتصادية في عهد سيمون البلغاري (٨٩٣-٩٢٧م)، الذي بدأ سلسلة من الحروب المتواصلة ضد أباطرة بيزنطة بدءاً من عام ٨٩٤م وحتى عام ٩٠٤م، وهو العام الذي عقدت فيه معاهدة بينه وبين الإمبراطور البيزنطي ليسو السادس (٨٨٦-٩١٢م)^(٢) .

وجدد سيمون البلغاري هجماته على الأراضي البيزنطية بعد وفاة الإمبراطور ليو السادس . وقد لاقت القوات البيزنطية عدة هزائم من القوات البلغارية ، لعل أقسامها كانت هزيمة انخيالوس *Anchialus* في عام ٩١٧م، وانتهى الأمر بين الطرفين بدفع بيزنطة الجزية لسيمون البلغاري، بعد لقائه مع الإمبراطور البيزنطي رومانوس ليكاپينوس *Romanus Lecapenus* (٩١٩-٩٤٤م) وعقدت معاهدة بينها . ولسم تهدأ الأوضاع على الجبهة البلغارية - البيزنطية إلا بوفاة سيمون البلغاري في عام

^(١) يقول نيقولا مستيكوس :
 "...οτι δυο κυριότητες πάσης της 'εν γῇ κυριότητος' η τε τῶν Σαρακηνῶν καὶ ἡ τῶν Φωμαίων, υπερανέχουσι, καὶ διαλα-μπουσιν, ὥσπερ οἱ δυο μεγάλοι ἐν τῷ στερεώματι φαστήρες..."
 Nicholas I Patriarch of Constantinople, *Letters*, ed. and Eng. trans. R. J. Jenkins and L. G. Westerink, *CFHB*, vol. 4, (Washington, 1973), p. 2.

^(٢) السيد الباز العربي، الدولة البيزنطية ، (القاهرة ، ١٩٦٠) ، ص ٢٢٦-٢٢٩ .

٩٢٧م^(٨). وفي الواقع ، يمكن القول أن دولة البلغار الأولى بلغت ذروة مجدها في عهد القيصر سيمون، على حساب الوجود البيزنطي المتمركز في البلقان. وليس أدل على ذلك من كلمات البطريرك نيقولا مستيكوس في إحدى رسائله إلى القيصر سيمون البلغاري والتي يصفه فيها بـ "الذائع الصيت ، الشديد الشكامة ، سيمون حاكم البلغار"^(٩).

وما أن هدأت الجبهة البلغارية البيزنطية حتى ظهر عدو جديد في البلقان، تمثل في شعب تركي جديد عرف باسم المجار في المصادر العربية، وباسم السرك *Türkoi* في المصادر البيزنطية، ففي شهر أبريل من عام ٩٣٤م شن المجار وللمرة الأولى هجوما على أراضي الدولة البيزنطية ، حيث قاموا بتخريب تراقيا وهم في طريقهم إلى القسطنطينية^(١٠)، ومن المحتمل أن البشناق *Petchenegs* تحالفوا معهم في هذا الهجوم^(١١) . وعلى الرغم من أن الإمبراطور البيزنطي عقد معاهدة سلام مع المجار إلا أنهم أعادوا الهجوم مرة ثانية على أراضي الإمبراطورية البيزنطية في عام ٩٤٣م، وهذه المرة أيضا عقد الإمبراطور البيزنطي معهم معاهدة سلام^(١٢) . وبعد ختام خمسة أعوام من هذه المعاهدة وأثناء حكم قسطنطين السابع بورفيريوجينوس *Constantine Porphyrogenetus* (٩١٣-٩٤٤ ، ٩٤٤-٩٥٩م) اتخذت بيزنطة سياسة سلمية تجاه المجار ، ولم تعد هناك هجمات مجبارية لفترة من الزمان عليها . كما قام أعضاء من الأسرة المالكة المجارية بزيارات إلى البلاط البيزنطي ؛ وتم تبادل المراسلات بين الطرفين^(١٣) . على هذا النحو كان البلقان يمثل جرحا لا يندمل لبيزنطة.

^(٨) انظر، الحويش، الدولة البيزنطية ، ص ٣٣٤-٣٤٠ .

^(٩) *Nicholas I*, p. 16, says that *το υπερφυσικάτο μεγαλοδοχῶ πανευλατ-ικῶτέκνω Συμεὼν 'αρχοντι Βουλγαρίας* "

^(١٠) *The Russian Primary Chronicle*, Laurentian text, ed. and trans. S. H. Cross

& O. P. Sherbowitz - Wetzor, (Cambridge, Mass., 1953), p. 109; Runciman, S.,

The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign, (Cambridge, 1963), pp.105-

108.

حول الموطن الأول للمجار على نهر الرون، ثم تحركهم صوب الدانوب، بسبب ضغط المغز عليهم من الشرق ووضعهم السويدي في موطنهم الجديد، انظر،

Runciman, *Romanus Lecapenus*, pp.103-108.

Runciman, *Romanus Lecapenus*, p.109.

^(١١) *R. P. C.*, p.72.

^(١٢) Moravcsik, G., *Byzantium and the Magyars*, (Amsterdam, 1970), p.56.

أما في الجبهة الشرقية فقد كان المسلمون أقل تفاعلاً عن البلقان مع بيزنطة؛ ولم تبذل بيزنطة جهداً على جبهتها الشرقية يفوق ما كانت تبذله من أجل البلقان ، بل تمكنت وحتى عهد نفقورفوقاس (٩٦٣-٩٦٩م) ، من المحافظة على آسيا الصغرى من الضياع . ولم يكن هذا نتيجة ارتفاع مستوى القوة العسكرية البيزنطية بقدر ما كان بسبب التدهور السياسي الذي أصاب الخلافة العباسية في بغداد .

ولنترك الحديث الآن عن بيزنطة ونرحل إلى بغداد للتعرف على القوة العظمى الثانية في العالم الوسيط ، حسبما أقر بهذا نفقولا مستيكوس . كانت الخلافة العباسية تعاني هي الأخرى من آلام مبرحة لازمتها طوال العصر العباسي الثاني . فقد سيطر العجم من الترك عليها ولم يعد للخليفة العباسي قول ولا سلطان ، بل صار الحل والربط بأيدي وزرائه الأتراك . ومن الأمثلة الدالة على ذلك أن الوزير صالح بن وصيف كانت له الغلبة في البلاد في عهد الخليفة المعتز (٢٥٢هـ-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٨م) ؛ ويقول المسعودي عنه كانت الكتب تخرج باسم صالح بن وصيف كأنه مرسوم بالوزارة لغلبته على الأمر، وكان نقش خاتمه "المعتز بالله" ^(١٤) . وبلغ الأمر من سوء أن النساء كن يتحكمن في الخلافة العباسية وخليفتهام ففي عهد الخليفة المعتز (٢٩٥هـ-٣٢٠هـ/٩٠٧-٩٣٢م) كانت جارية أمه، والتي كانت تسمى تمل القهرمانة، تجلس للنظر في مظالم الخاصة والعامة ويحضرها الوزير والكتاب والقضاة وأهل العلم ^(١٥) . وقد شهد العصر العباسي الثاني أيضاً انهياراً في الأقاليم التابعة للخلافة العباسية . ومن الأمثلة على ذلك قيام أبو زكريا البحريني عامل البحرين، بغزو مكة بستمائة فارس وتسعمائة راجل، وأعمل القتل فيمن فيها حتى بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً، واقتلع باب البيت الحرام ، وكان مصفحاً بالذهب، وأخذ جميع ما كان بالبيت من المحاريب الفضية ومناطق الذهب وانايرات ذهب وقضة وقلع الحجر الأسود وجرد البيت مما كان عليه من الكسوة ؛ وحمل كل ذلك على خمسين جملاً عائداً إلى البحرين في ذي الحجة سنة ٣١٧هـ/ يناير ٩٣٠م ^(١٦) . ويعكس لنا هذا المثال قمة الضعف السياسي وعجز الخلافة حتى عن حماية بيست الله للحرام من الطامعين.

وقد أدى ظهور النزعات الاستقلالية ، سواء ما كان استقلالها كاملاً كدولة الأغالبة في شمال أفريقية أو الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر، أو مع بقاء

^(١٤) المسعودي ، التنبيه والإشراف، (بيروت ، ١٩٩٢) ، ص ٣٣٣ .

^(١٥) المسعودي ، التنبيه والإشراف، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

^(١٦) المسعودي ، التنبيه والإشراف، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

الاعتراف بالسلطة الروحية للخليفة كالدولة الطولونية أو الإخشيدية في مصر، إلى زيادة ضعف الخليفة العباسي وزاد موقفه سوءاً عدم وصول واردات وضرائب هذه الأقاليم - إلا النذر اليسير منها - إلى بغداد، إذ ترتب على ذلك عجز الخليفة عن مواجهة متطلبات حكومته والإنفاق على جيش قوى يحميه ، وهذا بدوره دعاه إلى إهمال ثغور دار الإسلام فطمع فيها البيزنطيون . وكانت حالة الضعف التي وصلت إليها الخلافة العباسية واضحة للإدارة البيزنطية في عهد ليو السادس . فقد أهمل العباسيون تدعيم الثغور الشامية والجزرية وتركوها لمصريها^(١٧) .

وعلى الرغم من هذه الحالة من الضعف التي كانت تعاني منها الخلافة العباسية، إلا أنها ظلت في نظر العالم الخارجي القوة العظمى الثانية في العالم الوسيط، وأصبح العالم الإسلامي كله يقف وحدة واحدة، على الرغم من انهياره السياسي، فسي مواجهة بيزنطة، للقوة العظمى الأولى في العالم الوسيط . وعلى هذا، لم يكن من المستغرب أن يقر بطريك القسطنطينية بأن أعظم قوتين في العالم هما الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية .

على أية حال ، يمكن القول أن الدولة البيزنطية كانت صاحبة أكبر ميراث حضارى في أوروبا في العصر الوسيط ، مما جعل القسطنطينية هدفاً استراتيجياً يلاحق في سماء جيرانها البلغار ، المجار ، البشناق ، الروس وغيرهم من الشعوب المجاورة. وقد أثبتت هذه المدينة دوماً لهم أنها هدف صعب المنال، الأمر الذى كان يدفعهم للتشديد عليها عسى أن تسقط في أيديهم .

ولنعد ثانية إلى الروس في النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، بعد أن تعرفنا على القوى العظمى في تلك الفترة . لقد كان الروس يصوبون بصرهم في هذه المرحلة من تاريخهم نحو القسطنطينية، فهي المركز الحضارى والاقتصادى الوحيد الأقرب لهم، والذي يمكن أن يسيل لعابهم من أجله. وتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن أمير الروس أولج، بعد أن استقر في كييف، جمع حشوداً من الفارانجيين، والسلاف، والتشود *Chuds*، والكريفتشيين *Krivichians*، والميريين *Merians*، والبولينين *Polyanins*، والسيفيريين *Severians*، والرادميتشين *Radimichians*، والكروات *Croats*، والدوليبين *Dulebians*، والتفيرسين *Tivercians*، وجميعهم وثيون، وقادهم جميعاً للهجوم على البيزنطيين في عام ٩٠٧م. وعندما وصلت الأخبار إلى

(١٧) وسام عبد العزيز فرج ، *دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية* ، ج ١ ، (الإسكندرية ، ١٩٨٥)، ص ٢٥٦ .

القسطنطينية تم تحصين المدينة وإغلاقها في وجه الروس، وهنا قام الروس بإزالة القوات برأ وقاموا بقتال البيزنطيين حول العاصمة وأحرقوا العديد من القصور والكنائس . ويقول نسطور أن الروس انتشلوا مراكبهم من الماء ووضعوها فوق عجلات ودفعوا بها برأ نحو القسطنطينية لحصارها، وهنا لجأ البيزنطيون إلى المفاوضات؛ وقد قبلوا دفع الجزية لأولج ، ثم أبرموا معه سلاماً تمهيدياً ، ذكر باختصار في الحولية الروسية . وأقسم الطرفان كل حسب عادته : الأباطرة البيزنطيون ليو السادس *Leo* والاسكندر *Alexander* قبلوا الصليب ، بينما أقسم أولج ورفاقه على أسلحتهم ، وباسم آلهتهم الوثنية، وثبت أولج درعه عند باب القسطنطينية ثم غادر بيزنطة منتصراً عائداً إلى بلاده ^(١٤) .

وفي عام ٩١١م أبرم الطرفان معاهدة بينهما ورد نصها بالكامل في الحولية الروسية الأولى ، تضمنت العديد من الشروط السياسية والعسكرية والتجارية . وقد أعطت البيزنطيين الكثير من الحقوق السياسية والعسكرية مثلما أعطت الروس الكثير من المزايا التجارية^(١٥)، وهذه المعاهدة صورة مقننة ومفصلة من السلام التمهيدى والاتفاق الذى تم عند أسوار القسطنطينية في عام ٩٠٧م . على هذا النحو ، أفصح الروس فى الفوز بمعاهدة مع الإمبراطورية البيزنطية أعطتهم ما كانوا يسعون إليه من الحصول على موطن قدم فى القسطنطينية، فقد صار للتجار الروس منذ ذلك اليوم حياً يستقرون فيه بإحدى ضواحي القسطنطينية عرف باسم حي سان ماماس *St. Mamas* ، وفتحت هذه المعاهدة للروس باب التجارة مع بيزنطة على مصراعيه، لاسيما وأن السلع البيزنطية كانت مرتفعة الأثمان فى بلاد الروس واسكندنافيا ، كما أن السلع الروسية كان مرغوباً فيها فى القسطنطينية .

لياً كان الأمر ، بعد نجاح أولج فى حملته على القسطنطينية فى عام ٩٠٧م تخبرنا الحولية الروسية الأولى أن خليفته الأمير الروسى *Igor* ، قام بشن هجوم على بيزنطة

^(١٤) R.P.C., pp.64-65; Ostrogorsky, G., " L'expédition du prince Oleg contre Constantinople en 907 " , *AJK*, 11 (Beograd, 1940) , pp. 48-49; Vasiliev, A, "The Second Russian Attack on Constantinople ", *DOP*, 6 (1951), 161-225; Jenkins, *Russian attack*, pp. 403-406

المؤرخين وقوع مثل هذه الحملة ، ويعتبرونها عملاً أسطورياً يخلو من الحقيقة، انظر، Runciman, *Romanus Lecapenus*, pp.110- 112; Grégoire,H., " La legende d'Oleg et l'expédition d' Igor ", *BacBelg*, 23(1937), pp. 80-94; Dolley, R., " Oleg's Mythical Campaign against Constantinople ", *BLSPARB*, 40 (1949), pp.106-130; Grégoire, H., " Miscellanea Epica et Etynologica, I. La legende d'Oleg, II. L'expédition d'Igor ", *B*, 11 (1936), pp.601-607.

لكن استطاع لوستروجورسكى فى مقاله المذكورة عالية تفيد آراء هؤلاء المعارضين ، انظر أيضاً ، Sorlin, *Les traités*, pp. 336 - 342.

^(١٥) نظر، R.P.C., pp.65-68.

في عام ٩٤١م^(٢٠)، وهذا الهجوم الروسي المذكور على نحو واضح ومفصل في المصادر البيزنطية^(٢١)، وكذلك في المصادر العربية^(٢٢). ونظراً لتكامل رواية كرينوس عن هذه الحملة، فسوف نعمل عليها في حديثنا عنها حيث يذكر: " في شهر يونية، الخمس عشرية الرابعة عشرة، جاء الروس إلى المدينة بأسطولهم المعادي، المكون من عشرة آلاف مركب . وقد تصدى لهم البطريق ثيوفانيس *Theophanes* بالأسطول، الذي وصل إلى هيرا *Hera*، حيث رابط بسفنه هناك عند فاروس *Pharos* والشاطئ المجاور لها . وعندما انتهت الفرصة لنقض على الروس وفك صفوفهم وأحرق بالنار الإغريقية عدداً كبيراً من مراكبهم ، وما تبقى منها لاذ بالهرب . أما من تبقى من الروس فقد عبروا إلى الجهة الشرقية^(٢٣)، وهناك التقى بهم البطريق برداس فوكاس *Bardas Phocas* أثناء بحثهم عن المؤن، فقتل رهطاً منهم . كذلك هرع كوركواز *Courcuas*، نمسق الاسكلارية، وهاجم جيش الروس وبيدهم ونكل بهم. ومن المأساوي التي ارتكبتها الروس قبل هزيمتهم أنهم صلبوا بعض الأسرى البيزنطيين، وقاموا بتثبيت البعض الآخر منهم فوق الأرض بمسامير، كما جثوا من غيرهم أهدافاً يطلقون عليها السهام . أما الكهنة الذين وقعوا في الأسر فقد تقبوا رؤوسهم بمسامير حادة، وأحرقوا عدداً كبيراً من الكتائب . لكن عندما هزموا في المعركة البحرية ونكبوا خسائر فاحشة، تهاقروا واختبأوا في مراكبهم؛ ثم أفسدوا الأطعمة التي كانت بحوزتهم، ليمودوا إلى بلادهم، خوفاً من أسطول الرومان المجاور لهم؛ ثم أطلقت الإشارة لهم بالهرب . لكنهم لم يفلتوا من يد البطريق ثيوفانيس الذي أدرك اتجاههم، وأسرع للحاق بهم . وهزم الروس في معركة بحرية ثانية وغرقت بعض مراكبهم وأحرق البعض الآخر، كما سقط في أيدي البيزنطيين بعضاً من مراكبهم بمن عليها. ولم ينج من المعركة إلا نفر قليل عاد إلى بلاده^(٢٤) .

على هذا النحو ، تنتهي حملة إيجور على القسطنطينية في عام ٩٤١م، وقد انتهت بفشل ذريع في تحقيق أي هدف مما كان الروس يسمون إليه. وفي الواقع، لم نقصح المصادر عن الأسباب التي دفعت بالروس للقيام بمثل هذا الهجوم، الأمر الذي يدفعنا للقول أن إيجور ربما كان يهدف إلى السلب والنهب، حسبما اعتادوا في حملاتهم المسابقة على القسطنطينية، أو أنه كان يطمح في تحقيق المزيد من المكاسب التجارية الشرعية .

24 *R.P.C.*, p.72; Grégoire, H. et Orgels, " La guerre russe byzantine de 941, ", B, (1955), pp.155-156.

^(٢١) *Cedrenus*, II, pp.316-317; *Symeon Mag.*, pp. 746-747; *Ephraemii Chronographia*, ed. J. P. Migne, PG, vol. 143, (Turnholt, 1977), Col. 112 .

^(٢٢) انظر على سبيل المثال، *Yahya Ibn-Sa'id d'Antioche, Histoire de Yahya d'Antioche*, ed. & trad. A.Vasiliev et J. Kratchkovsky, PO, 18 (1924), p.727.

^(٢٣) أي بithynia ، انظر، *Symeon Mag.*, p.747.

^(٢٤) *Cedrenus*, II, pp. 316-317; Runciman, *Romanus Lecapenus*, pp.112-113.

أخيراً ، ينبغي أن نشير إلى أن الروس في تلك الفترة لم يكتفوا بشن هجمات خارج حدود بلادهم أى على بيزنطة فقط ، بل بدعوا سلسلة من الهجمات المتوالية على الشعوب السلافية القاطنة في منطقة السهوب ، كما شنوا هجمات أخرى على المسلمين القاطنين في منطقة القوقاز ، كما سنفصل في الفصول القادمة من البحث . ويبقى لنا أن نقول إن الروس بقدر ما نجحوا في دق أبواب بيزنطة عدة مرات ، نجحوا في تنبيه بيزنطة إلى خطورة الجبهة الشمالية لها ، التي شهدت في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي تغيرات إثنية وسياسية كبيرة على أيدي الروس والبشناق . كما أن الروس نجحوا في هذه الأونة في مد رقعة بلادهم شرقاً وجنوباً ، حتى وصلوا إلى شواطئ بحر بونتس (البحر الأسود) ، وارتبطوا بعلاقات تجارية وسياسية في بعض الأحيان بمملكتي الخزر والبلغار الواقعتين بطول نهر الفولجا .

الباب الأول

الروس والإمبراطورية النيزفطية

الفصل الأول: الروس وبنفطية ومعاهدة ٩٤٥٥ م.

الفصل الثاني: الروس وبنفطية والبغتان ٩٤٥-٩٧٣ م.

الفصل الثالث: الروس وبنفطية والقوى الأوربية ٩٧٣-١٠٥٤ م.

الفصل الأول

الروس وبيزنطة ومعاهدة ٩٤٥م

رأينا في الصفحات السابقة المحاولات الروسية المستمرة للخروج بقوتهم السياسية والعسكرية إلى ما وراء كريف وحزام السهوب . ولكن يبدو أن المجتمع الدولي آنذاك لم يكن مؤهلاً بعد لقبول قوى جديدة على الخريطة السياسية له . فإذا كانت بيزنطة قد أجبرت على قبول شريك لها على هذه الخريطة، بدءاً من القرن السابع الميلادي، أعنى الدولة الإسلامية، فإنها لم تكن لتقبل قوة جديدة في القرن العاشر تنافسها السيادة على منطقة السهوب.

لقد أفلحت الدبلوماسية البيزنطية طوال عدة عقود من عمر بيزنطة في القرن العاشر الميلادي أن تروض القبائل القاطنة على حدها الشمالي، فجعلتهم يعملون في خدمتها وهم قانعون بما يفعلون، فلا شيء يوازي، في نظرهم، ما تقدمه لهم بيزنطة من مغريات الحياة، الأموال، الذهب، الطيالس الحريرية، التسهيلات التجارية، وفوق هذا وذاك الرضى الإمبراطوري عنهم، وهو الأمر الذي يعطى هذه القبيلة أو تلك دعماً سياسياً بين أقرانها، فهم بهذا أصبحوا أداة الإمبراطور البيزنطي المنفذة لحكمه أينما ومتى شاء . وليس أدل على ذلك مما يذكره الإمبراطور قسطنطين بورفيروجينيتوس، في كتابه عن الإدارة الإمبراطورية، عند حديثه عن البشناق مثلاً . فما هو يقول : "إنها لفائدة عظيمة لإمبراطور الرومان أن يحافظ على العلاقات السلمية مع البشناق، وأن يعقد معهم معاهدات واتفاقيات الصداقة . وعليه أن يرسل إليهم أيضاً كل عام مبعوثاً دبلوماسياً محملاً بالهدايا المناسبة لهم"^(١). بهذا كان الإمبراطور البيزنطي يحرص كل الحرص على حسن علاقاته مع القبائل القاطنة في منطقة السهوب .

وبقراءة كتاب الإمبراطور قسطنطين بورفيروجينيتوس "عن الإدارة الإمبراطورية" يمكن القول أن الإمبراطورية البيزنطية نجحت في ترويض قبائل البشناق^(٢)، بعد أن أشاحت بوجهها عن الخزر، الذين كانوا يوماً ما حلفاء الإمبراطورية الوحدين في منطقة السهوب، بعدما نجح البشناق في فرض كلمتهم على قوى السهوب

^(١) Constantine Porphyrogenetus, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. R. J. H. Jenkins (Budapest, 1949), p.49;

قسطنطين بورفيروجينيتوس، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية* ترجمة/ محمود سعيد عمران، (بيروت، ١٩٨٠)، ص ٥٣-٥٤.

^(٢) انظر، قسطنطين بورفيروجينيتوس، *الإدارة*، الفصول ١ - ٧، ٩، ١٠، ١٢، ٣٧، ٤٠، *DAI*, I, chaps.1-7, 9-10, 12, 37, 40.

بقوة السلاح تارة، وبالدخول في تحالفات عسكرية مع طرف ضد طرف ثالث تارة أخرى^(٣).

والآن، ونحن على أعتاب منتصف القرن العاشر تقريبا، تبدو لنا قوة جديدة تحاول انتزاع السيادة السياسية على منطقة السهوب. فكما عرضنا في التمهيد تمكن الروس من انتزاع السيادة من الخزر *Khazars* / *Хазары*، على القبائل السلافية التي تقطن السهوب؛ وتبدل الحال، فيعد أن كانوا يطلون الآن من خاقان الخزر بالمرور، صاروا يغيرون عليه بالجيوش، فأقل نجمه لا في سماء القوقاز فقط، بل في سماء بيزنطة أيضا. وحل البشناق مكانه، في السياسة البيزنطية نحو السهوب، فصار الإمبراطور البيزنطي يستخدمهم ضد قوى السهوب، الروس، الخزر، بلغار القوقاز، بل أيضا ضد المجار^(٤). وكما يقول قسطنطين السابع، "إذا كان الإمبراطور مرتبطا بروابط الصداقة مع البشناق، وضمهم إلى جانبه بالهدايا والمراسلات، فيوسعهم الهجوم على الأراضي الروسية والتركية"^(٥) ويسبون نساءهم وأطفالهم ويهبون بلادهم"^(٦). بهذه الكلمات يوجز لنا الإمبراطور قسطنطين بورفيريوجينيتوس مدى أهمية البشناق لبيزنطة، خاصة وأنهم في ذلك الوقت كانوا يسكنون المنطقة الواقعة فيما بين أراضي الروس شمالا وبلغار الطونة جنوبا^(٧)، وبهذا صاروا دولة حاضرة بالمصطلح السياسي المعاصر، أو لنقل شعبا حاجزا بين الروس شمالا وبيزنطة والبلغار جنوبا وهذا بالطبع سينعكس على سياسة كل من القوتين تجاههم، كما سنرى فيما بعد.

ومما يزيد الأمر خطورة بالنسبة للروس، أن البشناق كان يتحكمون حتى في المجارى المائية، التي يبحر فيها الروس بقواربهم، وهم متجهون من كييف إلى بيزنطة جنوبا. فعندما كانوا يصلون إلى الشلال الثالث من شلالات نهر الدنيبر، كان من المحتمل عليهم مراقبة البشناق، حتى لا يهاجمونهم أثناء عبورهم لهذا الشلال؛ وهذا الأمر يتكرر أيضا عند عبورهم للشلال السابع حيث يتسع النهر هناك^(٨). بناء على هذا كان لابد أن يكسب الروس البشناق إلى صفوفهم في صراعهم مع الإمبراطورية البيزنطية، خاصة وأن الأمير الروسي إيجور هاجمهم في عام ٩١٦م ردا على

^(٣) لمزيد من التفاصيل نظر، الفصل الخامس من البحث.

^(٤) قسطنطين بورفيريوجينيتوس، *الإدارة*، ص ٥٤ - ٥٨

^(٥) أي المجار.

^(٦) قسطنطين بورفيريوجينيتوس، *الإدارة*، ص ٥٦

^(٧) Browning, R., *Byzantium and Bulgaria*, (Oxford, 1980), p. 69

^(٨) قسطنطين بورفيريوجينيتوس، *الإدارة*، ص ٦١، ٦٢

انظر أيضا، Pares, B., *A History of Russia*, (New York, 1947), p. 23.

إغارتهم، وللمرة الأولى، على الأراضي الروسية في عام ٩١٥م^(٩). والحل العسكري عند الروس وورد دائماً في تعاملاتهم مع القوى المجاورة، بل يمكننا أن نضعه في مقدمة الحلول الروسية للأزمات السياسية التي تطفو على سطح السهوب . ولا غشاضة في أن نرى البشناق يقفون في صفوف الروس المقاتلة ضد بيزنطة، وهم في نفس الوقت حلفاء بيزنطة، كما بين لنا قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس .

وإذا كان الأمير الروسي إيجور قد هزم في هجومه الأول على القسطنطينية في عام ٩٤١م، كما مر بنا، فإنه لم ينس العار السياسي الذي ربما جرته عليه هذه الهزيمة لا بين أمراته فحسب بل بين القوى المحيطة به في منطقة السهوب . وفي غضون ثلاث سنوات تمكن إيجور من حشد جيش عرمرم، ليعيد الكرة مرة أخرى ضد القسطنطينية^(١٠). وتمدنا الحولية الروسية الأولى بتفاصيل هذه الحملة الثانية التي قام بها الأمير الروسي إيجور . فتحت أحداث عام ٩٤٤م تذكر ما يلي :

تقدم إيجور نحو اليونانيين [أي البيزنطيين] بالسفن والقوات العسكرية، بعد أن حشد كثيراً من المحاربين من بين الفسارنجيين، الروس، البوليان *Polyanians*، السلاف، الكريفشيين *Krivichians*، التفيرسيان *Tivercians*، والبشناق، بعد أن تسلم منهم الرهائن، وهو متعطش للثأر . وعلى أثر سماع أخبار هذه الحملة أرسل الخرسونيون إلى رومانوس ليخبروه أن الروس يتقدمون بعدد لا يحصى من السفن، حتى غطوا البحر بقواربهم . وبالمثل أرسل البلغار الأتباء التي تفيد بأن الروس في الطريق، وأنهم قد كسبوا البشناق حلفاء لهم^(١١). ويمدنا كورت *Court* بتفاصيل عن الجيش الروسي، فالمحاربون الروس القدامى، الذين امتنعوا عن القتال ضد البيزنطيين في الحملة الأولى، نظراً لأنهم كانوا يعملون فيما مضى في صفوف الجيش البيزنطي، تجمعوا حول قائدهم، وبعثت إمارة نوفجورود *Novgorod* بفيلق من المرتزقة، بينما زوده بلغار الفولجا بالفرسان، أما البشناق فقد أعاد عليهم الهدايا، ليصيروا أتباعاً لإيجور^(١٢).

ويلاحظ من رواية نسطور عن هذه الحملة أن أهل خرسون *Cherson* قاموا على الفور بإبلاغ الإمبراطور بما حدث، حتى يتخذ التدابير اللازمة لمواجهة هذا الهجوم، وهذا بالطبع يفسر أهمية خرسون البالغة للإمبراطورية الأمر الذي جعلها

^(٩) R.P.C., p. 71.

^(١٠) Court, A., *La Russie*, p. 96.

^(١١) R.P.C., PP. 72 - 73; Court, *La Russie*, p. 96.

^(١٢) Court, *La Russie*, p. 96.

تستमित في الدفاع عنها ضد قبائل السهوب، والإبقاء عليها في حوزتها . والسؤال الذي قد يفرض نفسه الآن كيف علم الخرسونيين بأبناء هذه الحملة على الرغم من أن المسافة بين مصب الدنيبر وخرسون ثلاثمائة ميل؟^(١٦) وقد نجد إجابة على هذا التساؤل عند قسطنطين السابع، فمن كتابه عن الإدارة الإمبراطورية نعلم أن المنطقة الواقعة بين مصب نهر الدنيبر وخرسون توجد بها موانئ وملاحات يستخرج أهل خرسون الملح منها^(١٧)، ولاشك في أن هؤلاء الخرسونيين قد أبلغوا الإدارة الحكومية في خرسون بما جرى في المنطقة من قبل الروس، فأرسلوا إلى الإمبراطور على الفور ليطلعوه بما يدبره الروس له بقيادة زعيمهم ايجور . وقد قام بلغار الطونسة بإبلاغ الإمبراطور البيزنطي أيضاً بتقدم الروس نحوه .

أما النقطة الأخيرة التي نتوقف عندها في رواية نسطور عن الحملة، هي نجاح ايجور في كسب البشناق إلى صفه، والذين يقع إقليهم كما سبق وقلنا، بين أراضي الروس شمالاً وبلغاريا جنوباً، وهم الذين سعى الإمبراطور للحفاظ على صداقتهم دائماً^(١٨) . واستناداً إلى رواية الإمبراطور قسطنطين بورفيريوجينيتوس أن " الروس لا يستطيعون القدوم إلى عاصمة الإمبراطورية لشن الحرب أو للتجارة إلا إذا كانوا في سلام مع البشناق"^(١٩) فإنه علينا أن نتساءل ماذا كان سيحدث إذا فكر الروس في قتال البيزنطيين ولم يكونوا على وفاق مع البشناق؟ لابد إذن حسب الحقيقة التي ساقها قسطنطين بورفيريوجينيتوس أنهم سيعجزون عن القيام بهذا، ويصير من الصعب على الروس شن الحرب على بيزنطة إلا إذا سالموا البشناق^(٢٠)، بل إن البشناق في إمكانهم أن يضربوا الروس في ظهورهم ويهاجمون أراضيهم مدمرين مخربين^(٢١)، وبإيجاز من بيزنطة، إذا نجح الروس في عبور أراضي البشناق دون وقوع قتال بينهم، وهم في طريقهم إليها .

على أية حال، عندما علم الإمبراطور البيزنطي رومانوس ليكاپينوس بأمر هذه الحملة، أرسل خيرة نبلاته *boyars* ليطالبوا من ايجور ألا يتقدم نحو القسطنطينية^(٢٢) . وعندما وصل الأسطول الروسي إلى مياه نهر الدانوب عند محطة تسمى محطة

DAI, I, pp.186-187;

DAI, I, pp.186-187;

Browning, *Bulgaria*, p. 69.

DAI, I, pp.50-51;

DAI, I, pp.48-51;

DAI, I, pp.50-51;

R.P.C., p. 73.

^(١٦) قسطنطين بورفيريوجينيتوس، *الإدارة*، ص ١٤٩

^(١٧) قسطنطين بورفيريوجينيتوس، *الإدارة*، ص ١٤٩

^(١٨)

^(١٩) قسطنطين بورفيريوجينيتوس، *الإدارة*، ص ٥٥

^(٢٠) قسطنطين بورفيريوجينيتوس، *الإدارة*، ص ٥٤

^(٢١) قسطنطين بورفيريوجينيتوس، *الإدارة*، ص ٥٤

^(٢٢)

القراصنة، القائمة في البحيرات الشاطئية في قيليا ^(٢٢) Kilia، تقابل سفراء الإمبراطور مع الأمير الروسي مقدمين له هدايا سخية عارضين عليه الجزية ^(٢٣).

ويخبرنا نسطور أن الإمبراطور حاول كسب البشناق إلى صفه في نفس الأونة، حيث أرسل لهم ذهباً وثيراً وطياليس حريرية ^(٢٤). ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي أرسل الذهب والطياليس الحريرية لا إلى البشناق العاملين بالفعل في الجيش الروسي، تحت إمرة إيجور، بل إلى زعمائهم في الإقليم الذي يقطنونه، نظراً لأننا نعرف من نسطور أن البشناق قاموا بتخريب بلغاريا ^(٢٥).

ولتعد مرة ثانية إلى الحولية الروسية الأولى لتتعرف على موقف الروس، بزعامة إيجور، من رسل الإمبراطور، فتذكر الحولية أن إيجور بعد أن وصل إلى الدانوب : "استدعى حاشيته جميعاً، وبعد برهة من التفكير ألغىهم بعرض الإمبراطور . وعندئذ أجابت عليه الحاشية : "بما أن الإمبراطور يتحدث على هذا النحو، ففيم نود أن نفعل أكثر من تلقى الذهب، والفضة، والطياليس دون أن يتحتم علينا قتالهم ؟ [أي البيزنطيين] فمن ذا الذي يستطيع أن يتنبأ بمن سيكون المنتصر، نحن أم هو ؟ ومن سيكون البحر حليفه ؟ حيث أننا لا نسير برا، بل من خلال مضائق بحرية . فـالموت في انتظارنا جميعاً [إما هم أو البيزنطيين] " وقد أولاهم إيجور اهتمامه . وعلى الفور أمر البشناق العاملين في جيشه بتخريب بلغاريا . " ويبدو أن الأمير إيجور قد أخذ برأى الأغلبية، وقبل عرض الإمبراطور البيزنطي، حيث تذكر الحولية الروسية الأولى أنه بعد تلقيه الذهب والطياليس الكافية من اليونانيين لكل فرد من أفراد جيشه، عاد إيجور ثانية من حيث جاء إلى كييف الواقعة في وطنه ^(٢٦). ومما يذكر هنا، أن الإمبراطورية البيزنطية، لم تحرك ساكناً لوقف التخريب والتهب البشناقى لأراضى بلغاريا، فكانت الخسائر البلغارية لا تحصى ^(٢٧). وقد أرسل الإمبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس رسلاً باسمه هو ووليا المهدي قسطنطين وستيفن إلى إيجور ليجددوا المعاهدة السابقة، أى معاهدة ٩١١م، وقد تناقش إيجور معهم في الأمر ^(٢٨). وعلى هذا النحو تنتهى الحملة

^{٢٢} Court, *La Russie*, p. 96.

^{٢٣} R.P.C., p. 73; Court, *La Russie*, p. 96; Pares, *Russia*, p. 25 ; Finlany, G., *History of Byzantine Empire*, (New York, 1913), p. 318; Da Costa-Louillet, G. "Yeut-il invasions russes dans l'empire byzantin avant 860 ", *B*, 15 (1940 - 41), p. 234.

^{٢٤} R.P.C., p. 73.

^{٢٥} R.P.C., p. 73; Browning, *Bulgaria*, p. 69.

^{٢٦} R.P.C., p. 73; Court, *La Russie*, p. 69.

^{٢٧} Browning, *Bulgaria*, p. 70.

^{٢٨} R.P.C., P. 73; Runciman, *Romanus Lecapenus*, P.113.

يعقد معاهدة بين الطرفين، دام السلام على أثرها بين الطرفين لما يزيد على عشرين عاماً تلت^(٢٧).

وقد وصلت إلينا تفاصيل وبنود هذه المعاهدة كاملة في الحولية الروسية الأولى، وقد يكون من الأفضل الآن أن نقوم بعرض بنود المعاهدة ثم نتبعه بتحليل كامل لبنوها وتاريخها الدقيق .

فتحت أحداث عام ٩٤٥م يذكر نسطور ما يلي : " أرسل إيجور مبعوثيه الشخصيين إلى رومانوس، وجمع الإمبراطور نبلاؤه *boyars* وخاصته وأدخل الرسل الروس إلى حضرته وأمرهم بالحديث وأمر بأن تسجل ملاحظات الطرفين على السوف. وختمت نسخة من الاتفاق من قبل الأمراء الأكثر ورعاً رومانوس، قسطنطين، ستفن وهي على النحو التالي :

نحن رسل الأمة الروسية : إيفار *Ivar*، رسول إيجور، أمير الروس العظيم، والرسل الآخرون على النحو التالي : فيفاست *Vefast*، ممثلاً لسفياتوسلاف *Sviatoslav*، ابن إيجور؛ إيسجوت *Isgaut*، عن الأميرة أولجا *Olga*؛ سلوئي *Slouthi* عن إيجور، ابن أخ الأمير إيجور؛ أوليف *Olief*، عن فلاديسلاف *Vladislav*، كانيترار *Kanitzar* عن بريد سلاف *Predslava*؛ سبجيبيرون *Sigbjorn* عن سفانيلد *Svanhild*، زوجة أوليف؛ فريستين *Freystein* عن ثورث *Thorth*، ليف عن أرفاست *Arfast*؛ جريم *Grim* عن سفركي *Sverki*؛ فريستين *Freystein* عن هاكون *Haakon*، ابن أخ إيجور؛ قاري *Kari* عن ستونيثج *Stoething*؛ كارل سفني *Karlsefni* عن ثورث *Thorth*؛ هجري *Hegri* عن إلفنج *Efling*؛ فويست *Voist* عن فويلك *Voilk*؛ إيستر *Eistr* عن أموند *Amound*؛ فريستين *Freystein* عن بيرون *Bjorn*؛ ياتفنج *Yatving* عن جونار *Gunnar*؛ سبجفريد *Sigfrid* عن هالندان *Halfdan*؛ كيل *Kill* عن كالكي *Kalkki*؛ ستينجي *Steggi* عن يوتون *Jotune*؛ سفركي *Sverki*؛ هلافارث *Hallvarth* عن جوتي *Guthi*؛ فورتي *Forthi* عن ثرواند *Throand*؛ منثور *Munthor* عن أوت *Ut*؛ ومعهم التجار أوتون *Authun*، أوتولف *Authulf*، إنجيفالد *Ingivald*، أوليف *Olief*، فروتان *Frutan*، جمل *Gamal*، قوسي *Kussi*، هيمنج *Heming*، ثورفريد *Thorfrid*، ثورستين *Thorstein*، بروني *Bruni*، هروالد *Hroald*، جونفاست *Gunnfast*، فريستين *Frystein*، إنجالد *Ingjald*، ثوربيرون *Thorbjorn*، ماني

^(٢٧) Browning, *Bulgaria*, p. 70; Court, *La Russie*, p. 97; Jenkins, *Byzantium*, p. 250.

Manni، هروالد *Hroald*، سفين *Svein*، سستير *Styr*، هالفدان *Halfdan*، تير *Tirr*، أسكبراند *Askbrand*، فيسليف *Visleif*، سيفينكي بوريش *Sveinki Borish*^(١٤) : أرسلنا من قبل إيجور، أمير الروس العظيم، ومن قبل كل أمير [من الأمراء] وكل شعب أرض الروس، الذين بواسطتهم يتم تجديد السلام السابق، الذي تقوض عن طريق الشيطان، الذي يمقت السلام ويحب الشقاق، وترسيخ الوئام بين اليونانيين والروس لسنوات طوال قادمة".

"وقد بعثنا أميرنا العظيم إيجور، وأمراؤه ونبلاؤه *boyars* التابعون له، وكل الشعب الروسى إلى أباطرة اليونان [أي بيزنطة] العظماء رومانوس وقسطنطين وستفن، لكي نقيم رابطة الصداقة مع الأباطرة أنفسهم، بالإضافة إلى نبلاتهم، والشعب اليوناني كله من الآن فصاعدا وإلى الأبد، مادامت الشمس تشرق، والعالم يقف راسخا".

"إذا حاول أى ساكن من سكان أرض الروس أن ينتهك هذا الاتفاق، فإن مثل هؤلاء المنتهكين، إذا ما كانوا ممن اعتنقوا الدين المسيحى، فإنهم فى حالة إدانتهم يستحقون عقاب الرب القادر والهلاك إلى الأبد . وإذا كانوا من غير المسيحيين، فإنهم لن يتلقوا العون لا من الرب ولا من بيرون *Perun* : وقد لألحمهم دروعهم الخاصة، بل قد يذبحون أنفسهم بواسطة سيوفهم الخاصة، أو يطرحون أرضا بواسطة سهامهم أو بواسطة أى سلاح من أسلحتهم الخاصة، وقد يزرعون فى العبودية للأبد".

البند الأول: [واشترط اليونانيون التالي:] "سوف يرسل أمير الروس العظيم ونبلاؤه إلى اليونان، وإلى الأباطرة اليونانيين العظماء كثيرا من السفن حسبما يشاءون، بصحبة وكلائهم وتجارهم، طبقاً لما هو معمول به . وقد حمل الوكلاء حتى يومنا هذا أختاماً ذهبية، والتجار أختاماً فضية. بل إن أميركم أحبط علما بأن عليه أن يبعث بشهادة إلى حكومتنا. وأى من هؤلاء الوكلاء أو التجار يرسله الروس إلينا، لابد وأن يزود بمثل هذه الشهادة لإثبات أن عدداً معيناً من السفن قد أرسل؛ وبهذه الوسائل سنكون متأكدين من أن مجيئهم ينطوى على حسن النوايا".

البند الثامن: "لكن لو جاعوا إلينا بدون هذه الشهادة واستسلموا لنا فإننا سوف نحتجزهم ونبقى عليهم حتى نبلغ أميركم، وإذا لم يستسلموا بل لجأوا إلى المقاومة فإننا سنقتلهم، ولا دية تسلم للأمير جزاء قتلهم. ومن ناحية ثانية، إذا هربوا إلى الروس سوف نخبر أميركم، وليتصرف معهم حسبما يراه نافعاً".

^(١٤) تتبغى الإشارة هنا إلى أن تعريب هذه الأسماء جميعاً نقلًا عن الترجمة الإنجليزية الحولية الروسية الأولى .

البند الثالث : "إذا جاء الروس بلا بضائع، فلن يصرف لهم المخصص الشهري وفوق هذا فإن أميركم عليه أن يمنع وكلاءه والروس الآخرين القادمين إلينا من ارتكاب العنف في قرانا وبلدنا . وعلى هؤلاء الروس القاسمين إلينا أن يقيموا بضاحية كنيسة سان ماماس^(٢١) St. Mamas. وسوف تقوم سلطاتنا بتسجيل أسمائهم، وعندئذ سوف يتلقون مخصصهم الشهري . وهذه المعونة حسب مكانة الوكلاء، أما التجار فتصرف لهم المعونة الشهرية المعتادة، يتقدمهم أولئك الذين من كييف، ثم الذين من تشيرنيجوف^(٢٢) Chernigov وبيرياسلاف^(٢٣) Pereyasavl".

وهؤلاء سوف يدخلون المدينة من خلال بوابة واحدة في مجموعات قوام كل منها خمسون رجلاً وهم مجردون من السلاح . وسيمارسون تجارتهم كيفما يشاءون ثم يغادرون المدينة . وسوف يحرسهم ضابط

^(٢١) ضاحية سان ماماس : لم تكن ضاحية نائية، بل كانت على قدر من الأهمية بالنسبة للقسطنطينية . فيخبرنا كودينوس، في كتابه عن المنشآت، أنه كان بها قصر إمبراطوري ومضمار خاص بالأمباطرة ، انظر، Georgii Codini De Aedificiis, in: Opera Omnia, ed. J. P. Migne, PG, tome 157, 598. (Turnholt, 1970), col.

وفي هذا القصر كان يعيش الإمبراطور قسطنطين الخامس في كثير من فترات حكمه . كذلك أقامت به الإمبراطورة إيرين وابنها قسطنطين السادس عندما وقع زوال القسطنطينية في ٧٩٠/٢٩٠م. وفي نفس هذا القصر الذي شهد الاحتفال بزواج قسطنطين السادس، شهد أيضا حادثة حرمانه من البصر . كما أقام به ميخائيل الثالث مرارا، بل إن اغتياله على أيدي باسيل المقتول، كان في هذا القصر أيضا. ويذكر أن كروم Crum، خان البلغار، قد اجتاحت ضاحية سان ماماس سنة ٨١٢م، وأضرم النيران في قصر الإمبراطوري، وحطم التماثيل بعد أن حمل معه كل ما هو ثمين على عريات إلى عاصمته . وبالرغم من هول الكارثة، لم تلبث سان ماماس أن تصبح ثانية مقرا إمبراطوريا . وأصبح بناؤها لا يقل أهمية عن ذي قبل . وهذه الضاحية أيضا كان يوجد سجن البروستيون Proasteion، الذي شهد الكثير من المعتقلين السياسيين، لاسيما إبان الحركة للأقونية . وكانت سان ماماس تستقبل الحجاج السلاف عند مرورهم بها، وهم في طريقهم إلى القدس . ولأمراء أن هؤلاء الحجاج، الذين توفر لهم القسطنطينية أماكن كثيرة للعبادة، كانوا يتخذون من الأديرة محال إقامة لهم، برغم أنها كانت ممثلة بالرهان البيزنطيين ، انظر، Porgoire, R., " Saint Mamas le quartier des Russes à Constantinople ", EO, 11 (1908), pp. 206 – 209.

^(٢٢) تشيرنيجوف : كانت تقع على أحد روافد نهر الدنيبر، ويسمى نهر ديزنا، شمالي العاصمة الروسية كييف . ^(٢٣) بييراسلاف : المقصود هنا بييريا سلاف الصغرى، والتي كانت تسمى باليونانية Πρεσλαβίτις . وتقع جنوب شرق كييف، في نلتا نهر الدانوب، من المحتمل بالقرب من كيرناتودا Cernavoda . ومن المحتمل أنها كانت موضع بلاط البلغار قبل نزوح اسباروخ إلى الأراضي الفينطية . وكانت ذات أهمية تجارية عالمية آنذاك . انظر، Browning, Bulgaria, p. 100; Oikonomides, N., " Presthlavitz, the Little Preslav ", Sudot-Forschungen, 42(1983), p. 4; reprinted also in: Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade, (Hampshire, 1992).

من حكومتنا، فإذا ما ارتكب أحد الروس أو اليونانيين [أى البيزنطيين] خطأ، كان عليه تقيمه".

البند الرابع : "وعندما يدخل الروس المدينة، لن يكون لهم الحق فى شراء حرير إلا بما يوازى قيمته خمسين بيزنط [دينار بيزنطى] . ومن ناحية ثانية فإن عليهم عرض مشترياتهم من الحرير على الضابط الإمبراطوري ليقوم بدمغها ثم إعادتها لهم ثانية . وعندما يعتزم الروس الرحيل من هنا فإننا سوف نمددهم بالإمدادات اللازمة للرحلة، وكذا ما يحتاجونه لسفنهم، (وهذا منصوب عليه سابقاً)، وسيعودون إلى بلادهم سالمين . وليس لهم الحق فى قضاء الشتاء فى سان ماماس" .

البند الخامس : "إذا هرب أحد الأرقاء من سادته الروس، بينما هم داخل نطاق إمبراطوريتنا، أو بالقرب من حى سان ماماس، فإنه سوف يعتقل إذا ما عثر عليه فى هذا النطاق؛ وإذا لم يعثر عليه، فعلى الروس المسيحيين أن يقسموا طبقاً لعقيديهم المسيحية، وغير المسيحيين طبقاً لعرفهم، وعندئذ سوف يتلقون منا ثمنهم، وهو عبارة عن قطعتين من الحرير لكل رقيق، طبقاً للشروط السابقة . وإذا هرب أى رقيق من أرقاء إمبراطوريتنا أو من مدينتنا أو من أى مكان آخر عندكم حاملاً أى شئ معه، على الروس أن يردوه إلينا ثانية ؛ وإذا لم يمس ما استولى عليه، يتلقى من عثر عليه اثنين بيزنط من قيمته" .

البند السادس : "إذا حاول أحد الروس سرقة رعايا إمبراطوريتنا، فإن من يقترب مثل هذه الأفعال سوف يعاقب عقاباً شديداً وسوف يدفع ضعف قيمة ما سرقه . وإذا ارتكب يونانى إثماً ضد أحد الروس، فإنه سوف يعاقب بنص عقوبة الأخير . وإذا ما قام أحد الروس بسرقة أحد اليونانيين، أو سرق أحد اليونانيين أحد الروس، فإن عليه أن يعيد له ليس فقط الشئ المسروق بل أيضاً ما يوازى قيمته . وإذا حدث وأن الشئ المسروق قد تم بيعه، فإنه سوف يرد ضعف ثمنه، وتوقع العقوبة على السارق طبقاً للقانون اليونانى [أى القانون البيزنطى] وطبقاً للقانون الروسى" .

البند السابع : "ومهما يكن الأسرى من الشباب والفتيات الذين أسرهم الروس من ممتلكاتنا، فسوف يدفع اليونانيون فدية لهم قدرها عشرة بيزنط لكل منهم ويسترد الأسرى . وإذا كان الأسرى فى منتصف العمر فإن اليونانيين

[أى البيزنطيين] سوف يدفعون ثمانية بيزنط لكل منهم ويستردوا . لكن في حالة ما إذا كان الأسرى شيوخاً أو أطفالاً صغاراً فإن القدية ستكون خمسة بيزنط . ولو أن هناك أسرى من الروس مستعدون في اليونان [أى بيزنطة] فإن الروس سوف يدفعون قدية لهم قدرها عشرة بيزنط لكل منهم . وإذا كان قد اشتراهم أحد اليونانيين، فيتمتع عليه أن يؤدى القسم وسوف يتلقى ما يوازي سعره كاملاً” .

البند الثامن : "فيما يتعلق بإقليم خرسون وكل المدن الواقعة في نطاقه، فليس لأمرير الروس الحق في أن يغير على هذه المواضع، وأن يكون هذا الإقليم خاضعاً لكم وإذا طلب أمير الروس منا جنوداً ليؤمن حرباً فنحن موافقون على تزويده بأى عدد يطلبه"^(٣٢).

البند التاسع : "إذا وجد الروس سفينة يونانية تجنح نحو الشاطئ عليهم ألا يلحقوا بها الأذى، وإذا افترع أحدهم أى شئ منها أو أسر أحد ملاحها أو قتلته، فسيعاقب طبقاً لأحكام القانون اليوناني [أى البيزنطى] والروسى . وإذا قابل الروس الصيادين الخرسونيين عند فم نهر الدنيبر، فلا يتعرضوا لهم بأى أذى . وعلاوة على ذلك لن يكون للروس الحق فى قضاء الشتاء عند فم نهر الدنيبر، سواء عند بيلوبيرج *Belobereg* أو سان ايليوثيروس *St. Eleutherius* ، لكن عندما يسهل فصل الخريف يعودوا إلى بلادهم . وبالنسبة للبلغار السود الذين يأتون ويخربون إقليم خرسون، فإننا نطالب أمير الروس ألا يسمح لهم بأن يلحقوا الضرر بهذا الإقليم” .

البند العاشر : "إذا اقترف أحد الرعايا اليونانيين [أى البيزنطيين] جريمة فليس للروس الحق في معاقبته بل سيعاقبون طبقاً لشرع إمبراطوريتنا، وعلى قدر ما اقترفوه من جرم” .

البند الحادى عشر : "إذا قتل مسيحى روسياً أو قتل روسى مسيحياً فإن من ارتكب جريمة القتل سوف يقبض عليه أقرباء الميت ويقومون بقتله . وإذا

^(٣٢) تقترح المؤرخة الفرنسية إيرين سورلان تصحيح عبارة "لأن يكون هذا الإقليم خاضعاً لكم" إلى "إذا كان هذا الإقليم غير خاضع لنا" . وهذا التصحيح قد يكون أوقع، لأنه إذا ثارت خرسون على بيزنطة، وهى مركز المراقبة البيزنطية في منطقة السهوب، يجب على الروس التدخل لإعادة النظام إليها، وهنا يمكنهم طلب المدد العسكري من الإمبراطور البيزنطى ، انظر، Sorlin, I., "Les traités de Byzance avec la Russie: Le traité de 944", *CMRS*, vol. 4 - 4 (1961), p. 450, n. 168 .

ولمزيد من التفاصيل عن هذه المادة من مواد المعاهدة انظر الصفحات التالية .

هرب القاتل فمن حق أقرباء الميت الاستيلاء على أملاكه في حالة ما إذا كان ثرياً، وإذا كان القاتل الفار فقيراً فسوف يقتل أثره لحين العثور عليه وعندئذ يعدم".

البند الثاني عشر : "إذا ضرب روسي يونياً، أو يوناني روسياً بسيف أو رمح أو بأي سلاح آخر يفرم فاعل هذه الجريمة خمسة جنهات فضية طبقاً للقانون الروسي . وإذا كان فقيراً سوف يباع كل ما يملك حتى الثياب التي بحوزته، وفيما عدا ذلك فليقسم في نهاية الأمر حسب عقيدته بأنه لم يعد يملك شيئاً، ومن ثم يطلق سراحه".

البند الثالث عشر : "إذا رغبت حكومتنا في الحصول على المساعدة العسكرية منكم لاستخدامها ضد أعدائنا فسوف نرسل إلى أميركم العظيم وسوف يرسل إلينا بدوره ما نحتاج إليه من الجنود . ومن هذا المنطلق سوف تعلم الأمم الأخرى مدى الصداقة القائمة بين اليونانيين والروس".

البند الرابع عشر : لقد دوننا، وبتراض مشترك بيننا، هذه المعاهدة على نسختين من الرق، لتظل واحدة منهما في أيدي حكومتنا موقع عليها أسماؤنا والصليب، بينما وقع وكلاؤكم وتجاركم على النسخة الأخرى . وسوف يمضي رسل حكومتنا مع ممثلكم للمثول أمام إيجور، أمير الروس العظيم، ورعاياه . وعند استلامهم لهذه الوثيقة سوف يقسمون على أن يراعوا الصديق فيما اتفق عليه بيننا وكتب على الرق وسجلت عليه أسماؤنا".

البند الخامس عشر : [وعلى هذا النحو أزم الروس أنفسهم:] "وقد أقسم ذوونا من المسيحيين في الكاتدرائية بكنيسة سان إلياس ^(٣٣) St.Elias على الصليب المقدس القائم أمامنا، وعلى هذا الرق، على أن يحافظوا على كل ما ورد هنا وألا ينتهكوا أي شرط من شروطها؛ وإذا انتهكها أي فرد سواء كان الأمير أو العامة، مسيحياً كان أو غير مسيحي، فلن ينال عون الرب وسيفلك بسلاحه الشخصي".

^(٣٣) يمكننا معرفة موقع كنيسة سان إلياس، التي من المحتمل أنها كانت كنيسة خشبية . ويمكن القول أنها كانت تقع على تل فوق بوشينا *Pochayna* اليونانية السابقة، والقرب من موقع سان ميخائيل *St. Michael* . حيث كان يوجد الكثير من المسيحيين القرائيين. ويؤكد البعض أنها تقع في منطقة بودول *Podol*، جنوب كييف، والتي تقع على تل ميهاجلوفسكايا *Mihaglovskaja*، حيث توجد أقدم قلعة في كييف، أطم أن كانت تحت سيادة الخزر . انظر، Cross, S., "The Earliest Mediaeval Churches of Kiev", *SP*, 11(1936), pp. 477 - 478؛ Sorlin, *Le traité de 944*, p. 451, n. 170; *R.P.C., Comm.*, P.238, n. 53.

البند السادس عشر : "أما الروس غير المسيحيين فسوف يلتون دروعهم وسيوفهم المسلولة وأساورهم وأسلحتهم الأخرى، وسوف يقسمون على كل ما كتب على هذا الرق . وليحافظ عليه ايجور وكل نبلائه وكل سكان أرض الروس بإخلاص وإلى الأبد . وإذا انتهك أحد الأمراء أو المواطنين الروس، مسيحيا كان أو غير مسيحي، بنود هذا الاتفاق فإنه سيلقى الموت بواسطة سلاحه الشخصي ويصير ملعونا من الرب ومن ببيرون، لأنه حثت بقسمه. وإذا أراد الأمير العظيم ايجور أن يحافظ على العلاقات الودية بيننا فليحافظ على الحب النزيه، حتى لا يتول إلى الزوال، مادامت الشمس تشرق والعالم يقف راسخا من الآن فصاعدا وإلى الأبد"^(٢٤).

وعلى هذا النحو تنتهى بنود المعاهدة التى وقعت بين البيزنطيين والروس على اثر حملة ايجور الثانية سنة ٩٤٤م على الإمبراطورية البيزنطية، إلا أن كلمات كاتب الحولية الروسية الأولى لم تنته بعد . فقد عاد رسل ايجور إليه ثانية ومعهم المبعوثون البيزنطيون، ونقلوا إليه كل ما كلفوا به من الإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس. فقد دعا للمثول بين يديه، فأمرهم بعرض ما كلفهم به الإمبراطور، فأجابوا عليه على النحو التالى : "لقد أرسلنا إليك الإمبراطور، وهو يحب السلام ويرغب فى الإبقاء على الود والوثام معكم . وقد تسلم رسلك نعهد أباطرتنا، وقد أرسلونا لتلقى قسمك أنت واتباعك" . وصرفهم ايجور بعد أن وعدهم بالرد عليهم^(٢٥).

وفى صبيحة اليوم التالى دعى ايجور رسل الإمبراطور البيزنطى للمثول بين يديه، والذهاب معه إلى تل يقع عليه تمثال لكبير الهتهم، والمسمى ببيرون . وهناك لقى الروس أسلحتهم ودروعهم وحليهم الذهبية على الأرض وأدى ايجور وكل من تبعه من الروس القسم على الطريقة الوثنية . أما الروس المسيحيون فقد ذهبوا إلى كنيسة القديس إلياس، التى ورد ذكرها فى المعاهدة، وهناك أدوا القسم أيضا بالطريقة التى وردت فى المعاهدة . وبعد أن أدى الجميع مراسم القسم، عادوا أدراجهم، ووقع ايجور على المعاهدة المبرمة مع البيزنطيين . وقبل أن يودع ايجور سفراء الإمبراطور البيزنطى أعذق عليهم هدايا كثير من فراء، وأرقاء، وشمع، وودعهم إلى بلادهم . وعندما عاد الرسل إلى القسطنطينية أخذوا الإمبراطور البيزنطى بكل مآدار، ونقلوا إليه كلمات ايجور، ووصفوا له شعوره نحو البيزنطيين^(٢٦).

^(٢٤) R.P.C., pp. 73 - 77; Sorlin, *Le traité de 944*, pp. 447 - 452.

^(٢٥) R.P.C., p. 77.

^(٢٦) R.P.C., pp.77-78.

وهكذا، تم توقيع المعاهدة بين البيزنطيين والروس، والتي اعتبرها المؤرخ الروسي فيرنادسكي Vernadsky أعظم إنجاز حققه إيجور خلال فترة حكمه^(٣٧).

وقيل أن نتحول الآن لتحليل بنود هذه المعاهدة، ينبغي علينا توضيح التاريخ النقيق لها . فقد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن هذه المعاهدة قد تمت في عام ٩٤٤م^(٣٨). ويقول المؤرخان الإنجليزيان جوناثان شبرد J. Shepard وزميله سيمون فرانكلين S. Franklin أنه من المحتمل أنها عقدت في عام ٩٤٤م^(٣٩). أما الفريق الآخر من المؤرخين، وعلى رأسهم نسطور كاتب الحولية الروسية الأولى، فيرى أن هذه المعاهدة قد تمت في عام ٩٤٥م^(٤٠).

ولكى نجزم برأى قاطع في هذه الإشكالية ينبغي أن نعرض لرأى المؤرخة الفرنسية سورلان Sorlin، حيث تنكر قيام إيجور بحملة ثانية على بيزنطة في عام ٩٤٤، وتقول أنها ما هي إلا اقتباس من حولية جورج الراهب George الذي يتحدث عن حملة مجرية على القسطنطينية في عام ٩٣٤م، حيث تتشابه أحداثها تماما مع حملة إيجور سنة ٩٤٤م^(٤١). لكن ينبغي أن نلاحظ أن هذه الحملة المجرية ذكرها أيضا كاتب الحولية الروسية الأولى حيث يقول أن المجيار هاجموا مدينة تسارجراد [أي القسطنطينية] للمرة الأولى وخربوا تراقيا، وعقد رومانوس سلاما معهم* وذلك تحت أحداث عام ٩٣٤م^(٤٢). كما أن نفس الكاتب يميز بين هذه الحملة المجيارية الأولى، وبين حملة ثانية قام بها المجيار على القسطنطينية في عام ٩٤٣م، وفيها قام رومانوس بعقد السلام معهم أيضا^(٤٣). ومع هذا تعود وتناقض نفسها بالقول أن حملة ٩٤٤م اتبعت نفس خطوات الحملات المجيارية السابق ذكرها، حيث انتهت جميعها بعقد السلام بين الطرفين. وعلى هذا لا ينبغي ربط المعاهدة بحملة إيجور الثانية، بل بحملته

^(٣٧) Vernadsky, G. *Kievan Russia*, (New Haven, 1948), p. 37.

^(٣٨) Vernadsky, G. *The Origins of Russia*, (Oxford, 1959), p. 266; Sorlin, *Le traité de 944*, pp. 447, 455; Court, *La Russie*, p. 97; Pares, *Russia*, p. 25; Ostrogorsky, *Byz. State*, p. 242.

^(٣٩) Franklin, S. & Shepard, J., *The Emergence of Rus' 750 - 1200*, (London, 1996), p. 117.

^(٤٠) R.P.C., p. 73; Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 113; Jenkins, *Byzantium*, p. 250; Vernadsky, *Kievan Russia*, p. 37; Finlay, *Byz. Empire*, p. 318.

^(٤١) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 453.

^(٤٢) R.P.C., p. 71.

^(٤٣) R.P.C., p. 72.

الأولى على القسطنطينية في عام ٩٤١م^(٤٤). على أية حال، لا يمكن إنكار قيام إيجور بحملته الثانية على بيزنطة، فسطور يميز بين الأحداث بوضوح تام، ولا يعنى قيام رومانوس بعقد السلام في كل مرة مع المغيرين على دولته أن الكاتب يخطط للأحداث بعضها البعض أو يفتيس من الكتاب الآخرين . فالديبلوماسية البيزنطية في هذا العصر كانت في أبهى حلتها وأنشط حالاتها، وكان السلام هو واحد من أسرع الحلول التي تسارع بها بيزنطة لحفظ ماء وجهها .

وإذا عدنا إلى كلمات نسطور في الحولية الروسية الأولى، نجد أنه بدون أحداث هذه الحملة والمعاهدة التي تلتها تحت أحداث أعوام ٩٤٤ - ٩٤٥م^(٤٥) لكن ينبغي أن نلاحظ أن الأباطرة البيزنطيين المذكورين عنده هم رومانوس ليكابينوس وقسطنطين وستقن، وأن الإمبراطور رومانوس ليكابينوس قد خلعه أولاده في ١٦ ديسمبر ٩٤٤م^(٤٦). إذن فالمعاهدة لا يمكن أن تكون وقعت بعد هذا التاريخ . ولتعد ثانية إلى كلمات كاتب الحولية الروسية الأولى، حيث نعرف منه أن الإمبراطور البيزنطي إدون أن يحدد اسمه في هذا الموضوع من حديثه [بعث رسله إلى إيجور لأخذ القسم منه على وثيقة المعاهدة^(٤٧)]. وقد وصل هؤلاء الرسل إلى كييف في مستهل عام ٩٤٥م^(٤٨)، وأخذوا القسم من إيجور وشعبه على وثيقة المعاهدة، والتي بالطبع كان الإمبراطور قد وقع عليها في عام ٩٤٤م قبل إرسالها . فحين نعرف من نسطور أنه كانت هناك نسختان من هذه المعاهدة التي كتبت على الرق، واحدة وقع عليها الوكلاء والتجار الروس وهي التي حفظت في أرشيف البلاط البيزنطي، والثانية وقع عليها الأباطرة رومانوس، وقسطنطين، وستقن، وهي التي حملها رسل الإمبراطور إلى إيجور^(٤٩). وعلى هذا فالمعاهدة تنسب إلى عصر الإمبراطور رومانوس ليكابينوس، حيث وقع عليها إيجور في الشهور الأولى من عام ٩٤٥م، ويتوقع إيجور يكون قد تم عقد المعاهدة بين الطرفين . وعلى هذا فعام ٩٤٤م هو عام توقيع الإمبراطور البيزنطي عليها، وعام ٩٤٥م هو عام توقيع إيجور عليها^(٥٠). وينبغي علينا أن ننسب هذه المعاهدة إلى العام الذي اكتملت فيه أركانها، أي بتوقيع الأمير الروسي إيجور عليها .

^(٤٤) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 454.

^(٤٥) R.P.C., pp. 72-73.

^(٤٦) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 454.

^(٤٧) R.P.C., pp. 76-77.

^(٤٨) Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 113.

^(٤٩) R.P.C., p. 76.

^(٥٠) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 455.

وإذا ما تحولنا الآن لتحليل بنود هذه المعاهدة سنجد أنها نموذجاً كاملاً للمعاهدات البيزنطية الدولية في القرن العاشر الميلادي . فقد احتوت على مقدمة بين فيها الكاتب أن رسل الأمير الروسي إيجور قد جاؤا إلى القسطنطينية لإقامة السلام بين البيزنطيين، وعلى رأسهم الإمبراطور رومانوس ليكاپينوس، وقسطنطين، وسنتن، والروس، وعلى رأسهم الأمير الروسي العظيم إيجور ونبلاؤه . بعد ذلك يتحول الكاتب إلى الحديث عن محتوياتها والبنود التي أقرها الطرفان . أما خاتمة المعاهدة فكانت تعبيراً عن أنها قد دونت برضى من الطرفين وعلى نسختين من الرق، لتحفظ إحداهما في أرشيف البلاط البيزنطي، وترسل الأخرى إلى إيجور في كييف . وفي الخاتمة كان هناك التزام من الرسل بالمحافظة على كل ما ورد في الوثيقة لحسن تسليمها إلى إيجور . ومثلما وقع الأباطرة على إحدى النسختين بأسمائهم وبالصليب، فإنه كان لابد وأن يوقع الطرف الآخر على النسخة الأخرى، وهو ما قام به رسل الأمير الروسي إيجور من وكلاء وتجار، بل ذهب الإمبراطور البيزنطي إلى أبعد من ذلك وهو ضرورة أخذ القسم من الأمير الروسي نفسه ونبلائه وشعبه على النسخة المرسلة إليه من المعاهدة . ونظراً لأهميتها فقد أمر الإمبراطور البيزنطي أن تكتب على السرق، وهو الأطول عمراً، على الرغم من أن الورق كان معروفاً للبيزنطيين .

وإذا ما دققنا النظر في أسماء الرسل الذين بعث بهم إيجور إلى القسطنطينية لعقد معاهدة ٩٤٥م سنجد أنهم ينقسمون إلى فئتين : الأولى وهم الممثلون الرسميون للأمير الروسي إيجور وباقي الأمراء الروس . الثانية وهم التجار الروس أنفسهم، المعنيون بأمور التجارة مع بيزنطة . والفئة الأولى من السفراء عبارة عن قائمة لخمسة وعشرين سفيراً، وباستثناء إيفار ممثل إيجور، هناك أربعة وعشرون سفيراً يمثلون أربعة وعشرين أميراً روسياً، وهم يشكلون خاصة الأمير الروسي من النبلاء، ويسمون *boyards* . إذن فنحن أمام تنظيم سياسي يعكس لنا الوضع السياسي في بلاد الروس في منتصف القرن العاشر الميلادي، قوامه الأمير الأعظم يتبعه أربعة وعشرون أميراً آخرين .

وهذا التنظيم السياسي أكثر اتساعاً مما كان عليه في مستهل القرن العاشر الميلادي، حيث كان للتنظيم الروسي عبارة عن الأمير الروسي العظيم يتبعه اثنا عشر أميراً^(٥١). وهذا يعني أنه بعد ثلاث وثلاثين عاماً تقريباً من توقيع معاهدة ٩١١م بين الطرفين ازداد حجم الأراضي الروسية واتسع نطاق سيادة الأمير الروسي. أما فيما يخص أسماء الأعلام التي وردت في الفئة الأولى من سفراء الأمير الروسي إيجور فسند أن غالبيتها اسكنديافية، ما عدا مبعوثي الأميرة أولجا، والأميرة بريدسلاف، وكذلك مبعوث الأمير أفاست، ومبعوث الأمير جونار، فهم يحملون أسماء سلافية. وينتمي مبعوثو الأميرتين أولجا وبريدسلاف إلى استونيا، في الشمال الغربي من كييف^(٥٢). وربما كان ذلك بسبب أن أولجا ولدت في مدينة بسكوف *Pskov*، الواقعة في الشمال الغربي من كييف^(٥٣). أما ليف، مبعوث الأمير أفاست، فإن اسمه مشتق من اسم إحدى القبائل الفنلندية وتسمى *Livi* أو *Libi*. وأخيراً فإن ياتفنج مبعوث الأمير جونار، فإسمه مشتق من اسم قبيلة ليتوانية عاشت في منطقة نمن السفلى^(٥٤).

وفيما يخص الفئة الثانية من سفراء الأمير الروسي إيجور وهم التجار، فلا نجد بينهم سوى اسم واحد فقط استواني وهو التاجر اسكيراند، أما الاسم الأخير في قائمة التجار هذه والمدعو سفينكي بورش فربما كان المترجم الذي صاحب هذه السفارة الروسية^(٥٥). أما بقية الأسماء فقد كانت اسكنديافية تماماً، وهذا يعني أن رؤوس الأموال الروسية كانت لا تزال يحتكرها التجار الاسكنديافيون، وقد قبلوا أن يشترك معهم أحد التجار السلافيين في سفارتهم إلى القسطنطينية^(٥٦).

^(٥١) Sorlin, *Les traités*, pp. 331 - 332; Soloviev, A., "L'organisation de L'état russe au X^e siècle ", *L'Europe aux IX^e-X^e siècles*, (Varsovie, 1968), pp. 251-253; reprinted also in: *Byzance et l'information de L'état russe*, (London, 1979).

^(٥٢) Soloviev, *L'état russe*, p. 253.

^(٥٣) Soloviev, *L'état russe*, p. 253, n.25.

^(٥٤) Soloviev, *L'état russe*, p. 253.

^(٥٥) Soloviev, *L'état russe*, pp. 251,254.

^(٥٦) Soloviev, *L'état russe*, p. 254.

والآن نجد إلزاماً علينا أن نسرّع الخطى لنقرأ بنود معاهدة ٩٤٥م البيزنطية - الروسية، ونرى عما ستسفر هذه القراءة . وإذا تفحصنا بنود هذه المعاهدة سنجد أنها تكاد تنقسم إلى ثلاثة أقسام، يعالج كل قسم منها موضوعاً بعينه . فالبنود الأول والثاني والثالث والرابع كلها تعالج العلاقات التجارية بين الطرفين . والبندين الثامن والتاسع يعالجا موضوعاً آخر، ففيه تسوية للأموال المتعلقة بين الطرفين حول وضع خرسون في العلاقات السياسية بينهما . والبند الخامس والسادس والعاشرون والحادي عشر والثاني عشر تختص بجرائم الاعتداءات والسرقة والقتل وماهيتها وعقوباتها بين الطرفين، ويقول آخر فهي تختص بالقانون الدولي؛ كذلك البندين السابع والثالث عشر يتعلقان بالأمور العسكرية بينهما وتبادل الأسرى . وإلى جانب هذه الأقسام الثلاثة لبند الوثيقة، فإنه توجد هناك مقدمة وخاتمة وهي التي صنفناها هنا بالبند الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر . ويبدو أن هذه المقدمة والخاتمة قد أضيفتا للمعاهدة بناء على طلب الروس^(٥٧).

وبالنظر إلى البند الأول من القسم الأول سنجد فيه تحفظات دقيقة للغاية من الجانب البيزنطي للتأكد من أهلية وهوية القادمين الروس إلى القسطنطينية^(٥٨). وحتى يتم التأكد من نواياهم السلمية لم يكتف البيزنطيون بالأختام التي حملها التجار الروس، بل أقرروا ضرورة إحضار شهادة موثقة من قبل الأمير الروسي لتكون شاهداً على نواياهم السلمية^(٥٩). وقد نتساءل عن سر هذه القيود الصارمة التي يضعها البيزنطيون على دخول الروس إلى بلادهم ! هل السبب في هذا الحملات العسكرية التي شنّها الروس عليهم ؟ ربما كانت الإجابة عن هذه التساؤلات تحتاج منا التريث قليلاً ونحن نقرأ كتاب الإمبراطور قسطنطين بورفيروجينيتوس عن الإدارة الإمبراطورية . فهذا الكتاب، وبالتحديد الفصل التاسع منه، يوضح لنا الرؤية ونعرف منه أن التجار الروس كانوا دائماً يسافرون وهم مدججون بالسلاح، بهدف للدفاع عن النفس، كما في حالة

Sorlin, *Le traité de 944*, p. 456.

Court, *La Russie*, p. 97.

Sorlin, *Le traité de 944*, p. 457.

(٥٧)

(٥٨)

(٥٩)

مرورهم بإقليم البشناق وهم في طريقهم إلى القسطنطينية^(١٠). إنن فالتاجر الروسى يمكن أن نسمية "التاجر المقاتل"، والذي قد يتحول في لحظة إلى مقاتل شرس ضاربا بالتجارة في هذه اللحظة عرض الحائط . ولذلك فقد حتم عليهم الإمبراطور رومانوس ليكابينوس الدخول إلى العاصمة القسطنطينية وهم مجردون من السلاح^(١١)، خشية ارتكاب جرائم العنف ضد المدنيين البيزنطيين^(١٢). وهناك ثمة ملاحظة هامة تشير إليها المؤرخة الفرنسية سورلان، وهى أن الروس قديما لم يستخدموا الكتابة، أما الآن فهم يستخدمونها في علاقتهم مع بيزنطة^(١٣).

وفى البند الثانى من المعاهدة توضيح للإجراءات التى ستتخذ ضد التجار الروس غير الشرعيين، وهى القبض عليهم وإيداعهم السجن . وإذا لجأ هؤلاء إلى استخدام السلاح فعقوبتهم القتل، وفى هذه الحالة فليس للأمير الروسى العظيم الحق فى المطالبة بدية لهم . أما إذا تمكن هؤلاء التجار غير الشرعيين من الهروب إلى بلادهم فسيرسل البيزنطيون إلى الأمير الروسى ليخبروه بما حدث، وليتصرف هو معهم كيما يشاء .

والبند الثالث من المعاهدة، يبين حرص البيزنطيين الشديد على الحصول على المنتجات الروسية^(١٤)، ويبين لنا عقوبة من يأتى للتجار فى القسطنطينية وهو خالى الوفاض من منتجات بلاده، وذلك بحرمانه من المعونة الشهرية التى تصرفها الإدارة الحكومية فى القسطنطينية لهم . ولضمان عدم اعتدائهم على المدنيين بالقسطنطينية، فقد خصصت لهم ضاحية من ضواحي العاصمة، وهى ضاحية سان ماماس، الواقعة خارج المدينة شمالا، على القرن الذهبى، وفى مواجهة الجبابة اليهودية^(١٥). وعند دخولهم إلى

^(١٠) قسطنطين بورغويونيتوس، *الإدارة*، ص ٦٠ - ٦٤

DAI, I, pp. 56-63;

R.P.C., pp. 74 -75.

R.P.C., pp. 74.

Sorlin, *Le traité de 944*, p. 457.

يبين لنا ابن النديم، الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى، شكل الخط الذى كان يكتب به الروس، ويعطى مثلا عليه :

ونقديم / Johannes Roediger، (بيروت، ١٩٦٤)، ص ٢٠ .
نظر، كتاب الفهرست، تحقيق/ Gustav Flugel مراجعة

^(١١) نظر الفصل الأول من الباب الثالث من البحث .
^(١٢) Court, *La Russie*, p. 97.

العاصمة يدخلون في مجموعات صغيرة، الواحدة تلو الأخرى، وهم تحت الحراسة، حيث كان يصحبهم أحد الضباط البيزنطيين، الذي كانت واحدة من مهامه ردع المخطئين منهم أثناء وجودهم داخل القسطنطينية .

أما البند الرابع، من القسم الأول من المعاهدة، فيختص بتجارة الحرير داخل أسواق القسطنطينية، وفيه تعهد من قبل الحكومة البيزنطية بـتزويد التجار الروس بالعتاد اللازم، من مواد الإعاشة والخشب، وكل ما هو ضروري لرحلة العودة إلى بلادهم مجاناً^(١٦).

وهكذا ينتهي القسم الأول من المعاهدة، والذي عالج العلاقات التجارية بين البيزنطيين والروس . أما القسم الثاني من المعاهدة، فيحتوي على ستة بنود تضم الخامس والسادس، ومن التاسع إلى الثاني عشر، وكما قلنا سابقاً فجميعها تختص بما نعرفه الآن بالقانون الدولي، المعمول به بين الدول، وعلى وجه التحديد بين بيزنطة والروس .

والبند الخامس من المعاهدة، يتعلق بالأرقاء سواء الفارين من بلاد الروس إلى الإمبراطورية البيزنطية، أو العكس . فإذا عثر البيزنطيون على رقيق روسي هارب من سيده فإنهم على الفور سيلقون القبض عليه وإيداعه المعتقل، وإذا لم يعثروا عليه فإنهم سيدفعون للروس ثمنه^(١٧) . أما إذا هرب رقيق من أرقاء بيزنطة إلى بلاد الروس، كان لزاماً عليهم رده إلى بيزنطة مرة ثانية . وإذا كان هذا الرقيق قد حمل شيئاً معه أثناء هروبه وضبط معه فليرده الروس أيضاً . وإذا كان كاملاً ولم ينتقص منه شيئاً فسوف تصرف مكافأة قدرها اثنان نوميذما بيزنطية لمن عثر عليه ولم تسول له نفسه الاستئثار به أو بجزء منه .

الواقع أن هذا البند اقتبس من معاهدة ٩٠٧م بين البيزنطيين والروس، ومن ثم يبدو لنا أن الروس قد اتخذوا من سان مامباس مقاماً لهم لحين سماح السلطات البيزنطية لهم بالدخول إلى العاصمة. انظر، R.P.C., p. 65; Sorlin, *Les traités*, p. 330.
Court, *La Russie*, p. 98.
R.P.C., p. 75.

(١٦)
(١٧)

جدير بالذكر هنا أن قيمة الرقيق كانت عبارة عن قطعتين من الحرير، بينما في معاهدة ٩١١ المبرمة أيضا بين الطرفين، كان ثمنه عشرين نوميذما^(٢٨). ومن الملفت للنظر أن قيمة الرقيق تغيرت في خلال ثلاثة وثلاثين عاما تقريبا، ما بين عام ٩١١ وعام ٩٤٥م، وهذا قد يؤثر تساؤلا! فمن المحتمل أن التجار الروس كانوا يفضلون المقايضة على العملة وأن الذهب لا يعنى لهم قيمة كبيرة عن البضاعة خاصة إذا كانت بضاعة ثمينة، أو أن بيزنطة كانت تفرض عليهم هذا النظام آنذاك. ويتبعني أن نضع في الحسبان أن هروب أحد الأرقاء الروس كان يعنى خسارة كبيرة لهم، لأن الأرقاء كانوا يشكلون إحدى الصادرات الروسية الهامة إلى العالم الخارجى^(٢٩).

ويتناول البند السادس من المعاهدة جرائم السرقة التى تحدث بين الطرفين، سواء السرقة بالإكراه، أو غير الإكراه. والشيء الملفت للنظر هنا أن هذا البند احتوى على عبارتين كليهما يعالجان جرائم السرقة وتكاد تكون العقوبات متشابهة. فيقول نسطور فى الحولية الروسية الأولى، "إذا حاول أحد الروس سرقة رعايا إمبراطوريتنا ... ثم يذكر عبارة أخرى مشابهة للأولى "إذا قام أحد الروس بسرقة أحد اليونانيين ..."، واستكمالا للعبارة الأولى، على الجانب الروسى يقول "... إذا ارتكب يونانى إثما ضد أحد الروس ..."، والعبارة الثانية "... أو سرق أحد اليونانيين أحد الروس ..."^(٣٠). ما الفرق إذن بين هاتين العبارتين، ولماذا يكرر الكاتب نفس الكلام فى نفس البند؟! يبدو أن العبارة الأولى قصد بها للكاتب السرقة بالإكراه، سواء كان السارق روسيا أم بيزنطيا. ومما يعضد ذلك صيغة العبارة الأولى "... إذا حاول ... فيها إشارة ضمنية للقيام بجريمة السرقة بالإكراه. أما العبارة الثانية فقد قصد بها السرقة بوجه عام^(٣١).

وتتفاوت عقوبة السرقة فى هذا البند، طبقا للكلى :

•

Sorlin, *Les traités*, p. 335.
Sorlin, *Le traité de 944*, pp. 458-459.
R. P.C., p. 75.
Sorlin, *Le traité de 944*, p. 459.

(٢٨)
(٢٩)
(٣٠)
(٣١)

أ - إذا لم تتج السرقه بالإكراه وتم القبض على السارق، ففي هذه الحالة سوف يعاقب عقاباً شديداً .

ب - إذا نجحت محاولة السرقه بالإكراه، فلن يكتفى بالعقاب الشديد بل يدفع السارق ضعف قيمة ما سرقه .

ج - إذا تمت السرقه بصورة أو بأخرى و قبض على السارق، فعليه أن يعيد الشيء المسروق، علاوة على ما يوازي ثمنه .

د - إذا تمت السرقه وبيع السارق ما سرقه، ففي هذه الحالة عليه أن يدفع ضعف ثمنه، ويعاقب طبقاً للقانون إما البيزنطى أو الروسى . وهذه العقوبات هى عقوبات مدنية أكثر منها جنائية . وإذا أدان الأمير الروسى أحد رعاياه فى هذه الجريمة، حكم يدفع غرامة مالية إلى خزائنه، أو عينية وهى عبارة عن ماشية وفراء . أما إذا أدان أحد البيزنطيين بالسرقه، فكان القضاى يحكم عليه إما بالضرب بالمقرعة أو الحرق حياً أو الأشغال الشاقة المؤبدة أو النفى المؤقت خارج البلاد^(٧٢).

والجدير بالذكر أنه توجد عبارة هامة عند الوزير العباسى أحمد بن فضلان، الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى، يقول فيها "وإذا أصابوا [أى الروس] سارقاً أو لصاً جاءوا به إلى شجرة غليظة وشدوا فى عنقه حبلاً وثيقاً وعلقوه فيها، ويبقى معلقاً حتى ينقطع من المكث بالرياح والأمطار"^(٧٣). وتبدو هذه الرواية فى غاية الخطورة إذا ما عممناها على الروس جميعاً، خاصة وأن المصادر العربية تؤكد على أن الأمير الروسى كان هو الذى يبت فى القضايا بنفسه ويحكم فيها . فقد كان الأمير الروسى يجلس بنفسه للقضاء وفض المنازعات بين المتخاصمين، إذا ما لجأوا إليه بالشكوى^(٧٤). وقد يبدو أن هناك تضارب فيما يقول ابن فضلان وما تذكره المصادر العربية الأخرى، لكن ينبغى أن ننتبه إلى أن ابن فضلان كان يتحدث عن التجار الروس، الذين يعملون بالتجارة مع الشعوب القاطنة على ضفاف نهر الفولجا، وهذه الشعوب مهما كان مستواها الحضارى فهى لا ترقى إلى مستوى الحضارة البيزنطية،

^(٧٢) Court, *La Russie*, p. 100.

^(٧٣) ابن فضلان، رسالة ابن فضلان فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والمقابلة، تحقيق/ سلى الدهان، (دمشق، ١٩٧٨)، ص ١٨٠ .

^(٧٤) ابن رسته، الأغلاق النفيسة، مج ٧، (لندن، ١٩٦٧)، ص ١١٤٦ ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج ٤، (القاهرة، ١٩٠٨)، ص ٣٠١ . انظر أيضاً، لى عبد الجواد، الروس فى المصادر العربية، (القاهرة، ١٩٩٠)، ص ٥١ - ٥٢ .

كما أن وزنهما السياسى فى علاقاتهما مع الروس أخف بكثير مما كان عليه الحال بين الروس والبيزنطيين . ولذلك فربما تجرأ الروس وعاقبوا السارق منهم، إذا قبضوا عليه، بمثل هذا العقاب، لأن السارق جاء ليسرق منهم بضائعهم وتجارتهم التى حملوها مئات الأميال، ولا أقل من أن يصبح عبدة للآخرين، فلا يتجرأون على الاقتراب من بضائع الروس ثانية . أما من يعيشون فى كيبف والإمارات التابعة لها فكانوا يحتكمون إلى أميرهم للبت فى قضاياهم . وعلى كل حال، فقد احتاط البيزنطيون لأنفسهم من الشطط القانونى الروسى، وأعطوا لأنفسهم امتياز قانونى يمنح للمجرمين البيزنطيين، فلا يحاكمون طبقاً للقانون الروسى، بل طبقاً للقانون البيزنطى، وحسب الجريمة التى اقترفوها . وهذا ما نص عليه البيزنطيون فى البند العاشر من المعاهدة .

أما البند السابع من المعاهدة فهو يتعلق بأمر من الأمور الهامة بين البلدين وهو مسألة تبادل الأسرى وكيفية تنظيمها . ونحن نعرف إلى أى مدى كانت بيزنطة حريصة كل الحرص على استرداد أسراها وفك أسرهم، وقد حدث هذا مراراً بين البيزنطيين والمسلمين، على سبيل المثال^(٧٤) . والطريف هنا أن البيزنطيين قد وضعوا سعراً لاقتداء أسراهم، يتباين من أسير آخر حسب مرحلته السنية . فالشباب البالغين يفتدونه بعشر نوميزمات، والرجل متوسط العمر يفتدونه بثمان نوميزمات، أما الشيوخ والأطفال فيفتدونه بخمس نوميزمات للفرد منهم . واشترطوا على الروس أن تكون قيمة فديتهم لأسراهم عشر نوميزمات للفرد، دون النظر لمرحلته السنية . أما إذا اشترى أحد البيزنطيين أحداً من الأسرى الروس، فكان على البيزنطيين أن يدفعوا ثمنه كاملاً للروس^(٧٥) . وهكذا احتفظ البيزنطيون بحق تقدير فدية الأسير، طبقاً للقيمة الحقيقية له، ما بين الزيادة والنقصان . وفى الحقيقة، فقد تعرض الروس لاقتداء أسراهم، أى من هم فى سن الشباب، بينما البيزنطيون الذين أسرهم الروس خلال هجماتهم على الإمبراطورية البيزنطية كانوا فى الغالب من الشيوخ والأطفال^(٧٦) .

والبند الحادى عشر من المعاهدة يتعلق بجرائم القتل بين الطرفين . والعقوبة هنا واضحة تماماً، فالقاتل يقتل متى تم القبض عليه؛ ولكن الغريب هنا هو جعل حق تنفيذ الحكم موكلاً إلى أقرباء المتوفى، وعليه فإنهم هم الذين يتولون القيام بتنفيذ حكم الإعدام فيه مباشرة ودون الرجوع إلى القضاء . ويبدو أن هذا تأثير اسكنذاقى على

^(٧٤) عن الألفية التى تمت بين الطرفين، والمصادر التاريخية التى تحدثت عنها، انظر، حامد زيان، الأسرى المسلمون فى بلاد الروم، (القاهرة، ١٩٨٩) .

^(٧٥) Court, *La Russie*, p. 101.

^(٧٦) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 459.

المتعاهدين^(٧٨)، حيث كان الروس لازالوا يحتكمون إلى السيف^(٧٩). أما إذا هرب القاتل، ففي هذه الحالة ليس هناك سوى التعويض المادى الذى يتوقف على مدى ثراء القاتل؛ فإذا كان ثريا تصادر أملاكه لصالح ورثة المتوفى، أما إذا كان فقيرا فلن تسد لهم ثائرة إلا بعد العثور عليه وتنفيذ الإعدام فيه .

والبند الثانى عشر من المعاهدة يتحدث عن جرائم الضرب سواء كان بسيف أو رمح أو أية آلة أخرى، المهم أنها ستفضى إلى حدوث إصابة . ففي هذه الحالة يتم تطبيق القانون الروسى على الطرفين، البيزنطيين أو الروس، ويكون بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات قضية للشخص المصاب، هذا إذا كان الفاعل ثريا . أما إذا كان الفاعل فقيرا، فسيباع كل ما يملك، حتى ثيابه وليقسم بأنه لم يعد يملك شيئا حتى يطلق سراحه.

والبند الثالث عشر من المعاهدة، يخص الجانب البيزنطى فقط، ففيه يشترط البيزنطيون على الروس ضرورة تقديم القوات العسكرية لهم، متى طلبوا ذلك من الأمير الروسى، وبالأعداد التى يحتاجونها . ولعل هذا البند من المعاهدة هو الذى استند إليه الأباطرة البيزنطيون فى طلبهم فيما بعد المدد العسكرى من الأميرين سفياتوسلاف، وفلاديمير الأول كما سنرى بعد ذلك . ولكن السؤال الذى يتبادر إلى الذهن لماذا اشترطت بيزنطة على الروس هذا الشرط، على الرغم من أن القرن العاشر الميلادى هو العصر الذهبى للعسكرية البيزنطية، بل العصر الذى أفرز العديد من المؤلفات العسكرية الثمينة بحق، والى نفق منها على حالة الجيش البيزنطى وأسلحته وتكتيكاته.

لامراء فى أن الفارانجيين والروس قد عرفوا طريقهم إلى الجيش البيزنطى بدءا من القرن العاشر الميلادى فصاعدا، ليزداد تألقهم كحاربين أشداء فى القرن الحادى عشر الميلادى بعد أن تشكل منهم الحرس الإمبراطورى . وقد أسهبت المصادر العربية فى الحديث عن المرتزقة الروس العاملين فى الجيش البيزنطى فى القرن العاشر الميلادى . فقد ذكر المسعودى عنهم ما بلى "... وقد دخل كثير منهم [إلى الروس] فى وقتنا الحالى هذا فى جملة الروم ... فشحنوا بهم كثيرا من حصونهم التى تلى الثغور الشامية، وجعلوهم بإزاء برجان [إحدى الأمم التركية] وغيرهم من الأمم المتأبدة لهم والمحيطه بملكهم^(٨٠)..." . وهناك الكثير من الأمثلة الأخرى التى وردت فى

^(٧٨) Court, *La Russie*, p. 99.

^(٧٩) فى عبد الجواد، الروس، ص ١٧٩ الرمزى، *تلقى الأخبار وتلقيح الأثر فى وقتل قزان وبانار وملوك التتار*، ج ٢، (أو نيورغ، دمت)، ص ١٦٠ .

^(٨٠) المسعودى، *التشيبة والإشراف*، (القاهرة، ١٩٣٨)، ص ١٢٢ .

المصادر العربية المختلفة، والتي توضح أن الروس كانوا يشكلون جزءاً لا ينفك عن المرتزقة العاملين في الجيش البيزنطي^(٨١).

وبالإضافة إلى المصادر العربية، تؤكد لنا المصادر البيزنطية العسكرية، التي تعود إلى القرن العاشر الميلادي، الدور الذي لعبه المرتزقة الروس في الجيش البيزنطي آنذاك. فيذكر قسطنطين بورفيروجينيتوس في كتابه الهام عن مراسم البلاط البيزنطي *De Cerimoniis Aulae Byzantinae* أن الروس اشتركوا في الحملة البيزنطية على كريت في عام ٩١١م وكان قوامهم فيها سبع مائة روسي^(٨٢)، بتقاضى الفرد منهم اثنتين وأربعين نوميئزما^(٨٣). وقد اشترك حوالي ٤١٥ روسيا في الحملة البيزنطية المرسلة إلى لونغوبارديا *Longbardia*^(٨٤) وحوالي ٦٢٩ روسيا في الحملة البيزنطية الثانية على كريت سنة ٩٤٩م^(٨٥). وفي كتاب *De Re Militari*، المجهول المؤلف، والذي يعود إلى القرن العاشر الميلادي نجد هذا التعبير *ὡς ὑποτασσόμενοι* الذي يدل على عمل الروس بالجيش البيزنطي^(٨٦). ومن المؤلفات البيزنطية الأخرى لنقفور فوكاس ونقفور أورانس، يتأكد لنا عمل الروس في الجيش البيزنطي^(٨٧). وكان يتميز هؤلاء المقاتلون الروس بالبسالة والشجاعة والثبات في أرض المعركة لساعات طويلة دون إيداء أي تعب أو عناء من القتال. فهم كما يقول المؤرخ الروسي سوليف

^(٨١) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، تحقيق/ نخبة من العلماء، ج٢، (بيروت، ١٩٨٣)، ص ٣١، ١١٠٩ ابن الحديم، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، تحقيق/ سامي الداهان، ج٢، (دمشق، ١٩٥٤)، ص ٢٤، ابن القليس، *دبل تاريخ دمشق*، تحقيق/ هـ.ف. أميدروز، (بيروت، ١٩٠٨)، ص ٤٣.

^(٨٢) Constantine Porphyrogenitus, *De Cerimoniis Aulae Byzantinae*, ed., I. Reiskii, CSHB, Vol. II, (Bonnae, 1829), chap. 44, pp. 651, 654 – 655; Mcgeer, E., *Sowing the Dragon's Teeth*, (Washington, 1995), p. 209.

^(٨٣) Const. Porph., *De Cerimoniis*, II, p. 654.
ذكرت د/ لسمت غنيم خطأ أن المجدد الروسي في هذه الحملة كان يتلقى ٤٣ نوميئزما. انظر، *الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية*، (الإسكندرية، ١٩٨٣)، ص ٢٠٧. والمصحح هو ما ذكر أعلاه نقلاً عن قسطنطين بورفيروجينيتوس.

^(٨٤) Const. Porph., *De Cerimoniis*, II, p. 660; Mcgeer, *Sowing*, p. 209.

^(٨٥) Mcgeer, *Sowing*, p. 209; Benedikz, B., "The Evolution of the Varangian Regiment in the Byzantine Army", *BZ*, 62 (1969), p. 22.

^(٨٦) *Liber De Re Militari*, ed. R. Vari, (Lipsiae, 1901), pp. 21, 31, 44.

^(٨٧) *Στρατηγικὴ Ἐκθεσις καὶ Σύνταξις Νικηφόρου Δεσπότης*, Eng. trans. E. Mcgeer, in: *Sowing the Dragon's Teeth*, (Washington, 1995), P.15; *Τακτικά Στρατηγικά τοῦ Οὐρανοῦ*, Eng. trans. E. Mcgeer, in: *Sowing the Dragon's Teeth* (Washington, 1995), p.91.

Soloviev بوسائل شجعان، عندما يغترون على شعب آخر، لا يوقفون هجماتهم إلا عندما يجهزون على عدوهم تماما^(٨٨). ويكفى أن المقتبى، شاعر البلاط الحمدانى، امتدح شجاعته^(٨٩) قائلا :

وكيف ترجى الروم والروس هدمها وذا الطعن أساس لها ودعائم^(٩٠).

وهكذا، بناء على المصادر التاريخية السابقة، تتضح لنا القيمة الحقيقية للمقاتل الروسى فى الجيش البيزنطى؛ وقد ظل المرتزقة الروس يشكلون عنصرا رئيسيا فيه فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين . ومن واقع عمل المرتزقة الروس فى الجيش البيزنطى أدرك البيزنطيون السمات العامة والخصائص القتالية للمحارب الروسى، والتي كان يتفوق بها على أقرانه من المرتزقة الآخرين القانمين سواء من شرق بيزنطة أو غربها . ومما يؤكد حرص بيزنطة على الحصول على المحاربين الروس أننا لم نسمع من قبل أنها وضعت مثل هذا الشرط فى معاهداتها مع البلغار مثلا أو مع الأمم الأخرى. وعلى هذا فإن وضع بيزنطة لمثل هذا البند العسكرى فى المعاهدة، هو شرط بيزنطى محض، راعت فيه صالحها العام، وضمنت من خلاله الحصول على أفضل وأقوى المحاربين آنذاك، وهم المحاربون الروس، لمواجهة التفوق العسكرى الذى قد يفرضه عليها أحد أعدائها .

وننتقل الآن إلى القسم الثالث من المعاهدة وهو الذى يتحدث عن وضعية خرسون السياسية بين البيزنطيين والروس ويشتمل على البندين الثامن والتاسع، لنجد أن أولهما يعتبر غاية فى الأهمية لا لأنه يعنى بأمر خرسون، لكن نظرا للخلط الذى حدث بين المؤرخين فى تفسيرهم لإحدى عباراته . ففى بداية هذا البند اشترط البيزنطيون على الروس ألا يغتروا على إقليم خرسون والمدن الواقعة فى نطاقه وهذا قد يعطى انطبعا بأن الروس تحرشوا إن لم يكن بخرسون فعلى الأقل بإحدى مدنه من قبل . لكن نظرا لأنه لم يرد فى المصادر سواء البيزنطية أو الروسية أى ذكر لهجوم روسى على خرسون من قبل، فإن هذا يرجح أن نفوذهم السياسى قد امتد جنوبا ليصلوا بحدودهم الجنوبية إلى إقليم خرسون، مما جعلهم يتحرشون بإحدى مدنه . وهذا الجزء من هذا

^(٨٨) Soloviev, *L'état russe*, p. 261.

^(٨٩) Benediktz, *Varangian*, p. 22; Schlumberger, G., *Un empereur de Byzance* Nicephore Phocas, (Paris, 1930), pp. 128 - 134 .

^(٩٠) إيلي عبد الجواد، الروس، ص ٤٨؛ زيل، أخبار اسم المجوس من الأرمن وورنك والروس، ج ١، (١٨٩٦) ص ٦٨ .

البند ليس وعدا من الأمير الروسي بعدم مهاجمة القرم *Crimea* كما ذهب فيرنادسكى^(١١)، بقدر ما هو شرط من البيزنطيين، حسبما ورد بالمعاهدة.

وحتى تتبدد المخاوف البيزنطية من التقدم الروسي جنوبا، كان لابد من وضع مثل هذا الشرط . وقد نتفق مع فيرنادسكى في أن المقصود بإقليم خرسون والمدن الواقعة في نطاقه، كما ورد بالمعاهدة، ليس مدينة خرسون البيزنطية، بل منطقة القرم، وعلى حسب كلامه فإن القرم كانت تسمى أرض خرسون *Strana Korsunskaja*^(١٢). وقد توحى لنا المصادر العربية بأن السروس امتدوا بحدودهم جنوبا، وبرضى من الخزر، الذين كانوا حلفاء لبيزنطة حتى النصف الأول من القرن العاشر الميلادي . ففي عام ٩١٣م تذكر هذه المصادر حملة روسية على الأراضي الإسلامية حول بحر الخزر . والروس كى يصلوا إلى هذه المناطق كانوا ينحدرون مع نهر الدنيبر حتى البحر الأسود ثم يعبرون مضيق كييرتش *Kerc*، بموافقة خاقان الخزر، ثم عن طريق مجرى نهري دون والفولجا يصلون إلى بحر الخزر حيث خربوا سواحله . كما تحدثنا هذه المصادر عن الحملة الروسية الكبرى على برذعة سنة ٩٤٣م - ٩٤٤م^(١٣). وهناك أدلة نستقيها من المصادر العربية تؤكد أن الروس في هذه الفترة، إمتدوا بنفوذهم السياسى جنوبا حتى سيطروا على سواحل بحر بونتس (البحر الأسود) . فالمسعودى يطلق على بحر بونتس اسم بحر البرغر والروس وغيرهم من الأمم^(١٤). أما الإدريسي فيقول فى وصفه "... وعلى ضفة هذا البحر الجنوبية مما بلى المغرب بلاد هرقلية ثم بلاد القلات وبلاد البنطيم وبلاد الخزرية وبلاد القمانيّة والروسية وأرض برجان"^(١٥) وأخيرا يصفه الكتاب المتأخرون أيضا ببحر الووس^(١٦). وعلى هذا النحو يصير مؤكدا لنا أن الروس أصبح لهم موضع قدم على البحر الأسود (بحر بونتس)، وصار وجودهم هناك خطرا على المصالح البيزنطية فى القرم . ويشير

^(١١) Vernadsky, G., "The Rus' in the Crimea and the Russo-Byzantine treaty of 945", *Byzantina - MetaByzantina*, 1(1949), pt. II, p. 258.

^(١٢) Vernadsky, *Crimea*, p.249; Sorlin, *Le traité de 944*, p.460.

^(١٣) Sorlin, *Le traité de 944*, p. 460; Soloviev, A., "Domination byzantine ou russe au nord de la mer noire à l'époque des Comnènes ?" *Akten des XI internationalen byzantinisten Kongress, 1958* (Munch, 1960), p. 574 .

ولمزيد من التفاصيل عن النشاط الروسى فى القوقاز انظر، الفصل الأول من الباب الثقى من البحث.

^(١٤) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٥٨ .

^(١٥) الإدريسي، نزهة المشتاق فى اختراق الأقاليم، ج٢، (القاهرة، دت)، ص ٩٠٥ .

^(١٦) انظر، الدمشقى، كتاب نعمة الدهر فى عجائب البر والبحر، نشرم/أ. ميهون، (البيزج، ١٩٢٢)، ص ١٤٥
ابن الوردى، خريطة العجايب وغرابة الغرباء، (مصر، ١٨٥٩)، ص ١٠٦ الميمرى، الروض المططر لى خير الأقطار، تحقيق/ إحسان عيسى، (بيروت، ١٩٨٠)، ص ٥٨٥.

سولوفييف إلى أن الروس في هذه الفترة أقاموا مستعمرة لهم في تموتوركان (مطرخه Matrach) الواقعة على ساحل بحر بونتس، شرقى القرم^(٩٧).

وبعد هذا الشرط الذي وضعه البيزنطيون على الروس، تآتى عبارة عجيبة التركيب حيرت المؤرخين يقول فيها الكاتب "... ولأن يكون هذا الإقليم خاضعا لكم . وإذا طلب أمير الروس منا جنودا ليشن حربا، فنحن موافقون على تزويده بأى عدد يطلبه"^(٩٨). وكما سبق القول فإن أحد المؤرخين قد غير تركيبة هذه العبارة إلى "وإذا كان هذا الإقليم غير خاضع لنا"^(٩٩). وفي هذه العبارة يعد الإمبراطور البيزنطى بتقديم قوات عسكرية، دون تحديد عددها، إلى الأمير الروسى، وهذه بالطبع ليستخمدنها ضد طرف ثالث . إذن لابد وأن هذا الطرف قد يغير على القرم البيزنطية أو على الممتلكات الروسية الواقعة على بحر بونتس . ويقترح فيرنادسكى أن يكون الطرف الثالث هذا هو الخزر^(١٠٠).

والبند التاسع من المعاهدة يحظر على الروس الاقتراب من أية سفينة بيزنطية تكون قد جنحت إلى الشاطئ ونهبها أو أسر أى فرد من طاقمها وإلا سينالون العقاب إما حسب القانون البيزنطى، إذا قبض عليهم البيزنطيون، أو الروسى، إذا قبض عليهم الروس . كما يعطى هذا البند للصيادين البيزنطيين الخرسونيين حرية الصيد فى مداخل نهر الدنيبر، ويحظر على الروس التعرض لهم بالأذى . وهذا قد يدعونا للقول بأن هذه التجارة، تجارة الأسماك سواء الطازجة أو المملحة، كانت على قدر من الأهمية بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية^(١٠١). ويحظر هذا البند من المعاهدة على الروس قضاء الشتاء سواء عند بيلوبيرج أو سان إيليوثيروس . ونعلم من قسطنطين بورفيريوجينيتوس أن الروس، بعد أن ينحدروا مع نهر الدنيبر، نحو القسطنطينية، كانوا يقيمون فى جزيرة سان إيليوثيروس بضعة أيام، وهى تقع بالقرب من مصبات النهر^(١٠٢)، أما بيلوبيرج فلا نعرف هل المقصود بها ضفة نهر الدنيبر عند مصبه أم مكان معين^(١٠٣). وهناك كانت تقع مصائد أسماك الخرسونيين، ويمكن اعتبار جزيرة سان إيليوثيروس نقطة

Soloviev, *Domination*, p. 574

R.P.C., P. 76.

Vernadsky, *Crimea*, p. 258.

Smedley, J., "Archaeology and the History of Cherson: a Survey of Some Results and Problems", 'Αρχ. Πόλ., 35(1978), p. 189; Sorlin, *Le traité de 944*, p. 461.

قسطنطين بورفيريوجينيتوس، *الإشارة*، ص ٦٣ . جزيرة سان إيليوثيروس هى الآن بيريزان . Sorlin, *Le traité de 944*, p. 461.

انطلاق صالحة للغاية للروس أكثر من عاصمتهم كييف^(١٠٤)، وهم يتوجهون شطر القسطنطينية. عندئذ لاغربة في أن يحظر عليهم البيزنطيون الإقامة شتاء بهذه الجزيرة.

ونأتى للنقطة الأخيرة في هذا البند من المعاهدة، وهي تخصص بإقليم خرسون أيضا . ففيها يطلب الإمبراطور البيزنطي من الأمير الروسي العظيم ألا يسمح للبغار السود بمهاجمة خرسون. والبغار السمر هنا ليسوا بالطابع بلغار الطونة، الذين كانوا يعيشون عند الدانوب، لكن ربما كانوا فرعا للبلغار الفولجا . ونحن نجد ذكر للبلغار السود عند قسطنطين بورفيروجينيتوس حيث يقول "ويمكن أيضا للبلغار السود مهاجمة الخزر"^(١٠٥).

وبهذا أعتبر قسطنطين بورفيروجينيتوس الخزر أعداء للإمبراطورية البيزنطية، لأنهم يمثلون تهديدا للقرم البيزنطية، خاصة خرسون. لكن في هذه المعاهدة يحض البيزنطيون الروس على الدفاع عن خرسون^(١٠٦) إذا هاجمها البلغار السود^(١٠٧). ويبدو لنا من عبارة قسطنطين بورفيروجينيتوس أن قوة البلغار السمر صارت أقوى من الخزر، خلفاء بيزنطة بالأس، ومن ثم فالطريق أمامهم سيصبح مفتوحا للوصول إلى بحر بونتس، وربما تهديد الممتلكات البيزنطية في القرم. وبالمثل فإنهم سوف يهددون الموضع الروسية على بحر بونتس أيضا، ومن ثم وجب الدفاع عنها . ولما كان للروس موضع قدم في هذه المناطق، فهم الذين سيتولون الدفاع عن خرسون باسم الإمبراطور البيزنطي .

وعلى هذا النحو تنتهي أقسام المعاهدة الثلاثة الرئيسية، والتي تشكل قلب المعاهدة. واللافت للنظر في خاتمة المعاهدة أن الروس كانوا خليط من المسيحيين والوثنيين، لكن كان البيزنطيون يتقدمون بالحديث أولا عن الروس المسيحيين ثم إخوانهم الوثنيين . ولم ينس كاتب المعاهدة أن يوضح في خاتمة أن هذه المعاهدة كتبت بتراض تام بين الطرفين . كما وضع العقاب الذي سيحل بأي شخص يفكر في انتهاك هذه المعاهدة، وهذا حتى يحث الجميع على الالتزام ببندوها دون الإخلال بها .

^(١٠٤) Court, *La Russie*, p. 102.

^(١٠٥) قسطنطين بورفيروجينيتوس، *الإدارة*، ص ٦٥ .

^(١٠٦) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 144.

^(١٠٧) إذا لم تكن بلغاريا السمر هي مدينة بلغار الواقعة على نهر القوجاء، فإن البلغار السمر على الأغلب كانوا يعيشون في المنطقة الواقعة بين الحدود الروسية الجنوبية وبلاد الخزر شمالا. انظر، Sorlin, *Le traité de 944*, pp.461-462.

وتعتبر معاهدة ٩٤٥م، من بين المصادر الكاملة التي تعكس لنا العلاقات المتبادلة بين البيزنطيين والروس في القرن العاشر الميلادي، فهي توضح لنا الأهمية التي أولاها الطرفان للعلاقات التجارية بينهما، كذلك تبين لنا طبيعة العلاقات السياسية بينهما . وعلى هذا النحو أفلحت بيزنطة في إيقاف إيجور عند حدود الدانوب، في حملته الثانية، بذكائها الدبلوماسي . ويمكن القول أنه إذا كانت بيزنطة هي التي قدمت عروض السلام، فلا يعني هذا أنها كانت في موقف أضعف من الروس . بل على العكس، فإنه من خلال تحليل معاهدة ٩٤٥م يتضح لنا أنها كانت الأقوى، فالامتيازات التي أعطتها لنفسها في هذه المعاهدة تفوق التي منحت للروس، خاصة إذا علمنا أن معظم هذه الامتيازات الروسية قد سبق وحصل عليها الروس في معاهدات سابقة أبرمت بين الطرفين . ولنا أن نقول أن الكلمات المعسولة والهدايا البيزنطية نجحت في كسب الروس ناحية بيزنطة في هذه المرحلة من عمر العلاقات بين الطرفين^(١٠٨).

Shepard, J., " Byzantine Diplomacy 800 - 1204 AD means and ends " in: *Byzantine Diplomacy*, ed. J. Shepard & S. Franklin, (Hampshire, 1992), p.66.

الفصل الثاني

الروس ويزنظتقو البلتان

٩٤٥ - ٩٧٢م

أدار الأمير الروسي العظيم ظهره إلى اليزنظتين ، بعد أن وقع على معاهدة ٩٤٥م ، وبعد أن اطمأن على مستقبل العلاقات معهم ، يسم وجهه شطر منطقة السهوب، ليعتد سيطرته على القبائل القاطنة بها . فتوجه إلى الدريفليين *Derevlians* ليجمع منهم الجزية ، التي كان قد رفع قيمتها . ونظراً لشدة في جباية هذه الجزية فقد اضطر الدريفليون إلى الدفع له هو ورفاقه ، لكن جشع وطمع إيجور جعله يعود إليهم ثانية ليجمع منهم المزيد من الضرائب لنفسه . وهنا رفض الدريفليون دفع المزيد من الضرائب وتشاوروا في الأمر واتفقوا جميعاً على قتله . ويقول نسطور ، في حكايته الروسية الأولى ، إن زعيم الدريفليين قال لأقرانه "إذا جاء النذب بين الأغنام ، فإنه سيلتهم القطيع كله ، والوحدة تلو الأخرى ، إذا لم نقتله"^(١) . وبهذا أوقعوا بالأمير الروسي العظيم إيجور ونجوه هو ورجاله^(٢) . مات إيجور وكان ابنه المسمى سفياتوسلاف *Sviatoslav* لا يزال في طور الصبا ، وحسبما جرى عليه العرف بين الروس ، فقد قامت أمه الأميرة أولجا *Olga* بالوصاية عليه حتى يشب عن الطوق^(٣) . وكان أول ما فعلته الأميرة أولجا ، عقب توليها الوصاية على ابنها سفياتوسلاف في عام ٩٤٥م ، أن جعلت جل اهتمامها الانتقام من قتلة زوجها الأمير إيجور . فتحت أحداث عام ٩٤٥ - ٩٤٦م يحدنا كاتب الحوالية الروسية الأولى عن كيفية انتقام الأميرة أولجا من الدريفليين ، وتتجلى في حكاياته عن هذا الانتقام قصة قسوة الروس في معاملة أعدائهم . كما يصور لنا نسطور مدى نكاء ومكر ودهاء أولجا في التخطيط لهذا الانتقام ، بل من رواياته الطريفة عن هذا الانتقام ، ما قد ينكره المرء ، على الرغم من إمكانية حدوثه ، أنها طلبت جزية من الدريفليين ، في نهاية مراحل الحرب بينهما ، وكانت عبارة عن حمام أو نوع من الطيور المشابهة . وجمعت الجزية منهم ، أنعام الدريفليون على أثرها فريدي العين ، وما أن حل الظلام

R.P.C., p. 78.

Rambaud, A., *Histoire de la Russie*, (Paris, 1878), p. 66.

Karamsin, M., *Histoire de l'empire de la Russie*, trad. Fra. S. Thomas et Jauffret, (٦) tome I, (Paris, 1819), pp. 179-197.

حتى أشعلت النيران في هذا الحمام وأطلقت في الهواء ليعود إلى أعشاشه ثانية . وهنا هرع الدرفيليون من منازلهم ليلاً وهم يعدون بين منازلهم المشتعلة ، فاستقبلتهم سيوف الروس وحصدت رؤوسهم بلا رحمة^(٤) . وفرضت عليهم الجزية^(٥) ، التي خصصت ثلثها للعاصمة الروسية كييف ، والثلث الآخر لمدينة فيتشجورود *Vešgorod*^(٦) .

ولن نقف طويلاً أمام انتقام أولجا من الدرفيليين ، فقد أسهبت فيه الحولية الروسية الأولى ، ويكفي القول إن أولجا أدارت دفة الحكم في هذه الفترة الحرجة من عمر البلاد بحنكة واقتدار ، كما أنها نظمت شئون الحكم في بلادها بعد أن تجولت فيما بين الإمارات الروسية . وهناك شيء ينبغي أن نشير إليه وإلى دلالته ألا وهو دفع الأميرة أولجا ثلثي الجزية إلى مدينة كييف والثلث الآخر إلى مدينة فيتشجورود ، التي كانت تمتلكها . فقد كان هناك تقليد بين الأمراء الروس يلزم كل أمير أن يدفع ثلثي ما يجمعه من الجزية للعاصمة الروسية كييف ، والثلث الباقي لإمارته . ومن هذا المنطلق تصرف أولجا ، بوصفها أميرة مالكة لمدينة فيتشجورود ، فدفعت ثلثي ما جمعتها من الدرفيليين لمدينة كييف والثلث الأخير لمدينتها^(٧) .

وإذا كانت الأميرة أولجا قد انشغلت لبعض الوقت بالجبهة الداخلية ، فإنها عقب الانتهاء من إقرار الأمور في البلاد ، والذي استغرق اثني عشر عاماً ، قررت أولجا الاحتكاك بالعالم الخارجي ، وكان في طليعة المتعاملين معها الإمبراطورية البيزنطية . فعلى إثر معاهدة ٩٤٥م استقرت الأمور بين البيزنطيين والروس ، ولم نسمع في المصادر التاريخية عن شيء عكر صفو هذه العلاقات . وقد توج هذا الصفاء بين الطرفين بزيارة الأميرة أولجا إلى القسطنطينية في التاسع من شهر سبتمبر عام ٩٥٧م ، وهو التاريخ الذي أعطاه قسطنطين بورفيريوجينيتوس في كتابه عن المراسم ، ويكاد يتفق معظم المؤرخين عليه^(٨) ، وبرغم أن نسطور ذكر زيارتها هذه تحت أحداث

^(٤) R.P.C., pp. 78-81; Le Clerc, *Histoire physique, morale, civile et politique de La Russie ancienne*, tome I, (Paris, 1783), I, pp. 129-131; Karamsin, *Histoire*, I, pp. 199-204.

^(٥) Le Clerc, *La Russie*, p. 131; Soloviev, *L'état russe*, p. 256.

^(٦) Karamsin, *Histoire*, p. 205; Le Clerc, *La Russie*, p. 131.

هذه المدينة كان قد أسسها أولج ، وأعطيت كمهر إلى أولجا ، باعتبارها خطيبة الأمير إيجور . وهي على بعد ٧ فراسخ من كييف ، وتقع على ضفاف نهر الدينبر شمالاً . انظر ،

Karamsin, *Histoire*, p. 205.

^(٧) Soloviev, *L'état russe*, p. 256.

^(٨) Const. Porph., *De Cerimoniis*, II, p.594; Soloviev, *L'état russe*, p. 255; Jenkins, *Byzantium*, p. 265; Pares, *Russia*, p. 26; Ostrogorsky, *Byz. State*, pp.250-251.

عام ٩٥٥م^(٩) . وينبغي أن نشارك المؤرخين اتحادهم على أن هذه الزيارة تمت فى عام ٩٥٧م ، لأن كاتب الرواية ، وهو قسطنطين بوريغوجينيتوس ، كان معاصراً لمثل هذا الحدث ، على عكس نسطور الذى دونها بعده بما يقرب من قرن من الزمان . ولننضم مع كلمات قسطنطين بوريغوجينيتوس لننترف على مراسم الاستقبال الإمبراطورى للأميرة أولجا ومرافقها فى البلاط الملكى البيزنطى ، الذى استقبلها فيه مرتين^(١٠) . والمرة الأولى التى استقبلها فيها الإمبراطور قسطنطين بوريغوجينيتوس كان يوم الأربعاء الموافق التاسع من شهر سبتمبر عام ٩٥٧م^(١١) . وفى هذه المرة حضر كبار رجال الدولة وسيدات المجتمع البيزنطى الاحتفال بمجيء الأميرة أولجا إلى القصر الإمبراطورى ، بينما وقف الإمبراطور فى بهو جستنيان أو كما يسمى فى اليونانية تريكلينوس جستنيان *τρίκλινοῦ τοῦ Ἰουστινιανοῦ*^(١٢) . لقد اصطف عليه القوم أمام القصر فى ترتيب هيراركى تبع فى البلاط البيزنطى فى مثل هذه المناسبات ، وكانوا على النحو التالى :

ولاً : من حملن لقب زوسنتى *α'ι ζωσαι*^(١٣) ، ثانياً : زوجات الماجستير *α'ι μαγίστρεςσαι*^(١٤) ، ثالثاً : البطريقات *α'ι πατρικίαι* ، أى زوجات البطارقة ، رابعاً : من حملن لقب بروتوسباتاريوس أو فيكياليوس *α'ι ὀφφικιαλέαι προτοσπαθαρέαι*^(١٥) ، خامساً : الأخريات ممن حملن

(٩) R.P.C., p. 82.
(١٠) Soloviev, L'etat russe, P. 255.
عن المراسم البيزنطية المتممة مع السفراء الأجانب عند استقبالهم بالبلاط البيزنطى ، انظر ،
Tinnefeld, F., " Ceremonies for Foreign Ambassadors at the Court of Byzantium and their Political Background ", *ByzF*, 19(1993), pp. 193-214.
(١١) Jenkins, *Byzantium*, p. 265.
(١٢) Const. Porph., *De Cerimoniis*, II, p. 595.
(١٣) Const. Porph., *De Cerimoniis*, II, pp. 595-596.
لقب البطريقة الزوسنتى ، كان يمنحه الإمبراطور للسيدات اللاتى يحملن لقب بطريقة ، ويبدأ بطون شفاً عن يحملن لقب بطريقة فقط . انظر ،
Le traité de Philothée, ed. & trad N. Oikonomides, dans: *Les listes des préséance byzantines des IX^e et X^e siècles*, (Paris, 1972), pp. 94-95; Bury, J.B., *The Imperial Administrative System in the Ninth Century*, (London, 1911), p. 33.
(١٤) نلاحظ أن هذا الاسم هنا مركب من المقطع *μαγιστρε* + *ισσαι* وهو المقطع الذى يضاف إلى الاسم ليعطيه صفة التأنيث . ويقول بالمر إن هذا الأمر كان شائعاً فى المصور الوسطى وبصفة خاصة مع الأسماء الانثوية الأصل . انظر ، Palmer, L., *A Grammar of the Post-Ptolemaic Papyri*, (London, 1948), vol. I, p.93.
(١٥) لقب بروتوسباتاريوس ، كان حملته يشكلون طبقة خاصة بين حملة الألقاب ، ويتقاضى التسجيل فيها أن تدفع الخزانة راتباً سنوياً من المال لهم . انظر ،

لقب بروتوسباتاريوس فقط ، سانساً: من حملن لقب سباتاروكانديدات $\alpha\iota\sigma\alpha\theta\alpha\rho\kappa\alpha\nu\delta\iota\delta\alpha\tau\iota\sigma\sigma\alpha\iota$ ^(١٦) ، سابعاً: من حملن لقب سباتاريوس ^(١٧) والاستراتورات $\alpha\iota\sigma\pi\alpha\tau\acute{\alpha}\rho\iota\sigma\sigma\alpha\iota$ ^(١٨) ، والكانديدات $\alpha\iota\kappa\alpha\nu\delta\iota\delta\alpha\tau\iota\sigma\sigma\alpha\iota$ ^(١٩) . هكذا تم استقبال الأميرة اولجا . ولكن ماذا عن كل هذا الحشد من التبيلات البيزنطيات اللاتي احتشدن لاستقبال الأميرة الروسية ؟ إن الألقاب التي حملتها تلك التبيلات البيزنطيات ، والتي تعكس سموهم في بيزنطة ، لكفيلة بأن تعكس لنا أهمية وعلو شأن حاكم بلاد الروس آنذاك ، كما أنها تعكس حرص الإدارة البيزنطية على إبراز مفاخر البلاط البيزنطي وبهاؤه أمام الحكام الأجانب . وهذا ليس بمستغرب على بيزنطة أن تحرص على سكر زوارها الأجانب بروبقها وجمالها وحسن مجيها ، بل وزيادة في نشوتهم بها كانت تغدق عليهم الأموال ، مثلما حدث مع الأميرة اولجا وحاشيتها في نهاية زيارتها إلى القسطنطينية.

وبعد هذا الاستقبال التسنائي ، إذا جاز القول ، استقبال الإمبراطور الأميرة اولجا داخل القصر ، وفي هذا اليوم تناول سفراء الأمراء الروس والتجار الذين كانوا يرفقها المشاء معها في القصر الإمبراطوري ^(٢٠) . وقد استمرت زيارة الأميرة اولجا حتى الثامن عشر من شهر أكتوبر ، حيث عقدت في هذا اليوم جلسة الوداع ، وفيها تم للمرة الأولى تقديم الهدايا إلى اولجا ، وإلى ابن أخيها ايجور أو حاقون *Hakon* ، وإلى أقاربها الثمانية ، وإلى عشرين سفيراً (للأمراء المحليين) ، وإلى ثلاثة وأربعين تاجراً ، وإلى مترجمين اثنين ، وإلى ست خادمت . وفي نفس هذا اليوم تم تقديم هدايا أخرى إلى ابن الأخ وإلى ستة عشر قريباً له ، وإلى ثمانية عشرة خادمة ، وإلى اثنين وعشرين سفيراً ، وإلى أربعة وأربعين تاجراً وإلى مترجمين اثنين ^(٢١) . وعلى هذا

“Constantine VII Porphyrogénète et les theme de Cephalonia et de Longobardia”, *REB*, 21 (1963), p. 121; Oikonomides, N., *Les listes des préséance byzantines de IX^e et X^e siècle*, (Paris, 1972), p. 297; Bury, *Adm. Sys.*, p. 27 .

لما لوفيكالوس فهي لمزيد من التميز والرفعة في الدرجة ، انظر ، *Le traité de Philothée*, pp. 95 & n. 43, 129 & n. 85.

^(١٦) سباتاروكانديدات ، هذا اللقب مركب من تعين سباتاريوس + كانديدات ، وقد ظهر هكذا في القرن التاسع الميلادي وحتى القرن الحادي عشر الميلادي ، وهو يعود إلى النصف الأول من القرن السابع الميلادي . انظر ، Bury, *Adm. Sys.*, p. 26; Oikonomides, *Les listes*, p. 247.

Bury, *Adm. Sys.*, pp. 27.

Bury, *Adm. Sys.*, pp. 117-118.

Oikonomides, *Les listes*, p. 298.

Const. Porph., *De Cerimoniis*, II., p. 596.

Const. Porph., *De Cerimoniis*, II., p. 598; Soloviev, *L'état russe*, P. 255.

^(١٧) عن الاسباتاريوس ، انظر

^(١٨) عن الاستراتور ، انظر ،

^(١٩) عن الكانديدات ، انظر ،

^(٢٠)

^(٢١)

النحو ثم وداع الأميرة اولجا وعادت إلى موطنها . ولا يفصح كتاب المراسم عن تفاصيل الزيارة والأحداث التي دارت فيها ، بل اكتفى بذكر هذه التفاصيل لتوضيح مراسم الاستقبال في البلاط البيزنطي .

ومما يجدر ذكره هنا أن الأميرة اولجا قد وردت في نص كتاب المراسم بألقاب ومسميات متباينة منها "اولجا دوقسة روسيا" (١٢) ، والأرخونثيسا" (١٣) أى الحاكمة ، وهى مؤنث أرخون ، اولجا حاكمة روسيا" (١٤) . وكل هذه المسميات التى أطلقت عليها إنما تعنى أنها كانت الأميرة الوحيدة الحاكمة لبلاد الروس (١٥) .

وإذا ما انتقلنا إلى كاتب الحولية الروسية الأولى ، سنعرف بعض الأحداث التى دارت فى هذه الزيارة . فيذكر نسطور " أن الأميرة اولجا ذهبت إلى القسطنطينية، حيث كان الإمبراطور الحاكم يدعى قسطنطين بن ليو . وجاءت اولجا إلى حضرته" . إلى هنا تتفق روايته مع رواية قسطنطين بورفيروجينيتوس، كما ذكرنا من قبل. ثم يستكمل نسطور روايته قائلاً "وعندما رأى الإمبراطور أنها جميلة الملامح وحكيمة أيضاً ، تعجب من فطنتها وتحدث معها ، فلاحظ أنها جديرة بأن تحكم معه فى مدينته ، وعندما سمعت اولجا كلماته أجابت بأنها لا تزال وثنية ، وإذا رغب فى تعميدها ، فلن عليه أن يتولى هذا الأمر بنفسه ؛ ومن ناحية أخرى ، فإنها لم تكن راغبة فى التعميد . وبطبيعة الحال قام الإمبراطور ومعه البطريرك بتعميدها .. وبعد الانتهاء من تعميد اولجا دعاها (إلى حضرته) وأخبرها أنه يريد الزواج منها . لكنها أجابت عليه بقولها "كيف نتزوجنى بعد تعميدك لى بنفسك وندائك لى بابنتى ؟ وعلى حد علمك ، أنت نفسك ، فإن هذا غير جائز بين المسيحيين" . وعندئذ قال لها الإمبراطور "أى اولجا لقد فقتنى حيلة ودهاء" . ثم قدم لها هدايا عديدة من الذهب والفضة والحريز ومزهريات متنوعة ، وودعها وهو لا يزال يدعوها بابنتى" (١٦) .

وعلى الرغم من أن نسطور أمنا ببعض تفاصيل زيارة اولجا ، إلا أنه أراد أن يبرز بعض الأمور فى روايته ، ربما إعجاباً منه بشخصية هذه الأميرة ، مثل جمالها الطاعى الذى شد الإمبراطور فنى تقاليد المسيحية وطلب الزواج منها منذ رآها للمرة الأولى ؛ وأنها لم تسع للتعميد بل الإمبراطور نفسه هو الذى سعى لذلك ، حتى يتمكن من الزواج منها . لكن تمكنت اولجا من الرد على طلب الإمبراطور بحكمة

Const. Porphy., *De Cerimoniis*, II, p. 594.

Const. Porphy., *De Cerimoniis*, II, p. 596.

Const. Porphy., *De Cerimoniis*, II, p. 594.

Soloviev, A., "APXΩN ΠΩΣΙΑΣ", B, 31 (1961), pp. , 238-240.

R.P.C., P. 82.

(١٢)

(١٣)

(١٤)

(١٥)

(١٦)

ونكاه ، الأمر الذى أعجز الإمبراطور ، فلم يعز نفسه فى حبها إلا بتقديم الهدايا الثمينة لها . لكن لا يمكن للمرء أن يسلم بكل كلمات نسطور ، الأمر الذى يدفعنا للتساؤل لماذا ذهبت اولجا لزيارة القسطنطينية فى عام ٩٥٧م ؟!

يذكر نسطور أن اولجا عندما ذهبت إلى القسطنطينية كانت لا تزال وثنية ، فكيف إذن جاعتها المعرفة بأن الأب فى المعمودية لا يجوز له الزواج ممن عمدتها؟! هل قصت على البطريرك ما أفضى به الإمبراطور قسطنطين بورفيروجينوس إليها ، فأخبرها بأن ذلك غير جائز ، أم أنها كانت على دراية بتماليم الكنيسة قبل ذهابها إلى القسطنطينية ، أو بمعنى آخر أنها كانت قد تنصرت فى كييف ، على حد قول أوستروجورسكى^(٢٧) ؟! إننا نعلم ، من خلال معاهدة ٩٤٥م المبرمة بين البيزنطيين والروس ، انه كان هناك العديد من المسيحيين الروس يعيشون فى الإمارات الروسية^(٢٨) ، فلماذا نستبعد الفرض الثانى ، برغم إمكانية حدوثه . ولأسف الشديد لا يمكننا الفصل فى هذه الناحية بصورة جازمة ، فلا نملك الأكلة التاريخية التى تساعدنا على الأخذ برأى دون الآخر . ونجد أنفسنا نعود مرة ثانية إلى التساؤل لماذا ذهبت اولجا لزيارة القسطنطينية فى عام ٩٥٧م ؟!

ربما كان فى الكلمات التالية المأخوذة عن الحوالية الروسية الأولى ، ما يساعدنا على وضع إجابة لهذا التساؤل . يقول نسطور أن الأميرة اولجا غادرت القسطنطينية وعادت إلى بلادها ، وكان لها نشاطها بعدئذ فى نشر المسيحية بين شعبها . لكنه يذكر قصة غاية فى الأهمية التاريخية فهو يقول أنها بعد أن عادت إلى كييف بعث إليها الإمبراطور البيزنطى برسالة قائلاً فيها 'بما أننى أغدقت عليك الهدايا العديدة ، فقد وعدتني أن ترسلنى لى، عند عودتك إلى بلاد الروس ، هدايا من العبيد والشمع والقراء ، وأن تبعثى بجنود لمساعدتى'^(٢٩) . ماذا تعنى هذه القصة بالنسبة لنا ؟ فلنعد سوياً القهقري ، إلى بنود معاهدة ٩٤٥م ، لنرى ما بين هذه القصة والمعاهدة من ترابط . إن العبيد والشمع والقراء هى السلع الرئيسية الثمينة التى يأتى بها التجار الروس إلى القسطنطينية^(٣٠) ، أى البضائع التى ينتظرها البيزنطيون من تجار الشمال والتسى تم وضع البند الأول والثانى والثالث والرابع بشأنها . ولابد أن الأميرة كانت تحمل الكثير منها إلى الإمبراطور ، وهو الأمر الذى نال إعجابه فوعده بالمزيد عند عودتها ، أما

Ostrogorsky, Byz, State, p. 251 n. 2.
R.P.C., pp. 74 ff.; Pares, Russia, p. 26.
R.P.C., p. 83.

(٢٧)

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠) انظر الفصل الأول من الباب الثالث من البحث .

وعدها بأنها ستبحث له بجنود فما هو إلا تركيز منها على البند الثالث عشر من المعاهدة ، وهذا يعكس لنا أحد الموضوعات التي تناولها الطرفان في مباحثاتهما . وعلى هذا يمكن القول إن المباحثات بين الأميرة اولجا والإمبراطور البيزنطي احتوت على بندين أساسيين هما التجارة والمساعدات العسكرية. وينبغي أن نلاحظ أن الحاشية التي كانت ترافق الأميرة اولجا كان قوامها إثنتين وعشرين سفيراً ينوبون عن أمرائهم الروس ، بالإضافة إلى ابن أخيها ايجور . وبهذا يكون المجموع أربعة وعشرين أميراً محلياً تنزعهم الأميرة اولجا وابنها ، وهذا قد يشير إلى التنظيم السياسي لبلاد الروس آنذاك^(٣١) ؛ بالإضافة إلى وقد تجارى روسى قوامه أربعة وأربعون تاجراً روسياً . فماذا إذن يعنى كل هذا ؟ ألا يعكس هذا الوفد المرافق للأميرة اولجا الغرض من الزيارة التي قامت بها إلى القسطنطينية ، خاصة إذا ما ربطنا كل هذا للقول بأن زيارة الأميرة اولجا إلى القسطنطينية في عام ٩٥٧م كان الغرض منها تجديد اتفاقية عام ٩٤٥م المبرمة بين البيزنطيين والروس^(٣٢) ، أو بمعنى آخر التأكيد على سريان مفعولها بينهما، وليس كما قد يذهب البعض أن الغرض منها كان دينياً ، على النحو الذى سرده نستور . وإلا فما السبب الذى جعل الإمبراطور البيزنطي يتركها بعض الوقت قبل أن يسمح لها بلقائه . إننا نعرف رد الأميرة اولجا على رسل الإمبراطور البيزنطي ، حيث قالت لهم " بأنها سوف تحقق مطلب الإمبراطور إذا وافق على البقاء معها في بوشانيا *Pochyna* لمدة طويلة ، كذلك التى قضتها على السفور " وبهذا صرقت رسل الإمبراطور بخفي حين^(٣٣) . ويقول المؤرخون أنها أقامت بحى سان ماماس في هذه الأثناء ، حيث عشرينها من الروس ، لحين سماح الإمبراطور لها بالذهاب للقاء^(٣٤) . وقد عدت الأميرة اولجا هذا العمل غير لائق بمكانتها ، الأمر الذى أضمرته في نفسها لحين عودتها إلى بلادها لترد له الصاع صاعين . وإذا كان قسطنطين قد أفلح في تعميدها على المذهب الأرثوذكسى ، فإننا نعلم أنها بعثت في عام ٩٥٩م برسالة إلى الإمبراطور الألماني أوتو Otto العظيم تطلب منه أن يرسل إليها

^(٣١) Soloviev, *L'état russe*, p. 255.

^(٣٢) Soloviev, *L'état russe*, p. 255.

^(٣٣) R.P.C., p. 83 ; Pargoire, *Saint-Mamas*, p. 20.

^(٣٤) Pargoire, *Saint-Mamas*, P. 209.

^(٣٤) انظر أيضاً، كويستر ، الخز ، ص ١٣٦ .

أسقفاً من عنده^(٣٥) . وبهذا العمل الأخير تكون قد ردت الصاع صاعين للإمبراطور البيزنطي ، لما ألحقه بها من إهانة أدبية لدى وصولها إلى بيزنطة.

إن السياسة الدبلوماسية البيزنطية تجاه الحكام المستقلين اختلفت طبقاً لمدى صلاحيته للمصالح البيزنطية^(٣٦) . وعلى هذا الأساس استقبل البيزنطيون الأميرة أولجا عند وصولها بلا اكتراث ، لأنها جاءت وهي في وضع المحتاج ، كما سبق وبيننا . ولعل هذا يؤكد ما ذهبنا إليه في السطور الماضية من أن الهدف من زيارة أولجا كان سياسياً في المقام الأول وليس دينياً ، فما أسهل عليها أن تبعث برسالة إلى الإمبراطور البيزنطي ، كذلك التي بعثت بها إلى الإمبراطور الألماني أوتو ، تطلب منه بعثة دينية لتعليمها هي وشعبها تعاليم المسيحية . والآن تشير كل الشواهد التاريخية بالدليل القاطع إلى ما ذهبنا إليه من أسباب زيارة الأميرة أولجا إلى القسطنطينية . ولننسا أن نجميل القول بأن هذه الزيارة قد أثبتت استمرار المصالح المشتركة بين الطرفين وأعطت دفعة قوية للعمل التبشيري البيزنطي بين الروس^(٣٧).

على هذا النحو ، كانت الأميرة أولجا تمتلك من الصفات الشخصية ما جعلها تدير دفة الحكم في البلاد على خير وجه ، وليس أدل على ذلك من كلمات المؤرخ الفرنسي لوكليوك *Le Clerc* " أنه من الضعف يولد الحياء ، ومن الحياء الرقة ، ومن هذه يتولد المكر والزيغ ، ولا يملك التاريخ شيئاً يوجه به اللوم إلى أولجا^(٣٨) بل قال عنها المؤرخ الروسي كارامزين *Karamsin* " إن امرأة ضعيفة يمكنها أحياناً أن تعادل أعظم الرجال^(٣٩) .

والآن ، تحت أحداث عام ٩٥٦-٩٦٤م ، يحدثنا كاتب الحولية الروسية الأولى أن الأمير سفياتوسلاف قد شُب عن الطوق ، وتولى مقاليد الحكم في البلاد . وكان أول ما فعله سفياتوسلاف أن بدأ في تجميع جيش كبير قوى ، لبيسط به كلمته على القبائل المجاورة ، وعلى الشعوب السلافية التابعة^(٤٠) . ولدينا وصف للأمير الروسي سفياتوسلاف يكشف عن طبيعة شخصيته ، فقد كان لا يصطحب في حملاته العسكرية أية عربات أو ماشية ، وكان أكله عبارة عن شرائح من لحم الخيل أو الحيوانات البرية

^(٣٥) Baumgarten, N., "Saint Vladimir et la conversion de la Russie", OC, 27(1932), pp. 58-59.

^(٣٦) Shepard, J., "Aspects of Byzantine Attitudes and Policy towards the West in the Tenth and Eleventh Centuries", *ByzF*, 13 (1988), p. 68.

^(٣٧) Ostrogorsky, *Byz. State*, p. 251; Court, *La Russie*, p. 103.

^(٣٨) *Le Clerc, La Russie*, p. 128.

^(٣٩) Karamsin, *Histoire*, p. 199.

^(٤٠) *R.P.C.*, p. 84.

أو البقر ، بعد أن يقوم بشيها على الفحم بنفسه . ولم تضرب خيمة له قط ، بل يفترش دثار جواده تحته ، واضعاً سرجه أسفل رأسه ، يلتحف بالسماء الزرقاء . وبالمثل كان كل أتباعه يسبرون على نهجه^(١١) . والأهم من كل هذه الصفات ، أن كاتب الحولية الروسية الأولى يصفى عليه صفة نبل الأخلاق فيجعله لا يشن حرباً على عدو من أعدائه إلا بعد أن يرسل إليه بخبره بمجيئه للهجوم عليه^(١٢) .

بدأ الأمير الروسي سفياتوسلاف حكمه بقتال الخزر والشعوب القاطنة على نهري الفولجا والأوكا *Oka* ؛ وتحارب مع كثير من القبائل السلافية مثل الفياتشيين *Vyatichians* ، والياسيين *Yasians* ، والكاسوجيين *Kasogians* ، وأخضعهم للجزية^(١٣) .

وبعد هذا النشاط العسكري المتقد في منطقة السهوب ونهر الفولجا ، تخبرنا الحولية الروسية الأولى بأنه في عام ٩٦٧م سار سفياتوسلاف صوب الدانوب ليهاجم البلغار . وعندما التقى الطرفان معاً تغلب سفياتوسلاف عليهم واستولى على ما يقرب من ثمانين بلدة بلغارية بطول نهر الدانوب ، واتخذ مقامه في مدينة بيرياسلاف^(١٤) فما قصة هذا الهجوم ؟!

وللإجابة على مثل هذا التساؤل ، علينا الرجول إلى البلقان قليلاً للتعرف عما جرى على أراضيه ، عسى أن يفيدنا فيما نحن بصدده . ففي عام ٩٥٩م ، وفي عيد الفصح ، سار جيش مجباري ضخم صوب القسطنطينية ، حيث خرب تراقيا وجمع منها غنائم كثيرة . وأرسل الإمبراطور البيزنطي جيشاً قوياً بقيادة البطريق فوتيوس أرجيروس *Photius Argyrus* ، تمكن من الهجوم على العدو ليلاً وهزيمته . وهكذا عاد المجبار إلى بلادهم بخفي حنين ، بعد أن فقدوا الكثير من الأسرى^(١٥) .

وفيما بعد بعامين ، وبالتحديد في عام ٩٦١م ، وأثناء حكم الإمبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩-٩٦٣م) ، جدد المجبار هجماتهم على الأراضي البيزنطية ، حيث هاجموا تراقيا . إلا أن ماريانوس أرجيروس *Marianus Argyrus* ، حاكم مقدونية ، تمكن من إلحاق الهزيمة بهم وعادوا إلى بلادهم بجرون أنيال الخيبة^(١٦) ؛ وبالرغم من هاتين الهزيمتين الثقيلتين للمجبار على أيدي القوات البيزنطية لم يوقف

^(١١) R.P.C., p. 84; Karamsin , *Histoire*, p. 213; Le Clerc, *La Russie*, p. 134.

^(١٢) R.P.C., p. 84.

^(١٣) R.P.C., p. 84.

^(١٤) R.P.C., pp. 84-85.

^(١٥) Moravcsik, *Magyars* p. 57.

^(١٦) Moravcsik, *Magyars*, p. 59.

المجبار هجماتهم على الإمبراطورية البيزنطية ، وهذا ثابت عن طريق أن الإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس أرسل في عام ٩٦٦م إلى القيصر البلغاري بطرس رسالة بتهمه فيها بالسماح للمجبار بعبور الدانوب والهجوم على الإمبراطورية البيزنطية . ولم يكن لدى بطرس أية إجابة على الإمبراطور ، فقد كان يرغب في منع المجبار من الاغارة على البلاد ، لكنه لم يكن يملك القوة العسكرية الكافية لعمل هذا . لذلك ، وحتى يجنب بلاده ما قد ينجم عن هذا الهجوم من تدمير وتخريب ، شجعهم بطرس على العبور بأقصى ما يمكنهم إلى الولايات البيزنطية ... وبهذا صار نقفور فوكاس صاحب حق في عقاب البلغار^(٤٧) . ويقول كدريونوس *Cedrenus* أن قيصر البلغار بطرس لم يصنع لكلمات الإمبراطور البيزنطي ، وتمثل بذرائع شتى^(٤٨) . ويؤكد المؤرخ العربي المسيحي يحيى الأقطاكي هذه الأحداث بقوله .. وكان البلغار قد انتهبوا الفرصة بتشغل نقفور الملك بغزو بلدان المسلمين ، وأعانوا في أطراف أعماله على ما يجاورهم من بلدانه...^(٤٩) . والمقصود هنا عند يحيى أن البلغار هم الذين تسببوا في تخريب البلقان ، بسماحهم للمجبار بالهجوم على الولايات البيزنطية الواقعة به . لكن ما السبب الذي دعى البلغار للإخلال بتعهداتهم مع الإمبراطورية البيزنطية ، بعد ما تم التقاهم بينهما في عام ٩٢٧م ، بعد سلام مع القيصر بطرس ، يدفع البيزنطيون بموجبه جزية سنوية للبلغار ؟!

لقد ظهر رسل البلغار في عام ٩٦٥م في البلاط البيزنطي ليتسلموا الجزية السنوية المقررة على بيزنطة ، بموجب معاهدة السلام مع بطرس البلغاري في عام ٩٢٧م . وكانت هذه الفترة من عمر بيزنطة هي فترة الإنجازات العسكرية في الشرق على حساب المسلمين ؛ فكيف يجرؤ البلغار الوضعاء على طلب الجزية منه ، وعلو على ذلك ، فإن ماريا ليكابينا *Maria Lekapena* ، زوجة بطرس قيصر البلغار ، وحفيدة الإمبراطور رومانوس ليكابينوس ، قد توفيت آنذاك ، وادعى نقفور أن ما تنفقه بيزنطة للبلغار سنوياً ليس بجزية ، بل هو عبارة عن مال يدفع لمعاشها . وطالما أنها رحلت عنا فليس هناك شئ داعٍ لإرساله ، وهكذا وجد نقفور فوكاس السبيل للخلاص من هذه الجزية^(٥٠) . ويذكر ليو الشماس أن الإمبراطور البيزنطي " أمر بجلد

^(٤٧) Zonaras, III, pp. 512-513; *Cedrenus*, II, p. 372; Runciman, S., *A History of the First Bulgarian Empire*, (London, 1930), p. 201; Moravcsik, *Magyars*, p. 59.

^(٤٨) *Cedrenus*, II, p. 372.

^(٤٩) *Yahya d'Antioche*, p. 813.

^(٥٠) Leonis Diaconi Caloensis Historiae Libri Decem et Liber De Veltitione Bellica Nicephori Augusti, ed. C. B. Hase, *CSHB*, (Bonnae, 1828), pp. 61-62; Fine, J.,

رسل البلغار ، قاتلاً لهم اذهبوا إلى ملككم ، أكل الجلود ، وقولوا له إن ملكك الروم العظيم قائم إليه .. ولا تنسى أن الروم يطلبون الجزية لا يؤدونها ، ثم صرفهم إلى بلادهم^(٥١) . وعلى هذا خرج الإمبراطور البيزنطي نفقورفوقاس في العام الرابع من حكمه إلى حدوده مع البلغار ليتفقد مدن مؤبزيا كما استولى على الحصون المتاخمة لبلاده^(٥٢) ، التي كانت تحرس ممرات جبال رودوبي *Rodopi* ومضائق هيموس *Haemus*^(٥٣) . وفي الحقيقة لم يرد نفقورفوقاس أن يذل البلغار فقط ، بل أن يستقهم وأن يدمج بلادهم ، التي كانت تعد امتداداً للإمبراطورية البيزنطية ، داخل حدود دولته^(٥٤) . لكنه لم يكن مثلهما على القتال على أرض البلغار ، بسبب وعورتها . فقد كانت مليئة بالجبال والغابات والونيان ، الأمر الذي يجعل قواته عرضة للكتمان البلغارية ، وقد تهزم قواته كما هزمت القوات البيزنطية منهم مراراً من قبل فقرر العودة إلى القسطنطينية ، والبحث عن حل آخر لعقاب البلغار^(٥٥) ، الذين سمحوا للمجيار بالهجوم على الأراضي البيزنطية في البلقان . وهناك رواية لشاهد عيان هو ليوتبراند الكريموني *Lutiprand of Crimona* ، نقلتها لنا المؤرخة المجرية جيولا مورافزيك *Gyula Moravcsik* مضمونها أنه في أثناء حكم الإمبراطور نفقورفوقاس أسر المجار خمسمائة أسير بيزنطي قرب تسالونيك ، واقتادهم إلى بلادهم بواسطة ثلاثمائة مجباري . ويضيف في مناسبة أخرى أن أربعين جندياً مجرياً من كتية قوامها مائتا رجل أسروا في مقدونية ، بالقرب من القسطنطينية . وهم الذين أصبحوا فيما بعد حرساً للإمبراطور نفقورفوقاس ، واشتركوا معه في الحملات ضد المسلمين^(٥٦) .

على هذا النحو ، تبدو لنا التخرشات والأطماع المجبارية في الأراضي البيزنطية ، وتخاذل البلغار عن أداء الدور المرسوم لهم بالدفاع عن حدود الإمبراطورية البيزنطية الدانوبية . ومن ثم ، كما قلنا من قبل ، كان على نفقورفوقاس بعد عودته إلى القسطنطينية البحث عن حل عسكري لعقاب البلغار ، وعن طريق طرف آخر ، نظراً لانشغال القوات البيزنطية بالقتال في الجبهة الشرقية مع المسلمين ، الأمر الذي يتعذر معه القتال في جبهتين في آن واحد حسب السياسة البيزنطية . ولتقته في أن السروس

The Early Medieval Balkans, (Michigan, 1993), p. 71.

Leo Diaconus, p. 62.

Leo Diaconus, p. 62; Cedrenus, II, p. 372; Yahya d'Antioche, p. 813.

Court, La Russie, p. 106.

Browning, Bulgaria, p. 71.

Leo Diaconus, pp. 62-63.

Moravcsik, Magyars, p. 59.

يمكنهم القيام بهذا العمل بصورة كاملة فقد ولى وجهه شطرهم^(٩٧) . ويذكر يحيى الأطلقي أن الإمبراطور البيزنطي نفورفوقاس "سلط الروس على البلغار ، ملكهم إياها من قبله حتى صار الجميع من تحت يده .."^(٩٨) ؛ حيث قد "سالم الروس وكانوا حزباً له"^(٩٩) . فقد أرسل الإمبراطور نفورفوقاس كالوكيروس / *Kalocyros Καλοκυρος* ابن حاكم خرسون ، بعد أن خلع عليه لقب بطريق ، إلى بلاط الأمير الروسي في كييف . فقد كان كالوكيروس الذي عاش معظم حياته في وطنه خرسون ، خير من يتعامل ، وبصورة تدعو للإعجاب ، مع قبائل السهوب ، فقد كان يعرف لغاتهم وعاداتهم جيداً . وفوق كل هذا فقد حمله الإمبراطور مبلغاً من المال يوازي ألفاً وخمسمائة رطل من الذهب ليقتنمها إلى سفياتوسلاف ؛ طالباً منه أن يقوم بمهاجمة البلغار . ووافق الأمير الروسي بسهولة بفضل كلمات كالوكيروس المعسولة ووعوده ، بالإضافة إلى ذلك المبلغ الضخم الذي سلمه له^(١٠٠) .

واستعد الأمير الروسي لتنفيذ رغبة الإمبراطور البيزنطي . وفي شهر أغسطس^(١٠١) من عام ٩٦٨ م ، على حد ذكر المؤرخين فرانكلين وشيبرد^(١٠٢) ، خرج سفياتوسلاف ومعه ستون ألفاً من الجنود وبصحبته البطريق كالوكيروس ، بانئذاً هجومه على الأراضي البلغارية^(١٠٣) ؛ وعبر سفياتوسلاف نهر الدانوب ليهاجم الإقليم الواقع بين نهر الدانوب وجبال البلقان . وعندئذ خرج البلغار للقاءه في ثلاثين ألفاً من الجنود للتصدي للروس محاولين منعهم من النزول من سفنهم إلى الشاطئ . لكن الروس نزلوا من سفنهم بشجاعة وخلعوا الدروع عنهم واشتبكوا مع البلغار في معركة حامية الوطيس ، ولى البلغار على أثرها الألبار ليغتصموا بقلعة دروستول *το Δορυστολον* التي تحمي عاصمة البلغار دريستر^(١٠٤) . إلا أن الروس تمكنوا

^(٩٧) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 201.

^(٩٨) *Yahya d'Antioche*, p. 826.

^(٩٩) *Yahya d'Antioche*, p. 813.

^(١٠٠) *Leo Diaconus*, p. 63; *Cedrenus*, II, p. 372; Runciman, *Bulgarian Empire*, pp. 200-201; Karamsin, *Histoire*, pp. 215-216; Court, *La Russie*, p. 106; Browning, *Bulgaria*, p. 71; Finlay, G., *A History of Greece*, vol. II, (Oxford, 1877), p. 333; Pares, *Russia*, p. 27; Le Clerc, *La Russie*, p. 135; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 145.

^(١٠١) *Cedrenus*, II, p. 372.

^(١٠٢) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 146.

^(١٠٣) *Leo Diaconus*, p. 77.

^(١٠٤) *Leo Diaconus*, p. 78.

دريسترا ، كانت مدينة عظيمة يوماً ما ، إلى أن انحدر شأنها في القرن السادس الميلادي بفعل الهجمات السلافية والآفارية . وتمكن البلغار من إصلاحها في نهاية القرن السابع الميلادي . وصمدت في عهد

من دحرمهم ، وكما يقول يحيى الأنطاكي " استظهر الروس على البلغار ، وكبسوا مدينتهم المسماه طلسيرا ، وهى دار ملكهم ، وأخذوها بالأمان"^(١٥). واجتاح سفياتوسلاف شمالي البلاد على هذا النحو مستولياً على أربع وعشرين مدينة. وإستعد لقضاء الشتاء فى منطقة أونجلوس *Onglus* بالذات ، حيث كانت تتحكم فى دلتا الدانوب، متخذاً من مدينة برياسلاف على الدانوب مقاماً له^(١٦). ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى قد بعث له فى هذه الآونة إعانة مالية ، وهذا ما قد يفهم من كلام نسطور من أن البيزنطيين بعثوا بالجزية إلى سفياتوسلاف آنذاك^(١٧). وفى الربيع التالى أغار سفياتوسلاف على الشطر الجنوبي لمملكة البلغار ، مدمراً إياها^(١٨). ويقول نسطور إن جملة ما استولى عليه سفياتوسلاف كان ثمانين بلدة بطول نهر الدانوب^(١٩). ويبدو أن هذا الرقم الذى أعطاه نسطور يحوى مدناً وحصوناً وقلاعاً^(٢٠). وهكذا صار سفياتوسلاف سيداً على بلغاريا . والسؤال الذى يفرض نفسه الآن ، لماذا استعان نقفوروقاس بالروس ضد عدو ضعيف للغاية ؟ وإذا أراد الإمبراطور عقاب البلغار ، فلماذا لم يستدع البيزنطى كالعادة ؟

يذكر أحد العلماء البريطانيين ، بصورة مقنعة ، أن الأمير الروسى سفياتوسلاف الذى سحق لثوه الخزر فاتحاً الطريق أمامه إلى شبه جزيرة القرم كان يهدد مدينة خرسون ، وهى مركزاً للاستخبارات والتجارة البيزنطية بالغ الأهمية، وإزاء هذا فقد قصد نقفوروقاس أن يقصيه عنها^(٢١). وقد تدعم العبارة الواردة عند يحيى الأنطاكي هذا رأى حيث يقول "..وسالم(أى نقفوروقاس) الروس وكانوا حزيناً له.."^(٢٢). وهذا يعنى أن الإمبراطور البيزنطى قد عقد سلاماً مع الروس قبل أن يطلب منهم غزو بلاد البلغار . ومما يؤكد قصد الإمبراطور نقفوروقاس وعزمه على إقصاء الأمير الروسى سفياتوسلاف عن منطقة القرم ، النص الوارد فى المعاهدة التى عقدت بين الإمبراطور البيزنطى يوحنا تريميسكس (٩٦٩-٩٧٦م) والأمير سفياتوسلاف عام

سيميون أمام المجار ، إلى أن سقطت فى أيدي سفياتوسلاف. وتشير النقوش التى عثر عليها إلى أى مدى كانت أهميتها . وهى الآن سيلاترا الحديثة. انظر،
(١٥) Browning, *Bulgaria*, p. 99.
(١٦) *Yahya d'Antioche*, p. 813.
(١٧) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 202.
(١٨) *R.P.C.*, p. 84.
(١٩) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 202.
(٢٠) *R.P.C.*, p. 84.
(٢١) *Cedrenus*, II, p. 372.
(٢٢) *Fine, Balkans*, p. 181.
(٢٣) *Yahya d'Antioche*, p. 813.

٩٧١م ، على إثر هزيمة الروس منه ، والذي يلزم الروس بعدم الإغارة على خرسون وبلغاريا مرة ثانية^(٣٢). وهكذا يبدو أن الإمبراطور البيزنطي فكر في أن يتبع المذهب الروماني الشائع "فرق تسد" ، فقام بتسليط الروس على البلغار ، على حد قول يحيى الأنطاكي^(٣٤) . وقد استجابوا لتهمة لمطلب الإمبراطور البيزنطي . وبهذا يتخلص من الخطر الروسي في منطقة السهوب ، ويقضى إما على القوة العسكرية للروس أو على القوة العسكرية للبلغار ، ومن يتبقى منهما يعيد الكرة ثانية فيسلط عليه البشناق .. وهكذا يستمر البيزنطيون ، وبثكاء شديد ، في التلاعب بهذه الشعوب لفرض سيطرتهم في نهاية المطاف على جيرانهم وتأمين حدودهم . وينبغي علينا ألا ننسى أن الإمبراطور نيقفور فوكاس لم يشأ أن يضحي بقواته العسكرية في شعاب ومضائق وممرات جبال البلقان ، في الوقت الذي كان في أمس الحاجة إليها في عملياته العسكرية في الشرق ضد المسلمين .

على أية حال ، يمكن القول إن الأمير الروسي سفياتوسلاف قد نفذ وعده للإمبراطور البيزنطي بمهاجمة البلغار . لكن يبدو أن البلاد البلغارية قد راقت له ، فلم يشأ الرحيل عنها ، بالرغم من الانتهاء من مهمته العسكرية في البلاد ، حسب اتفاقه مع الإمبراطور البيزنطي . وهذا ما يؤكد المؤرخ البيزنطي سكيلتزس - كدريوس بقوله " .. لم يعودوا يفكرون (أي الروس) في العودة ثانية إلى بلادهم ، بل راقبهم جمال البلاد ، فالتقوا بمعاهدتهم مع نيقفور إلى عالم النسيان ، وفرروا الاستيلاء على هذه البلاد والبقاء فيها^(٣٥) . ومما يؤكد رواية كدريوس كلمات سفياتوسلاف نفسه لأمه أولجا ، عندما اضطرت الظروف الداخلية في بلاده للعودة إليها مؤقتاً ، حيث قال لها " .. لست مهتما بالبقاء في كييف ، بل أفضل العيش في برياسلاف على الدانوب ، حيث إنها مركز مملكتي ، وفيها تتركز كل الثروات ، فالذهب والحديد والخمر والفاكهة المتنوعة تأتي من بلاد اليونان ، والقضبة والخيول تأتي من المجر وبوهيميا ، والفراء والشعر والعبيد تأتي من بلاد الروس .."^(٣٦) .

وهكذا يتأكد لنا أن الأمير الروسي سفياتوسلاف ما أن دخل بلاد البلغار واكتشف أهميتها التجارية وحسن موقعها ، وخصوصية أراضيها ، حتى اتخذ قراره بعدم التخلي عنها، رغم أنف الإمبراطور البيزنطي . وإذا كانت أمه الأميرة أولجا قد حاولت

^(٣٢) انظر الصفحات التالية من هذا الفصل .

^(٣٤)

^(٣٥)

^(٣٦)

Yahya d'Antioche, p. 826.

Cedrenus, II, p. 383.

R.P.C., p. 85; Franklin & Shepard, *Rus*, p. 145.

أن تنتهي عن الاستمرار في هذا ، وبدافع منها على حسن العلاقات مع بيزنطة ، كما سئى ، إلا أن سحر البلقان كان أقوى من كلماتها . وفى غضون بضعة أشهر كان سفياتوسلاف سيدا على البلقان .

ولعل ما زاد الأمر سوءا ورفع مؤشر الإصرار عند سفياتوسلاف على البقاء فى بلغاريا وعدم الرحيل عنها ، المبعوث البيزنطى كالوكيروس نفسه ، الذى ما أن رأى الانتصارات الروسية هذه على البلغار حتى راقت له الخيانة ، واتخذها سبيلا للاستيلاء على العرش البيزنطى والاستئثار به لنفسه . فقد شجع كالوكيروس سفياتوسلاف على مهاجمة الأراضى البيزنطية نفسها ، وعقد معه اتفاقا يساعد الروس بموجبه على تولى العرش البيزنطى وفى المقابل سيمنحهم بلغاريا ، وإلى الأبد . ويضيف كدريونوس أنه قدم لهم أضعاف ما قدمه البيزنطيون لهم من الأموال المتفق عليها ، وجعلهم بهذا حلفاء له ، وأصدقاء مدى الحياة^(٧٧) . أخيرا ينبغي ألا ننسى أن الأمير الروسى سفياتوسلاف كان لديه مصادر لا تتضبط من القوة البشرية، والتى ستوفر له المدد العسكرى المستمر فى صراعه من أجل السيطرة على البلقان^(٧٨) . وهكذا بانتهاء فترة وصاية الأميرة أولجا على ابنها سفياتوسلاف ، انتهت العلاقات السلمية بين الروس والبيزنطيين^(٧٩) . فقد كان سفياتوسلاف شجاعا، مقداما، متعطشا للسلب وإحراز النصر، على حد قول ليو الشماس^(٨٠) .

والآن نؤكد الإمبراطور البيزنطى نيقفور فوكاس، عن طريق جواسيسه فى البلقان، أن بلغاريا قد ضاعت من يديه وأن سفياتوسلاف صار سيدا لها . فكان لزاما عليه البحث عن حليف آخر ليخفف به الضغط الروسى على الدانوب والبلقان، ويزيل به عبء اللحظات القادمة ، حتى يستدعى قواته من الشرق ويرتب أوراقه ثانية . وفى عام ٩٦٨م نقرأ عن هجوم شديد قام به البشناق على العاصمة الروسية كييف ، حتى حالوا بين شقى المدينة الواقعة على ضفاف نهر الدنيبر . وتحصنت الأميرة أولجا مع أحفادها خلف أسوار المدينة ، التى أصبحت قلب قوسين أو أدنى من السقوط فى أيدي البشناق^(٨١) . وعلى الرغم من نجاح الروس فى كييف من صد

^(٧٧) Cedrenus, II, p. 383; Fine, *Balkans*, p. 181; Finlay, *Greece*, II, p. 334.

^(٧٨) Browning, *Bulgaria*, p. 71.

^(٧٩) Gollner, C., "Les expéditions byzantines contre les Russes sous Jean Tzimiscès", (970-971), *RHSEE*, 13 (1936), p. 343.

^(٨٠) Leo Diaconus, p. 77.

^(٨١) *R.P.C.*, pp. 85-86; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 202; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 34-35; Franklin & Shepard, *Rus*, p. 146.

البشناق في نهاية المطاف ، إلا أن حاشية الأمير الروسي أرسلوا له رسالة يطلبون منه العودة على وجه السرعة لإتقاد عاصمته من السقوط في أيدي البشناق . وما أن وصلت هذه الأنباء إلى سفياتوسلاف حتى اضطر إلى ترك كل شيء والاسراع إلى كيف لإتقادها من السقوط في أيدي البشناق . وقد تمكن من الوصول إلى عاصمته كيف وطرده البشناق بعيدا عنها ، بعد أن لقنهم درسا لم ينسوه البتة^(٨٦).

والآن علينا أن نمهل قليلا قبل المضي قدما مع الأحداث ولنفكر قليلا في الهجوم البشناقي على كيف ، لماذا وقع في هذا التوقيت بالذات ؟ إن الإنسان الواعي جيدا لطبيعة العلاقات البيزنطية - البشناقية في هذه الفترة بالذات ، وما يقوله الإمبراطور قسطنطين السابع بوريغوجينوس عن الفوائد الجمة التي تعود على بيزنطة من وراء التحالف معهم ، يدرك وللوهلة الأولى أن هذا الهجوم حدث بدافع بيزنطي محض . فقد جاءت اللحظة التي من أجلها يستخدم البشناق حسبما كان يخطط للأحداث . وعلى الرغم من أن الأحداث سارت بأسرع مما كان يتخيل الإمبراطور ، إلا أن حسده من البداية أكد له أن البشناق سوف يكونون يوما ما عنصرا للتوازن بين هذه الشعوب شمال الدانوب^(٨٧) . لقد أصاب الإمبراطور البيزنطي فيا ذهب إليه من تأليب البشناق على الروس ، وها هو سفياتوسلاف يترك بلغاريا مضطرا ، ويسرع الخطى نحو عاصمته كيف لإتقادها من أيدي البشناق . وبهذا خف الضغط الروسي العسكري عن البلقان في عام ٩٦٨ م .

ويرونا المؤرخان البيزنطيان ليو الشماس وسكيلتزس - كدريوس بروايتيس هامتين عن إجراء آخر اتخذته الإمبراطور نفوروقاس لتقوية جبهة البلقان ضد الروس . فقد حشد جيشا من المشاة والفرسان ، واضعا الفرسان عند المداخل ، كما جهز الآلات الحربية وسد مدخل البسفور بسلسلة ضخمة من الحديد^(٨٨) . وبمضي ليو الشماس إلى القول بأن الإمبراطور ظل يفكر كيف يصرف أموره ، فقرر أن يتحالف مع أحد الطرفين للتضاء على الطرف الآخر . ونظرا لأنه لم يعد يثق في الروس ولا في كالوكيروس ، فقد قرر أن يتحالف مع البلغار ضد الروس ، وبالفعل أرسل سفارة إلى قيصر البلغار بطرس كان على رأسها أخص الخطباء حينئذ البطريق نفور الملقب

^(٨٦) Karamsin, *Histoire*, pp. 218-219; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 34-35.

^(٨٧) لمزيد من التفاصيل عن هجوم البشناق على كيف انظر ، الفصل الثاني من الباب الثاني من البحث.

^(٨٨) عن الفوائد التي تعود على بيزنطة من التحالف مع البشناق ، انظر ، الفصل الأول من الباب الأول : الفصل الثاني من الباب الثاني في البحث .

^(٨٩) Leo Diaconus, p. 79; Cedrenus, II, p. 384.

بـ "اروتيكوس" *Ερωτικός* "وفيلوثيوس" *Φιλόθιος* أسقف
يوخايتا *Ευχαίτων*^(٨٥).

جدير بالذكر أن قيصر البلغار بطرس كان قد أصيب بنوبة قلبية ، على أثر
اجتياح سفياتوسلاف لبلاده وفشل القوات البلغارية في صدّه ؛ ومع هذا ظل يحكم
البلغار حتى وافته المنية في ٣٠ يناير عام ٩٦٩ م . وقبل وفاته كان قد أرسل رسالة
في عام ٩٦٨ م إلى القسطنطينية ليطالب العون العسكري من الإمبراطور البيزنطي
نقفور فocas^(٨٦) . وقد تصادف وصول رسل البلغار إلى البلاط البيزنطي وجود
ليوتيراند الكريموني ، الذي تنمّر من المكانة التي احتلها رسل البلغار في القصر
الإمبراطوري ، والتي كانت أعلى من مكانة الأجانب الآخرين^(٨٧) . لكن الإمبراطور
البيزنطي لم يكن قادراً على الاستجابة لمطلب السفارة البلغارية ، نظراً لأنه كان كان
مشغولاً بحروبه في الشرق مع المسلمين .

لكن إزاء تدهور الأوضاع في البلقان ، اضطر الإمبراطور البيزنطي فيما بعد
إلى إرسال سفارته ، السابق ذكرها ، إلى قيصر البلغار . ويبدو أن هذه السفارة قد
عرضت عليه التدخل العسكري البيزنطي لصد الروس وطردهم من البلقان ، وفي
المقابل يتم إرسال ابنتي القيصر إلى القسطنطينية لتتم خطبتهما إلى الإمبراطورين
الشابين باسيل الثاني وقسطنطين الثامن . ويذكر ليو الشماس أن البلغار استقبلوا الوفد
البيزنطي ببالغ الفرح ، وقد أرسلوا الأميرتين البلغاريّتين على عربات (حسب عاداتهم)
إلى القسطنطينية ، ليتم ما اتفق عليه بين الطرفين والإسراع بالندجة العسكرية^(٨٨) .
وفي وسط هذه الترتيبات توفي القيصر بطرس^(٨٩) . وبوفاة بطرس سمح الإمبراطور
البيزنطي بعودة أبناء القيصر إلى بلغاريا ؛ واعتلى الابن الأكبر بوريس *Boris*
العرش ، ونودي به قيصرًا في بيرياسلاف . ولم يسفر اعتلاء بوريس للعرش عن
سياسة جديدة . وبالفعل ، فإنه تحت هذه الظروف ، لم يكن هناك شيء ليفعله ،
باستثناء وضع البلاد في حالة دفاعية ضد الهجوم الروسي المرتقب^(٩٠) . ويبدو أن

^(٨٥) Leo Diaconus, p. 79.
^(٨٦) Fine, *Balkans*, p. 183; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 202.
^(٨٧) Fine, *Balkans*, p. 183.
^(٨٨) Leo Diaconus, pp. 79-80; Fine, *Balkans*, p. 183; Runciman, *Bulgarian Empire*, pp. 203-204.
^(٨٩) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 204.
^(٩٠) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 205; Fine, *Balkans*, p. 182.

بوريس ، مستغلا غياب سفياتوسلاف ، قام بدفع القوات الروسية إلى الورا واسترد بيرياسلاف من الروس^(١١) . وعلى هذا النحو كانت تدور الأمور في البلقان .

أما عما حدث بعد أن وصل الأمير الروسي سفياتوسلاف إلى كييف ، وتمكنه من طرد البشناق ، فكان على النحو الآتي ... وعلى لسان نسطور ... التقى سفياتوسلاف برجال حاشيته ، الذين وجهوا له اللوم على تركه البلاد وأبنائه والقيام بمغامرات عسكرية في بلاد أجنبية فرد عليهم سفياتوسلاف حينئذ قاتلا مقلتيه الشهيرة : " لست مهتما بالبقاء في كييف ، بل أفضل العيش في بيرياسلاف على الدانوب ، حيث أنها مركز مملكتي وفيها تتركز كل الثروات ؛ فالذهب والحريير والخمر والفاكهة المتنوعة تأتي من بلاد اليونان ، والفضة والجوادر تأتي من المجر وبوهيميا ، والفراء والشمع والعبيد يأتي من بلاد الروس " . لكن أمه الأسيرة أولجا ردت عليه قائلة " إنك ترى إلى أي مدى بلغت حالتي من الوهن ، فلماذا تود الرجوع إلى ؟ " حيث كانت حالتها الصحية بالفعل معتلة . وعلى هذا النحو اعترضت أولجا عليه وحاولت أن تثنيه عن الاستمرار في غزو البلقان . وإذا كان ولابد من هذا النشاط العسكري الخارجي ، فلينظر حتى يدفعها أولا وليذهب حيثما يشاء^(١٢) . ونرى من كلمات أولجا السابقة أنها كانت حريصة على استمرار حسن العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية ، ومحاولتها إنشاء ابنها عن المضي فيما ينوي فعله ، لأن هذا سوف يفسد العلاقات بين البيزنطيين والروس . لكن يبدو أن سحر البلقان كان أقوى من كلمات أمه . فما كان منها في نهاية الأمر إلا أن طلبت منه البقاء إلى جوارها لحين وفاتها . وبالفعل توفيت أولجا في هذا العام وقام ابنها الأمير سفياتوسلاف وكل الروس ، على حد قول نسطور ، بتشييعها ودفنها حسب الشعائر المسيحية^(١٣) .

ويبدو أن الأمير الروسي سفياتوسلاف قرر البقاء قليلا في كييف عقب وفاة والدته الأميرة أولجا ، ليقر الأمور بين الأمراء الروس ويطمئن على جبهته الداخلية ، ليستكمل بعدها مشروعاته التوسعية في البلقان . فتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن الأمير سفياتوسلاف انشغل بعد وفاة أمه الأميرة أولجا بإقرار أحوال البلاد. وفي نهاية المطاف قام بتقسيم الحكم في البلاد بين أبنائه ، ليقود حشود قواته بعد ذلك ، ربما في خريف نفس العام ، متحركا صوب بلغاريا مرة ثانية^(١٤) . ويخبرنا سكيلتزس -

Fine, *Balkans*, p. 184.

R.P.C., p. 85; Karamsin, *Histoire*, p. 219.

R.P.C., pp. 85-87.

R.P.C., p. 87; Karamsin, *Histoire*, pp. 221-222; Franklin & Shepard, *Rus*, p. 147.

(١١)

(١٢)

(١٣)

(١٤)

كديونس أن الأمير الروسي أعاد الكرة ثانية على البلغار ، وبنفس الطريقة ، بل بأشد منها في العام التالي^(٩٥) . وقد حشد جيشا من رعاياه الروس ومن مرتزقته من البشناق والمجبار وقادهم جميعا صوب عاصمته المزمعة على الدانوب برياسلاف ، ومن هناك سار إلى قلب بلغاريا . وأيا كانت الدفاعات التي نظمها بوريس ، فإنها تفتتت تماما أمام جحافل الروس^(٩٦) .

الجدير بالذكر أن تعداد الجيش الروسي الذي اجتاح به سفياتوسلاف بلغاريا اختلف من مؤرخ لآخر . فكتائب الحولية الروسية الأولى يجعل تعداده عشرة آلاف جندى^(٩٧) ، أما زونارس فيقول إن قوات سفياتوسلاف بلغت ثلاثمائة ألف جندى^(٩٨) ، أما ليو الشماس فيقول أن قواته بلغت ثلاثين ألف جندى^(٩٩) . وبالطبع فإن الإحصاء الذي قدمه نسطور هو الأقرب إلى الواقع ، كما ينبغي ألا نستبعد إحصاء ليو الشماس خاصة إذا ما أدخلنا في حسابنا القوات المساعدة لسفياتوسلاف من البشناق والمجبار؛ أما تقدير زونارس فهو مبالغ فيه بالتأكيد^(١٠٠) .

وأيا كان الأمر ، فقد قاد سفياتوسلاف كل هذه القوات واجتاح بلغاريا كما قلنا ، وتغلغل الأمير الروسي عبر الولايات البلغارية الشمالية إلى أن وصل إلى بيرياسلاف الكبرى نفسها ، والتي تحصن بها البلغار مع قيصرهم بوريس . وضرب الروس الحصار حول المدينة ، وشن البلغار هجوما عنيفا عليهم حتى تخلى البلغار الذين انضموا إلى الروس ، عنهم ؛ ووقعت مذبحه مروعة هناك ، وهو الأمر الذي جعل سفياتوسلاف يصرخ في جنوده قائلا : " أهنا نكون نهائيتا ! فلنحارب بشجاعة ، أيها الأشقاء والرفاق " . ويبدو أن كلمات القائد الروسي سفياتوسلاف كان لها وقع شديد على نفوس الروس ، فما أن حل الظلام حتى كانت لسفياتوسلاف اليد العليا ، واستولى على المدينة بصورة نهائية^(١٠١) . وقد تم أسر القيصر بوريس وأخيه رومانوس وكل أفراد الأسرة المالكة البلغارية^(١٠٢) . وبعد هذا الانتصار توجه الروس نحو مدينة

(٩٥) Cedrenus, II, p. 372.
(٩٦) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 205; Finlay, *Byz. Empire*, p. 319; Pares, *Russia*, p. 27.
(٩٧) R.P.C., p. 88.
(٩٨) Zonaras, III, p. 524.
(٩٩) Leo Diaconus, p. 109.
(١٠٠) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 205, n. 4.
(١٠١) R.P.C., p. 87.
(١٠٢) Cedrenus, II, p. 383; Yahya d'Antioche, p. 813.

فليبوبوليس *Philippopolis*^(١٠٧) ، وهي أعظم مدن الجنوب البلغاري . ويبدو أن هذه المدينة قد أبدت ضروبا من الشجاعة والمقاومة للغزاة الروس ولكن دون جدوى ؛ فقد سقطت في نهاية المطاف في أيديهم. وتقول المصادر البيزنطية إن الأمير الروسي سفياتوسلاف أعدم عشرين ألفا من سكانها انتقاما منهم ، بعد أن استولى على المدينة عنوة^(١٠٨) .

وهكذا صار الطريق مفتوحا أمام سفياتوسلاف ، عبر تراقيا ، للوصول إلى العاصمة الإمبراطورية نفسها . والآن لتوقف برهة متسائلين عن الدوافع التي حدثت بسفياتوسلاف للعودة ثانية إلى بلغاريا والتغلغل في تراقيا وعزمه على السير نحو القسطنطينية ؟ .

لا شك أن الطريق كالكبروس كان من أهم العوامل التي ساعدت على هذا . فهو الذي حدث سفياتوسلاف دوما على المضى قداما في غزوه لبلغاريا ، وهو الذي ضاعف الأموال له ، بل وصلت العلاقة بينهما إلى أن عد الروس حلفاء له وأصدقاء مدى الحياة . ولم لا ! أليسوا هم الذين سبغوه على تولي العرش في القسطنطينية ، وفي المقابل سيمنحهم بلغاريا مدى الحياة^(١٠٩) . وفي المقام الثاني يأتي تعلق سفياتوسلاف بهذه البلاد وقوله إن برباسلاف ستكون مركزا لمملكته، وكلماته بهذا الشأن تعكس الأهمية التجارية لها، وحرص سفياتوسلاف على الاستئثار بها لنفسه^(١١٠) . أما العامل الثالث فهو ربما إدراك سفياتوسلاف أن هجوم البشناق على عاصمته كييف، والمتزامن مع غزوه الأول لبلغاريا ، كان بتدبير بيزنطي محض . وإلا فيماذا نفس عزمه القاطع على غزو القسطنطينية، كما سنرى فيما بعد . إن غزوه الثاني لبلغاريا كان أكثر توسعا عن سابقه، فقد وصل حتى الآن إلى مدينة فليبوبوليس في تراقيا، وبعد قليل سنجد أنه يزحف بقواته قرب مدينة أركادوبوليس ، والتي تبعد عدة مئات من الأميال عن القسطنطينية . كل هذا يوضح أن غزوه الثاني لبلغاريا لم يكن الهدف منه تنفيذ اتفاقه السابق مع الإمبراطور نقفورفوقاس بغزو بلغاريا لصالح بيزنطة ، بل كان خطوة أولية للوصول إلى القسطنطينية . ويبدو أن توالي بيزنطة في كبح

^(١٠٧) فليبوبوليس ، كانت مدينة عظيمة ومركزا استراتيجيا . ولا نعرف سوى القليل عنها وعن حجمها وأهميتها في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . لمزيد من التفاصيل عنها ، انظر،

Browning, *Bulgaria*, pp. 99-100.

^(١٠٨) en *Leo Diaconus*, p. 105; Schlumberger, G., " Russes et Byzantins dans les Balkans l'an 972 ", dans: *Récits de Byzance et des Croisades*, (Paris, 1917), pp.22- 23; Franklin & Shepard, *Rus*, p. 148.

^(١٠٩) *Cedrenus*, II, pp. 383-384.

^(١١٠) *R.P.C.*, p. 85.

^(١٠٩) انظر،

جماح سفياتوسلاف في المرة الأولى، وضعف المقاومة البلغارية له ، كل ذلك أعطاه دفعة قوية للسير نحو القسطنطينية . أما آخر العوامل التي دفعت بسفياتوسلاف إلى غزو بلغاريا مرة ثانية، والتحول إلى غزو القسطنطينية نفسها ، فكان عاملا حديث المولد ؛ حيث يخبرنا يحيى الأنطاكي أن الأنباء وصلت إلى يوحنا تزميسكس تخبره بسير الروس نحو القسطنطينية لقتاله والمطالبة بنار نفقور فوقاس^(١٠٧) .

جدير بالذكر أن الإمبراطورة ثيوفانو *Theophano* كانت قد دبرت مؤامرة مع عشيقها يوحنا تزميسكس *Jean Tzimiskes* قائد نفقور فوقاس الأثير ، لاغتيا لزوجها الإمبراطور نفقور فوقاس . وبالفعل اغتيل الإمبراطور نفقور فوقاس في ١٠ ديسمبر عام ٩٦٩م ، ليجلس يوحنا تزميسكس بعدها إمبراطورا على العرش البيزنطي ، ولتتجرع ثيوفانو نفس الكأس الذي سقته لزوجها السابق نفقور فوقاس على أيدي عشيقها يوحنا تزميسكس^(١٠٨) . لقد دبت القلائل في القصر الإمبراطوري إثر هذه الأحداث ، واضطربت أحوال الإمبراطورية البيزنطية بعض الشيء وخيم الذعر على سكان العاصمة ، لاسيما مع توارد الأنباء إليها عن تقدم سفياتوسلاف في البلقان . إلا أن الإمبراطور البيزنطي يوحنا تزميسكس تمكن من القبض على زمام الأمور ، فتخلص من الإمبراطورة ثيوفانو بإلقائها في المنفى ، وفيما بعد فتح باب المفاوضات مع الأمير الروسي سفياتوسلاف^(١٠٩) . ولا شك أن الإمبراطور البيزنطي يوحنا تزميسكس كان يأمل في تهدئة الأوضاع في البلقان ، لحين إعادة ترتيب أوراقه السياسية ، ولكسب المزيد من الوقت .

ونستخلص من كلمات المؤرخ البيزنطي سكيلتزس - كدريوس أن الإمبراطور البيزنطي يوحنا تزميسكس كان قد بعث بوفد إلى الأمير الروسي سفياتوسلاف ؟جاء مفاوضات معه، عارضا إقامة علاقات سلمية معه وإعطائه المبلغ الذي كان نفقور فوقاس قد وعد به (والذي عده سفياتوسلاف جزية، حسب قول نسطور) بشرط أن ينسحب الروس من الأراضي التي احتلوها^(١١٠) . لكن الروس أعلنوا أن بلغاريا ملك لهم ، لأنهم هم الذين سيطروا عليها ، وردوا على وفد

^(١٠٧) *Yahya d'Antioche*, p. 833.

^(١٠٨) عن هذه الأحداث تظفر ، *L'épopée* ، Schlumberger, G., *Leo Diaconus*, p. 84 ff.; *byzantine à la fin du dixième siècle*, Jean Tzimiskis, (Paris, 1896), pp. 1-4.

وانظر أيضا، صر كمال توفيق ، *مقامات العنوان الصليبي ، الإمبراطور يوحنا تزميسكس وسياسته الشرقية*، (الإكندرية ، ١٩٦٦) ، ص ٢١-٢٠ .

^(١٠٩) Browning, *Bulgaria*, p. 72.

^(١١٠) *Cedrenus*, II, p. 384; *Leo Diaconus*, p. 103.

الإمبراطور البيزنطي بوقاحة شديدة ، أو بوقاحة البرابرة على حد تعبير كرينوس^(١١١) ؛ فطلب سفياتوسلاف فدية ضخمة عن الأسرى ، ومقابلا مائدا عن الأراضي التي فتحها ، ونوه عما يدعيه بالتهديد التالي : " إذا لم يرد الرومان دفع الأموال ، فليس لهم حق إلا في مغادرة أوروبا *τῆς Εὐρώπης θάττον* ... ، والتي ليس لهم فيها أى حق ، بل والانسحاب إلى آسيا ، وإلا فإن السلام بين الروس والرومان أمر محال " ^(١١٢) . وهكذا عد سفياتوسلاف الجزء الغربى من الإمبراطورية البيزنطية ملكا له . وفى الواقع لم يكن هناك شئ ليقوم به يوحنا تزيمنسكس ، نظرا لأن القوات العسكرية البيزنطية كانت حينئذ موجودة فى الشرق .

ولكى يكسب الإمبراطور يوحنا تزيمنسكس الوقت ، حتى يستدعى قواته من الشرق ، ابتلع هذا الصلف الروسى ، وأرسل سفارة ثانية إلى الأمير الروسى سفياتوسلاف اتسمت بالجرأة والشموخ البيزنطى ؛ وكانت تحمل معها إنذارا بمغادرة الأراضي التي احتلها والانسحاب من الأراضي البيزنطية . وفى الواقع فإن هذه السفارة لم يكن لها هدف سوى المراوغة وكسب الوقت^(١١٣) . وهذه هى الرسالة التي حملها الوفد البيزنطى إلى سفياتوسلاف : "... لدينا ثقة فى المسيح ، الإله الحى الذى لا يموت ، أنه إذا لم تغادر البلاد طواعية ، فسوف نفعل هذا بالقوة . ونعتقد أنك لم تتس المصائب التي حلت بأبيك ايجور ، الذى حنث باليمين وشن حملة بحرية ضد المدينة الإمبراطورية ، بجمعه لحشد من البشر وعدد لا يحصى من السفن . وبالكذ الكبير رجع إلى بسبور بعشر مراكب فقط ليعلم عن هزيمته بنفسه . وإن أقول شيئا عن المينة الحقيرة التي لحقت بالمهزوم فيما بعد . فعندما كان ذاهبا لقتال الجرمان قاموا بأسره وربطه بين جذعى شجرة فانشطر نصفين . لذا فإن المصير نفسه سوف ينتظر لك لو أجبرت الجيش الرومانى على السير ضدك ، وإن تعود إلى بلادك مطلقا وستدفع فى هذه الأرض ، وإن تقلت أية مركب وتعود إلى سكينا (أى بلاد الروس) لكى تعلن عن هزيمتك " ^(١١٤) .

وفى الحقيقة كان تهديد السفراء البيزنطيين شديد اللهجة ، كما رأينا من خلال رسالة الإمبراطور يوحنا تزيمنسكس إلى الأمير الروسى سفياتوسلاف ، فى الوقت الذى

^(١١١) Cedrenus, II, p. 384.

^(١١٢) Bulgaria, Leo Diaconus, p. 105; Runciman, Bulgarian Empire, p. 206; Browning, p. 72.

^(١١٣) Göllner, Jean Tzimiscès, p. 344.

^(١١٤) Leo Diaconus, pp. 105-106; Grégoire, H., "La dernière compagne de Jean Tzimiskès contre les Russes ", B, 12 (1937), p. 973.

كان فيه سفياتوسلاف فى قمة مجده العسكرى فى البلقان ؛ وحيث لم يكن هناك جيش إمبراطورى فى البلقان يضاهى الجيش الروسى^(١١٥) . وكان طبيعيا أن تدق طبول الحرب، التى أعلنها سفياتوسلاف على الإمبراطور البيزنطى بقوله للسفراء البيزنطيين " إنه من غير الضرورى أن يتحمل سيدكم مشقة الحضور إلينا ، فعمّا قريب سوف تنصب خيمنا تحت أسوار القسطنطينية وسوف ترون من تكون! محاربون نبلاء ، متعطشون لإراقة الدماء"^(١١٦) . ويؤكد كاتب الحوليس الروسية الأولى على أن سفياتوسلاف أعلن الحرب على البيزنطيين ، وأخيرهم عن عزمه السير ضدهم والاستيلاء على مدينتهم ، مثلما استولى على برياسلاف^(١١٧) .

لم يكن هناك مقر من القتال بين الطرفين واللقاء على الأرض البلغارية . لقد كان على البلغار أن يواجهوا قدرهم المحتوم ، الذى دبره لهم البلاط البيزنطى . فقد استسلموا للبرابرة الذين جاءوا من السهوب ، وكان عليهم أن يشاهدوا القوات الإمبراطورية وهى تتقاتل مع الروس فوق أراضيهم ، وهم مدركون تماما أن أى المنتصرين لن يعيد لهم استقلالهم ؛ وكانت نظرتهم متشائمة ، فالقيصر بوريس حبيس قصره ، وتحولت جنوده لتدعم القوات الروسية ، بينما راقب التجار والمزارعون حلقات الحرب . أما فى غرب بلغاريا ، حيث لم يصل إليه الروس ، فكانت الحياة نشيطة إلى حد ما ولم تتأثر بما يدور فى الشرق البلغارى^(١١٨) .

ويخبرنا نسطور فى حوايته أن سفياتوسلاف تقدم ضد البيزنطيين، وبالمثل فعل الأخيرين، حيث خرجوا للقاء الروس^(١١٩) . لقد كان لدى الروس كل التجهيزات العسكرية اللازمة للحرب وكان أميرهم يقود جيشا ضخما من عالم البرابرة ، من الروس والمجيار والبشناق بالإضافة إلى البلغار الذين ضمهم إليه^(١٢٠) . وفى مارس عام ٩٧٠م اخترق سفياتوسلاف شبه جزيرة البلقان وتقدم نحو القسطنطينية . واقترب الروس من مدينة أدرنه *Adrianopolis* ، مخربين تراقيا مرة ثانية، وعسكروا بالقرب من أسوار مدينة أركاديوبوليس *Arcadiopolis* ومكثوا هناك متحينين الفرصة للقتال^(١٢١) . أما عن البيزنطيين فقد أسرع يوحنا تيمسكس، إزاء هذه التطورات ،

Göllner, Jean Tzimisès, p. 344.

Leo Diaconus, pp. 106-107; Göllner, Jean Tzimisès, p. 344.

R.P.C., p. 87.

Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 207.

R.P.C., p. 88.

Zonaras, III, pp. 523-524; Cedrenus, II, p. 384.

Cedrenus, II, p. 384.

(١١٥)

(١١٦)

(١١٧)

(١١٨)

(١١٩)

(١٢٠)

(١٢١)

بنقل قواته العسكرية من الشرق إلى البلقان تحت قيادة شقيق زوجته ماريبا *Maria* الماجستير برداس سكليروس *Bardas Sclerus* والبطريق بطرس فوقاس *Petrus Phocas*^(١٢٢) . وفي الواقع أحسن تزييمسكس اختيار هذين القساكين لقيادة القوات البيزنطية في البلقان ، فقد كان برداس سكليروس رجلاً فريداً بطاقته وشجاعته . أما بطرس فوقاس فقد قدم شواهد على مهاراته الإستراتيجية وبسالته في الحروب التي وقعت في عهد الإمبراطور نقفور فوقاس^(١٢٣) . وقد دعمها تزييمسكس بفرقة جديدة شكلها من صفوة المحاربين وأطلق عليها اسم الخالدين^(١٢٤) . وطبقاً للأوامر العسكرية العليا فقد أقام القائدان المعسكر البيزنطي في تراقيا ، وفي وضع دفاعي ، وأشرف على تدريب القوات البيزنطية استعداداً للقتال المرتقب . كما كان عليهما حماية الأقاليم من سلب ونهب الروس ، وفي الوقت نفسه طلب الإمبراطور منهما تزويده بالمعلومات العسكرية عن سفناتو سلاف ونواياه عن طريق جواسيسه^(١٢٥) ومع اقتراب الروس من القوات البيزنطية ، لجأ القائد البيزنطي برداس سكليروس إلى تنفيذ الحيلة التالية ، على أثر رؤيته كثرة قوات العدو . وطبقاً لكدرينوس فقد نصب لهم شركاً ليقعوا فيه ويتمكن منهم ؛ فقد مكث داخل أسوار مدينة أركاديوبوليس مظهراً الخوف من العدو ، الأمر الذي انطلى على العدو ، وعندما شعر الروس بما فيه البيزنطيون راحوا يتجولون في المنطقة وقضوا ليلهم بين السكر والعريضة^(١٢٦) . ويعتقد المؤرخ جولنييه *Göllner* أن القادة البيزنطيين أرادوا بهذه المناورة الاعتقاد على طريقة القتال مع الروس ، وتجهيز أنفسهم للقاتل المحتمل^(١٢٧) . وبدأ برداس سكليروس في تنفيذ خطته التي أثبتت بها جدارته العسكرية ، وعرف كيف يجبر الروس على خوض المعركة . وكانت الخطة العسكرية البيزنطية لقتال الروس تتلخص في نشر جزء من القوات بين التلال في كمائن للعدو ، ثم الهجوم على العدو بجزء من الجيش ، ثم التظاهر بالهروب وأخيراً انقضاض الكمناء على العدو من شتى الجوانب وفي الوقت نفسه تستدير القوات المتظاهرة بالهروب وهكذا تطبق القوات البيزنطية على الروس من جميع الجوانب فتتعدم الفرصة أمامهم للهروب^(١٢٨) . لقد اختار برداس سكليروس وادى ريماسو

^(١٢٢) *Leo Diaconus*, p. 107; *Cedrenus*, II, p. 384; *Zonaras*, III, p. 523.

^(١٢٣) *Leo Diaconus*, p. 107; *Göllner, Jean Tzimisès*, p. 346.

^(١٢٤) *Göllner, Jean Tzimisès*, p. 345.

^(١٢٥) *McGeer, Sowing*, p. 221 .

^(١٢٦) *Göllner, Jean Tzimisès*, p. 346.

^(١٢٧) *Cedrenus*, II, pp. 384-385; *Zonaras*, III, p. 524.

^(١٢٨) *Göllner, Jean Tzimisès*, p. 346.

^(١٢٩) *Cedrenus*, II, p. 385.

Rima-Sou ، وهو رافد لنهر الإركينلي *Erkeneli* ، حيث تقع مدينة أركاديوبوليس^(١٢٩) ؛ وهي المدينة التي حملت الموقعة اسمها وكانت تقع في الجناح الأيمن للقوات البيزنطية . وهنا رأى برداس سكليروس إمكانية نشر قواته بين تلال الضفة اليسرى للريما سو ، فوضع أفضل الفرق بينها وبين أركاديوبوليس^(١٣٠) . وكانت قوات الروس مقسمة إلى ثلاث جيئات : في الجبهة الأولى كان الروس ومعهم البلغار ، وفي الثانية المجيار وفي الثالثة البشناق . وقد نجحت خطة القائد البيزنطي برداس سكليروس ، وقام البطريق يوحنا آلكاس *Jean Alakas* بالإشتباك مع سلاح فرسان العدو ، متظاهرا بالهرب الإضطرابي ، وبهذا جر البشناق إلى شرك جهاز لهم سلفا . وفي هذا المكان ، حيث لم يتوقع الروس أدنى مقاومة ، تعرضوا للهجوم البيزنطي من الجبهة الأمامية، في حين أخذ جناحا القوات البيزنطية في الإطباق عليهم كالكمشة^(١٣١) .

جدبر بالذكر أن القوات البيزنطية كانت قد قسمت إلى ثلاثة أجنحة ، الوسط والميمنة والميسرة ؛ أما الوسط فقد تولاها برداس سكليروس ، بينما الجناحان كانا تحت قيادة قادة أدنى مرتبة ووضعوا في الغابة الممتدة بطسول النهر. وصدرت الأوامر للجناحين بأن يمكثا في وضع الترقب والإسراع بالانقضاض على العدو عند إعطاء الإشارة لهم^(١٣٢) . وعلى هذا النحو تم القضاء على جناح البشناق ، وتلاهم الآخرون حيث اشتعلت المعركة بين الطرفين . ويبدو أن الروس قد ارتعدوا من تكتيك القوات البيزنطية ، وهنا خطب سفياتوسلاف في جنوده قائلا : " الآن ليس لنا ملاذ نلجأ إليه، علينا دخول الحرب سواء شئنا أم أبينا. لا تدعونا نخزي الروس، بل نضحى بحيواتنا حتى لا نصير غير شرفاء ، لأنه إذا هربنا فسنصبح عارا عليهم، فلا يجب علينا أن نولى الأدبار بل نقاوم بجسارة ، وسوف أنقذكم في السير، وإذا سقطت رأسي عن جسدي عندئذ اعتنوا بأنفسكم " . وعندئذ رد عليه الروس قائلين : " أيما مكان فيه تسقط

^(١٢٩) هي اليوم مدينة لولي بورجاس Lule-Burgas انظر،

Göllner, *Jean Tzimisès*, p. 346; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 207 .

^(١٣٠) Göllner, *Jean Tzimisès*, pp. 346-347; Court, *La Russie*, p. 108 .

^(١٣١) Cedrenus, II, pp. 385-386; Zonaras, III, p. 524.

^(١٣٢) Leo Diaconus, p. 109; Göllner, *Jean Tzimisès*, p. 347.

رأسك سوف نضحى بأنفسنا»^(١٣٣) . ومن المفترض أن هذه الخطبة ألقاها سفياتوسلاف قبيل الاشتباك في المعركة ، وإن كانت تعكس شيئاً من التردد والخوف في نفوس الروس بسبب كثرة القوات البيزنطية على حد قول نسطور ، الذي أحصاهم بمائة ألف مقاتل^(١٣٤) ، أما ليو الشماس فقد أحصى القوات البيزنطية بعشرة آلاف جندي^(١٣٥) ، ويذكر كدريوس أن تعداد القوات البيزنطية كان اثني عشر ألف جندي^(١٣٦) ، أخيراً يذكر جولنيه نقلاً عن زوناراس أنها كانت عشرين ألفاً^(١٣٧) . وبالرغم من تضارب روايات المؤرخين حول تعداد القوات البيزنطية والتي لا يمكن الوثوق بأحدها للأخذ بها بصورة مطلقة إلا أن القوات البيزنطية التي واجهت الروس وجهاً لوجه، مع الأخذ في الحسبان الفرق الكامنة بين التلال، لابد وأن تكون أقل من كل هذه الأرقام ، ومن ثم فليست كثرة البيزنطيين هي التي سببت التردد والخوف في نفوس الروس كما ظهر في خطبة سفياتوسلاف لهم . لكن ، نظراً لأن هذه هي المرة الأولى التي يواجه الروس فيها البيزنطيين وجهاً لوجه وعلى أرض مكشوفة ، فقد أدى هذا إلى تسالل شيء من الخوف والتردد إلى أنفسهم .

على كل حال ، بعد انهزام البشناق من البيزنطيين لم يفكر الروس في الهرب بل قرروا انتظار الهجوم البيزنطي . وبدأ الهجوم بسلامح الفرسان البيزنطيين الثقيل (الكاتافراكتي) ثم تلاه هجوم المشاة . وفي بداية الالتحام انهزمت الفرسان الخفيفة البلغارية والمجيارية وأجبرت على الانسحاب . واشتد الروس في مقاومتهم حتى توقف تقدم القوات البيزنطية . وفي اللحظة المناسبة أعطى القائد البيزنطي الإشارة للقوات البيزنطية الكامنة ، التي بمجرد تلقيها الإشارة انقضت على الروس المرهقين من طول القتال مثيرة الذعر واللبلة بينهم . وحاول القادة الروس تشجيع قواتهم ، بدون جدوى ، حيث كان الانهيار الكامل قد تمكن منهم؛ وانتهت المعركة بالنصر التام للبيزنطيين وانسحاب الروس من ميدان القتال^(١٣٨) ، حيث لاحقهم البيزنطيون وأعملوا القتل والسبي فيهم^(١٣٩) .

(١٣٣) R.P.C., p. 88; Karamsin, *Histoire*, pp. 225-226.
(١٣٤) R.P.C., p. 88.
(١٣٥) Leo Diaconus, p. 109.
(١٣٦) Cedrenus, II, p. 384.
(١٣٧) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 348.
(١٣٨) Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 348.
(١٣٩) Zonaras, III, p. 524.

للتعرف على صور البطولات العسكرية البيزنطية الفردية أثناء القتال بينها، انظر،
Cedrenus, II, p. 387; Schlumberger, *Russes*, pp. 23-24.

ويعتقد المؤرخون المحدثون أن الجيش الروسي لم يهزم كلية في أركاديوبوليس وأنه تلقى هزيمة جزئية ، أو على أقصى تقدير هزمت إحدى فرقته من البيزنطيين بينما انسحب باقي الجيش من الميدان^(١٤٠) ؛ والدليل على ذلك أن سفياتوسلاف سار بقواته في تراقيا ، بعد هزيمة أركاديوبوليس ، مقترباً من العاصمة البيزنطية القسطنطينية^(١٤١) . وهذا يعنى أن سفياتوسلاف كان لا يزال عندئذ مع البقية الباقية من جيشه في موقع يؤهله كي يندفع بقواته صوب الجنوب^(١٤٢) . وفي الواقع فقد وصل بقواته حتى مدينة أدرنه ، التي قاموا بعدة غارات حولها ، وكانت غاية في السهولة ، على حد تعبير رنسمان ، بسبب عزز الحاكم المحلي يوحنا كوراكواز^(١٤٣) ، الذى كان أسيراً للطعام والشراب بصورة غريبة^(١٤٤) . ويبدو أنهم تراجعوا بعد ذلك حتى مدينة فليبيوبوليس ، حيث القوة الكبرى لسفياتوسلاف ، وغادروا جميعاً تراقيا وعبروا البلقان على الفور ليمركزوا ثانية في بلغاريا^(١٤٥) . وهناك تساؤل يفرض نفسه على الأحداث : إذا كان الروس لا يزالون بهذه القوة العسكرية وبرباطة الجأش فما الدافع الذى حدا بهم إلى التخلي عن البلقان والتراجع نحو بلغاريا ؟

وللإجابة على هذا التساؤل لابد وأن نرنو ببصرنا نحو آسيا الصغرى ، فالأحداث القائمة هناك كانت على غير هوى تزمسكس . فقد هبت الرياح على القسطنطينية تحمل أنباء الثورة التى قام بها برداس فوقاس *Bardas Phocas* فى أماسيا *Amasia* وهو ابن أخى الإمبراطور السابق نفقور فوقاس^(١٤٦) ، وهو الأمر الذى جعل الإمبراطور يوحنا تزمسكس يحجم عن استكمال انتصاراته على الروس فى البلقان ، ويبحث فى طلب برداس سكليروس الذى ترك البلقان على الفور وقاد جيوشاً

^(١٤٠) Fine, *Balkans*, p. 186; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 349.

^(١٤١) R.P.C., pp. 88, 89.

^(١٤٢) Fine, *Balkans*, p. 186.

^(١٤٣) من المحتمل أن يوحنا كوراكواز هذا هو حفيد يوحنا كوراكواز ، قائد رومانوس الأول ، وكان يدعى رومانوس ، انظر ،

^(١٤٤) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 208, n.1. *Leo Diaconus*, pp. 126-167; Court, *La Russie*, p. 109; Runciman, *Bulgarian*

^(١٤٥) *Empire*, p. 208; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 350.

^(١٤٦) Schlumberger, *Russes*, p. 25; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 351.

^(١٤٧) عن ثورة برداس فوقاس انظر ، *Leo Diaconus*, pp. 112-121; *Zonaras*, III, pp. 525;

Cedrenus, II, p. 388; *Yahya d'Antioche*, pp. 831-832; Schlumberger, *l'épopée*, pp. 60-75.

ضخمة ، تمكن بها من القضاء على ثورة برداس فوقاس^(١٤٧) . وللأسف فإن الحوليات البيزنطية غضت الطرف عما يدور في البلقان ، وأسهمت في الحديث عن ثورة برداس فوقاس وما يدور في آسيا الصغرى^(١٤٨) . وفي شهادة مكتوبة على قبر نقفور فوقاس ، نظمها شاعر معاصر له هو يوحنا الجيومترى *Joannis Geometrae*، يعطينا بعض المعلومات عن الانطباع النفسى الذى خيم على القسطنطينية فى تلك الأونة . فكان يتضرع إليه بهذه الكلمات :

أيها الملك ، فلتتهض اليوم ، اجمع المشاة والفرسان المسلحين بالرماح،
اجمع جيشك ، كتائبك ، فرقك .

إن قوات الروس فى طريقها إلينا ، إنهم يكثرون شعبك ، عاصمتك .
أولئك الذين كانوا فيما مضى ينشرون الرعب عند أبواب بيزنطة .

لا .. أنت لن تمتنع عن الاستجابة ، إزاء هذا سلاح نفسك
بتلك الحجر الذى يفتيك لتسحق هؤلاء المعتدين المتوحشين ،
ولتكن ركيزة لا تتزعزع لأقدامنا الثابتة .

لكن إذا لم تكن راغباً فى مغادرة قبرك ولو للحظة ،
فلتسمعهم فقط نوى صوتك .. فيصدى صوتك سوف يتشتتون .
وإذا عز عليك هذا أيضاً ، فلنستقبلنا فى مثواك .

إنك ستكون كافياً لإنقاذ العالم المسيحى ،
أنت الذى قهرت الجميع فيما عدا امرأة^(١٤٩) .

على هذا النحو كان الشاعر البيزنطى يوحنا الجيومترى يتضرع إلى الإمبراطور الراحل نقفور فوقاس لإنقاذ القسطنطينية مما حل بها من كوارث على الصعيدين الخارجى والداخلى . وكان يملؤه الأمل تماماً فى استجابة الإمبراطور له بقوله : " لا .. أنت لن تمتنع عن الاستجابة " ، وكلماته هذه تعكس أيضاً المكانة التى كانت عليها بيزنطة فى عهد نقفور فوقاس . ويختتم قصيدته بإعلان أن نقفور فوقاس كفيل بإخضاع العالم ، ولكن كيف هذا وقد قهرته زوجته الإمبراطورة ثيودورا !!

^(١٤٧) *Yahya d'Antioche*, pp. 831-832.

^(١٤٨) Gölner, *Jean Tzimisès*, p. 350.

^(١٤٩) *Joannis Geometrae Hymni quinque in Sanctissiman Deiparam*, in: *S.P.N. Andreae et Arethae Opera Omnia*, ed. J.P.Migne, PG, tome 106, (Turnholt), Col. 922; Schlumberger, *L'épopée*, pp. 317-318.

للمزيد من قصائد يوحنا الجيومترى عن نقفور فوقاس ، انظر ، *Joannis Geometrae*, Cols. 901, 927.

ويبدو أنه إزاء هذه الأحداث الجسام التي عيشت ببينزطة في آسيا الصغرى والبلقان معا قرر يوحنا تريمسكس اللجوء إلى الطرق الدبلوماسية مع سفياتوسلاف ، لتهديئة الأوضاع في البلقان . فتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن يوحنا تريمسكس لجأ إلى المفاوضات مع سفياتوسلاف وأنه أرسل إليه ذهباً وحريراً مع رسول محضه؛ وسمح له بالدخول إلى حضرة الأمير الروسى والمثول بين يديه مقدماً هداياه. وقابل سفياتوسلاف الأمر بلا لكتراث ، ورد الرسل البيزنطيين بخفى حنين . ومع هذا أرسل يوحنا تريمسكس سفارة أخرى إلى سفياتوسلاف حملت معها هدايا عسكرية من سيوف وتجهيزات أخرى ، وعندما دخلوا إلى حضرته ومثلوا بين يديه ، ووضعوا هذه الهدايا أمامه فرح سفياتوسلاف بها وحملهم تحياته إلى الإمبراطور يوحنا تريمسكس . ونظروا لاقتراب سفياتوسلاف من العاصمة البيزنطية ، فقد طلب منه الإمبراطور يوحنا تريمسكس الانسحاب ، على أن يدفع مقابل ذلك الجزية له، ولعائلات الروس الذين فؤوا في القتال^(١٥٠) . وعلى الرغم من خلو المصادر البيزنطية من الإشارة لمثل هذه المفاوضات إلا أنه ينبغي ألا نستبعد رواية نسطور من الواقع ، نظراً لأن الظروف القائمة التي كانت تحيط بالإمبراطور يوحنا تريمسكس فى آسيا الصغرى جعلته يستدعى برداس سكيلروس من البلقان ، وتعميضا عن هذا التزعزع العسكرى البيزنطى فى البلقان ، على الرغم من انتصار أركاديوبوليس ، كان لابد وأن يلجأ يوحنا تريمسكس إلى مثل هذه المفاوضات وإن اضطر إلى تقديم مبالغ مالية لسفياتوسلاف ، عدها نسطور ، بحسه الوطنى ، جزية. ولعل ما يؤكد كلامنا هذا هو قول نسطور أن سفياتوسلاف قبل الهدايا الكثيرة وانسحب إلى بيرياسلاف يصحبه الهتاف الكبير^(١٥١) . وهناك دليل آخر على حدوث اتفاق بين الطرفين عقب هزيمة الروس فى أركاديوبوليس سنة ٩٧٠م ، وهو أن يوحنا تريمسكس ، كما سنرى ، عندما هاجم بلغاريا فى عام ٩٧١م وكان على رأس قواته وجد الممرات الجبلية ، وهو نموذج أمثل لنصب الكمائن ، بلا حراسة روسية . وهذا يعنى أنه نتيجة الاتفاق الذى تم بينهما عام ٩٧٠م انسحب سفياتوسلاف إلى بيرياسلاف ، الواقعة فى الأراضى البلغارية تاركاً هذه الممرات بلا حراسة ، مرتكناً إلى شعور بالأمن إثر هذا الاتفاق^(١٥٢) . وعلى هذا النحو ، تكيف يوحنا تريمسكس مع الظروف التى أحاطت به وهو مازال حديث العهد بالعرش الإمبراطورى ، بل استطاع أن يقدم أقصى ما كان فى استطاعته حتى يتخلص

^(١٥٠) R.P.C., pp. 88-89; Gölner, Jean Tzimisces, p. 351; Fine, Balkans, p. 186.

^(١٥١) R.P.C., p. 89.

^(١٥٢) Fine, Balkans, p. 186.

من الخطر الجاثم على صدره في آسيا الصغرى ، وما أن تخلص من هذا الخطر وقضى على ثورة برداس فوقاس حتى أخذ يعد العدة للتخلص من الخطر الروسى فى البلقان .

وقبل أن تنتقل إلى المرحلة الأخيرة من الصراع العسكرى بين البيزنطيين والروس على أرض البلقان ، ينبغى علينا أن نتناول بالمناقشة والتحليل أمراً هاماً ، وهو لماذا اشترك البلغار فى القتال إلى جانب الروس فى معركة أركاديوبوليس ؟ لقد سبق أن عرفنا أن سفياتوسلاف عندما دخل مدينة بيرياسلاف أسر القيصر بوريس وأخاه وباقى أفراد الأسرة المالكة . وفى المقابل عندما دخل يوحنا تريميسكس بعد ذلك ، كما سنرى ، مدينة بيرياسلاف ، بعد أن استولى عليها عنوة فى عام ٩٧١م ، كان القيصر بوريس يتجول حول المدينة بحرية تامة مرتكباً ملبسه الملكية . ويستنتج المؤرخ فاين *Fine* ، بناءً على هذا ، أن بوريس كان قد استسلم لسفياتوسلاف وسلمه مدينة بيرياسلاف شريطة أن يسمح له بحكم المدينة باسم سفياتوسلاف وقد منحه سفياتوسلاف ما يريد ، أملاً فى الحصول على مزيد من الدعم البلغارى له . ولعل البلغار فضلوا أن يحكمهم بلغارى باسم سفياتوسلاف لا أن يحكمهم روسى . وقد يعنى هذا أن سفياتوسلاف لم يكن بحاجة لنشر قواته إلا بقدر ضئيل^(١٥٢) . وإذا ما تحتم على بوريس يوماً ما أن يخون سفياتوسلاف أو يصبو إلى طموحات أخرى ، كان بمقدور سفياتوسلاف أن يعزله ، وهو الأمر الذى كان يدركه بوريس جيداً . وهذا سمح له باستعادة لقبه الملكى وإدارة عاصمته باسم سفياتوسلاف وقد أصبح من عمال الأمير الروسى ، رغمًا عن إرادته وعلى إثر هذه السياسة الروسية تجاه بوريس كان طبيعياً أن يشارك البلغار إلى جانب سفياتوسلاف فى أركاديوبوليس كما أخبرتنا بذلك المصادر البيزنطية^(١٥٤) . وينبغى ألا نغافاً بهذا الموقف البلغارى من البيزنطيين ، فبالنظر إلى التاريخ الطويل للشعور المعادى لبيزنطة فى بلغاريا ، سنجد تفسيراً لوقوفهم إلى جانب الروس الذين أعطوهم بالمصطلح السياسى الحديث نوعاً من الحكم الذاتى المحدود ، بما؟ضافة إلى أن سفياتوسلاف سمح لهم بالحصول على جزء من الغنيمة من جراء حملاته الناجحة ؛ كما ينبغى ألا ننسى العلاقات التجارية بين الروس والبلغار . أخيراً ينكر فاين أن سفياتوسلاف عندما دخل المدن البلغارية لم يسمح لجنوده بالسلب والنهب فيها ، كما أنه ترك الكنائس وخزائنها دون أذى ، والمكان الوحيد الذى اشتد فى

^(١٥٢) Fine, *Balkans*, pp. 184-185; Karamsin, *Histoire*, p. 223.

^(١٥٤) انظر ، ص ٦٠ .

معاملته كان مدينة فليوبوليس^(١٥٥) . ربما كانت كل هذه العوامل كفيلة بتفسير الوجود البلغاري بين قوات الروس المحاربة في أركادوبوليس ضد البيزنطيين .

ونعود ثانية إلى المرحلة الأخيرة من الصراع العسكري بين البيزنطيين والروس على أرض البلقان . فبانتهاؤ الثورة في آسيا الصغرى كان في استطاعة الإمبراطور البيزنطي يوحنا تزميسكس التصرف في قواته العسكرية كيفما يشاء . وتم التحضير وعمل الاستعدادات اللازمة للحملة العسكرية الكبيرة المزمعة ضد الروس في ربيع عام ٩٧١ م . وكان الأسطول البيزنطي كله متمركزا قرب القسطنطينية ومتأهباً للرحيل صوب الدانوب . وحتى يقوى يوحنا تزميسكس مركزه في العرش الإمبراطوري تزوج من الأميرة ثيودورا ابنة الإمبراطور قسطنطين بورفيريوجينيتوس *Θεοδοδώρα θυγατέρα του Κωνσταντίνου Πορφυρογεννητού* في شهر نوفمبر عام ٩٧٠ م^(١٥٦) . وقد أقيمت الاحتفالات بهذه المناسبة في القسطنطينية ، انتظارا لحلول الربيع القادم لبدء الحرب الحاسمة ضد الروس^(١٥٧) .

وها هو الإمبراطور يوحنا تزميسكس قد استعد بقواته وبأسطوله لخوض غمار الحروب ضد الروس ، لكنه قبل أن يبدأ السير إلى الميدان كان لابد وأن يستمد العون الإلهي . ففي اليوم الثامن والعشرين من شهر مارس خرج الإمبراطور في موكب مهيب من القصر ، ممسكا في يده بشاره الملك، وكان يتبعه رجال البلاط وجميع النبلاء لأداء مراسم العبادة الرسمية والابتهال للرب في كنيسة المسيح المخلص ، كنيسة الشالكيه *Chalcé* ، وهي كنيسة ذات منبج صغير مزين بشكل رائع مكرس للطقوس الخاصة، وبدأ الإمبراطور بتكثيف قبر رائع مذهب ومرصع بالخزف والعاج المزخرف . وبعد الصلوات الأولى ، انتقل الإمبراطور بهذا الموكب إلى كنيسة آيا صوفيا، وهناك كان لصلواته طابع خاص ووقع فريد في النفس؛ وقام بالتضرع إلى الله طالبا منه أن يمدد بملك عن يمينه لإرشاده ويسير على رأس الجيش ، ومن سيفه السبراق يذله على الطريق . وعلى طول الطريق كان الإمبراطور وموكبه ينشدون بروع المزامير والابتهالات الدينية . وبعد كل هذه المراسم الدينية صعد يوحنا تزميسكس إلى قصر البلاشيرين ، ومن خلال شرفاته قام باستعراض الأسطول ذي قاذفات النار الإغريقية

(١٥٥) Fine, *Balkans*, pp. 185-186.

(١٥٦) Zonaras, III, p. 527; Leo Diaconus, p. 127; Anastasijević, D., "Les indications chronologiques de Yahya relatives à la guerre de Tzimiscès contre les Russes ", *Mélanges Charle Diehl*, tome I, (Paris, 1930), p. 2.

(١٥٧) Gollner, *Jean Tzimiscès*, p. 351.

والذى سيتوجه إلى نهر الدانوب^(١٥٨) . وبعد الانتهاء من هذه المراسم قاد تزييمسكس قواته العسكرية في ربيع عام ٩٧١م واتجه إلى شبه جزيرة البلقان لقتال الروس . وفي الوقت نفسه توجه الأسطول البيزنطى ، تحت قيادة الدرونجاريوس الأعظم ليو Leo ، لاحتلال مصبات نهر الدانوب وقطع خط الرجعة على الروس . وعند مدينة أدرنه انضمت قوات يوحنا كوركواز إلى قوات يوحنا تزييمسكس ، وبدأ الجميع في السير نحو مضائق وممرات البلقان ، التى وجدها تزييمسكس خالية من الحراسة الروسية ؛ ثم تقدم الجيش في سكون دون إحداث ضوضاء^(١٥٩) . ويذكر ليو الشماس أن تزييمسكس قاده جيشا قوامه خمسة آلاف راجل πεντα χιλιοι وثلاثة آلاف فارس ιππεις δὲ μύριοι καὶ τρισχίλιοι^(١٦٠) ، أما المؤرخان البيزنطيان زوناراس وكثرينوس فيذكران أنه قاد جيشا قوامه خمسة آلاف من الرجال وأربعة آلاف من الفرسان^(١٦١) . ونظرا لأن هذه الإحصائيات كلها متقاربة فلا يمكن الأخذ بوحدة الوثوق بها دون الأخرى لعدم توافر الأدلة التاريخية التى تساعدنا على ذلك . وفى الواقع ، لم يكن هناك وقت لاضاعته ، فتم دعوة مجلس الحرب للاتعداد والذى أظهر الإمبراطور فيه ضرورة عبور البلقان دون إبطاء بمجرد حلول عيد الفصح ، وفى الوقت الذى لن يتوقع فيه الروس القيام بهجوم عليهم . وأظهر لهم ضرورة عبورهم مضائق البلقان الجبلية في التو ، لأن الروس إذا نمت إلى علمهم التحركات البيزنطية فإنهم على الفور سوف يحتلون هذه المضائق ، وعندئذ سيتعرضون لأدح الخسائر . وبناء عليه تحرك الجيش البيزنطى نحو المرتفعات الجبلية في البلقان وعلى رأسه فرقة الخالدين . وكان الإمبراطور يتبعهم عن قرب حيث كان يقود قوات الفرسان والمشاة . لقد كانت هذه القوات تتقدم بسرعة كبيرة ، بينما هناك جزء من الجيش يشكل المؤخرة ، ويقوده قائد يدعى باسيل Basil ، كان يتقدم ببطء ، لأنه كان يعتنى بإمدادات الجيش وآلات القتال^(١٦٢) . وتذكر المدونات البيزنطية المحطات العسكرية التى كان يصل إليها الجيش البيزنطى مثل أدرنه ،

(١٥٨) Schlumberger, Russes, pp. 26-27.
 (١٥٩) انظر، Leo Diaconus, pp. 128-130; Cedrenus, II, pp. 392-393.
 (١٦٠) هناك خطأ في الترجمة اللاتينية لليو الشماس ، فقد ذكر أن عدد القوات البيزنطية كان ١٣ ألف فارس وخمسة آلاف راجل وعشر ، انظر، Leo Diaconus, p. 132.
 "Legionariorum fortissim millia quinque et decem equitum tredecim millia"
 وقد سار البعض وراء هذا الخطأ ، انظر ، Finlay, Byz. Empire, p. 320; Karamsin, Histoire, p. 228.
 (١٦١) Zonaras, III, p. 527; Cedrenus, II, p. 393.
 (١٦٢) Leo Diaconus, pp. 130-132.

بيرياسلاف . وقد عبرت القوات البيزنطية مضائق البلقان الجبلية بسهولة تامة ، نظرا لاتعداد وجود قوات من الروس تحرسها، وبعد اجتيازها وجد الجيش البيزنطي نفسه في مواجهة منطقة بنويك - كامتشك الريفية *Benuiuk-Kamtchik* ، والتي تقع في منتصفها مدينة بيرياسلاف . وبعد يوم من الراحة داخل المعسكر تم النزول إلى الريف المحيط بمدينة بيرياسلاف يوم ١٢ أبريل ، حيث لم يتوقع الروس حدوث شيء ، وعندما أدركوا اقتراب البيزنطيين منهم كانت هي اللحظة التي انطلقت فيها أصوات النغير لتعلن عن بدء الهجوم البيزنطي عليهم^(١١٣). وهكذا أصبح تريمسكس أمام بوابات بيرياسلاف ، التي كان يدافع عنها ثمانية آلاف مقاتل روسي يقودهم القائد الروسي سفجلوس *Σφγελος* ومعه الخائن كالوكيروس . وكان سفجاتوسلاف نفسه عند مدينة دريسترا (سيلسترا) ، الواقعة على الدانوب ، ربما في محاولة منه لجعل خط اتصالاته مع كييف مفتوحا في مواجهة الأسطول امبراطوري ، على حد قول رنسمان^(١١٤) . وما أن هجمت القوات البيزنطية حتى اضطر الروس للدخول في المعركة ، لكن بعد صراع دام وغير حاسم ، انهزموا فيه مرارا ارتدوا إلى المدينة وتحصنوا خلف أسوارها^(١١٥) . وأثناء الليل تمكن كالوكيروس من الهرب من المدينة للذهاب إلى سفجاتوسلاف في دريسترا لإطلاعه على الموقف^(١١٦) . والواقع أن كالوكيروس كان يعلم جيدا المصير الذي سيؤول إليه إذا ما قبض البيزنطيون عليه^(١١٧). ويذكر كدريوس بشكل مبهم أن الأمير الروسي سفجاتوسلاف قد انتقل إلى بيرياسلاف على رأس جيش مساعد ، حيث اشترك في معركة ضد البيزنطيين^(١١٨) . وهذه الرواية التي ينفرد بها دون بقية المؤرخين البيزنطيين ليست صحيحة على الإطلاق ، ويفندها جولنيه بقوله إن سفجاتوسلاف لم يكن لديه الوقت لقطع المسافة الطويلة من دريسترا إلى بيرياسلاف ليتمكن في اليوم نفسه من الاشتراك بجيش لإنقاذ الموقف في معركة تمت في هذا اليوم بين الروس والبيزنطيين . وهذه غفلة من

(١١٣) Cedrenus, II, p. 393; Zonaras, III, p. 528.
(١١٤) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 209.
(١١٥) Leo Diaconus, pp. 133-134; Cedrenus, II, pp. 394-395; Zonaras, III, pp. 528-529; Göllner, *Jean Tzimiscès*, p. 354; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 209.
(١١٦) Leo Diaconus, p. 134; Cedrenus, II, p. 394.
(١١٧) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 209.
(١١٨) Cedrenus, II, p. 394.

كديرنوس ، لأنه أكد على أن الأمير الروسي جاءه خبر سقوط بيريسلاف في أيدي البيزنطيين بعد ذلك وهو في دريستر^(١٦٩) .

وفي اليوم التالي الموافق خميس العهد ، كانت قوات المؤخرة بعثاها الحربي وآلات قذف النيران قد وصلت ، وأعطى الإمبراطور أوامره بالهجوم على المدينة نفسها . واندفع البيزنطيون نحو أسوار المدينة ، واستمات القائد الروسي سفنجلوس في الدفاع عنها ؛ لكن يبدو أن الروس كانوا مجهدين من جراء قتال اليوم السابق فلم يستطيعوا تحصين السور جيدا ضد جحافل المهاجمين ، ولم يصمدوا أمام النيران التي كانت تقذف بها الآلات البيزنطية . وبعد ساعات قليلة انسحب الروس إلى وسط المدينة حيث يقع قصر القيصرية الحصين .

واندفعت قوات الإمبراطور يوحنا تزيمسكس بقوة نحو المدينة ، واجتاحوا المدينة وندحوا كل من قابلهم من الروس ، كما أهلكوا كثيرا من البلغار أيضا ، سواء كانوا مدنيين أم مشتبها فيهم بتقديم العون للروس . وقد تم إلقاء القبض على القيصر بوريس وزوجته وطفليهما على حين غرة ؛ ومثلوا بين يدي الإمبراطور . وقد استقبلهم يوحنا تزيمسكس بصورة مهذبة ، معاملا بوريس على أنه أمير على البلغار ، قائلا له ، إنه جاء ليثأر من الظلم الذي حل ببلغاريا على أيدي الروس^(١٧٠) . وفي هذه الأثناء حاصر الجند القصر الذي احتفى به الروس ، وهذا القصر عبارة عن مجموعة واسعة من المباني جيدة التحصين ، كالقصر الكبير في القسطنطينية ، مشكلا مدينة داخل المدينة^(١٧١) . وقام الروس القوات البيزنطية بشيء من النجاح ، إلى أن أطلقت القاذفات البيزنطية النيران عليهم ، فانطلقت أسنة اللهب لتلتهم تحصينات القصر ، وتشعل النيران في المحاربين الروس ليلقوا حتفهم إما حرقا أو بسيف البيزنطيين . وبحلول المساء كانت المدينة قد سقطت في أيدي يوحنا تزيمسكس ، بينما تمكن القائد الروسي سفنجلوس من الهرب إلى دريستر .

وكشف صباح الجمعة الحزينة^(١٧٢) عن بقايا أسنة الدخان المتصاعدة من داخل المدينة وعن الشوارع التي اكتظت بجثث القتلى . وقضى الإمبراطور يوحنا تزيمسكس نهاية أسبوع عيد الفصح هناك ، ومن هناك بعث برسالة إلى سفياتوسلاف

(١٦٩) Cedrenus, II, p. 397; Gölner, Jean Tzimiscès, p. 354.

(١٧٠) Leo Diaconus, pp. 135-136; Cedrenus, II, p. 396.

(١٧١) Runciman, Bulgarian Empire, p. 210.

(١٧٢) في الجمعة السابعة على عيد الفصح والتي تلي خميس العهد، ويطلق عليها البعض اسم الجمعة الكبيرة

يطلب منه فيها الاستسلام له ، وإذا رفض سيستمر في قتاله . وقد أعاد تزييمسكن بناء تحصينات المدينة وحول اسمها إلى يوحنابوليس ^(١٧٣) Ioannvpolis .

وبعد انتهاء عيد الفصح في يوحنابوليس ، بيرياسلاف سابقا ، عبر بقواته آخر مرتفعات البلقان ، ووادي برفادي Pravadi مدمرا كمينا روسيا كان كامنا في مضائق اريكلي Erekli ، وأكمل مسيرته عبر الطريق العسكري المؤدى إلى دريستر بطول نهر طابان Taban ^(١٧٤) . وقد وصل إلى العاصمة البلغارية القديمة بليسكا Pliska ومنها اتجه إلى دريستر عبر طريق مدينة دينيا Dinea . ووصل الجيش البيزنطي أمام المدينة يوم عيد القديس جورج ، الموافق ٢٣ أبريل ، وفي التو التحم الفريقان في السهل الممتد جنوب دريستر ذى المنحنيات الأرضية . وفي هذا اللقاء الضارى قسم سفياتوسلاف قواته على شكل كتائب واضعا الفرسان البشناق على الأجنحة . وبالمثل صف تزييمسكن قواته المشاة أمام المشاة الروس واضعا فرسانه على الأجنحة لتتولى مقاومة البشناق ^(١٧٥) . وقد أبلت المشاة الإمبراطورية بلاء حسنا فى مواجهة مشاة الروس الشديدة المراس ، واشتبكت فرسان الروس مع الفرسان البيزنطيين الذين كانوا يتفقدون أمامهم ، ولكن ثبت الإمبراطور البيزنطي مع مشاته الأرمن ، الذين أجبروا العدو بدروعهم القوية على الانسحاب والفرار . وقد تبعهم الإمبراطور شاهرا سيفه فى يده ومعه فرسانه حتى تفقدوا خلف أسوار المدينة يتحصنون بها ^(١٧٦) . وقد شجع الظلام الدامس الروس على الانسحاب إلى ما وراء أسوار المدينة وأدرك تزييمسكن أن الاقتحام والاستيلاء عليها عنوة أمر مستحيل ، ولكن فى استطاعته الانتظار حتى يتعجل الروس القتال ، مدفوعين بالجاعة التى سلتق بهم من جراء الحصار البيزنطي لهم ، وأنهم مجبرون على إيجاد حل لما هم فيه . وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل قام الإمبراطور بعمل كل التجهيزات لحماية جيشه من أى هجوم مباغت . فقام بتحصين المعسكر بعمل خندق مربع الشكل ، مدعما أعلاه بسياج من أسلحة الرماح والدروع على شكل طابورين ^(١٧٧) .

^(١٧٣) انظر: Zonaras, III, p. 529; Cedrenus, II, pp. 396-397; Leo Diaconus, pp. 134-138.

Karamsin, Histoire, pp. 228-230; Runciman, Bulgarian Empire, pp. 209-210.

^(١٧٤) Leo Diaconus, p. 139.

^(١٧٥) Leo Diaconus, p. 140.

^(١٧٦) Cedrenus, II, p.399; Göllner, Jean Tzimiscès, pp. 355-356; Mcgeer, Sowing, p. 318.

^(١٧٧) Leo Diaconus, pp. 142-143.

جنير بالذكر أنه كانت هناك أعداد كبيرة من البلغار داخل دريسترنا تعمل كرها مع الروس ، وقد صب عليهم سفياتوسلاف آنذاك جام غضبه . ونظرا لتخوفه منهم عند القتال مع البيزنطيين فقد قطع رؤوس ما يقرب من ثلاثمائة من أقطابهم وأعيانهم ؛ أما الضعفاء منهم والأدلاء فقد أطلق سراحهم وأحفهم بجيوشه ، لكنه فسى الوقت نفسه أمر حلفاءه من البشناق أن يحصدوهم بلا رحمة إذا حاولوا الهرب أو الخيانة^(١٧٨) .

لقد استمر حصار البيزنطيين للروس في دريسترنا خمسة وستين يوما^(١٧٩) ، وكانت مدة الحملة حوالي ثلاثة شهور كاملة ، وانتهت في يوليو من عام ٩٧١م^(١٨٠) . وقد حاول الروس قطع الخطوط البيزنطية ، لكن إيقاعهم كان يتم دائما مع ؟لحاق الخسائر الفاتحة بهم . ففي الخامس والعشرين من شهر أبريل أمر الإمبراطور بشن هجوم على الروس ، وفشل هذا الهجوم بعد أن رده الروس بهجوم مماثل . لكن

^(١٧٨) Cedrenus, II, p. 400; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 211.

^(١٧٩) Göllner, Jean Tzimisès, p. 356.

^(١٨٠) Yahya d'Antioche, p. 833; Sorlin, *Le traité de 944*, p. 469.

اختلف المؤرخون المحدثون اختلافا كبيرا حول تاريخ ومدة الحملة الأخيرة التي قام بها تزيمنس ضد الروس . وليس هذا المجال لسرد آراء كل مؤرخ على حدة ، فهذا ضرب من الميث ، لأن هذه القضية قد حسمت أخيرا . ويكاد يتفق المؤرخون على مدة هذه الحملة وتاريخها . ويتفق المؤرخون على أن الحملة خرجت في ربيع ٩٧١م . إلا أن الدكتور أستيلافيتش أثار ثلثتهم بقوله أنها امتدت حتى عام ٩٧٤م ، من خلال عدة مقالات أهمها :

Anastasijevic, *Tzimisès*, pp. 1-5; " La chronologie de la guerre russe de Tzimisès", *B*, (1931), pp. 337-342; "Leon Diakons "über das Jahr der Befreiung Bulgariens von den Russen durch Tzimisès", *SK*, 3(1929), pp. 1-2.

وقد ساعده على افتراضه هذا رواية ليو الشمس ، التي تخبرنا أن الإمبراطور خرج في العام الثاني من حكمه لقتال الروس . انظر، *Leo Diaconus*, p. 127 وكذلك رواية يحيى الأنطاكي الذي أخطأ مسهوا بقوله أن الإمبراطور حاصر دريسترنا ثلاث سنوات بدلا من ثلاثة أشهر . انظر، *Yahya d'Antioche*, p. 833 . لكنه يصحح نفسه في موضع آخر بقوله أن تزيمنس كان يحارب في عام ٩٧٢م فسى أسبيا الصغرى . ويصحح المؤرخ الألماني دولجر خطأ أستيلافيتش في مقاله الأبي: Dölger, F., "Dei chronologie des grossen feldzuges des kaisers Johannes Tzimisès gegen die Russen", *BZ*, 32 (1932), pp. 272-292.

ويتفق معظم المؤرخين المحدثين على أن الحملة انتهت في شهر يولية عام ٩٧١م ، وهذا ما تؤكدته الحولية الروسية أيضا، انظر، *R.P.C.*, p. 89 لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع، انظر، Göllner, *Le traité de 944*, pp. 468-469; Grégoire, H., " Saint Théodore le Stratélate et les Russes d'Igor ", *B*, 13(1938), pp. 291-300; Grégoire et Orgels, " Les invasions russes dans le senaxaire de Constantinople ", *B*, 24 (1955), pp. 141-145.

عند المساء رأى الإمبراطور أسطولاً كبيراً قادماً إلى الدانوب . وفى السادس والعشرين من الشهر نفسه ، وبعد معركة كبيرة بين الطرفين ، بدأ البيزنطيون يضرّبون الحصار حول دريستر ، مراقبين المداخل المؤدية إلى المدينة . وممرت الأسابيع ممثلة بالجوالات العسكرية المثيرة . وشن الروس العديد من الهجمات القاتلة ، ومع هذا لم يستطيعوا اختراق صفوف البيزنطيين ، ولم تستطع سباهم أن تمنع النيران الإغريقية من حرق سفنهم فى الدانوب . وهكذا بدأ الحصار ، الذى استمر كما سبق وذكرنا خمسة وستين يوماً^(١٨١) . وأدرك البلغار أن المسألة ما هى إلا وقت فقط وينتهى كل شيء لصالح البيزنطيين . فأرسلت العديد من المدن الشمالية ، بما فيها قسطنطينة *Constantina* ، مندوبين عنها إلى معسكر الإمبراطور ليسلموه مقابلتها ويعرضوا عليه المساعدة . ويبدو أن الحظ لم يرد أن يبتسم لتزيمسكس بصور مستمرة، فقد ثارت أسيرة فرقاس ثانية عليه فى القسطنطينية . لكن شجاعة الباراكوميونوس *Paracoememenos* بإسبيل *Basil* ، وكان ابناً لرومانوس ليكابينوس من امرأة بلغارية، صانت العرش وحفظته من هذه الثورة فى غيبة تزيمسكس^(١٨٢) .

الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين بالغوا فى الحالة التى كان عليها الروس عندئذ ، فقالوا أن صوت بكائهم كان يسمع كل ليلة على أمواتهم . وكان من فى معسكر البيزنطيين يسمع نحيبهم الذى كان يستمر حتى الفجر ، وكانوا يخرجون أفواجا من أبواب المدينة يجمعون جثث قتلاهم فى مكان واحد عند الأسوار ثم يضعون عليها الأخشاب والحطب للقيام بحرقها حسب طقوسهم ومعتقداتهم^(١٨٣) . وكانوا ينبحون الأسرى البيزنطيين كقربان لأرواح قتلاهم ثم يحرقونهم معهم^(١٨٤) . ويقول ليو الشماس أنهم كانوا يلقون أطفالاً رضعاً فى الدانوب ، كما كانوا يلقون معهم الديكة التى كانت تفرق على الفور . وفى اليوم التالى لهذا الاحتفال الجنائزى، أحصى البيزنطيون جثث الروس الأخرى التى لم يستطيعوا رفعها من الميدان فوجدوا بينها جثث لسيدات كن يحاربن إلى جوار أزواجهن الروس حتى الموت^(١٨٥) .

وأياً كان الحال ، فإن الروس كانوا فى حالة لا يحسدون عليها ، فها هم محصورون داخل مدينة دريستر ، والقوات الإمبراطورية تقطع الإمدادات عنهم؛ أما

Göllner, Jean Tzimisès, p. 356.

Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 212.

عن عادة حرق الموتى عند الروس ، انظر، ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٨٠-١٨٧ .

Schlumberger, *Russes*, p. 29.

Leo Diaconus, pp. 143-144; Court, *La Russie*, p. 112.

(١٨١)

(١٨٢)

(١٨٣)

(١٨٤)

(١٨٥)

الأسطول البيزنطي فيقف خلفهم في الدائوب ليجول بينهم وبين الاتصال بكيف، فماذا بإمكانهم أن يفعلوا !

يقول المؤرخون إنه في ليلة عاصفة ممطرة يلفسها الرعد والبرق نجح سفياتوسلاف في اختراق الأسطول البيزنطي ؛ فقد أخذ معه ألفين من الجنود وصعدوا إلى بعض القوارب وداروا حول الأسطول البيزنطي ، وذهبوا لجمع القمح والذرة من القرى المحيطة . وعند عودتهم لمحوا فرقة عسكرية بيزنطية كان أفرادها مشغولين بسقى الخيل وقطع الأخشاب ، فخرج الروس من قواربهم وهجموا على أفراد هذه الفرقة فجأة وقتلوا منهم عددا كبيرا ، وعادوا بنجاح إلى الشاطئ . لكن ، ومنذ ذلك الحين ، بدأت نقطة البيزنطيين تنهض بشكل أكبر من ذي قبل ، إذ قام يوحنا تريمسكس بتهديد قادة الأسطول البيزنطي بقطع رؤوسهم إذا نجح الروس ثانية في اختراق الأسطول^(١٨٦) .

واشتد الحصار وأصبح نقص الإمدادات شديداً لا يطاق ، أضف إلى ذلك فقدان الروس لخبرة قادتهم مثل القائد سفنجلوس الذي دافع عن بيرياسلاف فيما مضى . وها هو الشهر الثالث من شهور الحصار ، شهر يوليو ، قد بدأ ينفطر عقده ولا شيء يلوح في سمائه يبشر بانفراج الكربة . وعلى هذا عقد سفياتوسلاف مجلسه العسكري ، وقد استقر عزمه على فض الحصار بأية طريقة . فعرض عليهم حله العسكري وهو القيام بمحاولة أخيرة ضد البيزنطيين . ولكي يلهب حماسهم قال لهم "إذا سقطت في مبدان الوعي فلتعتنوا عندئذ بأنفسكم " إلا أنهم ردوا عليه قائلين "سوف نسقط معك"^(١٨٧) .

وفي يوم ٢٠ يوليو غادر سفياتوسلاف وأتباعه دريستر . وبناء على أوامره أغلقت أبواب المدينة ، لكي يثبت لمحاربيه أن الانسحاب أمر محال . والآن فتحت بوابات المدينة وانفتح الروس في هجوم ضار مستميت ضد البيزنطيين ، وكانت صيحاتهم تتعالى كما لو كانوا قد ركبتهم الأرواح الشريرة . إلا أن البيزنطيين تمكنوا من الصمود أمامهم ، ووقعت خسائر كبيرة من الجانبين . وعند المساء هاجم الإمبراطور يوحنا تريمسكس الروس وهو يقود فرسانه الكاتافراكتي الثقيلة التسليح . وقد استمر القتال المتلاحم بين الطرفين ستة أيام^(١٨٨) دون أن يسفر عن فوز أحد الفريقين . وقد شن البيزنطيون خلالها اثنتي عشرة هجمة ضد الروس، وبالمثل تمكن

^(١٨٦) Cedrenus, II, pp. 402-403; Zonaras, III, pp. 531-532; Court, *La Russie*, p. 112; Karamsin, *Histoire*, pp. 232-233.

^(١٨٧) Leo Diaconus, p. 150-151; Cedrenus, II, pp. 407-408; Zonaras, III, p. 502.

^(١٨٨) Schlumberger, *Russes*, p. 30.

الروس من صدها جميعاً . وأخيراً وبعد استماتة الطرفين فى القتال، هبت رياح عاتية من الجنوب أثارت سحباً كثيفة من الغبار على وجوه الروس . وهنا انتفع الإمبراطور يوحنا تريمسكس بفرسانه الكاثاراكى فى هجومه الثالث عشر ضد الروس وبحسه العسكرى ، أدرك أن هذه الرياح جاءت لتعلن عن هزيمة الروس ، فهاجم المشاة الروس ، الذين فوجئوا بالإمبراطور وقواته أمامهم . وفى الوقت نفسه هاجمت فرقة بيزنطية يقودها برداس سكليروس الروس من الخلف وقطعت عليهم خط الرجعة^(١٨٩) .

وقد أشاع البيزنطيون أن القديس ثيودور الاستراتيلات *Theodore the Stratilates* قد ظهر بينهم فى المعركة وأمدهم بالعون الإلهى ، الذى تمكنوا بفضلـه من دحر الروس وهزيمتهم^(١٩٠) . وقد أسفرت هذه المعركة عن هزيمة الروس شر هزيمة أمام البيزنطيين ، وهو الأمر الذى دفع سفياتوسلاف إلى التفكير فى المفاوضات مع البيزنطيين . وتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن سفياتوسلاف لاحظ قلة عدد قواته مقارنة بالبيزنطيين ، وأن البيزنطيين لو هاجموه بغتة فإنهم سيهلكون جميعاً ، لذلك قرر العودة إلى بلاده لجلب التعزيزات العسكرية . وعندئذ أرسل رسـله إلى الإمبراطور يوحنا تريمسكس عند دريسترا مشيراً إلى عزمه على الإبقاء على روابـط الود والسلام بينهما^(١٩١) . وهذا الجزء من رواية نسطور مقبول ويتمشى مع سير الأحداث ، أما بقية روايته ففيها مغالطة تاريخية ، حيث يجعل الروس هم المنتصرون ، وهم الذين يتلقون جزية من الإمبراطور البيزنطى . لكن كلماته التالية تثبت أنه كان فى وضع المهزوم ، حيث قالت رسـله للإمبراطور البيزنطى .. يقول أميرنا " إنى أربـغ فى مد أواصر الصداقة الحقيقية مع الإمبراطور اليونانى من الآن فصاعداً وإلى الأبد " . وقد ابتهج الإمبراطور، الذى يبدو أنه مل من طول القتال ، وأمر بتسجيل رسالة سفياتوسلاف المرسلـة إليه على الرق^(١٩٢) وهى على النحو الآتى :

"هذه نسخة من المعاهدة الموقعة بواسطة سفياتوسلاف ، أمير الروس، وبواسطة سفينالد *Sveinald* مع يوحنا ، المسمى تريمسكس، وكتبها ثيوفيلوس، السكرتير فى دريسترا ، خلال شهر يوليو من عام ٩٧١م ، الخمس عشرة الرابعة عشرة . أنا

^(١٨٩) Leo Diaconus, pp. 152-155; Cedrenus, II, pp. 407-411; Zonaras, III, pp. 532-533; Ephraemus, *Chronographia*, ed. J. P. Migne, PG, tome 143, (Turnholt, 1977), Cols. 116-117 .

^(١٩٠) Ephraemus, Col. 116; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 212; Gölner, Jean *Tzimiscès*, p. 358; Court, *La Russie*, p. 113; Karamsin, *Histoire*, p. 236.

^(١٩١) R.P.C., p. 89.

^(١٩٢) R.P.C., p. 89.

سفياوسلاف، أمير الروس، حيث؟ننى أقسمت على الملأ، الآن أؤكد بالقسم على هذه المعاهدة . أننى أرغب فى حفظ السلام والصداقة الوطنية مع كل من الأباطرة العظام ، خاصة مع باسيل وقسطنطين ، ومع خلفائهم الملهمين من الله، ومع كل رعاياهم . بقرارى هذا ينضوى كل الروس والنبلاء والعامة تحت سلطانى. وعلى هذا أتعهد بالآأ أقوم بشن هجمات على بلادكم ، ولن أجهش جيشاً أو أجمع مرتزقة لهذا الغرض . ولن أحرص أى عدو ضد مملكتكم ، أو ضد أى إقليم يخصكم أيضاً ، خاصة إقليم تخرسون ، أو المدن الواقعة فى نطاقه ، أو ضد بلغاريا. بل إننى سوف أقاوم أى عدو يفكر فى الهجوم على مملكتكم وأثنى الحرب عليه . ومثلما أدبت القسم للأباطرة اليونانيين ومعى كل نبلاى ورعاياى أيضاً ، فإننا لن ننتهك هذه المعاهدة . بل إذا أخللنا بشروط من شروطها فإننا سنهلك بواسطة الرب الذى نؤمن به ، ببيرون *Perun* وفولوس *Volos* ، رب الأكام ، وسنصير صفر البشر كالأذهب ، وسندبح أنفسنا بأسلحتنا الخاصة . واحتراماً لمصداقية ما اتفقنا عليه معكم دوناً هذا على الرق وختم باختامنا^(١٩٣) . ويكمل المؤرخون البيزنطيون نص الحولية الروسية الأولى بذكرهم لطلب سفياوسلاف السماح له بالانسحاب الاختيارى إلى بلاده ، وإمداده هو وقواته بالميرة اللازمة لرحلة العودة ، وتجديد الاتفاقية السابقة الموقعة بين بلديهما فى عام ٩٤٥م ، والسماح للروس بحرية التحرك فى بيزنطة ، وألا يهاجموا سفن الروس وهم فى طريقهم للعودة^(١٩٤) . ويضيف كل من كدريوس وزونارس أن سفياوسلاف طلب أيضاً من الإمبراطور يوحنا تزيمنسكس أن يقبله من خلفائه ، وأن يحصل من البشناق على وعد بعدم مهاجمته وهو فى الطريق إلى بلاده^(١٩٥) . وقد وافق الإمبراطور يوحنا تزيمنسكس على كل هذه الطلبات الروسية^(١٩٦) ، ومما يذكر أن الإمبراطور البيزنطى لم يفكر فى استشارة البلغار فى مصيرهم المقبل فى هذه المعاهدة ، أو كما يقول رسلمان لم يكن للبلغار صوت مسموع فى هذه المعاهدة^(١٩٧) .

وبعد أن أبرمت هذه المعاهدة بين الطرفين البيزنطى والروسى ، قام متولى تموين الجيش البيزنطى بتوزيع القمح على كل فرد من الاثنى عشر ألفاً الباقين من الجيش الروسى على قيد الحياة ، بينما هلك ثمانية وثلاثون ألفاً من الجنود الروس فى

^(١٩٣) R.P.C., pp. 89-90; Sorlin, *Le traité de 944*, pp. 466-467.

^(١٩٤) Leo Diaconus, pp. 155-156; Yahya d'Antioche, p. 833.

^(١٩٥) Cedrenus, II, pp. 411-412; Zonaras, III, pp. 534-535.

^(١٩٦) Leo Diaconus, p. 156.

^(١٩٧) Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 213.

هذه المعارك ، على حد قول ليو الشماس^(١٩٨) . وقد حملت القوارب الروسية الصغيرة ، ذات قطعة الخشب الواحدة ، هذه الجموع إلى الناحية الشمالية من نهر الدانوب ، بينما لم تعرّض طريقها سفن النار الإغريقية البيزنطية . وعندما تم تسوية الأمور جميعاً بين الطرفين ، أعلن الأمير الروسي سفياتوسلاف عن رغبته فى لقاء الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزميسكس ، الذى أجابه إلى طلبه . جاء الإمبراطور يوحنا تزميسكس إلى شاطئ الدانوب مثاقفاً فى ملبسه الملكية ودروعه الذهبية البراقة ، وخلفه حاشية لا تحصى من البطارقة ذوى الملابس المذهبة البراقة أيضاً ، فى مكعب بهى بأسر الأغلاب . أما الأمير الروسي سفياتوسلاف فقد شاهده البيزنطيون قائماً فى قارب مع رفاقه وهو يجفف معهم . ويقول عنه ليو الشماس،^(١٩٩) "به كان متوسط الطول، ذا حواجب سمكة، وعيون زرقاء ولحية خفيفة ، وشارب طويل، وأنفه معقوف، ورأسه خفيفة الشعر (شبه أصلع) يتكلى منها خصلة من الشعر، علامة للنبل، عريض الصدر، مفتولاً، مرفوع الهامة، ويلبس فى إحدى أذنيه قرطاً ذهبياً مزيناً بلؤلؤتين تتوسطهما ياقوتة حمراء، وثيابه ناصعة البياض غاية فى النظافة وهو ما يميزه عن رفاقه"^(٢٠٠) . ولا شك أن هذا المشهد قد أدهش البيزنطيون، الذين اعتادت أعينهم على هيئة بهيّة للأمرء والملوك .

وللأسف الشديد فإننا لا نعرف أى شيء آخر عن لقاء العاهلين . ويذكر ليو الشماس فقط ما يأتى " كان سفياتوسلاف يتبادل بعض الكلمات مع الباسيليوس بشأن موضوع الصلح وهو واقف على مقعد المجدفين " . ومن الراجح أن تزميسكس لم يترجل عن جواده ، وأنه كان يتحدث ممثلياً إياه على الشاطئ إلى سفياتوسلاف^(٢٠١) . وبعد انتهاء هذا اللقاء بين العاهلين انصرف سفياتوسلاف مع قواته وبدأ رحلة العودة إلى وطنه مبحراً بقواربه فى الدانوب^(٢٠٢) . أما يوحنا تزميسكس فقد انصرف إلى تنظيم شئون بلغاريا ، فقام بتحويل اسم مدينة دريسترا إلى ثودوروبوليس *Θεοδορούπολις*^(٢٠٣) ، تكريماً للقدّيس ثيودور الاستراتيجات الذى أدرهم فى المعركة الأخيرة ضد الروس . ونظراً للأهمية البالغة لحدود بيزنطة على نهر الدانوب ، وهو ما أسفرت عنه الحروب البيزنطية - الروسية على عهد كل من

(١٩٨)

Leo Diaconus, p. 156.

(١٩٩)

Leo Diaconus, pp. 156-157; Schlumberger, *L'épopée*, pp. 148-149; Runciman,

Bulgarian Empire, p. 213; Karamsin, *Histoire*, pp. 238-239; Fine, *Balkans*, p. 187.

(٢٠٠)

Schlumberger, *L'épopée*, p. 149; Russes, pp. 32-33.

(٢٠١)

Leo Diaconus, p. 157 .

(٢٠٢)

Leo Diaconus, p. 158 .

نقفور فوقباس ويوحنا تريمسكس ، فقد أقام الأخير حداً منيعاً بطول الدانوب حتى لا يمكن قدوم الروس ثانية . ومن المحتمل ، إن لم يكن مؤكداً ، أن ميزوبوتاميا الغرب نظمت على الدانوب الألفى كوحدة عسكرية - إدارية ذات طابع خاص^(٢٠٢) . وعلى هذا النحو ضم تريمسكس الجزء الشمالى الشرقى من بلغار إلى الإمبراطورية البيزنطية ، لتعود حدود بيزنطة مرة أخرى إلى الدانوب . وعاد تريمسكس ومعه بوريث وأخاه رومانوس إلى القسطنطينية ، بعد أن ألقى البيطريكية البلغارية أيضاً^(٢٠٣) . ويصف لنا زوناراس دخول تريمسكس وموكبه إلى القسطنطينية ، فقد استقبله البيطريك والشيوخ ورجال الدولة والشعب استقبالا مهيباً ، وسار الموكب ، وقد جعلت ملابس ملوك البلغار على عربة وضع فوقها صورة العذراء مريم . وعندما وصل الموكب إلى ميدان بلاقوتيس Placotes خلع بوريث الملابس الملكية وقلده الإمبراطور درجة الماجستير Magistros^(٢٠٤) . وعلى هذا النحو وضعت الحرب بين البيزنطيين والروس أوزارها ، وقد أعادت إلى بيزنطة سلطتها في البلقان وسيادتها على البلغار ، بل جعلت من بلغاريا ولاية بيزنطية وأصبح نهر الدانوب يشكل حداً للإمبراطورية البيزنطية كما كان عليه في الماضي . وإذا كان تريمسكس قد اغتال الإمبراطور نقفور فوقباس واعتصب العرش لنفسه بعد أن نفى الإمبراطورة ثيودورا ، إلا أنه الآن صار واحداً من ألمع أباطرة الأسرة المقدونية بفضل الإنجازات العسكرية التي أحرزها سواء في الشرق ضد المسلمين أم في البلقان ضد الروس .

أما الأمير الروسى سفياتوسلاف ، بعد أن لحقت به هذه الهزيمة الفادحة ، والتي أنهكت قواه العسكرية حتى صار يطلب من الإمبراطور البيزنطى التوسط لدى البشناق للسماح له بالعبور عبر أراضيهم دون مساس ، فقد فشلت مشروعاته التوسعية في البلقان ولم يعد بمقدوره أن يتخذ من بيرياسلاف عاصمة له ، كما كان يتمنى فى الماضى . وإذا كان قد أصابه التوفيق في غزو بلغاريا فى المرة الأولى ، إلا أن الغرور أصابه في المرة الثانية لدرجة أنه فكر في غزو القسطنطينية ذاتها ، غير مدرك أن هذه المدينة سحقت العشرات من أمثاله قبل ذلك تحسب أقدامها ، وهاهو يضاف إلى هؤلاء العشرات في عام ٩٧١ م . إن محاولة سفياتوسلاف إقامة دولة

Shepard. J., "Information, Disinformation and Delay in Byzantine Diplomacy," *ByzF.* 10(1985),p.253; Diaconu, *Les Pechénèges au Bas-Danube*, (Bucharest, 1970), pp. 24-25.

Leo Diaconus, p. 158; Fine, *Balkans*, pp. 187-188.
Zonaras, III, pp. 535-536.

(٢٠٤)

(٢٠٥)

روسية تمتد من نوفجورود شمالاً إلى بيرياسلاف جنوباً مروراً بكيف لم تكن سوى إحدى بنات أفكاره ، فالأمير أوليج في عام ٩٠٧م والأمير إيجور في عام ٩٤٤، ٩٤١م قاما بشن حملات عسكرية بحرية على القسطنطينية بهدف الكسب والربح إضافة إلى النهب والسلب والغنيمة فحسب . وقد أفلحا في هذا ، برغم هزيمتهما عسكرياً بفضل سفن النار الإغريقية البيزنطية ، وأبرما معاهدتين مع بيزنطة؛ الأولى في عام ٩١١م ، والثانية في عام ٩٤٥م ، وهي التي حوت معظم بنود الأولى . وارتضى العاهلان الروسيان هذه النتيجة ، التي عادت بالخير الكثير على بلادهم ، وأضفت عليهما هالة من المجد السياسي بين شعوب السهوب . لقد كان بإمكان سفياتوسلاف أن يحتفظ ببلغاريا لنفسه ، لكن تضاعفت كل العوامل لتدفع به إلى هاوية السقوط ، عندما رد رسل الإمبراطور بوقاعة البرابرة على حد تعبير كدريونوس .. وهاهي النتيجة .. فشل ذريع في التوسع خارج حدود السهوب ، هزائم فادحة في البلقان وبلغاريا ، ثم الموت ذليلاً وهو في طريق العودة إلى بلاده ، بل حرمت كييف من الحصول على جثته ؛ والشيء الوحيد الذي أفلح فيه سفياتوسلاف في هذا المشروع هو تقويضه لمملكة البلغار ، وقيامه بإنهاءك بنيتها العسكرية لتصبح صيداً سهلاً فيما بعد للإمبراطور بامسيل الثاني .

وقيل أن نتحدث عن المصير المأساوي الذي آل إليه سفياتوسلاف ورفاقه وهم في طريق العودة إلى بلادهم ، لابد وأن نتوقف قليلاً عند المعاهدة التي أبرمها سفياتوسلاف مع يوحنا تزيمنسكس عام ٩٧١م ، لما لذلك من أهمية .

تعد هذه المعاهدة هي المعاهدة الوحيدة من بين المعاهدات البيزنطية - الروسية التي أشير إليها في المصادر البيزنطية . وقد وافق الإمبراطور على كل الاثبات التي طلبها منه سفياتوسلاف ، حسب المصادر البيزنطية . أما نص المعاهدة فقد ورد كاملاً عند نسطور في حوлиته الروسية الأولى . ومن خلال قراءة محتوى المعاهدة عرفنا أن هذه المعاهدة كتبت في دريسترأ بواسطة سفياتوسلاف وقائده سفينالد وفي حضور ثيوفيلوس ، سكرتير دريسترأ الإمبراطوري . ولم تذكر مقدمة المعاهدة أن المحادثات بشأنها قد جرت في المعسكر البيزنطي أو المعسكر الروسي. لكن وفقاً للحوالية الروسية الأولى كان مكانها في المعسكر البيزنطي ، حيث نقل سفراء سفياتوسلاف كلماته إلى الإمبراطور يوحنا تزيمنسكس الذي أمر لفره بكتابتها على الرق . ومن المحتمل أن شروط المعاهدة أمليت على سفياتوسلاف بواسطة المبعوث

البيزنطى ، ويبرهن على ذلك حجم التمهيدات التى أخذها على نفسه سفياتوسلاف^(٢٠٦) ،
والتي كانت كلها لصالح البيزنطيين . فالأمير الروسى يتعهد بحفظ أواصر الصداقة بين
البلدين ، ويعدم شن هجمات لا على خرسون فحسب بل ولا على بلغاريا أيضاً . وهذا
التعهد بالتأكيد يعكس الرغبة البيزنطية فى هذا . وهكذا ورد ذكر خرسون للمرة الثانية
فيما وصل البنا من معاهدات بين الطرفين بعد معاهدة ٩٤٥ م ، وهذا قد يعكس أنه
كان لهذا الأمير نشاط عسكري فى منطقة القرم، الأمر الذى ألقى ببيزنطة فحضته على
الهجوم على البلغار لتصرفه عن خرسون ؛ وما هو يتعهد برفع يده عن منطقة القرم
البيزنطية^(٢٠٧) . ونظراً لأنه أصبح له نشاط عسكري فى بلغاريا فقد تعهد، بناءً على
رغبة البيزنطيين ، ألا يهاجم بلغاريا مرة ثانية . والأكثر من هذا أنه تعهد بأن يحارب
أى عدو يفكر فى الإغارة على الإمبراطورية البيزنطية . ولعل هذه البنود هى أهم ما
فى معاهدة ٩٧١ م . وهكذا فإن هذه المعاهدة لا تحتوى إلا على تعهد روسى بحفظ
السلام بين البلدين ، وبالشروط المذكورة ، ولا تتضمن أى شروط تجارية . وهذه
المعاهدة هى نهاية منطقية للأحداث السياسية التى وقعت بين الطرفين^(٢٠٨) .

وجدير بالذكر أن هذه المعاهدة تحدث فيها سفياتوسلاف بصيغة المفرد ، لا
الجمع ، وربما يعكس هذا تحمله مسؤولية الحرب وما نجم عنها ؛ أو أن بعض رجال
حاشيته لم يتفقوا معه فى عقد مثل هذه المعاهدة مع البيزنطيين . وهناك شىء آخر
لافت للنظر هو أن اسم يوحنا تريمسكس لم يرد إلا فى مقدمة المعاهدة وبدون لقب
إمبراطور وهذا يعكس وعى نسطور بما كان يجرى من صراعات حول العرش
البيزنطى فى القسطنطينية ، وأنه لم يكن ميالاً نحو تريمسكس مثل سلفه نقفور فوقلس ،
الذى حالف الروس ودعاهم للوقوف إلى جانبه . أما الإمبراطوران الشرعيان باسيل
وقسطنطين فقد وردا فى المعاهدة مصحوبين بلقب إمبراطور ولقب آخر وهو "
الملمهون من الله " . وربما كان هذا متعمداً من الكاتب حيث جرد سفياتوسلاف أيضاً
فى نص المعاهدة من لقب " الأمير الروسى العظيم " ، وربما يعكس هذا عدم رضا
نسطور عن النهاية المأساوية التى انتهى إليها الجيش الروسى على أيدي سفياتوسلاف،
الذى كان سبباً رئيسياً فى تدميره على أرض أجنبيته . أخيراً ينبغي الإشارة إلى أن

Sorlin, *Le traité de 944*, pp. 470-471.

Obolensky, D., "The Crimea and the North before 1204", *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies, The Byzantine Black Sea, 18-20 March, ed. A.*

Bryer, "Αρχ. IIÖv", 35 (1978), p. 130 .

Sorlin, *Le traité de 944*, p. 473.

شرعية هذه المعاهدة ارتبطت بختم سفياتوسلاف عليها بمفرده . وللمرة الثانية فى المعاهدة تتأكد المسئولية الشخصية له عنها، مقارنة بمعاهدة ٩٤٥م التى وقع السفراء الروس جميعهم عليها، إلى جانب أميرهم . أخيراً ينبغى القول؟ هذه المعاهدة هى معاهدة فض اشتباك بين الطرفين ، يملئ فيها المنتصر شروطه على المهزوم، الذى كان ولا بد أن يرضخ لها ، حتى يعود إلى بلاده سالماً ومعه قواته العسكرية الباقية . لكن اللافت للنظر أن المؤرخين البيزنطيين أمثال ليو الشماس وكريستوس قد ذكروا أن سفياتوسلاف طلب من يوحنا تزيمنسكس تزويد قواته بالميرة لأجل رحلة العودة ، والسماح له بالعودة إلى بلاده ، وعدم مهاجمة السفن البيزنطية قاذفات النار الإغريقية لهم وهم فى طريق العودة ، وعودة امتيازات ٩٤٥م التجارية ، والتوسط لدى البشناق للسماح له بالمرور عبر أراضيهم دون مساس ، ورغبة سفياتوسلاف فى أن يصير من حلفاء بيزنطة^(٢٠٩) . ولا شيء يشير ، على عكس معاهدة ٩٤٥م ، إلى ميثاق إمبراطورى قد تم وضعه أو سنه بهذا الشأن . وبالتعمن فى طلبات الأمير الروسى سفياتوسلاف من الإمبراطور يوحنا تزيمنسكس نجد أنها جميعاً تختص بالوضع الراهن للقوات الروسية ، والذى كانت لا تحسد عليه ؛ أى أن سفياتوسلاف أراد بهذه المطالب أن يضمن السلامة له ولقواته حتى وصولهم إلى كييف فقط . ومن ثم فليست هناك حاجة لتسجيل مطالب روسية هى من قبيل الحاجة الوقتية ، تنقضى بانقضاء الحاجة ، حيث استجاب الإمبراطور لها . ويشير يحيى الأنطاكى إلى أن الأمير الروسى طلب من الإمبراطور هذه المطالب مقابل الجلاء عن دريستر وإعادتها للبيزنطيين^(٢١٠) . ولا بد إذن أن تكون هذه المطالب شفوية ، وقد اعتنى المؤرخون البيزنطيون بتسجيلها نقلاً عن لسان سفياتوسلاف . أما محتوى معاهدة ٩٧١م فيكشف عن أنها تخص موضوعاً واحداً حدث به خلل بين البلدين ، وهو اعتداء الروس على الإمبراطورية البيزنطية . وحتى يضمن البيزنطيون عدم قيام الروس بمثل هذا الاعتداء فى المستقبل كان لابد من أخذ هذا التعهد على سفياتوسلاف . وهكذا فإن هذه المعاهدة تخص مستقبل العلاقات بين البلدين ، ومن ثم كانت هناك ضرورة لتسجيلها على الوق حتى يلتزم بها الروس فيما بعد ، سواء فى حضرة سفياتوسلاف أو فى عهد خلفائه من بعده . ويبدو أن هذه المعاهدة قد وقعت بعد هزيمة سفياتوسلاف فى المعركة الأخيرة

Leo Diaconus, pp. 155-156; Cedrenus, II, pp. 411-412.
Yahya d'Antioche, p. 833.

(٢٠٩)

(٢١٠)

مع البيزنطيين عند دريستر بعدة أيام ، وأن النسخة التي وقع عليها يوحنا تريمسكس كانت قد كتبت باليونانية طالما أنها ستمسلم إلى الإمبراطور البيزنطي^(٢١١) .

على كل حال ، بعد التوقيع على المعاهدة بين الطرفين ثم لقاء المعاهدين على شاطئ الدانوب ، بدأ سفياتوسلاف رحلة العودة إلى كييف . وتنفيذاً لطلب سفياتوسلاف من يوحنا تريمسكس بأن يتوسط له لدى البشناق للسماح له وقواته بالعبور عبر أراضيهم دون مساس ، فقد أرسل يوحنا تريمسكس رسوله ثيوفيلوس من يوخايتسا^(٢١٢) إلى كوربا Kuria زعيم البشناق ، ليعقد معه سلاماً مستقلاً ؛ وقد وعده بأن الروس لن يعبروا نهر الدانوب وأنهم موافقون على التحالف معه . وعلى حد قول كدريوس وزونارس فإن البشناق وافقوا على كل طلبات الإمبراطور فيما عدا طلباً واحداً وهو السماح للروس بعبور أراضيهم^(٢١٣) . وبطبيعة الحال كان ولا بد أن هذا المبعوث الإمبراطوري يحمل هدايا ثمينة وأموالاً إلى البشناق . ومما يدعم هذا أن كورت Court يذكر أنه تم العثور على جرة برونزية بالقرب من نهر الدنيبر ، عرفت باسم كثر البشناق ، وهي مملوءة بالعملة الذهبية البيزنطية والتي تحمل صورة الإمبراطورين نقفور فرقاس ويوحنا تريمسكس^(٢١٤) . وتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن سكان بيرياسلاف أرسلوا إلى البشناق رسلاً يخبروهم أن سفياتوسلاف عائد إلى بلاده في نفر قليل من قواته بعد أن استولى على ثروات ضخمة من اليونان وغنائم هائلة^(٢١٥) .

وفي الواقع هناك تناقض بين ما يذكره المؤرخون البيزنطيون وما تذكره الحولية الروسية الأولى . فالمؤرخون البيزنطيون يسبرنون أنفسهم من دم الأمير الروسي سفياتوسلاف الذي اغتيل كما سنرى على أيدي البشناق ، ويعزون هذا إلى رفض البشناق لطلبهم السماح لسفياتوسلاف ورفاقه المرور بسلام عبر أراضيهم . أما الحولية الروسية الأولى فتلقى باللوم على سكان بيرياسلاف ، وإن كنا نتساءل ما العلاقة بين سكان بيرياسلاف والبشناق ، وما الفائدة التي ستعود عليهم من إخبار البشناق بهذا ؟! ومن المحتمل أن رسل بيرياسلاف جاءت إلى البشناق بأمر يوحنا تريمسكس ، حتى إذا ما قبض عليهم من الروس فإن هويتهم المدنية لن تدل على أنهم

(٢١١)

Sorlin, *Le traité de 944*, p. 472.

(٢١٢) يطلق رنسان عليه اسم فيلوثيوس ، انظر ،

Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 214.

(٢١٣) Cedrenus, II, p. 412; Zonaras, III, p. 535.

(٢١٤)

Court, *La Russie*, p. 115.

(٢١٥)

R.P.C., p. 90 .

ينتمون إلى يوحنا تريمسكس . ونكاد نتفق مع المؤرخ الروسي كارامزين على أن الكرم ليس هو محرك السياسة البيزنطية ، ومن الأرجح أن البيزنطيين توقعوا أن سفياتوسلاف لن يتركهم في سلام لمدة طويلة بعد عودته إلى بلاده ، ومن ثم فقد أوصى الإمبراطور البشناق باغتيال سفياتوسلاف دون أن يؤخذ عليه شيء^(٢١٦) .

لقد وصل سفياتوسلاف الآن إلى شلالات الدنيبر ، وهناك نصحه قائده سفينالد أن يمضي في الطريق وهو راكب جواده ، لأن البشناق كانوا يسكرون بالقرب منهم . لكن سفياتوسلاف لم يلق بالألنصحة قائده ومضى معهم بالقرب . وقد كمن له البشناق في منطقة الشلالات ، لذلك عندما وصل إليها سفياتوسلاف كان من المحال أن يجتازها . ونظراً لحلول الشتاء على سفياتوسلاف وقواته فقد قرر قضاءه في بيلوبيرج Belobereg^(٢١٧) . ولم يكن لدى الروس المون الكافية وحلت بهم مجاعة طاحنة لدرجة أن رأس الحصان كانت تباع بنصف جريفنا grivna^(٢١٨) . ورغم ذلك قضى الروس الشتاء هناك .

وعندما أقبل الربيع في عام ٩٧٢م بدأ الروس في التحرك وقد اقتربوا من الشلالات ، التي أشار قسطنطين بوريغوجينيتوس إلى خطورتها على الروس عند المرور بها^(٢١٩) ، وهجم البشناق عليهم بقيادة زعيمهم قوريا وقتل سفياتوسلاف وملكته قواته ، واحتزوا رأسه ليصنع منها قوريا قنحاً مصفحاً بالذهب يحتسى فيه الخمر . ولم ينج من هذه المنحة سوى سفينالد الذي فر إلى كينيف ليخبر ياروبولك Yaropolik بما وقع لأبيه^(٢٢٠) . وهكذا دفع سفياتوسلاف حياته ثمناً لمشروعاته التوسعية في البلقان ، وعدم إدراكه على نحو صحيح لسر تفوق بيزنطة وصمودها أمام القوى المجاورة والمتمثل في جهازها الدبلوماسي وجيشها النظامي.

^(٢١٦) Karamsin, *Histoire*, pp. 239-240.

^(٢١٧) تقع بيلوبيرج على شاطئ البحر الأسود عند مدخل نهر الدنيبر ، انظر ، R.P.C., pp. 241-242, n. 73.

^(٢١٨) الجريفنا ، هي عملة روسية آنذاك ولا تعرف كم كانت تساوي في وقتنا الحاضر .

^(٢١٩) انظر ، الفصلين الأول والخامس من البحث.

^(٢٢٠) R.P.C., p.90; Cedrenus, II, pp.412-413; Zonaras, III, p. 53; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 214; Schlumberger, *Russes*, p. 33; Jenkins, *Byzantium*, p. 207; Fine, *Balkans*, p. 187; Karamsin, *Histoire*, pp. 240-241 .

الفصل الثالث

الروس بين نقطة القوى الأوربية

٩٧٣ - ١٠٥٤ م

يشير الراهب نسطور في حواشيه إلى أن الأمير الروسي العظيم سفياتوسلاف قد قسم الحكم في البلاد بين أبنائه، بعد ما انتهى من قتال البشناق وطردهم بعيداً عن عاصمته كييف، فقد وضع ياروبولك Yaropolk على عرش كييف، وأولج Oleg على المنطقة التي كان يقطنها الدريفليون، وكانت تسمى ديريفا Dereva، وفلاديمير Vladimir على نوفجورود Novgorod. ثم رحل سفياتوسلاف بعد ذلك إلى البلقان لاستكمال مشروعاته التوسعية الطموحة هناك^(١).

وبهذا العمل الذي أقدم عليه سفياتوسلاف أصبح هناك ثلاثة أمراء شرعيين يحكمون بلاد الروس، وكانت لكيف الكلمة العليا على غيرها من الإمارات، ولياروبولك الابن الأكبر لسفياتوسلاف، الكلمة النافذة على أخويه. لكن يبدو أن الأمور سارت على عكس هوى سفياتوسلاف. فقد قتل هذا الأخير على أيدي البشناق في عام ٩٧٢ م، وبموته صار ياروبولك من الناحية النظرية يحمل لقب أمير الروس العظيم خلفاً لأبيه في عام ٩٧٣ م^(٢).

ويشير بعض المؤرخين إلى أن ياروبولك قبل أن يشعل فتيل الحرب الأهلية في البلاد، أرسل سفارة إلى الإمبراطور الألماني أوتو، قدمت له هدايا نفيسة. وقد شوهذ أعضاء هذه السفارة في مدينة كندلنبورج Knedlinbourg الألمانية، ولا نعلم الأسباب التي من أجلها أرسلت هذه السفارة الروسية إلى ألمانيا، هل كانت تبحث عن دعم سياسي وعسكري لياروبولك نظراً لتحطيم بنية الروس العسكرية في البلقان آنذاك، أم أنها كانت لأهداف دينية^(٣). وللأسف لا توجد شواهد تاريخية تساعدنا على ترجيح

(١) R.P.C., p. 87.

لقد جاء وفد من نوفجورود Novgorod إلى سفياتوسلاف يطلبون حاكماً عليهم وقالوا له: "إنا لم نكن إينسا فئنا سوف نختار أميراً منا"، عندئذ رد عليهم قائلًا: "إنكم بحاجة إلى أمير، لكن ياروبولك وأولج رفضا". ففكر دوبرينا Dobrynya أن يسند الحكم في نوفجورود إلى فلاديمير، وكان ابناً لسفياتوسلاف من مالوشا Malusha، أخت دوبرينا ووصيفة الأميرة أولجا. وحينئذ دعاه أهل نوفجورود لتولية فلاديمير عليهم، وهو ما حدث بالفعل؛ وسار إليهم فلاديمير بصحبة خاله دوبرينا.

(٢) R.P.C., p. 90; Karamsin, Histoire, p. 242.

(٣) Karamsin, Histoire, pp. 248-249; Baumgarten, Saint Vladimir, p. 48.

أى الاحتمالين ، لتبقى الأسباب التي أرسلت من أجلها هذه السفارة إلى ألمانيا موضع تخمين وافتراض . لكن ينبغي أن نضع في الاعتبار أن هذه ليست المرة الأولى التي يسجل التاريخ فيها سفارات متبادلة بين الروس والإمبراطور الألماني ؛ فقد سبقت الأميرة أولجا حفنها ياروبولك في هذا الشأن .

وباستثناء السفارة الروسية التي أرسلها ياروبولك إلى الإمبراطور الألماني أوتو في عام ٩٧٣م ، لا ندرى شيئا عن علاقات الروس بالقوى الخارجية في عهد ياروبولك . فقد انصرفت المصادر الروسية إلى الحرب الطاحنة التي دارت بين أبناء سفياتوسلاف من أجل الانفراد بالحكم في البلاد . وإذا كانت هناك حاجة للحديث عن هذه الحرب فليس من باب الدخول في غمارها بل من أجل التعرف على القوى الأجنبية غير الروسية ، التي لجأ إليها الأمراء الروس في صراعمهم الدامي من أجل العرش. وتبدأ أحداث هذه الحرب عندما قام أولج *Oleg* أخو ياروبولك بقتل ليوت *Lyut* ^(١) ابن القائد الروسي سفينالد ، الذي أخبر ياروبولك بمصرع أبيه سفياتوسلاف على أيدي البشناق في عام ٩٧٢م . وقد زادها اشتعالا سيطرة سفينالد على ياروبولك ، الذي ثارت ثائرته لمقتل ابنه ، فراح يحث ياروبولك على قتال أخيه والاستيلاء على أملاكه ؛ وظل هكذا إلى أن استجاب له ياروبولك . وفي عام ٩٧٦م سار ياروبولك ضد أولج في مقاطعة ديريفا *Dereva* . وقد حاول أولج المقاومة لكنه هزم وفر إلى مدينة أوفريتش ، حيث لقي حتفه وهو في الطريق إليها . وبهذا كان النصر من نصيب ياروبولك الذي استولى على أملاك أخيه ودخل مدينته ^(٢) .

وعندما وصلت هذه الأنباء إلى فلاديمير أمير نوفجورود شعر أنه في خطر وأن دائرة ياروبولك سوف تدور عليه أيضا ، وخشى أن يلقى نفس مصير أولج ، لاسيما وأنه لم يكن يملك قوات كافية للوقوف في وجه أخيه ياروبولك وقائده سفينالد؛

^(١) في ذات يوم من عام ٩٧٤م خرج ليوت ابن سفينالد للصيد خارج كييف ، وقد ساقته كتماء إلى الغابات الواقعة خارج كييف في مناطق نفوذ الأمير أولج أخو ياروبولك. وتصادف أن كان أولج يصطاد في هذه المنطقة أيضا ، وعندما رأى ليوت أيدي استيائه وتسلل عن هويته وعرف من رفقه أنه ابن سفينالد ، فقبض عليه وقتله .

^(٢) ينكر المؤرخون أن أولج سقط في خندق وهو يهرب صوب مدينة أوفريتش ، وسقطت فوقه الجياد أيضا . وقد أحضر ياروبولك جثته وأكرم مثواها ، بعد أن بكى طويلا أمامها ، وبعد أن وجه اللوم إلى سفينالد ، لأنه كان يباغت على الحرب . انظر،

Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 41-42; Karamsin, *Histoire*, p. 243.
لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث انظر،
R.P.C., pp. 90-91; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 41-42; Karamsin, *Histoire*, pp. 242-243; Le Clerc, *La Russie*, pp. 148-149.

فهرج ولأيته نوفجورود ولجأ إلى اسكندنافيا حيث مكث هناك مدة عامين . وكان ياروبولك قد استغل هذه الفرصة وزحف على أملاك أخيه فلاديمير واستولى عليها وضم نوفجورود إليه^(١). ومن المحتمل أن فلاديمير قد شارك النورمانديين في غزواتهم المروعة على سواحل أوروبا الغربية ، من ألمانيا حتى إيطاليا ، خلال هذين العامين^(٢) . وفي عام ٩٧٨م تمكن فلاديمير من حشد جيش من الفارانجيين ، عاد على رأسه إلى نوفجورود ؛ وهناك أمر قادة ياروبولك أن يذهبوا إليه ويخبروه أن فلاديمير أت في الطريق لقتاله^(٣) . وقيل أن يتجه فلاديمير إلى كييف عرج على ولاية بولتسك Polotsk ، الواقعة في موطن الكريفتشين ، وكان يحكمها آنذاك أحد الفارانجيين ويدعى روجفولود Rogvolod^(٤) . وقد أراد فلاديمير أن يختص نفسه بابنه روجفولود انتقاماً من ياروبولك ، حيث كانت خطيئة. إلا أن الفتاة رفضت قبوله قائلة أنها لن تتزوج من ابن إحدى الإماء وأنها ترغب في الزواج من ياروبولك . وهذا التلميح إلى أصل أمه أثار ثأرته واتخذها ذريعة للاستيلاء على هذه الإمارة^(٥) . وعلى الفور توجه فلاديمير ومعه خاله دوبراينيا إلى إمارة بولتسك وتم الاستيلاء عليها عنوة وأسو روجفولود وأسرتة ، ثم سرعان ما قام فلاديمير بتحريض من خاله دوبراينيا ، باتخاذ ابنة روجفولود والتي كانت تدعى روجنيد Rogned زوجة له^(٦)؛ كما قام بقتل والدها وأخويها بعد ذلك^(٧) . وبعد استيلاء فلاديمير على إمارة بولتسك، صار على أهبة الاستعداد للزحف نحو كييف نفسها لقتال أخيه ياروبولك .

جدير بالذكر أن هناك رواية في الحولية الروسية الأولى ببنغسي الوقوف عندها لمعرفة القائدة التي عادت على فلاديمير من فترة إقامته في اسكندنافيا حيث تذكر أن جيش فلاديمير كان يتكون من حشود من الفارانجيين الذين جندهم من اسكندنافيا ومن النوفجوروديين السلاف ، ومن التشوديين (الفنلنديين) وأخيراً من

^(١) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 42; Karamsin, *Histoire*, p. 244.

^(٢) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 42.

^(٣) R.P.C., p. 93; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 42; Karamsin, *Histoire*, p. 244.

^(٤) R.P.C., p. 91; Karamsin, *Histoire*, p. 244.

^(٥) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 43.

^(٦) اتجبت روجنيد ابناً يدعى إيسياسلاف Isyaslav من فلاديمير. وفيما بعد حرصته على قتل أبيه في أثناء إحدى زياراته لها . لكن فلاديمير اكتشف المؤامرة . وبعد مشاورته مع نيلاته انتهى إلى إلغائها ومنحها إمارة بولتسك إرثاً لهما ، انظر، Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 43-44.

^(٧) عن هذه الأحداث انظر، R.P.C., p. 91; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 42-44; Karamsin, *Histoire*, pp. 244-245; Le Cleric, *La Russie*, pp. 149-151.

الكريغتشين^(١٢) . ويبدو أن إقامة فلاديمير في اسكندنافيا بين الفارانجيين ، واشتراكه معهم في مغامراتهم العسكرية على السواحل الأوربية قد اكسبه شعبية بينهم ، مكنته من تجنيد فرق عسكرية منهم . وفى نهاية الأمر وصل فلاديمير إلى كييف وحاصرها وتمكن من فتحها عن طريق أحد ضباط ياروبوك المدعو بلودPloud، والذي اتهمه المورخون بخيانة سيده ياروبوك . وأياً كان الأمر فقد كانت الغلبة لفلاديمير ولم يستطع ياروبوك مواجهته . وقد نصحه أحد قادته ويدعى فاريازكو Varyazhko أن يهرب ويلجأ إلى البشناق ويحشد منهم جيشاً، لكن ياروبوك رفض هذه الفكرة ودفع ثمنها من حياته ؛ وهرب فاريازكو إلى البشناق واحتفى بهم^(١٣) . ودخل فلاديمير كييف وأعلن نفسه سيداً على كل أنحاء روسيا ، واحتل بهذه المناسبة ونصب تماثيل الآلهة في العاصمة والمدن الروسية الأخرى وقدمت القرابين البشرية لها^(١٤) .

وينبغى الوقوف قليلاً عند رواية الحولية الروسية الأولى عن موقف فلاديمير من الفارانجيين الذين ساعدوه في رحلته العسكرية من أجل عرش كييف . ففى عام ٩٨٠م بعد أن قتل فلاديمير أخاه وانتصر على قواته واستولى على أملاكه قال له الفارانجيون : لقد أصبحت هذه المدينة الآن لنا، فنحن الذين استولينا عليها، ولهذا نرغب في جباية الجزية منها بواقع جريفتين اثنتين عن كل رجل " . فطلب منهم فلاديمير أن يترتبوا لحين جمع جلود السمور في غضون شهرين من الآن . وبعد انقضاء المدة لم يعطهم فلاديمير شيئاً، فتأكدوا عندئذ من أنه يخدعهم وطلبوا منه رحيلهم إلى بلاد اليونان (أي بيزنطة) . وقد حثهم الأمير الروسى على القيام بهذا ، وتخبر منهم الصنوفة والشجعان وعهد إليهم بحكم المدن الروسية، أما البقية الباقية فرحلت إلى القسطنطينية " . وفى نفس الوقت بعث فلاديمير برسالة إلى بيزنطة ليخبر البيزنطيين أن الفارانجيين فى الطريق إليهم، وعليهم ألا يبقوا على الكثير منهم فى القسطنطينية حتى لا يلحقوا بهم الأذى ؛ وعلى البيزنطيين أن يوزعهم على مناطق مختلفة وألا يدعوا أحداً منهم يعود ثانية^(١٥) .

وفى الحقيقة ، فإن إرسال الفرقة الفارانجية المساعدة إلى بيزنطة لم يكن تحت أحداث عام ٩٨٠م كما ذكر نسطور بل حدث بعد ذلك ببضع سنوات ، كما سنرى فيما

^(١٢) R.P.C., p. 91; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 44.

^(١٣) R.P.C., p. 94; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 44-45; Karamsin, *Histoire*, pp. 245-247.

^(١٤) R.P.C., p. 93.

^(١٥) R.P.C., p. 93; Le Clerc, *La Russie*, p. 154.

بعد ، وبالتحديد في عام ٩٨٨م وهو العام الذي نصمت فيه الحولية الروسية ولا ننكر شيئاً من أمر الفرقة الفارانجية التي أرسلها فلاديمير إلى بيزنطة آنذاك . وجدير بالذكر أن علاقات فلاديمير السياسية المباشرة مع بيزنطة لم تبدأ إلا من عام ٩٨٧م وقبل هذا التاريخ كانت العلاقات عدائية بين البلدين^(١٧) . فكيف إذن يسمح فلاديمير للفارانجيين بالذهاب إلى القسطنطينية والعلاقات على هذا النحو بل ويبحث برسالة إلى الإمبراطور البيزنطي بشأنهم ؟! كما أن فلاديمير عقب دخوله كييف كان بحاجة ماسة إليهم لمواجهة أعدائه في الداخل والخارج لاسيما البشناق الذين ناصبوه العداء كما سنرى فيما بعد^(١٨)، فكيف له أن يتخلى عنهم وأمن كييف مرتبط ببقائهم إلى جانب فلاديمير . على كل حال، فإن إرسال الفارانجيين إلى القسطنطينية في عام ٩٨٨م حقيقة ثابتة لامراء فيها وأن رحيلهم إليها في عام ٩٨٠م، على حد ذكر نسطور ، أمر غير صحيح والمقصود هو عام ٩٨٨م^(١٩) .

والآن حسب الترتيب الزمني للحولية الروسية الأولى ، بدأ فلاديمير بشن حملاته العسكرية لإقرار الأمور في البلاد وامتلاك نمامها . فشن حملة على الرادمنشيين في عام ٩٨٤م انتهت بدفعهم الجزية له ؛ كما شن حملة أخرى على بلغار الفولجا في عام ٩٨٥م عاد بعدها إلى كييف^(٢٠) ، بعد أن عجز عن إحراز نصر حاسم عليهم^(٢١) . ومع هذا نقرأ عن بعثة دينية بعث بها ملك البلغار إلى كييف لشرح تعاليم ومزايا الدين الإسلامي عسى أن يقبل فلاديمير الإسلام ديانة سماوية لشعبه . وقد رفض فلاديمير قبول الإسلام ديانة له ولشعبه لأنه يحرم شرب الخمر الذي هو متعة الروس، على حد قول نسطور^(٢٢) . أما عن علاقته بالخزر فلا تمدنا المصادر الروسية بتفاصيل عنها ، اللهم تلك الرواية التي ترويها الحولية الروسية عن تلك البعثة الخزرية التي زارت كييف في عهد فلاديمير لتعرض عليه اليهودية كديانة تصلح له ولشعبه، إلا أن الرفض كان من نصيبها أيضاً لأن فلاديمير علم منهم أنه كتب عليهم التشتت في الأرض فكيف له أن يتبعهم وهم مشتتون^(٢٣) . ومن المحتمل وجود علاقات سلمية بين

(١٧) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 46.

(١٨) انظر الفصل الخامس من البحث .

(١٩) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 46.

(٢٠) R.P.C., p. 96.

(٢١) انظر الفصل الخامس من البحث . جدير بالذكر أن فلاديمير كان متزوجاً من سيدة بلغارية ،الحب منها

Baumgarten, N. , "La dernier mariage de Saint Vladimir",

بوريس وجلب،انظر، OC , XVIII, 61 (1930), p. 166.

(٢٢) R.P.C., p. 97.

(٢٣) R.P.C., p. 97.

الخزر وفلاديمير في ذلك الوقت بالإضافة إلى العلاقات التجارية القائمة بين الجانبين بعيداً عن أهواء حكامها .

أما عن سياسة فلاديمير تجاه قوى السهوب وبالتحديد تجاه البشناق فقد كانت عدائية الطابع ، نظراً لازدياد هجمات هذه القبائل على حدود بلاده، فقد قام البشناق بالهجوم على أراضيه في أعوام ٩٩٢م ، ٩٩٤م ، ٩٩٧م ، ١٠١٥م؛ ولم ينجح فلاديمير في صددهم كل مرة ، بل أنه في هجوماتهم عليه في عام ٩٩٤م لم ينجح من الموت إلا بفضل اختيائه أسفل أحد الجسور . وفي عام ١٠١٥م أرسل ابنه بوريس Boris للقاتلهم لكنه لم يكمل المسير إليهم عندما علم بمرض ووفاته أبيه فلاديمير حيث اضطر إلى العود من حيث خرج^(٢٤) .

والآن نصل إلى المحور الرئيسي في السياسة الخارجية خلال هذه المرحلة من مراحل الفكر السياسي عند الروس . فقد كانت الجبهة البيزنطية تشكل ذلك المحور الذي تحتم على أمراء الروس العظام التعامل معه سواء ألبوا أم شاعوا . فمنذ تفتحت أعين الأمراء الروس على المجتمع الخارجي أدركوا ضرورة التعامل مع بيزنطة على نحو منفرد عن باقي القوى الخارجية بل وبشكل خاص أيضاً . لكن هذه المرة حدث العكس ! فقد جاء النداء من قلب القسطنطينية فالمدينة الآن تستغيث ويتعالى صوتها طالبة العون الروسي وإلا سيلتهمها الثور وتذهب العبادة الأرجوانية التي يرتديها بأسفل الثاني أدراج الرياح . ولكن ماذا يمكنه أن يقدم إلى أمير الروس العظيم حتى يستجيب لاستغاثة المدينة ! هذا ما ستفصح عنه الأحداث التالية والتي كانت زادا خصباً للعلاقات الروسية - البيزنطية في تلك الفترة .

ولكى نتعرف على ماهية العلاقات بين فلاديمير وبيزنطة من الضروري أن نقف على أرض القسطنطينية لنرغب الأحداث الدائرة فيها ، سواء على حدها الشرقي في آسيا الصغرى أو على حدها الغربي في شبه جزيرة البلقان . لقد بلغت الأحداث الجارية في كلا الجانبين درجة عظيمة من التدهور الأمني والاضطراب العسكري والاجتماعي حتى صارت القسطنطينية تلتقط أنفاسها بصعوبة بالغة .

فعلى الحد الغربي لبيزنطة ، أي شبه جزيرة البلقان ، بدأ القيصر البلغاري صمويل Samuel محاولاته الدائبة لاسترداد الجزء الشرقي من مملكة البلغار والذي كان يوحنا تزيمنسكس قد ضمه إلى أملاك الإمبراطورية البيزنطية على أثر هزيمة الأمير الروسي سفياتوسلاف عند مدينة سليسترا في عام ٩٧١م . وبالفعل تمكن

(٢٤) عن تفاصيل العلاقة بين الروس والبشناق في عهد فلاديمير ، انظر الفصل الخامس من البحث .

صمويل من استرداد أجزاء من الجانب الشرقي من مملكته والواقع عند نهر الدانوب، واسترد مدن بريسلافا و *Vidin* وصوفيا *Sophia* . كما دخل في نطاق مملكته أيضاً جزء كبير من صربيا وألبانيا بالإضافة إلى مقدونية وصارت مدينة أوخريدا *Ochrida* عاصمة لبلاده . وأعاد صمويل بطريركية بلغاريا ثانية بعد أن كان تريمسكس قد ألغاهما . وبعد ذلك بدأ صمويل في التغلغل في بلاد اليونان وشكل تهديداً مستمراً لمدينة تسالونيك وتساليا ؛ وفي نهاية المطاف استولى على لاريسا *Larissa* الواقعة في إقليم تساليا في عام ٩٨٦م^(٢٥)، كما تمكن من التغلغل في شبه جزيرة البلوبونيز أيضاً^(٢٦) . وبكلمات موجزة يمكننا القول أن القيصر صمويل البلغاري تمكن من بعث الروح في مملكة البلغار بعد أن قبضها يوحنا تريمسكس في عام ٩٧١م، ولكن عودة الروح هذه إلى جسد بلغاريا لم تكن على هوى البلاط البيزنطي، الأمر الذي دفع الإمبراطور باسيل الثاني *Basil II* إلى تجريد حملة عسكرية على البلغار يرأسها هو بنفسه في عام ٩٨٦م . وبالفعل نجح باسيل الثاني في إعداد الحملة العسكرية وخرج بها في يوليو من عام ٩٨٦م متوجهاً نحو البلقان . وما أن وصلت أنباء هذه الحملة إلى مسامع القيصر صمويل حتى تخطى عن غزو البلوبونيز وعاد مسرعاً إلى شمال مملكته للزود عنها . وعلى الرغم من نجاح باسيل الثاني في حصار مدينة فليببوليس واحتلالها ثم حصار مدينة صوفيا إلا أن لجوء البلغار إلى حرب الكمائن مع البيزنطيين وخيانة بعض القادة البيزنطيين للإمبراطور باسيل الثاني اضطر الإمبراطور البيزنطي لرفع الحصار عن صوفيا والعودة إلى القسطنطينية ؛ لكن البلغار انتهزوا الفرصة والحقوا هزيمة بالإمبراطور البيزنطي بعد ملاحقة قواته ومطاربتها وهي في الطريق إلى القسطنطينية^(٢٧) .

وفي السنوات التالية نجح البلغار في استرداد مدن بريسلافا و *Pliska* ثم تقدموا غرباً واستولوا على دير اخيوم *Dyrrachium* ، الواقعة على ساحل البحر الأدياتي ، وبهذا أصبح لهم منفذاً في الغرب يشكل تهديداً للوجود البيزنطي في البحر الأدياتي^(٢٨) . على هذا النحو كان البلغار يشكلون تهديداً مباشراً للجانب الغربي من القسطنطينية ، أي شبه جزيرة البلقان .

(٢٥) العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٥٤٦ - ٥٤٧ .

(٢٦) وسام عبد العزيز ، دراسات ، ص ٣١١ .

(٢٧) العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٥٥٠ - ٥٥١ . ولمزيد من التفاصيل حول هذه المرحلة من الصراع البيزنطي انظر ، *Leo Diaconus*, p. 171-173; *Zonaras*, III, pp.548-549.

(٢٨) وسام عبد العزيز فرج ، الإمبراطور باسيل الثاني (سجاح البلغار) (٩٧٦-١٠٢٥م) ، المجلد الثاني نُشرت على السياسة في عصره ، ندوة التاريخ الإسلامي والوسط ، ١ (١٩٨٢) ، ص ١٨٠ .

كان هذا هو الحال على الحد الغربي للإمبراطورية البيزنطية، أما عن الحد الشرقي لها، أي آسيا الصغرى، فالوضع السياسي والاجتماعي بها كان أكثر خطورة مما يتوقع الإمبراطور باسيل الثاني نفسه . لقد شبت ثورة عارمة في آسيا الصغرى كان على رأسها واحد من أبناء الطبقة الأرستقراطية العسكرية بها ألا وهو برداس فوقاس *Bardas Phocas* ، فبدلاً من أن ينفذ المهمة التي أوكلها إليه الإمبراطور باسيل الثاني ويخمد ثورة برداس سكليروس *Bardas Sclerus* التي اشتعلت في آسيا الصغرى في أعقاب هزيمة الإمبراطور من صمويل البلغاري نجده ينضم إلى هذا الثائر ويشكلا جبهة واحدة ضد باسيل الثاني^(٢٩) . ثم سرعان ما أعلن نفسه إمبراطوراً في نيم خرشنة في الخامس عشر من شهر أغسطس من عام ٩٨٧م. وقد ألقى القبض بعد ذلك على حليف الأمس برداس سكليروس ووضع في حصن تيروبايون *Tyropaeon* ، الذي كانت تقيم به زوجة برداس فوقاس ، وقد أعلن أنه سوف يطلق سراحه بعد دخوله إلى القسطنطينية وتتويجه إمبراطوراً بها وأنه لن يغدر به^(٣٠) . وقد استطاع برداس فوقاس السيطرة على آسيا الصغرى كلها والتحرك بقواته العسكرية صوب القسطنطينية، وفي الوقت الذي ارتفع فيه شأن برداس فوقاس بما له من قوة وبما لأسرته من مجد وبما لقيه من تأكيد من تأييد من الطبقة الأرستقراطية تخرج مركز الأسوة المقنونة الحاكمة في بيزنطة^(٣١) . ويصف لنا المؤرخ العربي أبو شجاع^(٣٢) الحالة العامة لبيزنطة في تلك الأونة بصورة بليغة في عبارته التالية : .. وانصرف ورديس (أي برداس فوقاس) فنزل بإزاء قسطنطينية منازل لباسيل وقسطنطين ملكي الروم . وقد اجتمعت الكلمة عليه وانضوى العساكر وأهل البلاد إليه ، وبقي الملكان في قل من الناس متحصنين بالمدينة وبحصنها * . هكذا سلط أبو شجاع مجهراً دقيقاً على الحالة العامة في بيزنطة فيما بين على ٩٨٧-٩٨٨ م . أما المؤرخ العربي المسيحي يحيى الأنطاكي فيشير إلى جزع الإمبراطور باسيل الثاني من برداس فوقاس " لقوة جيوشه

Angold, Byz. Empire, p. 2.

Yahya d'Antioche, p. 168;

أبو شجاع محمد بن الحسين ، نيل كتاب تجارب الأمم ، تحقيق / هـ . ف . اندروز ، جـ ٣ ، (القاهرة ، ١٩١٦) ، ص ١١٤-١١٥ .

(٣١) العربي ، الدولة البيزنطية ، ص ٥٣٢ .

(٣٢) نيل تجارب الأمم ، ص ١١٥ - ١١٦ .

واستظهاره عليه...^(٢٣)، وعندئذ أدرك أنه لابد له من الاستعانة بقوى خارجية لتعينه على قمع ثورة برداس فوقاس بأسرع ما يمكن^(٢٤).

إزاء هذه الأوضاع المتردية في آسيا الصغرى بعث الإمبراطور باسيل الثاني سفارة سرية إلى أمير الروس العظيم فلاديمير لطلب العون العسكري منه^(٢٥)، وربما كان هذا الطلب يستند إلى البند الذي دون في معاهدة ٩٤٥م المبرمة بين الطرفين والذي تأكد في معاهدة ٩٧١م أيضا والذي يفيد بتزويد الأمير الروسي للإمبراطور البيزنطي بالقوات اللازمة له للزود عن بلاده وقمما بيعت في طلبها.

وفي هذا الصدد يقول أبو شجاع "... ولما انتهت الحال منهما إلى الضعف راسلا ملك الروسية واستجده...^(٢٦). وهذه العبارة الهامة تؤكد ذهاب سفارة من قبل الإمبراطور البيزنطي إلى فلاديمير لطلب النجدة منه. وفي الحقيقة فإن المؤرخ بومجارتن Baumgarten يلقى الضوء على هذه السفارة بصورة تفصيلية.

يفترض بومجارتن أن فلاديمير قد تنصر في كييف وأن الأمير السزويجي أولاف تريجويون Olaf Tryggwison قد أضر البيزنطيين بهذا الحدث عند وصوله إلى القسطنطينية في ثمانينات القرن العاشر الميلادي^(٢٧). وإزاء اشتعال ثورة برداس فوقاس وتمكن الثائر من القبض على آسيا الصغرى كلها بعث الإمبراطور باسيل الثاني تلك السفارة، التي أشرنا إليها في الأسطر الماضية، وكانت تضم الأمير السزويجي أولاف وأحد رجال الدين ويسمى الأسقف بولس Paul؛ وقد وصلت هذه السفارة إلى كييف في نهاية عام ٩٨٧م^(٢٨) أو على أقصى تقدير في بداية عام ٩٨٨م^(٢٩). هذه

^(٢٣) Yahya d'Antioche, p. 168.

^(٢٤) لمزيد من التفاصيل حول هذه الثورة انظر، أبو شجاع، نيل تجارب الأمم، ص ١١٢-١١٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٢٦-١٢٧؛ النمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٦٢؛ العريفي، الدولة البيزنطية، ص ٥٢٦-٥٣٦. انظر أيضا،

^(٢٥) Baumgarten, Saint Vladimir, pp.69-78. Vasiliev, A. "Was Old Russia a Vassal State of Byzantium?", SP, 7(1932), p. 351; Angold, Byz. Empire, p. 2; Baumgarten, Saint Vladimir, pp. 69-70.

^(٢٦) أبو شجاع، نيل تجارب الأمم، ص ١١٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٢٧؛ النمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٩٢.

^(٢٧) Baumgarten, Saint Vladimir, pp. 69-70.

^(٢٨) Baumgarten, Saint Vladimir, pp. 69-70; Baumgarten, "Olaf Tryggwison roi de Norvège et ses relations avec saint Vladimir de Russie", OC, 24 (1931), pp.32-33.

^(٢٩) Baumgarten, Olaf Tryggwison, p. 32.

السفارة لم يرد لها ذكر في المصادر البيزنطية، والفضل في ذكرها يعود إلى المصادر العربية وإلى الساعا الاسكندنافية^(٤٠) التي ألقت الضوء عليها إلى حد كبير .

على أية حال ، قبل أن نناقش رواية الساعا حول هذه السفارة البيزنطية إلى أمير الروس العظيم فلاديمير ينبغي أن نشير ، استنادا إلى يحيى الانطاكي ، إلى أن العلاقات بين الروس وبيزنطة وحتى عام ٩٨٦م كانت مشوبة بالعداء منذ مصرع الأمير سفياتوسلاف على أيدي الشناق في عام ٩٧٢م^(٤١) . لكن في بداية عام ٩٨٨م وصلت السفارة البيزنطية إلى كييف لطلب النجدة العسكرية من فلاديمير ، إلا أن فلاديمير اشترط على البيزنطيين الموافقة على زواجه من الأميرة آنا بورفيروجينيتا شقيقة الإمبراطور باسيل الثاني وقسطنطين *Anna Porphyrogennita* ، وفي هذا الصدد يقول أبو شجاع " فاقترح عليهما الوصلة بأختهما... " . وبهذا فإن طلب الزواج من الأميرة آنا كان بدافع من فلاديمير نفسه وليس عرضا بيزنطيا . فمثل هذه الرغبة ، على حد قول المؤرخ أنجولد *Angold* ، سوف تعطى الأمير الروسي هبة ممتازة لأن عروسه لم تكن أميرة بيزنطية فحسب بل واحدة ممن ولدن لإمبراطور حاكم وهي واحدة ممن ولدن في الغرفة الأرجوانية^(٤٢) . وبطبيعة الحال أصبح الإمبراطور باسيل الثاني في موقف لا يحسد عليه ، فالأعداء يهددون دولته في الداخل والخارج وفلاديمير الروسي يطلب منه مخالفة واحدة من قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، أو يقول آخر مخالفة نهج الأسلاف . وفي هذا الصدد يقول قسطنطين بورفيروجينيتوس : " .. وتقابلنا نوع آخر من المطالب ، وهو مطلب جد عظيم وغير لائق . فإذا حدث وطلبت إحدى القبائل الشمالية المراوغة الوضعية عقد تحالف زواج مع إمبراطور الرومان ، إما باتخاذ ابنته زوجة لأحدهم ، أو بإعطائه واحدة منهم لتصبح زوجة له أو لابنه ، فإن مثل هذا الطلب الغريب يمكنك الاعتراض عليه بهذه الكلمات قائلا : " بأن هذا الأمر له أيضا عهد ووصية موثوق بها للإمبراطور المقدس قسطنطين . وهذا العهد محفور على المنضدة المقدسة في كنيسة المسيحيين ، أي كنيسة سان صوفيا ، وقد ورد فيها أنه يحرم على أي إمبراطور روماني أن يعقد تحالفا عن طريق الزواج مع أمة تختلف تقاليدها عما جبل عليه الزمان ، وتتعارض معها ، لاسيما إذا كانت هذه الأمة وثنية ولم

(٤٠) الساعا ، هو اسم يطلق على نوع من المصادر الاسكندنافية ، وتتميز بأن لها طابع شعبي بطولي يحوى بين

طوائفه معلومات تاريخية هامة ؛ وبعضها بمثابة سير ذاتية لأمرء وملوك من شبه جزيرة اسكندنافية .

(٤١) *Yahya d'Antioche*, p. 168.

(٤٢) *Angold, Byz. Empire*, p. 2.

كانت هذه هي الوصية الإمبراطورية التي تفرض على الأباطرة البيزنطية رفض أي زيجة قد تحدث بين القبائل المجاورة ، ومنها السروس بطبيعة الحال ، وبين الأميرات البيزنطيات أو العكس ، وإذا تجرأ أحد الأباطرة وخالف هذه الوصية فسيكون ملعونا ومطرودا من الكنيسة . ولكن ماذا بقدر باسيل الثاني أن يفعل ، هل يعطى الفرصة لغيره برادس فوقاس ليخلع من العرش ويجلس مكانه أن يرضى بوصية القسطنطين بغيره جيوتس وبليسا ما يكون .

(¹¹) قسطنطين بورفيروجينيتوس، الإدارة، ص ٦٩-٧٠؛ *DAI*, I, pp. 70-73؛ رافت عبد الحميد، قواعد الدبلوماسية البيزنطية، المجلة التاريخية المصرية، ٣٣ (١٩٨٦)، ص ٤٨-٤٩؛ Whittow, *Byzantium*, p. 372.

(16) ⁽¹⁷⁾ ⁽¹⁸⁾ ⁽¹⁹⁾ ⁽²⁰⁾ ⁽²¹⁾ ⁽²²⁾ ⁽²³⁾ ⁽²⁴⁾ ⁽²⁵⁾ ⁽²⁶⁾ ⁽²⁷⁾ ⁽²⁸⁾ ⁽²⁹⁾ ⁽³⁰⁾ ⁽³¹⁾ ⁽³²⁾ ⁽³³⁾ ⁽³⁴⁾ ⁽³⁵⁾ ⁽³⁶⁾ ⁽³⁷⁾ ⁽³⁸⁾ ⁽³⁹⁾ ⁽⁴⁰⁾ ⁽⁴¹⁾ ⁽⁴²⁾ ⁽⁴³⁾ ⁽⁴⁴⁾ ⁽⁴⁵⁾ ⁽⁴⁶⁾ ⁽⁴⁷⁾ ⁽⁴⁸⁾ ⁽⁴⁹⁾ ⁽⁵⁰⁾ ⁽⁵¹⁾ ⁽⁵²⁾ ⁽⁵³⁾ ⁽⁵⁴⁾ ⁽⁵⁵⁾ ⁽⁵⁶⁾ ⁽⁵⁷⁾ ⁽⁵⁸⁾ ⁽⁵⁹⁾ ⁽⁶⁰⁾ ⁽⁶¹⁾ ⁽⁶²⁾ ⁽⁶³⁾ ⁽⁶⁴⁾ ⁽⁶⁵⁾ ⁽⁶⁶⁾ ⁽⁶⁷⁾ ⁽⁶⁸⁾ ⁽⁶⁹⁾ ⁽⁷⁰⁾ ⁽⁷¹⁾ ⁽⁷²⁾ ⁽⁷³⁾ ⁽⁷⁴⁾ ⁽⁷⁵⁾ ⁽⁷⁶⁾ ⁽⁷⁷⁾ ⁽⁷⁸⁾ ⁽⁷⁹⁾ ⁽⁸⁰⁾ ⁽⁸¹⁾ ⁽⁸²⁾ ⁽⁸³⁾ ⁽⁸⁴⁾ ⁽⁸⁵⁾ ⁽⁸⁶⁾ ⁽⁸⁷⁾ ⁽⁸⁸⁾ ⁽⁸⁹⁾ ⁽⁹⁰⁾ ⁽⁹¹⁾ ⁽⁹²⁾ ⁽⁹³⁾ ⁽⁹⁴⁾ ⁽⁹⁵⁾ ⁽⁹⁶⁾ ⁽⁹⁷⁾ ⁽⁹⁸⁾ ⁽⁹⁹⁾ ⁽¹⁰⁰⁾ ⁽¹⁰¹⁾ ⁽¹⁰²⁾ ⁽¹⁰³⁾ ⁽¹⁰⁴⁾ ⁽¹⁰⁵⁾ ⁽¹⁰⁶⁾ ⁽¹⁰⁷⁾ ⁽¹⁰⁸⁾ ⁽¹⁰⁹⁾ ⁽¹¹⁰⁾ ⁽¹¹¹⁾ ⁽¹¹²⁾ ⁽¹¹³⁾ ⁽¹¹⁴⁾ ⁽¹¹⁵⁾ ⁽¹¹⁶⁾ ⁽¹¹⁷⁾ ⁽¹¹⁸⁾ ⁽¹¹⁹⁾ ⁽¹²⁰⁾ ⁽¹²¹⁾ ⁽¹²²⁾ ⁽¹²³⁾ ⁽¹²⁴⁾ ⁽¹²⁵⁾ ⁽¹²⁶⁾ ⁽¹²⁷⁾ ⁽¹²⁸⁾ ⁽¹²⁹⁾ ⁽¹³⁰⁾ ⁽¹³¹⁾ ⁽¹³²⁾ ⁽¹³³⁾ ⁽¹³⁴⁾ ⁽¹³⁵⁾ ⁽¹³⁶⁾ ⁽¹³⁷⁾ ⁽¹³⁸⁾ ⁽¹³⁹⁾ ⁽¹⁴⁰⁾ ⁽¹⁴¹⁾ ⁽¹⁴²⁾ ⁽¹⁴³⁾ ⁽¹⁴⁴⁾ ⁽¹⁴⁵⁾ ⁽¹⁴⁶⁾ ⁽¹⁴⁷⁾ ⁽¹⁴⁸⁾ ⁽¹⁴⁹⁾ ⁽¹⁵⁰⁾ ⁽¹⁵¹⁾ ⁽¹⁵²⁾ ⁽¹⁵³⁾ ⁽¹⁵⁴⁾ ⁽¹⁵⁵⁾ ⁽¹⁵⁶⁾ ⁽¹⁵⁷⁾ ⁽¹⁵⁸⁾ ⁽¹⁵⁹⁾ ⁽¹⁶⁰⁾ ⁽¹⁶¹⁾ ⁽¹⁶²⁾ ⁽¹⁶³⁾ ⁽¹⁶⁴⁾ ⁽¹⁶⁵⁾ ⁽¹⁶⁶⁾ ⁽¹⁶⁷⁾ ⁽¹⁶⁸⁾ ⁽¹⁶⁹⁾ ⁽¹⁷⁰⁾ ⁽¹⁷¹⁾ ⁽¹⁷²⁾ ⁽¹⁷³⁾ ⁽¹⁷⁴⁾ ⁽¹⁷⁵⁾ ⁽¹⁷⁶⁾ ⁽¹⁷⁷⁾ ⁽¹⁷⁸⁾ ⁽¹⁷⁹⁾ ⁽¹⁸⁰⁾ ⁽¹⁸¹⁾ ⁽¹⁸²⁾ ⁽¹⁸³⁾ ⁽¹⁸⁴⁾ ⁽¹⁸⁵⁾ ⁽¹⁸⁶⁾ ⁽¹⁸⁷⁾ ⁽¹⁸⁸⁾ ⁽¹⁸⁹⁾ ⁽¹⁹⁰⁾ ⁽¹⁹¹⁾ ⁽¹⁹²⁾ ⁽¹⁹³⁾ ⁽¹⁹⁴⁾ ⁽¹⁹⁵⁾ ⁽¹⁹⁶⁾ ⁽¹⁹⁷⁾ ⁽¹⁹⁸⁾ ⁽¹⁹⁹⁾ ⁽²⁰⁰⁾ ⁽²⁰¹⁾ ⁽²⁰²⁾ ⁽²⁰³⁾ ⁽²⁰⁴⁾ ⁽²⁰⁵⁾ ⁽²⁰⁶⁾ ⁽²⁰⁷⁾ ⁽²⁰⁸⁾ ⁽²⁰⁹⁾ ⁽²¹⁰⁾ ⁽²¹¹⁾ ⁽²¹²⁾ ⁽²¹³⁾ ⁽²¹⁴⁾ ⁽²¹⁵⁾ ⁽²¹⁶⁾ ⁽²¹⁷⁾ ⁽²¹⁸⁾ ⁽²¹⁹⁾ ⁽²²⁰⁾ ⁽²²¹⁾ ⁽²²²⁾ ⁽²²³⁾ ⁽²²⁴⁾ ⁽²²⁵⁾ ⁽²²⁶⁾ ⁽²²⁷⁾ ⁽²²⁸⁾ ⁽²²⁹⁾ ⁽²³⁰⁾ ⁽²³¹⁾ ⁽²³²⁾ ⁽²³³⁾ ⁽²³⁴⁾ ⁽²³⁵⁾ ⁽²³⁶⁾ ⁽²³⁷⁾ ⁽²³⁸⁾ ⁽²³⁹⁾ ⁽²⁴⁰⁾ ⁽²⁴¹⁾ ⁽²⁴²⁾ ⁽²⁴³⁾ ⁽²⁴⁴⁾ ⁽²⁴⁵⁾ ⁽²⁴⁶⁾ ⁽²⁴⁷⁾ ⁽²⁴⁸⁾ ⁽²⁴⁹⁾ ⁽²⁵⁰⁾ ⁽²⁵¹⁾ ⁽²⁵²⁾ ⁽²⁵³⁾ ⁽²⁵⁴⁾ ⁽²⁵⁵⁾ ⁽²⁵⁶⁾ ⁽²⁵⁷⁾ ⁽²⁵⁸⁾ ⁽²⁵⁹⁾ ⁽²⁶⁰⁾ ⁽²⁶¹⁾ ⁽²⁶²⁾ ⁽²⁶³⁾ ⁽²⁶⁴⁾ ⁽²⁶⁵⁾ ⁽²⁶⁶⁾ ⁽²⁶⁷⁾ ⁽²⁶⁸⁾ ⁽²⁶⁹⁾ ⁽²⁷⁰⁾ ⁽²⁷¹⁾ ⁽²⁷²⁾ ⁽²⁷³⁾ ⁽²⁷⁴⁾ ⁽²⁷⁵⁾ ⁽²⁷⁶⁾ ⁽²⁷⁷⁾ ⁽²⁷⁸⁾ ⁽²⁷⁹⁾ ⁽²⁸⁰⁾ ⁽²⁸¹⁾ ⁽²⁸²⁾ ⁽²⁸³⁾ ⁽²⁸⁴⁾ ⁽²⁸⁵⁾ ⁽²⁸⁶⁾ ⁽²⁸⁷⁾ ⁽²⁸⁸⁾ ⁽²⁸⁹⁾ ⁽²⁹⁰⁾ ⁽²⁹¹⁾ ⁽²⁹²⁾ ⁽²⁹³⁾ ⁽²⁹⁴⁾ ⁽²⁹⁵⁾ ⁽²⁹⁶⁾ ⁽²⁹⁷⁾ ⁽²⁹⁸⁾ ⁽²⁹⁹⁾ ⁽³⁰⁰⁾ ⁽³⁰¹⁾ ⁽³⁰²⁾ ⁽³⁰³⁾ ⁽³⁰⁴⁾ ⁽³⁰⁵⁾ ⁽³⁰⁶⁾ ⁽³⁰⁷⁾ ⁽³⁰⁸⁾ ⁽³⁰⁹⁾ ⁽³¹⁰⁾ ⁽³¹¹⁾ ⁽³¹²⁾ ⁽³¹³⁾ ⁽³¹⁴⁾ ⁽³¹⁵⁾ ⁽³¹⁶⁾ ⁽³¹⁷⁾ ⁽³¹⁸⁾ ⁽³¹⁹⁾ ⁽³²⁰⁾ ⁽³²¹⁾ ⁽³²²⁾ ⁽³²³⁾ ⁽³²⁴⁾ ⁽³²⁵⁾ ⁽³²⁶⁾ ⁽³²⁷⁾ ⁽³²⁸⁾ ⁽³²⁹⁾ ⁽³³⁰⁾ ⁽³³¹⁾ ⁽³³²⁾ ⁽³³³⁾ ⁽³³⁴⁾ ⁽³³⁵⁾ ⁽³³⁶⁾ ⁽³³⁷⁾ ⁽³³⁸⁾ ⁽³³⁹⁾ ⁽³⁴⁰⁾ ⁽³⁴¹⁾ ⁽³⁴²⁾ ⁽³⁴³⁾ ⁽³⁴⁴⁾ ⁽³⁴⁵⁾ ⁽³⁴⁶⁾ ⁽³⁴⁷⁾ ⁽³⁴⁸⁾ ⁽³⁴⁹⁾ ⁽³⁵⁰⁾ ⁽³⁵¹⁾ ⁽³⁵²⁾ ⁽³⁵³⁾ ⁽³⁵⁴⁾ ⁽³⁵⁵⁾ ⁽³⁵⁶⁾ ⁽³⁵⁷⁾ ⁽³⁵⁸⁾ ⁽³⁵⁹⁾ ⁽³⁶⁰⁾ ⁽³⁶¹⁾ ⁽³⁶²⁾ ⁽³⁶³⁾ ⁽³⁶⁴⁾ ⁽³⁶⁵⁾ ⁽³⁶⁶⁾ ⁽³⁶⁷⁾ ⁽³⁶⁸⁾ ⁽³⁶⁹⁾ ⁽³⁷⁰⁾ ⁽³⁷¹⁾ ⁽³⁷²⁾ ⁽³⁷³⁾ ⁽³⁷⁴⁾ ⁽³⁷⁵⁾ ⁽³⁷⁶⁾ ⁽³⁷⁷⁾ ⁽³⁷⁸⁾ ⁽³⁷⁹⁾ ⁽³⁸⁰⁾ ⁽³⁸¹⁾ ⁽³⁸²⁾ ⁽³⁸³⁾ ⁽³⁸⁴⁾ ⁽³⁸⁵⁾ ⁽³⁸⁶⁾ ⁽³⁸⁷⁾ ⁽³⁸⁸⁾ ⁽³⁸⁹⁾ ⁽³⁹⁰⁾ ⁽³⁹¹⁾ ⁽³⁹²⁾ ⁽³⁹³⁾ ⁽³⁹⁴⁾ ⁽³⁹⁵⁾ ⁽³⁹⁶⁾ ⁽³⁹⁷⁾ ⁽³⁹⁸⁾ ⁽³⁹⁹⁾ ⁽⁴⁰⁰⁾ ⁽⁴⁰¹⁾ ⁽⁴⁰²⁾ ⁽⁴⁰³⁾ ⁽⁴⁰⁴⁾ ⁽⁴⁰⁵⁾ ⁽⁴⁰⁶⁾ ⁽⁴⁰⁷⁾ ⁽⁴⁰⁸⁾ ⁽⁴⁰⁹⁾ ⁽⁴¹⁰⁾ ⁽⁴¹¹⁾ ⁽⁴¹²⁾ ⁽⁴¹³⁾ ⁽⁴¹⁴⁾ ⁽⁴¹⁵⁾ ⁽⁴¹⁶⁾ ⁽⁴¹⁷⁾ ⁽⁴¹⁸⁾ ⁽⁴¹⁹⁾ ⁽⁴²⁰⁾ ⁽⁴²¹⁾ ⁽⁴²²⁾ ⁽⁴²³⁾ ⁽⁴²⁴⁾ ⁽⁴²⁵⁾ ⁽⁴²⁶⁾ ⁽⁴²⁷⁾ ⁽⁴²⁸⁾ ⁽⁴²⁹⁾ ⁽⁴³⁰⁾ ⁽⁴³¹⁾ ⁽⁴³²⁾ ⁽⁴³³⁾ ⁽⁴³⁴⁾ ⁽⁴³⁵⁾ ⁽⁴³⁶⁾ ⁽⁴³⁷⁾ ⁽⁴³⁸⁾ ⁽⁴³⁹⁾ ⁽⁴⁴⁰⁾ ⁽⁴⁴¹⁾ ⁽⁴⁴²⁾ ⁽⁴⁴³⁾ ⁽⁴⁴⁴⁾ ⁽⁴⁴⁵⁾ ⁽⁴⁴⁶⁾ ⁽⁴⁴⁷⁾ ⁽⁴⁴⁸⁾ ⁽⁴⁴⁹⁾ ⁽⁴⁵⁰⁾ ⁽⁴⁵¹⁾ ⁽⁴⁵²⁾ ⁽⁴⁵³⁾ ⁽⁴⁵⁴⁾ ⁽⁴⁵⁵⁾ ⁽⁴⁵⁶⁾ ⁽⁴⁵⁷⁾ ⁽⁴⁵⁸⁾ ⁽⁴⁵⁹⁾ ⁽⁴⁶⁰⁾ ⁽⁴⁶¹⁾ ⁽⁴⁶²⁾ ⁽⁴⁶³⁾ ⁽⁴⁶⁴⁾ ⁽⁴⁶⁵⁾ ⁽⁴⁶⁶⁾ ⁽⁴⁶⁷⁾ ⁽⁴⁶⁸⁾ ⁽⁴⁶⁹⁾ ⁽⁴⁷⁰⁾ ⁽⁴⁷¹⁾ ⁽⁴⁷²⁾ ⁽⁴⁷³⁾ ⁽⁴⁷⁴⁾ ⁽⁴⁷⁵⁾ ⁽⁴⁷⁶⁾ ⁽⁴⁷⁷⁾ ⁽⁴⁷⁸⁾ ⁽⁴⁷⁹⁾ ^{(480)</}

Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 71; Ostrogorsky, *Byz. State*, p. 269; Vasiliiev, *Old Russia*, p. 351; Angold, *Byz. Empire*, p. 2; Obolensky, D., "The Byzantine Sources on the Scandinavian in Eastern Europe", *Varangian Problems. Scando-Slavica, Supplementum* I., (Copenhagen, 1970), p. 162; Benediktz, *Varangian*, p. 23; Obolensky, *Cherson*, p. 244; Schumberger, *L'épopée*, p. 721.

ومما لا شك فيه أن هذا الطلب الروسى بزواج الأميرة أنا كان يفوق السلطات المخولة لأعضاء السفارة البيزنطية التي تتباحث مع فلاديمير في أمر النجدة العسكرية، ومن ثم كان لزاما على هذه السفارة أن تخبر الإمبراطور البيزنطى بطلب فلاديمير ، ويبدو أن باسيل الثانى عرض الأمر على أخته أنا إلا أنها رفضت مثل هذا الزواج فكيف لها أن تتزوج من وثى حتى ولو كان أميرا يحكم دولة بعينها^(٤٩) . وهكذا تعقدت الأمور أمام باسيل الثانى ، فلم يكن أمامه إلا أن يبعث إلى فلاديمير ليخبره بعدم جواز مثل هذا الزواج بين مسيحية ووثى وإن كان ولابد فعليه أن يقبل المسيحية ديناً له . ويبدو أن الأوامر حملت إلى أعضاء السفارة بأنه في حالة قبول فلاديمير المسيحية ديناً له تتم المعاهدة على أساس الموافقة على زواج أنا بورفيروجينيتا من فلاديمير مقابل إمداد الإمبراطور البيزنطى بالمدد العسكرى . ويؤكد هذا أبو شجاع بقوله : "ولم تنتعش المرأة من تسليم نفسها إلى من يخالفها في دينها وتردد من الخطاب في ذلك وانتهى إلى (ندخول) ملك الروسية في النصرانية وتمت الوصلة معه وهديت المرأة إليه^(٥٠) . وهكذا، نتقنا الأحداث إلى إشكالية معقدة وهى متى تزوج فلاديمير بالأميرة أنا وأين ؟ وكذلك هل تنصر فلاديمير على أيدي السفارة البيزنطية المرسلة إلى كيف؟ يؤكد المؤرخون العرب أمثال أبو شجاع وابن الأثير والدمشقى^(٥١) أن الزواج قد تم قبل إرساله القوافل الفارانية إلى القسطنطينية . ولكن كيف يبعث باسيل الثانى بأخته إلى كيف في موكب عرس والبلاد تنن تحت ضربات البلغار وتهديدات برداس فوقاس؟! كما أن الثابت من الأحداث التاريخية ، كما سنرى بعد قليل، أن الأميرة أنا لم تذهب إلى كيف مطلقاً في هذا العام ٩٨٨م بل ذهبت إلى خرسون في عام ٩٨٩م بصحبة حاشيتها وقصاوستها للقاء زوج المستقبل الأمير الروسى فلاديمير . وبهذا فقد سجل الكتاب العرب هذه الأحداث بنوع من التقديم للتاريخى للأحداث. أما فيما يتعلق بالتساؤل الآخر وهو هل تنصر فلاديمير على أيدي السفارة البيزنطية الموجودة فى كيف في بداية عام ٩٨٨م، فإن إحدى الساعات الاسكندنافية تذكر أن الهدف من هذه السفارة كان هدفاً دينياً بحتاً ، وأن الأسقف بولس كان معنياً بعميد فلاديمير فقط . لكن ظهرت عبارة في نص هذه الساعات تشير إلى أن مهمة الأسقف بولس كانت مهمة

(٤٩) أبو شجاع ، نيل تجارب الأمم ، ص ١١٦ .

(٥٠) أبو شجاع ، نيل تجارب الأمم ، ص ١١٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ١٢٧ ، النمشقى، نخبه الدهر ، ص ٢٦٢ .

(٥١) أبو شجاع ، نيل تجارب الأمم ، ص ١١٦ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ١٢٧ ، النمشقى، نخبه الدهر ، ص ٢٦٢ .

مزبوجة أى لتعميد فلاديمير وعقد معاهدة سياسية معه. ذلك أن الأسقف بولس عندما وصل إلى كييف لم يبدأ إجراءاته في الحال لكنه طلب التريث حتى يتقابل فلاديمير مع الأمير النرويجي أولاف. وقد لزمّت المصادر البيزنطية الصمت حيال هذه الأحداث لاسيما تعميد صهر المستقبل على يد أحد الأساقفة البيزنطيين. وهذا الصمت بطبيعة الحال يدعونا إلى الاعتقاد بأن ذلك اختلاق من هذه الساعات، لأن في حالة ما يكون تعميد فلاديمير عملاً بيزنطياً لن تصمت هذه المصادر حيال هذا الحدث التاريخي. وأخيراً سيكون أمراً غريباً استدعاء قس بيزنطي لتعميد فلاديمير بينما هناك الكثير من الفارانجيين والروس المسيحيين في كييف^(٥٢) وهم يتحدثون اللغة التي يجيدها فلاديمير، بينما بولس يتحدث اليونانية ! كما لا ينبغي أن ننفل أن الأمير أولاف صديق فلاديمير كان مسيحياً ؛ ولابد أن نضيف إلى كل ذلك أن الوقت كان عصيباً بالنسبة لبيزنطة، فالقسطنطينية قلب قوسين أو أدنى من السقوط في أيدي برداس فوقانس والبلقان في أيدي البلغار^(٥٣). على كل حال ، يذكر الكاهن يعقوب أن فلاديمير كان قد تنصر في عام ٩٨٧م ، وربما كان هذا بتشجيع من صديقه الأمير النرويجي أولاف

(٥٢) ورد ذكر للمسيحين الروس في مواضع كثيرة في معاهدة ٩٤٥م . انظر الفصل الأول من الباب الأول والجدير بالذكر أن بيزنطة كانت تلجأ إلى سياسة تعمير القبائل المجاورة كدأ من لوات القبولماسية . وعندنا الأمثلة كثيرة على ذلك كتعمير البلغار أو اللاتزيين Lazés ، والسترافي Tzani والأمميين Absgians والزخيين Zichians وغيرهم . انظر ،

Obolensky, D., " The Byzantine Frontier Zones and Cultural Exchanges ", *Actes du XIV^e Congrès International des Études Byzantines, (Bucharest, 1971)*, vol. I, (Bucharest, 1974), pp. 310-311.

انظر أيضاً : رافت عبد الحميد ، *الديبلوماسية* ، ص ٧٤-٧٨ . كما أنها سعت منذ الهجوم الروسي الأول على القسطنطينية في عام ٨٦٠م إلى التبشير بين الروس ، وذلك يعود إلى عهد البطريرك فوتيوس وإلى فترة حكم باسيل الأول (٨٦٧-٨٦٦م) أو على الأقل تغيير إلى عهد البطريرك اجناطيوس لفترة حكم ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) . عن الأصول الأولى للمسيحية بين الروس انظر ،

Cedrenus, II, 173; Zonaras, III, p. 404; Constantine Porphyrogenetus, *Vita Basilii*, in: *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, CSHB, (Bonnae, 1838), p. 196; Photii, Constantinopolitani Patriarchae, *Opera Omnia*, ed. J.P. Migne, PG, tome 102 , (Turnholi), cols. 735-736; Grégoire, H., "Études sur le neuvième siècle: Le baptême des russes. Photius n'a pas menti ", *B*, 8 (1933), pp. 515-550; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 57-59; Sorlin, *Les traités*, pp. 322-323; Fenelle, J., *A History of the Russian Church to 1448 A.D.*, (London, 1995), pp. 20-34; Shepard, J., "Some Remarks on the Sources for the Conversion of Rus' ", in: *S.W. Swierkosz-Lemart, ed., Le Origini e Lo sviluppo della cristianità à Slavo-Byzantina (Nuovi studi storici 17)*, (Rome, 1992), pp. 59-95; Honigmann, E., "Studies in Slavic Church History ", *B*, 17 (1945), pp. 128-182; Rambaud, *La Russie*, pp. 68-69. (٥٣) Baumgarten, *Olaf Tryggvason*, pp. 33-34.

تريجويزون^(٥٩) . وإذا كانت إشارة يعقوب الكاهن صحيحة فإن هذا يعني أن أولاف قد أبلغ الإمبراطور البيزنطي بهذا الحدث، وتؤكد هذه الإشارة على أن مهمة الأسقف بولس كانت مهمة دبلوماسية فقط . أما إرسال الإمبراطور البيزنطي إلى فلاديمير ردا على طلبه يد الأميرة آنا باستحالة حدوث هذا الزواج بين مسيحية ووثى إلا إذا تنصر فلاديمير ، فهو نوع من المرواغة الدبلوماسية فقط ، وهو ما ستؤكد صحته الأحداث التالية عندما يزحف فلاديمير نحو خرسون ويستولى عليها في عام ٩٨٩م، وهناك طالب الإمبراطور باسيل الثاني بالوفاء بتعهداته وإرسال الأميرة آنا إليه حسب الاتفاق المبرم بينهما في عام ٩٨٨م . وتشير موافقة الإمبراطور باسيل الثاني على تزويج أخته من الأمير الروسي فلاديمير إلى أن الأخير قد قبل الشرط البيزنطي وهو التحول إلى المسيحية، وليس بالضرورة أن يكون قد تم على أيدي البيزنطيين . كما أن هذا يعني أن فلاديمير قطع تعهدا على نفسه أمام أعضاء السفارة الدبلوماسية البيزنطية باعتناق المسيحية إذا لم يكن قد اعتنقها بالفعل مثل عام ٩٨٨م . وقد وردت رواية في الحولية الروسية قد تؤكد إشارة يعقوب الكاهن، وهي الرواية التي لم يربط المؤرخون بينها وبين إشارة يعقوب الكاهن .

يذكر الراهب نسطور أن فلاديمير في عام ٩٨٦م قرر اعتناق ديانة جديدة هو وشعبه، ولنفتراض أن هذا التحول عن الوثنية كان بتأثير من صديقه المسيحي الأمير أولاف النرويجي ، إذا كان هناك حتمية تسجيل تأثير أولاف على فلاديمير لاسيما وأن الإمبراطور البيزنطي اصطفاه هو بالذات للقيام بالمباحثات مع فلاديمير ومعه الأسقف البيزنطي بولس . ولنعد إلى رواية نسطور حيث يذكر أن فلاديمير وافته في هذا العام عدة بعثات دينية من قبل بلغار الفولجا الذين عرضوا عليه الإسلام ؛ والخزر الذين عرضوا عليه اليهودية ؛ والبابوية التي تدرت بعباءة ألمانية، عرضت عليه المسيحية الكاثوليكية . وقد رفض فلاديمير كل هذه البعثات الدينية وأبطل عروض أعضائها . ويمضي نسطور ويقول أن البيزنطيين أرسلوا له أحد رجال الدين وكان ليقا متفلسفا حسن المنطق استطاع إقناع فلاديمير أن المسيحية الأرثوذكسية هي خير الأديان قاطبة بعد أن استل أسلحته على أصحاب الديانات الأخرى. ويستمر نسطور ، بوزع بيزنطي واضح ، في عرض مزايا الديانة الجديدة وكيف كان فلاديمير يستفسر ويحتاج هذا الفيلسوف البيزنطي حتى تمكن الأخير من لب الأمير الروسي . وفي عام ٩٨٧م اجتمع فلاديمير بنبلاته واستشارهم في الأمر فقرروا جميعا إرسال بعثة روسية لمعاينة كل

(٥٩) نقلا عن :

Baumgarten, *Olaf Tryggvason*, p. 34.

ديانة من الديانات السابقة على أرض الواقع ، فخرجت البعثة إلى بلاد البلغار وعابنت على الطبيعة شعائرهم الإسلامية ثم عادت إلى كييف لتقص عليه ما رأت ، ثم أمر نفس البعثة بالذهاب إلى الألمان لاختبار المسيحية الكاثوليكية على الطبيعة ، ومنها يرجون إلى القسطنطينية لعمل نفس الشيء مع البيزنطيين واختبار المسيحية الأرثوذكسية . وبالفعل خرج أعضاء البعثة في طريقهم إلى ألمانيا ، وبعد مشاهدة مراسمهم الدينية بمواجهم شطر القسطنطينية ، وعندما وصلوا إليها وعلم الإمبراطور باسيل الثاني وأخوه قسطنطين بخبرهم بعث إليهم لمقابلته، وعندما حضروا بين يديه سألهم الإمبراطور عن سبب زيارتهم للقسطنطينية فأخبروه أنهم قد جاءوا لمعانة واختبار ديانتهم المسيحية ؛ وعلى الفور أرسل الإمبراطور البيزنطي إلى بطريرك القسطنطينية يخبره بأمر هذه البعثة وأن يستعد هو وهيئته من الكليروس لإقامة صلوات في آيا صوفيا يحضرها أعضاء البعثة الروسية^(٥٥) . وبالفعل تزين البطريرك بأبهى ما عنده وارتدى أفخم ما يملك من الملابس هو واكليروسه، وقد حضر أعضاء البعثة الروسية هذه الصلوات التي خلبت ألبابهم ببهائسها وموسيقاها وألحانها الكنسية إضافة إلى جمال آيا صوفيا الأخاذ . وهذا نستشفه من رد أعضاء البعثة على سيدهم فلاديمير عندما عادوا إليه يفصون عليه ما شاهدوه ، فقالوا له : " لم نكن ندري أننا على الأرض أم في السماء " وفي عبارة أخرى لهم قالوا : " لقد شعرنا هناك فقط أن الله يوجد بين البشر ، وأن طقوسهم أجمل من مراسم الأمم الأخرى ، حتى أننا لا نستطيع نسيان جمالها ... " ^(٥٦) . والآن ماذا تعني رواية نسطور هذه ؟ ألا تعني أن الجمود في العلاقات البيزنطية – الروسية قبل عام ٩٨٨م كان قد كسر على أثر مجئ العالم البيزنطي إلى كييف في عام ٩٨٦م وعودة البعثة الروسية من القسطنطينية إلى كييف في عام ٩٨٧م ؛ كما أنها تعني أن رواية يعقوب الكاهن عن تصوير فلاديمير في عام ٩٨٧م أصبحت الآن قريبة من الحقيقة ، إن لم تكن حقيقة بالفعل . أما مسألة تعميد فلاديمير بعد ذلك في خرسون ، كما سنرى بعد قليل ، في عام ٩٨٩م فما هي إلا مناورة سياسية بيزنطية . هكذا ، بناء على ما سبق يمكن القول أن رواية الساغا بأن هدف الأسقف بولس كان هدفا دينيا فقط ، أي تعميد فلاديمير رواية غير دقيقة، بل تؤكد كل الشواهد التاريخية أن هدف هذه السفارة كان هدفا

R.P.C., pp. 96-110.

^(٥٥) انظر،
^(٥٦) P.R.C., p. 111; Fenelle, *Russian Church*, pp. 35-37; Poppe, A., "The Political Background to the Baptism of Rus", *Byzantine Russian Relations between 986 - 89*", *DOP*, 30 (1976), p. 207; Schlumberger, *L' épopée*, pp. 706-710.

سياسيا وأن فلاديمير عرف طريقه إلى المسيحية قبل مجيء السفارة البيزنطية إلى كييف ؛ وإن كان تعميده قد أعلن في خرسون بعد ذلك في عام ٩٨٩م فلذلك ملايقات أخرى^(٥٧) .

والآن لنعد إلى الفرقة الفارانجية ذات السنة آلاف مقاتل التي ذهبت إلى القسطنطينية لتشد من أزر الإمبراطور باسيل الثاني . وصلت هذه الفرقة إلى العاصمة البيزنطية في عام ٩٨٨م وكانت هذه الفرقة تتميز بالقوة وشدة البأس^(٥٨) . ويضيف بعض المؤرخين المحدثين بطريق الخطأ ، أن فلاديمير كان على رأس هذه الفرقة ، بل إنه شارك في القتال ضد برداس فوقاس إلى جانب الإمبراطور باسيل الثاني وأخوه قسطنطين^(٥٩) . وفي الواقع، فإن هذا الرأي لا يستند إلى أى أساس من الصحة نظرا لخلو المصادر التاريخية من أية إشارة تاريخية لمثل هذا الحدث. كما أن الأحداث التالية، غزو فلاديمير لخرسون في عام ٩٨٩م ، تثبت بالدليل القاطع أن فلاديمير لم يكن على رأس هذه القوات ولم تطلأ قنماه القسطنطينية أبدا وإلا فإنه من باب أولى عندما حنت الإمبراطور باسيل الثاني بوعده له بتزويج أخته منه يقوم بمهاجمة القسطنطينية نفسها معتمدا على وجوده ببيزنطة على رأس فرقته الفارانجية الكبيرة العدد بدلا من أن يتجه بقواته نحو خرسون للاستيلاء عليها !

على أية حال ، تمكن الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني بفضل المساعدات الروسية من أن يدحر قوات برداس فوقاس في معركتين حاسمتين أولهما معركة خريسوبوليس في مارس من عام ٩٨٩م ، وثانيهما معركة أبيدوس في الثالث عشر من شهر أبريل من عام ٩٨٩م عند قم الهلسيونيت^(٦٠) ؛ وفي هذه المعركة سقط برداس فوقاس عن صهوة جواده ولم تقم له قائمة بعد ذلك بينما ولت جنوده الألبار ، وهكذا أسدل الستار على واحدة من أعنف الثورات الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استمرت ما يقرب من سنة وثمانية أشهر^(٦١) . وبعد انتصار الإمبراطور باسيل

(٥٧) يعتقد بعض المؤرخين المحدثين أن فلاديمير عمد في بداية عام ٩٨٨م ويستأنف في الأول من يناير . انظر ، Poppe, *The political background*, pp. 240-241; Fenelle, *Russian Chrukh*, p. 37; Vasiliev, *Old Russia*, p. 351.

(٥٨) أبو شجاع ، *ذيل تجارب الأمم* ، ص ١١٦ .

(٥٩) العيني ، *الدولة البيزنطية* ، ص ٥٣٥ ; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p.76;

(٦٠) عن النهاية المسماة لبرداس فوقاس انظر ، أبو شجاع ، *ذيل تجارب الأمم* ، ص ١١٦ - ١١٧ ; Angold, *Byz. Empire*, p. 2; Obolensky, *Byzantine Sources*, p. 162; Benediktz, *Varangian*, p. 23; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 76-78; Whitton, *Byzantium*, p. 373.

(٦١) العيني ، *الدولة البيزنطية* ، ص ٥٣٧ .

الثاني ظلت الفرقة الفارنجية تعمل في خدمة بيزنطة^(١٦) ، وتعكس الأهمية البالغة التي احتلها الفارانجيون في جيش باسيل الثاني في حصولهم على جزء كبير من الغنيمة البلغارية في عام ١٠١٦م^(١٧) .

والآن لتتعرف على الأحداث التي وقعت في شبه جزيرة القرم وبالتحديد في مدينة خرسون البيزنطية. ففي سنة ٩٨٨م حسب تاريخ الحولية الروسية، وهي المصدر الوحيد عن هذه الأحداث، قام الأمير الروسي فلاديمير بقيادة جيشه متوجها لحصار هذه المدينة في محاولة منه للاستيلاء عليها، حيث قاومه سكان المدينة بشدة. وفي الوقت الذي كان يحاصر فيه فلاديمير المدينة من جهة المرفأ أطلق أحد رجالها ويدعى أنستازيوس Anastasius سهما إلى معسكر الروس وقد كتب عليه : " توجد ينابيع خلفك صوب الشرق ينساب منها الماء في قنوات إلى المدينة، نقب عنها وقطعها " . وعلى الفور أعطى فلاديمير أوامره بسرعة للتقرب عن هذه القنوات. وقطعت إمدادات المياه عن المدينة ، حتى قهر العطش السكان فاستسلموا له^(١٨) .

جدير بالذكر أن هذا الجزء من الأحداث يشير إلى أن فلاديمير كان يصطحب قواته بالبحر من خلال نهر الدنيبر ومصباته ثم بحر بونتش حتى تدخل إلى مرفأ خرسون. ويعزو كاتب الحولية الروسية دخول فلاديمير إلى خرسون عن طريق الخيانة ، وأن سكانها ظلوا يقاومون بشدة لكنهم اضطروا للتسليم في نهاية الأمر عندما اشتد عليهم العطش . ويسقط خرسون في أيدي فلاديمير صار سيدا عليها وبدأ في مراسلة البلاط البيزنطي بل وتهديده للوفاء بتعهداته معه وإرسال الأميرة أنا إليه .

فقد أوفد رسالة إلى الإمبراطور باسيل الثاني يطالبه فيها بالوفاء بوعده بتزويج الأميرة أنا Anna له وإلا فإنه سوف يفعل بالقسطنطينية مثلما فعل بخرسون. وقد رد عليه الإمبراطور "بأنه لا يجوز للمسيحيات أن يتزوجن من الوثنيين، فلو تعمدت فسأفك سوف تتخذها زوجة لك ، وإذا لم تفعل هذا فلن نزوجك إياها " . وعندما علم فلاديمير بهذا الرد رد رسله مباشرة إليه ليخبروه بأنه يرغب في تلقى التعميد وأنه يولى اهتماما لديانتهم وأن العقيدة اليونانية وطقوسها ، مثلما وصفت له بواسطة المبعوثين المرسلين لمعاينتها ، قد سرته أيضا . وعندما سمع الإمبراطور هذا تهلت أساريره هو وأخوه قسطنطين ، وحثا أختهما على أن ترضى به رقيقا . وقد طلب الإمبراطور من فلاديمير أن يعتمد قبل أن يرسل إله أختهما . لكن فلاديمير أبدى رغبته في أن الأميرة

Ostrogorsky, Byz. State, p. 269.

Angold, Byz. Empire, p. 4.

R.P.C., pp. 111-112.

(١٦)

(١٧)

(١٨)

نفسها عليها أن تحضر الكهنة للقيام بذلك ، وهو ما تم بالفعل. فقد رحلت الأميرة أنا بورفيريوجينيتا من القسطنطينية إلى خرسون بصحبها بعض أصحاب المقام والكهنة. وعندما وصلت إلى خرسون جاء المواطنون لتحياتها وليصحبوها إلى المدينة حيث أنزلوها بالقصر^(١٥) .

وقد تعمد فلاديمير حينئذ على أيدي أسقف خرسون ومعه كهنة الأميرة ، وبالمثل تعمد الكثير من أتباعه أيضا ، وبعد التعميد اتخذ فلاديمير الأميرة زوجة له^(١٦). وعقب هذا مباشرة أسس فلاديمير كنيسة في وسط مدينة خرسون ، ثم أخذ الأميرة وأنستازيوس وكهنة خرسون جميعا معهم رفات القديس كليمنت *St. Clement* وفوبيوس *Phoebus* تابعه وبعض الأواني المقدسة وصورا للطقوس الدينية وتمثالين من البرونز وأربعة جياد برونزية أيضا وعاد إلى كييف بعد أن رد خرسون إلى الإمبراطور البيزنطي ثانيا كمبر للأميرة^(١٧) .

وهكذا تشير هذه الأحداث إلى السبب الذي من أجله غزا فلاديمير خرسون، والتي نستشف منها أن الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني قد حثت بعهده مع فلاديمير بأن يزوجه الأميرة أنا بورفيريوجينيتا مقابل قيام الأخير بتقديم الدعم العسكري إليه على وجه السرعة حتى يتمكن من قمع ثورة برداس فوقاس، وهذه هي شروط المعاهدة التي تم الاتفاق عليها بين الطرفين بواسطة السفارة البيزنطية التي ذهبت إلى كييف في بداية عام ٩٨٨ م . وقد رأينا أن الأمير الروسي فلاديمير قد وفى بوعده وأرسل فرقة فارانجية قوامها ستة آلاف مقاتل إلى القسطنطينية تمكن بها باسيل الثاني من قمع ثورة برداس فوقاس ، وكانت المعركة الحاسمة بينهما في آبيدوس في ١٣ إبريل من عام ٩٨٩ م . وجاء الدور على باسيل الثاني ليفي بعهده مع فلاديمير بعد أن انتضت المحنة البيزنطية وبيعته إليه بالأميرة أنا للزواج منه، إلا أن ما حدث كان عكس ذلك ! فقد تراجع باسيل الثاني عن إتمام باقي شروط اتفاهه مع فلاديمير ولم يرسل له الأميرة أنا ليتزوج منها، وكان لذلك ثلاثة أسباب، الأول : أن المحنة العvisية التي كانت تمر بها بيزنطة قد انتضت وتم التخلص من برداس فوقاس ، الذي كان قاب قوسين أو أدنى من الدخول إلى القسطنطينية ، وبالتالي لم تعد هناك حاجة للتضحية بالأميرة أنا المولودة في الأرجوان على مذبح كييف ؛ ثانيا : من الواضح تماما أن الأميرة أنا كانت ترفض

R.P.C., pp. 112-113.

R.P.C., p. 113.

R.P.C., p. 116.

(١٥)

(١٦)

(١٧)

مثل هذا الزواج الذي يجمع بين أميرة بيزنطية ولدت في الأرجوان الإمبراطوري وبين رجل وثى يشتم بالبربرية ، من وجهة النظر البيزنطية ، حتى ولو كان أميرا على الروس . وتعكس رواية نسطور هذا الرفض^(٢٨) حيث قام أخويها باسيل الثاني وقسطنطين بمحاولة لإقناعها بالزواج منه لدرء الخطر الروسى عن القسطنطينية ، الذى كان يعضده وجود ستة آلاف فارانجى فى بيزنطة ، ولنيل شرف تمديد الروس وإدخالهم إلى فلك الكنيسة البيزنطية؛ ثالثا : وصية الإمبراطور قسطنطين السابع التى تركها لخلفائه فى كتابه عن الإدارة الإمبراطورية ، والتى تشير إلى عدم زواج الأميرات البيزنطيات من الوثنيين أو العكس وأن من يخالف ناموس الإمبراطورية من الأباطرة يعتبر خارجا على المسيحية ، وتحل عليه اللعنة ، لأنه خالف ناموس الأجداد وتشريعات الإمبراطورية، ومما يؤكد أن باسيل الثاني وضع وصية قسطنطين السابع نصب عينيه هو الرد الذى بعث به إلى فلاديمير فى خرسون ردا على طلب الزواج من أنا بورفيريوجنيتا حيث قال له : "بأنه لا يجوز للمسيحيات أن يتزوجن من الوثنيين. فلو تمعدت فإنها ستصبح زوجة لك .."^(٢٩) . وهذا الرد يكاد يتطابق مع ما قاله قسطنطين السابع فى الرد على أمراء القبائل المجاورة عندما يخطبون ود القصر البيزنطى ويطلبون الزواج من إحدى أميراته ، حيث قال: "... مثل هذا الطلب يمكنك الاعتراض عليه بهذه الكلمات قائلا : " بأن هذا الأمر له أيضا عهد ووصية موثوق بها للإمبراطور المقدس قسطنطين . وهذا العهد محفور على المنضدة المقدسة فى كنيسة المسيحيين ، أى كنيسة آيا صوفيا ، وقد ورد فيها أنه يحرم على أى إمبراطور روماني أن يعقد تحالفا عن طريق الزواج مع أمة تختلف تقاليدها عما جيل عليه الرومان وتتعارض معها لاسيما إذا كانت هذه الأمة وثنية ولم تمعد "^(٣٠) .

وهكذا استنادا إلى الأسباب التى تم عرضها رفض الإمبراطور البيزنطى باسيل الثاني زواج أنا بورفيريوجنيتا من الأمير الروسى فلاديمير وحنث بوعده له . ويبدو أن فلاديمير انتظر بضعة أشهر عقب القضاء على ثورة برداس فوقاس منتظرا وصول الأميرة أنا، إلا أن انتظاره طال فأدرك أن الأمر ما هو إلا مناورة دبلوماسية

(٢٨) قد رجحت أنا وهى فى تردد من أمرها وأرثت نفسها بالقول " إذا ما بدا لى فى سارزح فى الجودية قاموت فى الوطن أفضل لى " . لكن احتج أخوها قائلين : " من خلاك سيحول الله أرمس الروس نحو التوبة وسوف تريحين بال اليونان (أى بيزنطة) من خطر حرب شنيمة ، ألم ترين إلى أى مدى ألقى الروس الأذى باليونانيين ؟ إذا لم تبدأ رحلتك ربما جلبوا إلينا نفس الحظ العثر " . على هذا النحو تغلبوا على ترددها بصعوبة بالغة. انظر، R.P.C., pp. 112-113.

(٢٩) R.P.C., p. 112.

(٣٠) DAI, I, pp. 70-73; Whittow, Byzantium, p. 372.

من البلاط البيزنطي ، فكان هذا دافعا شديدا له للقيام بغزو مدينة خرسون البيزنطية وهو ما كشفت عنه رواية نسطور^(٧١) . ولكن هل كان رفض الإمبراطور باسيل الثاني زواج أخته الأميرة أنا بورفيروجينيتا من الأمير الروسي فلاديمير هو الدافع الوحيد لقيام الأخير بغزو خرسون ؟ .

للإجابة على هذا السؤال لابد أن نعروض لوجهة نظر المؤرخ البولندي أندريه بوب *A. Poppe* الذي يقترح، بتوكيد منه ، أن فلاديمير قام بغزو مدينة خرسون البيزنطية حسب اتفاق مسبق مع الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني، نظرا لأن هذه المدينة أعلنت ولاءها للتائر برداس فوقاس، أو بقول آخر تمكن برداس فوقاس من فرض سيادته على خرسون وكسبها إلى صفه؛ ولما كانت هذه المدينة ذات أهمية سياسية واقتصادية بالنسبة لبيزنطة فكان لابد من إعادتها إلى فلك السيادة البيزنطية مرة ثانية وإن اضطر الأمر للجوء إلى الروس الذين كان يمتثلهم البيزنطيون^(٧٢) . ويدعم بوب نظريته بثلاثة براهين أساسية :

أولا : براهنه الكرونولوجي ، فقد تمكن باسيل الثاني بفضل الفرقة الفارنجية من دحر برداس فوقاس في معركة خريسيوليس وألبوس، وتاريخ المعركة الأولى غير محدد، بينما المعركة الثانية دارت في ١٣ أبريل من عام ٩٨٩م. وفي ذلك الوقت استولى فلاديمير على خرسون تقريبا . ويصل بوب إلى هذا التاريخ من خلال اجتماع بعض الأدلة التاريخية على ظاهرة سماوية وهي مذنب هالي ، مثبتة عند ليولشماس ويحيى الأنطاكي والمؤرخ الأرمني آتني أسوليك الطاروني *A. Asoghik de Tarone* . وعلى هذا يشهد بوب بأنه 'من الصعب أن نقبل الوضع الذي كان فيه جنود فلاديمير يحاربون من أجل باسيل الثاني في نفس الوقت الذي كان فيه فلاديمير ينظم حملته ضد هذا الإمبراطور ويحاصر خرسون ، لكي يضمن حقه في الزواج من أخت الإمبراطور'.

ثانيا : براهنه الاقتصادي ، حيث يعتمد على الروابط الاقتصادية التي تربط خرسون وساحل آسيا الصغرى الشمالي في القرن العاشر الميلادي ، والموصوفة جيدا في الفصل الثالث والخمسين من كتاب الإدارة الإمبراطورية ، الذي يرد فيه بأنه 'لو لم يستطع سكان خرسون أن يستوردوا القمح من الولايات الواقعة على هذا الساحل فإنهم

^(٧١) R.P.C., p. 112; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 78-79; Court, *La Russie*, pp. 116-118; Obolensky, *Cherson*, p. 245.

^(٧٢) Poppe, *The political background*, pp. 211-224, 228-229, 239; Obolensky, *Cherson*, pp. 246-247.

" لن يستطيعوا العيش" (٧٣) . ومن هنا كان الدافع لبوب كى يقول أن "أيا كان من امتلك السيادة على الولايات الواقعة على ساحل البحر الأسود فقد امتلك المفتاح لخرسون " . ومنذ ذلك الحين فى عام ٩٨٧ ، ٩٨٨ م ، كان مغتصب العرش بىرداس فوقاس قد امتلك" الأسباب الاقتصادية" . ويقول بوب ثانية أنها كانت كافية من أجل اعتراف خرسون بسيادة الحاكم الفعلى لآسيا الصغرى عليها" .

ثالثا : برهانه الثالث الذى ساقه لنا ويعتمد على النص السوارى فى معاهدة ٩٤٥م المبرمة بين القسطنطينية وكييف ، وبالتحديد إلى الفقرة التى تخص خرسون والتى يرد فيها : " فيما يتعلق بإقليم خرسون وكل المدن الواقعة فى نطاقه فليس من حق أمير الروس أن يغير على هذه المواضع ، ولن يكون هذا الإقليم خاضعا لكم . وإذا طلب أمير الروس منا جنودا ليشن حربا ، فنحن موافقون على تزويده بأى عدد يطلبه" (٧٤) وقد سبق القول فى موضع آخر من البحث انه تم تصحيح عبارة "ولن يكون هذا الإقليم خاضعا لكم" من قبل المؤرخين المحدثين لتصبح " وإذا كان هذا الإقليم غير خاضع لنا" (٧٥) . وهذا البرهان يعنى أنه إذا ثارت خرسون وأقاليمها ضد السلطة الإمبراطورية العليا فباستطاعة أمير الروس للتدخل عسكريا بتعضيد بيزنطى لإعادة الأمور إلى نصابها ثانية فى خرسون لصالح الإمبراطور البيزنطى (٧٦) .

وعلى الرغم من هذه الأسانيد الثلاثة التى اعتمد عليها بسوب فى نظريته الخاصة بغزو فلاديمير لمدينة خرسون البيزنطية ، إلا أن المؤرخ الإنجليزي المشهور ديمترى أوبولنسكى تصدى مؤخرا فى عام ١٩٨٩م لهذه النظرية وأثبت عدم صحة نظريته فى كثير من مواضعها (٧٧) . وقد خلص أوبولنسكى ، من خلال رده على بوب، إلى أن خرسون قد سقطت فى أيدي فلاديمير بعد ٢٥ أكتوبر من عام ٩٨٩م (٧٨) وليس كما يعتقد بومجارتن بعد شهر أبريل وقبل منتصف يوليو من نفس العام (٧٩) ، أو كما

(٧٣) انظر ،

(٧٤)

(٧٥) انظر الفصل الأول من البحث ص ٣٤-٣٥ .

(٧٦) Poppe, *The political background*, pp. 201-244; Obolensky, *Cherson*, pp. 246 - 247.

(٧٧) اعتقد أنه من المبعث أن نعيد عرض الدلائل التى استخدمها أوبولنسكى هنا مرة ثانية، وسأكتفى بعرض النتيج التى توصل إليها Obolensky, *Cherson*, pp. 244-256 .

(٧٨) Obolensky, *Cherson*, p. 252 .

(٧٩) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 78.

يذهب بوب بين ٧ أبريل و ٢٧ يوليو من نفس العام أيضاً^(٨٠). ومن المحتمل ، من وجهة نظر أوبولنسكى ، أن يكون حصار فلاديمير لخرسون كان قد بدأ فى صيف عام ٩٨٩م ، نظراً لأن فلاديمير ينتقل بقواته عبر نهر الدنيبر ، الذى يتجمد فى الشتاء ويبدأ فى الذوبان مع بداية الربيع ، ومن مصبات الدنيبر إلى شبه جزيرة القرم . ويحدد أوبولنسكى أكثر من ذى قبل تاريخ حصار فلاديمير لخرسون ويقول انه امتد من صيف ٩٨٩م وحتى أواخر شتاء أو بداية ربيع عام ٩٩٠م ، وبهذا التاريخ يكون من الصعب أن نأخذ برواية بوب أن قوات فلاديمير حاربت فى القسطنطينية وفى خرسون فى أن واحد لصالح الإمبراطور باسيل الثانى ، نظراً لوجود فترة عامين تقريباً بين تاريخ إرسال السنة آلاف فرانجى إلى القسطنطينية وبين غزو فلاديمير لخرسون . ومن هذا المنطلق يؤكد أوبولنسكى فكرة غزو فلاديمير لخرسون رداً على حث الإمبراطور باسيل الثانى بوعده له بتزويج الأميرة أنا بورفيروجينيتا منه^(٨١) . وعلى الرغم من الأدلة والتفسيرات التى يسوقها أوبولنسكى لتفنيد البرهان الثانى الدال على نظرية بوب وهو الخالص بالعلاقات الاقتصادية بين خرسون ومدن ساحل آسيا الصغرى الشمالى ، إلا أنه لم ينتبه إلى دليل هام ورد فى كتاب الإدارة الإمبراطورية كفىل بمفرده أن يفند البرهان الثانى لبوب؛ لكن قبل أن نعرض لنص قسطنطين بورفيروجينيتوس دعونا نعرض لرد أوبولنسكى على هذه الجزئية باختصار شديد . فهو يرى أن لو كان بوب على حق فى هذه النقطة لوجب علينا أن نصدق أن ثورة بوداس فوكاس قد انتشرت عبر آسيا الصغرى فى غضون بضعة أسابيع من صيف عام ٩٨٧م ، وأن سكان مدينة خرسون كانوا مقتنعين أن ينضموا إلى جانبه . وقد علمت الإدارة البيزنطية فى القسطنطينية بهذه الحقيقة قبل إرسال سفارتها إلى كييف فى أواخر ذلك العام أو على أدنى تقدير ، كما يشير البعض ، فى بداية عام ٩٨٨م . وعلينا أن نتخيل تحركاً عسكرياً سريعاً وقرارات فورية فى القسطنطينية ولكن كل هذا غير جائز^(٨٢) . وبعد أن عرضنا لראى أوبولنسكى علينا أن نضيف إليه نص قسطنطين

Poppe, *The political background*, p. 212.

Obolensky, *Cherson*, pp. 252-253.

Obolensky, *Cherson*, p. 25 .

(٨٠)

(٨١)

(٨٢)

بورفيروجينيتوس المتعلق بالإجراءات التي ينبغي أن تتخذ في حالة خروج خرسون عن طوع القسطنطينية حيث يقول : " .. إذا حدث وثار مواطنو مدينة خرسون أو شقوا عصا الطاعة على الإمبراطورية، فإن كل سفنهم الراسية في القسطنطينية تصادر بحمولتها ويتم اعتقال البحارة والمسافرين وإيداعهم في السجن، ويرسل الإمبراطور ثلاثة مندوبين ، أحدهما إلى ثيم الأرمنياق وثانيهما إلى ثيم بافلاجونيا وثالثهما إلى ثيم البقلاز للاستيلاء على سفن الخرسونيين الراسية هناك ومصادرتها بحمولتها واعتقال من عليها وإيداعهم في السجن وإرسال تقرير بذلك إلى الإمبراطور . وفوق هذا ، على هؤلاء المندوبين منع السفن التابعة لثيمي بافلاجونيا والبقلاز وينطس من التوجه نحو مدينة خرسون وهي محملة بالقمح أو النبذ أو أى سلع أو بضائع أخرى ، كما ترسل الأوامر إلى استراتيجوس خرسون لحجب العشرة جبهات الذهبية التي تمنحها الخزنة العامة لمدينة خرسون وجنوبيين من الضرائب . وعلى الاستراتيجوس أن ينسحب من المدينة ويتخذ له مقاما في إحدى المدن الأخرى^(٨٦) . هذه الإجراءات التي نص عليها قسطنطين بورفيروجينيتوس والتي يعيها البلاط البيزنطي تماما ، لم نقرأ في المصادر البيزنطية المعاصرة، لاسيما ليو الشماس، عن حدوثها مع الخرسونيين في الفترة من عام ٩٨٨-٩٨٩م . الأمر الذي يدل على عدم وقوع عصيان أو تمرد ضد الإمبراطور البيزنطي بها، كما أنه ينفي انضمامها إلى الثائر برداس فوقاس كما يدعى بوب . وبما أن التجارة تمثل عصب الحياة بالنسبة لخرسون، كما يتضح من نص قسطنطين بورفيروجينيتوس^(٨٦)، فليس من السهل أن يضحي الخرسونيون بسفهم التجارية وشحناتها في سبيل مناصرة برداس فوقاس، وليس من السهل عليهم أن يتعرضوا لمثل هذه الإجراءات العنيفة التي تتخذ معهم ، والتي كانت بطبيعة الحال مطلوبة لهم. أخيرا ، فيما يتعلق ببرهان بوب الثالث ، المتعلق بالفقرة الواردة في اتفاقية ٩٤٥م الخاصة بخرسون يذكر أويولنسكي أن سفناتوسلاف قد قطع على نفسه عهدا في اتفاقية ٩٧١م المبرمة بينه وبين يوحنا تريمسكس ألا يهاجم مدينة خرسون أو الممتلكات البيزنطية

DAI, I, pp. 286-287.
Court, La Russie, p. 116 .

(٨٦)
(٨٦) انظر أيضا :

الأخرى فى منطقة القرم . وأنه من غير المعقول أن بيزنطة التى تعلق بالغ اهتمامها بخرسون ومنطقة القرم تسمح بكل سهولة للأمير الروس أن يدخلها ، وبعد أن كافحت وصدت الكثير من الشعوب بعيدا عنها^(٨٥) . على أية حال استنادا إلى كل ما سبق ، يؤكد أوبولنسكى على أن غزو فلاديمير إنما نبع من حنث الإمبراطور باسيل الثانى بوعده بتزويج الأميرة آنا منه ، الذى لم يكن سهلا عليه أن يضحي بأميرة بورفيروجنيتا^(٨٦) . وبالرغم من براعة أوبولنسكى فى الرد على بوب إلا أنه يوجد دليل ثان على أن أضيفه إلى جملة ما ساقه أوبولنسكى ، مستقى من الحولية الروسية الأولى نفسها . فتحت أحداث عام ٩٨٩م يذكر نسطور أن فلاديمير عزم على بناء كنيسة يهبها إلى العذراء المقدسة فى كييف واستقدام كهنة من بيزنطة إليها وأنه قد عهد بأمر هذه الكنيسة إلى أنستازيوس الخرسونى^(٨٧) . وهنا يرد ذكر لأنستازيوس المقاتل الخائن الذى أرشد فلاديمير إلى كيفية إسقاط خرسون . وهذا يعنى أن فلاديمير اصطحب أنستازيوس معه إلى كييف بعد أن أعاد خرسون إلى بيزنطة ثانية . وهنا يبرز لنا تساؤل إذا كان أنستازيوس خائنا لبرداس فوقاس ، فلماذا يذهب إلى كييف على الرغم من زوال خطر برداس فوقاس ؟ والعكس قد يبدو صحيحا، أى أنه ما دام أصبح خائنا لبيزنطة، بمساعدته فلاديمير ، كان عليه أن يبحث عن يسبغ عليه حمايته من الوقوع تحت طائلة القانون العسكرى البيزنطى . ومن هنا انطلق إلى كييف مع سيده الجديد الأمير الروسى فلاديمير ليتمتع بحمايته ونعمته . وهذا الدليل الأخير جاء ليؤكد أن غزو فلاديمير لخرسون لم يكن برضى من الإمبراطورية البيزنطية، أو حسب اتفاق مسبق بين الإمبراطور باسيل الثانى والأمير الروسى فلاديمير كما يعتقد بوب، بل وقع نتيجة أسباب بعينها أو لنقل بسبب عدم وفاء الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى بوعده للأمير الروسى فلاديمير بتزويج الأميرة آنا بورفيروجنيتا منه . ويعتقد أحد المؤرخين المحدثين أن فلاديمير كان يريد فتح طريق جديد إلى بيزنطة بعيدا عن سيطرة البشناق

Obolensky, *Cherson*, pp. 254 - 255.
Obolensky, *Cherson*, pp. 255 - 256.
R.P.C. , p. 119.

(٨٥)

(٨٦)

(٨٧)

على طريق الدنيبر، لذلك اتجه إلى خرسون^(٨٨)، ومما يدعم هذا أن فلاديمير زار بعد ذلك الجزء الشرقي من القرم وإمارة تموتوراكان أيضا^(٨٩).

على أية حال، علينا العودة ثانية إلى رواية الراهب الروسي نستور عن غزو فلاديمير لمدينة خرسون، والإشارة إلى نقطة أخرى هامة وهي أن فلاديمير جاء إلى خرسون من جهة المرفأ. وإذا كانت الدبلوماسية البيزنطية قد أثارت مسألة تعمد فلاديمير مرة ثانية حتى تحول دون إتمام الزواج، إلا أن فلاديمير انتبه لهذه الحيلة ولم يمانع في إعلان تعميده في خرسون على أيدي كهنة بيزنطيين وحسب الطقس البيزنطي. وبهذا لم يعد لدى البلاط البيزنطي أية حيلة يتخذها سبيلا لعرقله زواج الأميرة أنا من فلاديمير، وكان على الإمبراطور باسيل الثاني وأخوه قسطنطين أن يبعثا بالأميرة أنا إلى خرسون لإتمام زواجهما من فلاديمير حتى وإن أبت، وبالفعل ذهبت الأميرة أنا في نهاية المطاف بصحبها كهنتها وحاشيتها إلى خرسون للقاء فلاديمير وإتمام زواجهما منه. وفي مقابل وفاء الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني بتمعه بتزويج الأميرة أنا من فلاديمير قام الأخير ببرد خرسون ثانية إلى الإمبراطورية البيزنطية كمهر لزوجته. وقد رحلوا جميعا إلى كييف بعد أن تمت مراسم الزواج في خرسون^(٩٠).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن لماذا وافق باسيل الثاني على طلب فلاديمير الزواج من أنا بورغريوجنيتا، بالرغم من معارضة الأخيرة؟ وعلى الرغم أيضا من أن باسيل الثاني كان قد سحق ثورة برداس فوقاس ولم يعد هناك تهديد داخلي يهدد عرشه، هل كان للتهديد الذي أطلقه فلاديمير بغزو القسطنطينية أيضا في حالة الامتناع عن الاستجابة لطلبه هذا التأثير الذي دفع باسيل الثاني للاستجابة لمطلب فلاديمير؟

^(٨٨) Frances, E., "Les relations russo- byzantines au XII^e siècle et la domination de Galicie au Bas-Danube", *BsL*, 20 (1959), p. 50.

^(٨٩) Vernadsky, *Crimea*, p. 252.

^(٩٠) Baumgarten, *Chronologie*, pp. 27-28; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 88;

Udal'cova, Z., "Kiev and Constantinople: Cultural Relations before the Thirteenth Century", *The 17th. International Byzantine Congress, Washington 3-8 August 1986*, (New York, 1986), p. 403; Le Clerc, *Histoire*, p. 161.

اعتقد أنه بدراسة الظروف التاريخية التي مرت بها الإمبراطورية عقب قمع ثورة برداس فوقاس نتضح لنا الأسباب التي دفعت باسيل الثاني وأخاه قسطنطين إلى إرسال أختهما آنا بورفيروجينا إلى فلاديمير في خرسون رغم معارضتها .

لقد تعرضت الإمبراطورية لموجة جديدة من العواصف السياسية التي أتت عليها من الداخل والخارج في آن واحد . فقد أطلقت زوجة برداس فوقاس سراح برداس سكيلروس ، الذي كان زوجها قد أودعه قلعها تحت الحراسة ، ليستكمل مسيرة الثورة ضد باسيل الثاني^(٩١)، وقد تجمع حوله كل الحاقدين على الأسرة المقدونية وبقياء جيش برداس فوقاس وأصدقائه. وبهذا شق برداس سكيلروس عصا الطاعة على الإمبراطور باسيل الثاني، ودارت مناوشات عسكرية بينهما، إلا أن سكيلروس تجنب الدخول في معركة حاسمة مع باسيل الثاني. وقد ركز سكيلروس على قطع إمدادات التموين عن القسطنطينية حتى تسقط في يده . وهنا أدرك باسيل الثاني ضرورة التعامل مع برداس سكيلروس حتى يتجنب خطره القادم نحو العاصمة^(٩٢) . أما الخطر الخارجي الذي كان يهدد بيزنطة فقد جاء من البلقان على أيدي البلغار ففي علم ٩٨٩م استولى البلغار بقيادة صمويل البلغاري على مدينة بيريوييا *Berrhoea* ، الواقعة بين التلال السفحية لمقدونيا، وولحدة من أمنع الحصون التي تحرس الطريق إلى تسالونيك، وصار واضحا أن ميناء تسالونيك الكبير كان هدفا لطموحات صمويل الحالية، وبعد سقوط بيريوييا قام البلغار بقيادة ديمتريوس بوليمارخيوس *Demetrius Polemarchius* نائب صمويل بعمل خدعة عسكرية للبيزنطيين للاستيلاء على حصن صربيا (سلفيدجي *Selfidji*)^(٩٣) . وقد وقعت هذه الأحداث في نفس الوقت الذي

^(٩١) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 82.

^(٩٢) Cedrenus, II, p. 446; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 82-83.

^(٩٣) Runciman, *Bulgarian Empire*, pp. 226-227.

Runciman, *Bulgarian Empire*, pp. 217-252.

عن نشاط صمويل ضد بيزنطة ، انظر ،

غزا فيه فلاديمير مدينة خرسون البيزنطية، بشهادة ليو الشماس نفسه^(٩٤).

هذه هي الأخطار التي أهدقت بالإمبراطورية البيزنطية في عام ٩٨٩م والتي كانت تستوجب قتال البيزنطيين في كل جبهة من هذه الجبهات، لكن نظراً لأن الدبلوماسية البيزنطية كانت حريصة على عقد سلام في جبهة لحيث الانتهاء من القتال في الجبهة الأخرى^(٩٥)، هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى فإن الأسباب التي دفعت فلاديمير إلى غزو خرسون كانت معلومة للبلاط البيزنطي جيداً، وكانت الاستجابة إلى مطالبه أقل خسارة لبيزنطة مما يحدث في البلقان. ولا غرو، فقد استجاب بأسهل الثاني وأخوه قسطنطين لمطالب فلاديمير وأرسل إليه أختهم أنا بورفيروجنيا للزواج من، وبهذا يمكن لبيزنطة أن تتفرع لجبهة البلقان بعد استمالة برداس سكليروس. على أية حال، يمكن القول أن غزو فلاديمير لخرسون لم يكن خسارة لبيزنطة بقدر ما كان مكسباً بعيد المدى لها، فقد سارت الكنيسة الروسية الابنة الأثيرة لدى كنيسة القسطنطينية، التي كانت ترسل لها أساقفتها وكهناتها من القسطنطينية؛ كما أن أواصر النسب بين القسطنطينية وكيف قد ضمنت لبيزنطة درء الخطر الروسي بصورة نهائية لا عن شبه جزيرة القرم فحسب بل عن القسطنطينية أيضاً؛ وضمنت من ناحية ثانية عدم قيام تحالف بين الروس والبلغار ضد بيزنطة.

والآن يمكننا القول أن العلاقات الروسية - البيزنطية في عهد فلاديمير قد انتهت عند هذا الحد من الناحية السياسية. أما عن الناحية الدينية فطلت العلاقات بينهما مستمرة طوال عهده وحتى انفراد ابنه ياروسلاف Yaroslav بالحكم من بعده، وقد بدأ فلاديمير بعد ذلك يولي وجهه شطر الممالك الأوربية المجاورة له بصفة خاصة، لاسيما بولندا، اسكندنافيا، الكروات وغيرهم.

لقد شن فلاديمير حملة على ملك بولندا، المسمى ميسزيسلاف Mieczyslaw في عام ٩٩٢م، ونجح فلاديمير في دخول بولندا واحتلال بعض مدنها مثل بيرميشل Permychl، وتشيرفين Tcherven ومدن أخرى^(٩٦). وتتحدث إحدى المدونات

^(٩٤) Leo Diaconus, pp. 175-176.

^(٩٥) رافت عبد الحميد، الدبلوماسية، ص ٧٠.

^(٩٦) Baumgarten, Saint Vladimir, p. 50.

التاريخية عن أن فلاديمير بعد أن هزم ملك بولندا أجبره على عقد اتفاقية سلام معه، وفيها تنازل لفلايدير عن خمس مدن وتعهد بأن يدفع جزية سنوية له^(٩٧). ومن المعروف أن بلاد الروس كانت تجاور مملكة بولندا في ذلك الوقت^(٩٨). ولا نعرف الأسباب الحقيقية التي دفعت فلاديمير للقيام بهذه الحملة على ملك بولندا، إلا أنه من المحتمل أنه كان يهدف إلى مساعدة التشيك ضده^(٩٩)، مدفوعاً بأواصر النمب التي تربط بينه وبين التشيك وملك بوهيميا. فقد كان فلاديمير متزوجاً من امرأة تشيكية من البيت الحاكم^(١٠٠)، كما كان ملك بوهيميا نفسه، المدعو بوليسلاف الثالث *Boleslas III*، ابن بوليسلاف الثاني، متزوجاً من ابنة فلاديمير المدعوة بريسلاف *Predeslava*؛ وقد عادت هذه الحملة ظافرة إلى كييف محملة بالغنائم والأسرى^(١٠١). وفي العام التالي على حد ذكر بومجارتين، أو في نفس العام على حد ذكر الحولية الروسية الأولى، قام فلاديمير بغزو الكروات^(١٠٢)، ولا تقدم لنا المصادر أسباباً لهذا الغزو. وقد كان الكروات إحدى العناصر السلافية التي تعيش في بوكوفينا *Bukovina* وشرق غاليسيا *Galicia* بعد أن تحرك الجزء الرئيسي منهم صوب أقصى الجنوب؛ وهم ليسوا من العناصر الروسية مطلقاً^(١٠٣).

وبعد غزو فلاديمير لبولندا بخمس سنوات، أي في عام ٩٩٧م، تخبرنا الحولية الروسية الأولى أن السلام خيم على الجميع. وقد عاش فلاديمير في سلام مع بوليسلاف *Boleslav*^(١٠٤) ملك بولندا آنذاك؛ وستغن *Stephen*^(١٠٥) ملك المجر؛ وأودالريتش *Udalerich*^(١٠٦) ملك بوهيميا^(١٠٧)؛ ويبدو من رواية نسطور أن ملك بولندا

Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 50.

^(٩٧)

^(٩٨) الأديسي، نزعة المشتاق، ص ٩٠٣.

Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 115.

^(٩٩)

Baumgarten, N., "Généalogies et mariages occidentaux des Rurikides Russes du X^e au XIII^e siècles", *OC*, IX, 35 (1972), p. 68.

^(١٠٠)

Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 115.

^(١٠١)

R.P.C., p. 119; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 113, 116; Karamsin, *Histoire*, p. 275.

^(١٠٢)

R.P.C., p. 231, n. 3.

^(١٠٣)

R.P.C., p. 251, n. 112.

^(١٠٤) حكم في الفترة من ٩٩٢-١٠٢٥م، انظر،

R.P.C., p. 251, n. 112.

^(١٠٥) حكم في الفترة من ٩٩٧-١٠٣٨م، انظر،

R.P.C., p. 251, n. 112.

^(١٠٦) حكم في الفترة من ١٠١٢-١٠٣٤م، انظر،

الجديد بوليسلاف خليفة ميتسزيسلاف ، أثر العيش في سلام مع فلاديمير ، بل إن سفياتوبولك الأول ابن فلاديمير أمير كييف ، تزوج في عام ١٠١٣م من ابنة بوليسلاف ملك بولندا^(١٠٨) .

أما عن العلاقات بين فلاديمير والبابوية في روما ، فالمعلومات التاريخية ضئيلة للغاية بحيث لا تسمح بتكوين صورة شاملة عنها يمكن من خلالها التعرف على دوافع هذه العلاقات . ويذكر بومجارتن ، نقلا عن أحد المصادر الروسية المتأخرة من القرن السادس عشر ، أن البابا يوحنا الخامس عشر (٩٨٥-٩٩٦م) أرسل سفارة إلى فلاديمير في خرسون في عام ٩٨٩م وكانت تحمل معها رفات بعض القديسين^(١٠٩) ، وعلى الرغم من صمت المصادر الغربية حيال هذه السفارة إلا أنها ذات أهمية بالغة حيث كانت الفاتحة لعلاقات متبادلة بين الطرفين^(١١٠) . فقرأ عن وصول سفارة من البابا يوحنا الخامس عشر إلى كييف ، قوبلت بالحب والترحاب في عام ٩٩١م ؛ وهو العام الذي أرسل فيه فلاديمير أيضا سفيرا إلى البابا ، وقد عاد هذا السفير إلى كييف ثانية في عام ٩٩٤م^(١١١) . وفي عام ١٠٠٠م وصل إلى كييف مبعوثون من قبل البابا ، وفي العام التالي ١٠٠١م أرسل فلاديمير رسلا إلى البابا في روما^(١١٢) ، وكما سبق القول أن الشواهد التاريخية لا تدفعنا إلى معرفة الدوافع وراء هذه العلاقات . لكن ينبغي ألا نفهم هذه العلاقات على أنها نوع من الصراع الروحي بين روما والقسطنطينية على كنيسة كييف . فالروس لم يحموا أنفسهم حتى ذلك الوقت في الصراع بين هاتين الكنيستين على السيادة الروحية ، بل إن فلاديمير كان ميالا نحو الكنيسة البيزنطية . وليس أدل على ذلك من أن الكنائس التي بناها في بلاده حملت معظمها أسماء قديسين بيزنطيين واسم آيا صوفيا ؛ كما أن مجموعة قوانينه الدينية

R.P.C., p. 122. (١٠٧)
Baumgarten, *Généalogie*, p. 71. (١٠٨)
Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 87; Baumgarten, *Chronologie*, p. 28. (١٠٩)
Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 87. (١١٠)
Baumgarten, *Chronologie*, pp. 29-31 . (١١١)
Baumgarten, *Chronologie*, p. 32 . (١١٢)

استنقاها من القوانين الكنسية البيزنطية^(١١٣). ومن المحتمل أن أول مطران لبلاد الروس كان بيزنطياً ويدعى ليو، تولى منصبه في عام ٩٩١م^(١١٤)، على الرغم من أن أول ظهور رسمي في المصادر الروسية لمطرانة روسية كان في عام ١٠٣٩م، عندما رُسم المطران ثيوبمبوس *Theopemptos* مطراناً في كنيسة الخراء الرحمة بكريف والتي أسسها فلاديمير قبل ذلك الوقت^(١١٥).

على أية حال، لم تقف علاقات فلاديمير بالغرب الأوروبي عند هذا الحد بل نقرأ عن علاقات بينه وبين ألمانيا أيضاً، فقد تزوج أحد الأمراء الألمان ويدعى برنارد ماركجراف النوردماركي *Bernard Markgrave of Nordmark* من إحدى بنات فلاديمير. كما أن أحد أبناء فلاديمير تزوج من فتاة من أوينجن *Oeningen* ابنة للكونت كونو *Cuno*^(١١٦). وقد امتد الزواج من ألمانيا إلى فلاديمير نفسه، فبعد وفاة الأميرة آنا بورفيروجنيثا في عام ١٠١١م^(١١٧) تزوج فلاديمير آخر زوجاته وكانت ابنة للإمبراطور الألماني أوتو العظيم، وهي التي أنجب منها بنتاً فيما بين عامي ١٠١٢م و ١٠١٥م وكانت تدعى دوبرونيجا *Dobronega*^(١١٨). ولم تقتصر العلاقة بألمانيا عند حد المصاهرات فقط، بل امتدت إلى العمل التبشيري. فقد وصلت بعثة دينية إلى كريف برئاسة الراهب برون *Brun* من كويرفورت *Querfurt* في عام ١٠٠٧م، وقد أقام هذا الراهب في قصر فلاديمير لمدة شهر، وانتقل بعد ذلك برون إلى التبشير بين البشناق، أعداء فلاديمير الأعداء، وقضى بينهم ما يقرب من خمسة أشهر، وقد ذكر برون أنه تفاوض معهم بالنيابة عن فلاديمير لمقعد معاهدة بينهم وبين فلاديمير^(١١٩).

^(١١٣) R.P.C., p. 119; Baumgarten, *Chronologie*, pp. 27-32; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 94-99; Pares, *Russia*, p. 30; Le Clerc, *La Russie*, pp. 169-171; Tyszkiewicz, S., "Moralistes de Russie", *OCF*, 15 (1949), p. 349.
^(١١٤) Vasiliev, *Old Russia*, p. 352.
^(١١٥) R.P.C., p. 138.
^(١١٦) Baumgarten, *Généologie*, p. 67.
^(١١٧) R.P.C., p. 124; Karamsin, *Histoire*, p. 283.
^(١١٨) Baumgarten, *La dernier mariage*, p. 166.
ينبغي أن نلاحظ أن هذا الزواج لم يتم في عهد أوتو العظيم نفسه، الذي توفي في عام ٩٧٣م، ومن ثم فلا يمكن اعتباره زواجا سياسياً بين بيتين حاكمين، ومع هذا فهو يدعم العلاقة بين البلدين.
^(١١٩) Cross, S., "Medieval Russian Contacts with the West", *SP*, 10 (1935), p.140.

أما محور ارتكاز سياسة فلاديمير مع أوروبا فكان سياسته مع اسكندنافيا . وليس أدل على ذلك من أن غالبية زوجاته كن من هناك ؛ وتتوغل ما بين نساء عاديّات وأميرات . فتذكر بعض المدونات التاريخية أن فلاديمير بعد توليه عرش مدينة نوفجورود تزوج من أميرة اسكندنافية تدعى أولافا ^(١٢٠)Olawa ، ومن المحتمل أن دوبراينا خال فلاديمير كان وراء هذا الزواج ، سعيًا منه لتأمين عرش ابن أخته؛ لهذا عمل على ربطه بموطن رأس أمه مالوشا الاسكندنافية الأصل ^(١٢١) . كما تزوج فلاديمير أيضاً من أميرة اسكندنافية أخرى تدعى أدلاجسو *Adlague* ، ومن سيده اسكندنافية أخرى تدعى مالفريد *Malfreda* ^(١٢٢) .

وفي الواقع ، فإن سفياتوسلاف عندما ولي فلاديمير على عرش نوفجورود لم يدر بخلفه أنه قد سعى لربط ابنه بموطن رأس أمه ، ونظراً لأن مدينة نوفجورود كانت تحوي خليطاً من الفارانجيين والروس على حد سواء وأنها أولى المحطات الشمالية الواقعة على الطريق الكبير المؤدى إلى الشرق، فقد كانت مطروقة للفارانجيين بلاد قيود؛ وعلى الرغم من أنها تقع في الأراضي الروسية، إلا أن بتولي فلاديمير حكمها صار قلبها بين ضلوع فارانجية . كل هذه الظروف التاريخية والزيجات الاسكندنافية لفلاديمير أعطته عوناً ودعمًا عسكرياً تمكن به من الاستيلاء على كييف نفسها بل ويصبح أميراً عظيماً للروس . أما عن علاقة فلاديمير بمملكة النرويج فهي ترجمة لعلاقته وصدافته الحميمة لأولاف تريجويزون الذي صار ملكاً على النرويج في عام ٩٩٥م، وتعود أواصر الصداقة بين الاثنين إلى الفترة التي كان فيها فلاديمير حاكماً على نوفجورود ، وهي الفترة التي جاء فيها أولاف إلى بلاد الروس وكان لا يزال صبيًا. وقد بدأت الصداقة بينهما على أثر اهتمام أولاف بفلاديمير ، بعد قتله لأحد القراصنة ويدعى كليركون *Clircon* ، فقام فلاديمير بدفع فدية لأهل القتل بينما انضوى أولاف في خدمة فلاديمير ، فشارك معه في نشاطاته العسكرية؛ وبلغت إقامة

^(١٢٠) Baumgarten, *Généologie*, p. 68; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 38.

^(١٢١) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 38.

^(١٢٢) Baumgarten, *Généologie*, p. 68.

أولاف في بلاد الروس ما يزيد على العشر سنوات قضاها على مرتين^(١٢٣). ونظراً لأن أولاف نال الحظوة عند فلاديمير فإنه من المحتمل أن فلاديمير ساعده في الحصول على عرش النرويج ، وهو ما تم بالفعل في عام ٩٩٥، ومعنى هذا أن الاستعدادات الحربية لأولاف للاستيلاء على عرش النرويج قد تمت في بلاد الروس^(١٢٤). وفي عام ٩٩٧م نقراً عن إغارة قام بها الأمير النرويجي إيريك *Eric* على السواحل الروسية الواقعة على البحر البلطي مخرباً مدينة لادوجا *Ladoga*، ويعزو أحد المؤرخين هذا الهجوم إلى روابط الصداقة التي تربط بين فلاديمير وأولاف ، والتي بفضلها تمكن أولاف من الاستيلاء على عرش النرويج^(١٢٥). وجدير بالذكر أن الأمير إيريك وأخاه قد ناصبا أولاف تريجويزون العدا بعد اغتيال أبيهما الجارك هاقون *Hacon* في عام ٩٩٥م، وقد ظل الصراع بينهم مشتتاً على العرش حتى مصرع أولاف في معركة سفولدر *Svolder* في فاندلاند *Vandland* عام ١٠٠٠م^(١٢٦). على أية حال ، بعد قيام إيريك بهجومه على لادوجا لتصرف بقواته عن بلاد الروس بعد أن هب له فلاديمير وتصدى له ، وعاد إلى بلاده لاستكمال صراعه مع غريمه أولاف تريجويزون^(١٢٧).

على هذا النحو كانت سياسة فلاديمير مع القوى الأوروبية المجاورة ، والتي يتضح منها أنه كان ميالاً إلى الغرب كميل أبيه سفياتوسلاف إلى الشرق ، كما أنه لم يكن تواقفاً لقتال البيزنطيين كتهج أبيه ، أو توسيع رقعة بلاده على حساب القوى المجاورة، وهي السياسة التي انتهجها الأمراء الروس الأوائل أمثال أوليج وإيجور وسفياتوسلاف، فقد جمعت هؤلاء الأمراء الثلاثة الرغبة في الاستيلاء على ما بأيدي جيرانهم ، بغض النظر عن مدى تناسب هذه السياسة مع الأوضاع السائدة حولهم؛ لكن فلاديمير جاء بسياسة مغايرة لهم ، فتمادى في علاقاته مع البيوت الحاكمة حوله كيولندا

^(١٢٣) Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 16-17, 40-41; Baumgarten, *Olaf Tryggvason*, pp. 17-25.

^(١٢٤) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 117; Baumgarten, *Olaf Tryggvason*, p. 9.

^(١٢٥) Baumgarten, *Olaf Tryggvason*, pp. 17-18; Karamsin, *Histoire*, p. 284.

^(١٢٦) Baumgarten, *Olaf Tryggvason*, p. 9.

^(١٢٧) Karamsin, *Histoire*, p. 284.

واسكندنافيا وألمانيا وبوهيميا والمجر بل ومع الكروات أنفسهم والتشيك، أما بيزنطة فلم يرغب في القتال معها ، والمرّة الوحيدة التي غزا فيها أراضي بيزنطية كانت بسبب عدم وفاء الإمبراطور باسيل الثاني بوعد له بتزويج الأميرة آنا بورفيروجينا منه، وما أن نال عرضه أعاد خرسون مرة ثانية إلى الإمبراطورية البيزنطية .

أيا كان الأمر ، تخبرنا الحولية الروسية الأولى أن فلاديمير قد مرض ومات في عام ١٠١٥م، بعد أن كتب عليه أن يشهد ثورة ابنه ياروسلاف عليه قبل مماته^(١٢٨)، ومما ينبغي الإشارة إليه أن فلاديمير كان قد قسم حكم الإمارات الروسية بين أبنائه في أثناء حياته ، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى صراع دام بينهم عقب موت أبيهم^(١٢٩) .

والآن وقد رقد جثمان فلاديمير في مثواه الأخير واشتعل الصراع بين الأبناء على العرش . فقد اعتال سفياتوبولك *Svyatopolk* ، ابن فلاديمير وأمير إمارة توروف *Tourov*^(١٣٠) ، أخويه الشقيقين بورييس وجلب واعتصب عرش كييف . وعلى الفور أرسلت بريدسلافا *Predestlava* أخت ياروسلاف أمير نوفجورود رسالة تخبره فيها بما حدث، فقالت له : "رحل أبوك وقتل أخواتك" . وما أن وصلت الرسالة إلى ياروسلاف حتى فض نزاعا كان قد نشب بين النوفجوروديين وجنوده الفارانجيين^(١٣١) وتوجه بقواته نحو كييف لمقابلة سفياتوبولك في ميدان الوغى في جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من نوفجورود وألف مقاتل فارانجي^(١٣٢) . وعندما علم سفياتوبولك أن ياروسلاف في الطريق إليه، أعد جيشا كبيرا من الروس والبشناق^(١٣٣) وسار صوب مدينة لوبيتش *Lyubech* الواقعة على إحدى ضفتي نهر الدنيبر وعسكر عندها؛ وقد وصل ياروسلاف الآن إلى الضفة نهر الدنيبر المقابلة لمدينة لوبيتش وعسكر في مواجهة سفياتوبولك، المربض على الضفة الأخرى للنهر، ولم يجرؤ أي من الطرفين

^(١٢٨) R.P.C. , p. 124; Baumgarten, *Chronologie*, p. 33; Karamsin, *Histoire*, pp. 285-286 .

^(١٢٩) انظر ، R.P.C., pp. 124-131; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 93-94; Le Clerc, *La Russie*, p. 168.

^(١٣٠) Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 93.

^(١٣١) *The Chronicle of Novgorod 1016 - 1471*, Eng. Trans. R. Michell and N. Forbs, (London, 1914), pp. 1-2 .

^(١٣٢) *Chron. Novgorod*, p. 1 .

^(١٣٣) R.P.C., p. 131.

على بدء الهجوم لمدة ثلاثة أشهر^(١٢٤). ثم بدأ أحد قادة سفياتوبولك ويدعى ذيل الذئب *Wolf's tail* يتحرش بالتوفجوروديين من قوات ياروسلاف موجهاً الإهانات لهم، وانتهى الأمر بأن عبر ياروسلاف وقواته إلى الضفة الأخرى للنهر ودفعوا القوارب بعيداً عن الشاطئ وتأهبوا للمعركة الحاسمة ليلاً؛ ودارت رحى القتال بين الطرفين وكانت اليد العليا لياروسلاف والنصر حليفاً له، بينما فر سفياتوبولك إلى اللياخيين، بعد أن خذله البشناق في المعركة^(١٢٥). وفي الوقت الذي تذكر فيه حولية نوفجورود أن سفياتوبولك هرب إلى البشناق^(١٢٦) تذكر الحولية الروسية الأولى أنه هرب إلى الليخيين (أي إلى الأراضي البولندية)^(١٢٧). إلا أن ما تذكره الحولية الروسية هو الصحيح، لأنه لا يعقل أن يلجأ سفياتوبولك في ذلك الوقت إلى من خذله في المعركة. ومن ناحية أخرى، فإن الأحداث التالية، والتي يستعين فيها سفياتوبولك بملك بولندا، تثبت أنه هرب إليه وليس إلى البشناق. على كل حال، نجح ياروسلاف في دخول كييف وتنصيب نفسه أميراً عليها وعلى بلاد الروس جميعاً. وبدأ في توزيع المكافآت على جنوده بمقدار عشر جريفات للضابط، وجريفنا واحدة للجندي من بين صفوف الفارانجيين، أما التوفجوروديين فقد وزع عليهم المكافآت بمقدار عشر جريفات لكل فرد منهم، ثم سمح لهم بالعودة إلى نوفجورود^(١٢٨). على هذا النحو انتهت هذه المرحلة من الصراع الدخلى بين أبناء فلاديمير وانتهت بلجوء سفياتوبولك إلى صهره بوليسلاف ملك بولندا، يطلب منه العون العسكري لاسترداد كييف من أيدي ياروسلاف، بينما أصبح ياروسلاف أميراً على البلاد في مارس من عام ١٠١٧م^(١٢٩).

ويبدو أن ياروسلاف قد أغار على الأراضي البولندية في ذلك العام، لأننا نقرأ عن ذهابه إلى إحدى المدن البولندية وتسمى بيرستي *Beresti*^(١٣٠). وفي عام ١٠١٨م تهب رياح الانتقام من بولندا على كييف، وتأتي الأبناء إلى ياروسلاف بتحريك ملك بولندا بوليسلاف ومعه رعاياه من الليخيين وبصحبة زوج ابنته سفياتوبولك صوب كييف لقتاله، فقام ياروسلاف بحشد قواته من الروس والفارانجيين والسلاف

(١٢٤) R.P.C., p. 131; Chron. Novgorod, p. 1.
(١٢٥) R.P.C., p. 131-132; Chron. Novgorod, pp. 1-2.
(١٢٦) Chron. Novgorod, p. 2.
(١٢٧) R.P.C., p. 132.
(١٢٨) Chron. Novgorod, p. 2.
(١٢٩) R.P.C., p. 253, n. 131.
(١٣٠) Chron. Novgorod, p. 2.

وخرج للقائهم . لكن كانت الغلبة لملك بولندا وسفياتوبوك ، فهرب ياروسلاف إلى إمارة نوفجورود ليتحصن بها لحين إعادة تجهيز الجيش لقتال سفياتوبوك^(١٤١) .

وهنا دخل ملك بولندا بوليسلاف إلى كييف ، وأسر أفراد عائلة ياروسلاف وزوجته وأخواته وأرملة أبيه فلاديمير^(١٤٢) . ويبدو أن بوليسلاف قد عاد إلى بلاده بعد أن أعاد تنصيب سفياتوبوك على عرش كييف . لكن الملاحظ هنا أن بوليسلاف قد استغل الفرصة جيدا التي واثته لفرض هيمنته على عرش كييف عن طريق زوج ابنته سفياتوبوك . ولا يمكننا الجزم ، هل كانت لاتصالات بوليسلاف مع الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني لإقامة أوامر الصداقة بين البلدين دور في هذا أم لا ؟^(١٤٣) .

وفي عام ١٠١٩م تقدم ياروسلاف بجيش كبير من نوفجورود صوب مدينة كييف وتمركز عند نهر ألثا ، أحد فروع التروبش ، لحين وصول سفياتوبوك الذي جاءه ومعه قوة كبيرة من البشناق . والتقى الجيشان عند سهل نهر ألثا ثلاث مرات حتى طغت الدماء في الوادي . وقرب المساء انهزمت قوات سفياتوبوك الذي فر من الميدان إلى أرض الليخين حيث مات في المنطقة المقررة الواقعة بين بولندا وبوهيميا^(١٤٤) . وهكذا انتهى الصراع بين الأخوين وأصبح ياروسلاف أميرا لا على كييف فحسب بل على كل بلاد الروس^(١٤٥) . كما أن ملك بولندا فقد حصانه الرابع الذي كان يقامر عليه في كييف ولم يعد يملك سبلا للرد على ياروسلاف ثانية وحتى وفاته .

وفي عام ١٠٣١م قام الأمير الروسي العظيم ياروسلاف بالاشتراك مع أخيه مستسلاف *Mstislav* بغزو بولندا ، على أثر ثورة نشبت هناك في عام ١٠٣٠م . فقد ثار البولنديون وقتلوا الكثير من نبلائهم وكهنتهم وأساقفتهم^(١٤٦) في عهد ميسكو الثاني *Mieszko II* ١٠٣٤م^(١٤٧) . ودخلت القوات الروسية بولندا واستولت على مدينة

^(١٤١) R.P.C., p. 132.

^(١٤٢) *Thietmari Merseburgensis Episcopi Chronicon*, ed. F. Kurze, Lib. IX, (Hannoverae, 1889), p. 258; Baumgarten, *La dernier mariage*, p. 166; Halecki, O., "La pologne et l'empire byzantine", B, 7 (1932), p. 44 .

^(١٤٣) Halecki, *La pologne*, p. 44.

^(١٤٤) R.P.C., p. 133; Pares, *Russia*, p. 30 .

^(١٤٥) R.P.C., p. 135 .

^(١٤٦) R.P.C., p. 136 .

^(١٤٧) R.P.C., p. 257, n. 158 .

تشيرفن *Cherven* مخربة الريف البولندي، وقد أسروا كثيراً من البوليين *Poles* الذين وزعهم ياروسلاف على ولاياته المختلفة^(١٤٨). ولا تقدم لنا المصادر التاريخية شواهد تاريخية تسمح باستنتاج الأسباب التي دعت ياروسلاف إلى أن يغزو بولندا ومع هذا يمكننا أن نفترض إما أنه غزا بولندا كرد فعل لغزو ملكها بوليسلاف لكيف وعزله لياروسلاف من قبل، أو أن ميسزكو الثاني ملك بولندا ربما استعان به لإخماد ثورة البلاد خاصة ما سنراه من تقارب بعد ذلك بين كازيمير *Casimir* ابن ميسزكو الثاني وياروسلاف نفسه. فقد تزوج كازيمير نحو عام ١٠٣٨م من الأميرة ماري دوبرونيجا *Marie-Dobroniega* أخت ياروسلاف وابنة فلاديمير من زوجته الألمانية، ابنة أوتو العظيم^(١٤٩). وكهنية للزواج قام كازيمير بتسليم الأسرى الروس الذين كان بوليسلاف قد أسرهم عند دخوله كيف بصحبة زوج ابنته سفياتوبولك، وكان عددهم ثمانمائة أسير^(١٥٠).

على كل حال، لم تقف العلاقات الروسية - البولندية عند حد زواج كازيمير الأول، ملك بولندا ١٠٤٠ - ١٠٥٨م، من الأميرة ماري دوبرونيجا الروسية بل نقراً عن زواج آخر تم في عام ١٠٤٣م بين إزياسلاف *Izyaslav* بن ياروسلاف وبين الأميرة جبرثرود البولندية *Gertrude* ابنة ميسزكو الثاني^(١٥١). ومن هذه الزيجات السياسية التي تمت بين البيتين الحاكمين في كيف وبولندا يمكننا القول أن كلاً من الطرفين كان بحاجة إلى الآخر، لاسيما وأن هذا الزواج الأخير قد تم في العام الذي شن فيه الروس حملة على القسطنطينية. ويذكر المؤرخون أن زواج كازيمير من أخت الأمير الروسي ياروسلاف كان يهدف إلى تقوية مركز الأمير البولندي في بلاده على أثر الثورة الشعبية التي قامت في البلاد في عام ١٠٣٤م وأطاحت به^(١٥٢). ومما

تذكر الحولية الروسية (*R.P.C.*, p. 136) خطأ أن الثورة قامت بعد وفاة بوليسلاف مباشرة في عام ١٠٣٠م. لكن الصحيح أن بوليسلاف مات في عام ١٠٢٥م، وأن هذه الثورة نشبت في عهد ميسزكو الثاني^(١٤٨) في عام ١٠٣٤م. انظر، *R.P.C.*, p. 257, n. 158. ^(١٤٩) *R.P.C.*, p. 136. ^(١٥٠) *R.P.C.*, p. 139; Baumgarten, *Généologie*, p. 71; Pares, *Russia*, p. 32; Rambaud, *La Russie*, p. 63. ^(١٥١) *R.P.C.*, pp. 138-139. ^(١٥٢) Baumgarten, *Généologie*, p. 71. ^(١٥٣) *R.P.C.*, p. 261, n. 176. تولى كازيمير الأول الحكم بعد وفاة أبيه ميسزكو الثاني، وكان لا يزال قاصراً، فتولت الوصاية عليه أمه ريتشيزا *Richeza*، ابنة أخ أوتو الثالث، إمبراطور ألمانيا. وقد أطاحت به ثورة شعبية نشبت في البلاد، فر على أثرها من البلاد، وتمكن بمساعدة هنري الثالث، إمبراطور ألمانيا، أن يسترد عرشه في عام ١٠٤٠م، وحكم بولندا حتى توفي في عام ١٠٥٨م. انظر، *R.P.C.*, p. 257, n. 158.

يؤكد حرص كازيمير الأول على حسن علاقاته بالأمير الروسي ياروسلاف أننا نقرأ عن هجوم قام به ياروسلاف على إحدى القبائل التي تدعى المازوفيان *Mazovians* ، والتي تخضع لسلطان كازيمير، في عام ١٠٤٦م-١٠٤٧م . وقد تمكن ياروسلاف من إخضاع المازوفيين وقتل أميرهم المسمى مويستلاف *Moislav* وأخضعهم ثانية لسلطان كازيمير^(١٥٣) . وهكذا لولا المصاهرة السياسية التي تمت بين بولندا وكيف ما كان لكازيمير أن يستعين بياروسلاف ضد أعدائه. وإذا كان ياروسلاف قد حرص على كسب بولندا إلى صفه في عهد كل من ميسزكو الثاني وابنه كازيمير الأول، فإنه أيضاً كان حريصاً على تقوية علاقاته مع الدول الأوربية، أو يقول آخر أن ياروسلاف انتهج نهج أبيه فلاديمير في سياسته الغربية، بل عمل على تقويتها عن طريق المصاهرات العائلية مع الأسر الحاكمة في هذه الدول . ففي عام ١٠٤٣م تزوج فلاديمير أمير نوفجورود من إدا *Ida of Ehlstorp* الاسكتوبية ، وفي عام ١٠٥٠م تزوج سفياتوسلاف الثاني بن ياروسلاف من ابنة الكونت إيثلير *Ethler* الألمانية^(١٥٤) . وبطبيعة الحال فإن مثل هذه الزيجات ذات الطابع السياسي مع أسر ألمانية عريقة ، كانت تهدف إلى توطيد العلاقات السياسية بين كيف وبين ألمانيا، أو لإحداث توازن بين العلاقات الروسية - الألمانية والعلاقات البولندية - الألمانية .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نقرأ عن زيجات سياسية تمت بين آل أرباض المجرين *Arpades* وبين كيف . فقد تزوج لاديسلاس الأول *Ladislav I* ملك المجر من الأميرة بريمسلاف الكيفية، كما تزوج أندرو الأول *Andrew I* ملك المجر من الأميرة أناستازيا *Anastasia* الكيفية في عام ١٠٤٦م^(١٥٥) . ولا تمدنا المصادر التاريخية بالشواهد التي تساعدنا على معرفة الأسباب التي دفعت بكيف والمجر إلى إتمام مثل هذه الزيجات السياسية، لكن يمكننا القول أن مثل هذه الزيجات السياسية قد أقرت الأوضاع الأمنية على الحدود الروسية مع الممالك والدول المجاورة . وفي سلسلة المصاهرات السياسية بين كيف والدول الأوربية المجاورة قام ياروسلاف بالموافقة على زواج الأميرة أنا *Anna* الكيفية من الملك هنري الأول (١٠٣١-١٠٦٠م) ملك فرنسا، وقد تم هذا الزواج في التاسع عشر من شهر مايو من عام

R.P.C., p. 139.
Baumgarten, *Généalogie*, p. 67.

(١٥٣)
(١٥٤)

١٠٥١م^(١٥٦) . وإذا كانت المصادر التاريخية لم تقدم لنا الشواهد التي تساعدنا أيضا على معرفة الدوافع الكامنة لمثل هذا الزواج فلابد لنا أن نقف عند التاريخ الذي تم فيه هذا الزواج ١٠٥١م، أى قبل وفاة ياروسلاف بثلاث سنوات .

يمكننا القول أن بلاد الروس قد بلغت ذروة حضارتها آنذاك فى عهد ياروسلاف الذى أحدث نهضة علمية ومعمارية فى البلاد، حيث قام بإنشاء الكنائس والكاتدرائيات، كما أنشأ المدارس واهتم بترجمة الكتب من اليونانية إلى السلافية ونسخها، كما أقام له القصور ذات البوابات الذهبية على الطراز البيزنطى، وكنيسة خاصة بأمر الروس أسماها آياصوفيا زينها بالزخارف والمناظر الطبيعية ومناظر الصيد وغيرها، كما اهتم بإنشاء الأديرة فى شتى المدن الروسية وكذلك القلاع الحربية^(١٥٧)؛ والأهم من كل هذا أنه أنشأ مطرانية روسية تماما مستقلة عن بيزنطة، فيذكر التاريخ أنه فى عام ١٠٥١م عين الأسقف الروسى هيلاريون Hilarion مطرانا للروس فى كنيسة آيا صوفيا بكييف^(١٥٨) . وبهذا استقلت الكنيسة الروسية عن الكنيسة البيزنطية رسميا ، ولا يعنى هذا انعدام التأثير البيزنطى عليها حتى وهى مستقلة عنها. والآن ألا يعنى هذا المستوى الحضارى الذى بلغته بلاد الروس، بزعامة كييف فى عهد ياروسلاف أنها أصبحت دولة جديدة بأن يخطب ودها الملوك المجاورون ! لعل افتراضنا هذا يحمل شيئا من الصحة لاسيما وأن ملوك الدول المجاورة كبولندا والمجر وفرنسا هم الذين سعوا للارتباط بالبيت الحاكم فى كييف .

أما عن علاقات ياروسلاف بالبابوية فلا توجد دلائل مباشرة عنها إلا أنها نتيجة عاملين هامين ، أولهما : توتر العلاقات الكنسية بين كييف والقسطنطينية^(١٥٩)، والذى نجم عنه تعيين ياروسلاف لمطران روسى الأصل لكل بلاد الروس فى كنيسة آيا صوفيا بكييف فى عام ١٠٥١م ، وثانيهما: أن معظم زوجات أبناء وبنات ياروسلاف كانت من أمراء وملوك يديون بالمسيحية على المذهب الكاثوليكى، ربما كانت هناك

^(١٥٦) Baumgarten, *Généalogies*, p. 71; Pares, *Russia*, p. 32; Rambaud, *La Russie*, p. 63; Cross, *Contacts*, p. 139 .

^(١٥٧) نظر ، R.P.C., pp. 136-139; Pares, *Russia*, p. 31; Baumgarten, *Chronologie*, pp. 33-41.

^(١٥٨) R.P.C., p. 139; Baumgarten, *Chronologie*, pp. 40-41.

جدير بالذكر أن ثيوفيتوس كان مطرانا على الروس قبل هيلاريون . وقد تغير اسمه إلى ثيوفيتوس الروس $\Theta\epsilon\omicron\pi\epsilon\iota\tau\omicron\varsigma$ 'Πρωταρχ' بناء على المرسوم الصادر من سينودس القسطنطينية الثانى عشر. انظر ، Soloviev, A., "Metropolitensiegel des Kiewer Russlands", *BZ*, 55(1962), p. 293.

^(١٥٩) Baumgarten, *Chronologie*, p. 40 .

محاولات بابوية للحصول على موضع قدم لها في الكنيسة الروسي، ومما يساعدنا على تأكيد هذا وجود البعثة البابوية التي أرسلت إلى القسطنطينية في عام ١٠٥٤م، والتي تسببت في الشقاق الأعظم بين كنيسة روما والقسطنطينية آنذاك، في كيف بعد موت ياروسلاف في عام ١٠٥٤م^(١١٠).

أما عن علاقة ياروسلاف باسكننافيا فقد سارت على نهج فلاديمير أيضا، فقد تزوج ياروسلاف بابنة ملك السويد أولاف، والتي كانت تدعى انجويجورد *Inguiguerde* في عام ١٠١٩م^(١١١)، ويبدو أن ياروسلاف قد تزوجها عندما كان في نوفجورود في عام ١٠١٩م يجمع قوائمه ليحف بها صوب سفانتوبوك في كيف. وفي عام ١٠٤٤/١٠٤٥م تزوج ملك النرويج هارولد هاردرادا *Harold Hardrada* من الأميرة اليزابيث الكينية^(١١٢). وتعود العلاقات بين ياروسلاف وهارولد هاردرادا إلى ما قبل عام ١٠٤٤م، عندما عاش في بلاط ياروسلاف فترة من الوقت علم ١٠٣١م؛ ومن المحتمل أنه اشترك مع ياروسلاف في حملته على بولندا في عام ١٠٣١م، ثم غادر البلاد متجها إلى القسطنطينية بصحبة رفاقه، والتي وصلها في عام ١٠٣٤م في عهد الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤-١٠٤١م) للعمل في خدمته ضمن الحرس الفارانجي الموجود بالقسطنطينية^(١١٣). وقد ظل يعمل في خدمة بيزنطة إلى أن قرر العودة إلى بلاده، ويبدو أنه ورفاقه قضوا شتاء ١٠٤٤/١٠٤٥م مع ياروسلاف في نوفجورود حيث تزوج الأميرة اليزابيث هناك أثناء ذلك الشتاء^(١١٤). لقد نجح ياروسلاف في جعل نفسه شخصية حاكمة أوربية الطابع، مرغوبة بين الأسر الحاكمة في الممالك والدول المحيطة به، أو على حد تعبير المؤرخ الأمريكي كروس *Cross* " في

^(١١٠) Cross, *Contacts*, pp. 140-141.

^(١١١) Baumgarten, *Généologies*, p. 68; Cross, *Contacts*, p. 138.

^(١١٢) Baumgarten, *Généologies*, p. 68.

^(١١٣) انظر، Shepard, J., "A Note on Harold Hardrada: The Date of his Arrival at Byzantium", *JOB*, 22 (1973), pp. 145-150; Ostrogorsky, *Byz. State*, p. 293;

Hendy, M., "Michael IV and Harold Hardrada", *Nusmatic Chronicle*, Ser 7,

10. (London, 1970), pp. 187-197; reprinted also in: *The Economy, Fiscal Administration and Coinage of Byzantium*, (Northampton, 1989).

يطلق نيكومينوس على هارولد هاردرادا اسم: 'Ἀράλατις βασιλέως μὲν Βαρχαγγίας

ἢν νύς see, *Cecaumeni Strategicon*, ed. B. Wassiliewsky and V. Jernstelt,

(Amsterdam, 1965), p. 97.

^(١١٤) Hendy, *Michael IV*, p. 144; Shepard, *Harold*, p. 149, n. 28.

لقد استطاع ياروسلاف من خلال المصاهرات السياسية التي عقدها أن يجعل من نفسه شخصية أوروبية ذات مكانة جديرة بالإقدام^(١٦٥) .
والآن ماذا عن علاقته بالإمبراطورية البيزنطية ؟ هل انتهج معها سياسة أبيه أم سياسة أجداده ؟

" كانت قلة الحذر والحرص هي السبب المباشر في قتال السبرابرة ، وهي الحرب التي أعقبت اخماد ثورة جورج مانياكس *G. Maniaces* " ^(١٦٦) ، بهذه الكلمات يبدأ ميخائيل بسلوس حديثه عن حملة الروس الأخيرة على القسطنطينية والتي وقعت في عام ١٠٤٣م^(١٦٧) ، أما كدريوس فيقول " في نفس ذلك العام تمردت أمة الروس على الرومان ، وكانت الأوضاع بين الطرفين سلمية وكانت هناك علاقات وتبادلات تجارية بينهما حتى ذلك الوقت " ^(١٦٨) . أما مؤلف حولية نوفجورود فيقول " سار فلاديمير بن ياروسلاف ضد اليونانيين " ^(١٦٩) . ويبدأ ميخائيل جليكاس حديثه بالقول " تحت حكم هذا الإمبراطور (قسطنطين مونوماخوس) هاجم السكينيون ، وهم الروس ، المدينة الإمبراطورية بأسطول عظيم عندما سنحت لهم الفرصة لعمل ذلك " ^(١٧٠) . أما إفرايموس الراهب فلم يقل سوى أن " أسطول الروس زحف نحو بيزنطة وعلى متنه قوات كثيفة العدد وهي التي هلكت جميعا في القتال البحري " ^(١٧١) . ويبدأ الراهب نسطور حديثه عن هذه الحملة بقوله : " في عام ١٠٤٣م أرسل ياروسلاف ابنه فلاديمير ليهاجم اليونان (أي بيزنطة) بقوة كبيرة .. " ^(١٧٢) . وقد تحدث المؤرخ العربي ابن الأثير أيضا عن هذه الحملة ^(١٧٣) ، كما أشار إليها كل من المؤرخ السرياني ابن العبري ^(١٧٤) ، والمؤرخ العربي العظيمي الحلبي ^(١٧٥) ، والمؤرخ البيزنطي ميخائيل أطالياتس ^(١٧٦) .

^(١٦٥) Cross, *Contacts*, p. 139.
^(١٦٦) Psellus, M., *Chronographia*, Eng. trans. E.R. Sewter, انظر ، عن ثورة مانياكس ، (Penguin Books, 1966), pp. 192-198, 385-386; Cedrenus, II, pp. 545-549; Attaliotae, M., *Historia*, ed. I. Bekker, CSHB, (Bonnae, 1853), pp. 12-19.
^(١٦٧) Psellus, p. 199.
^(١٦٨) Cedrenus, II, p. 551.
^(١٦٩) Chron. Novgorod, p. 3.
^(١٧٠) Michaelis Gylcae *Annalium*, in: *Opera Omnia*, ed. J. P. Migne, PG, tome 158, (Turnholt, 1966), Col. 594.
^(١٧١) Ephraemus, col. 125.
^(١٧٢) R.P.C., p. 138.
^(١٧٣) ابن الأثير ، *الكامل* ، ج٩ ، ص ٣٩ .
^(١٧٤) ابن العبري ، *تاريخ الزمان* ، ص ٩٤ .
^(١٧٥) العظيمي ، *تاريخ العظيمي* ، نشرة / على سويم ، (القرعة ، ١٩٨٨) ، ص ٤ .

إن هذا الحشد من الروايات التاريخية عن هذا الهجوم يشير إلى أهمية الحدث الذي وقع وذبوع أمره بين الأمم ، فاستحق أن يسجله المؤرخون الروس والبيزنطيون والعرب والسريان وغيرهم . فماذا عن هذا الهجوم ؟

يعتبر المؤرخان البيزنطيان بسلوس وكدرينوس هما المصدران الأساسيان للحديث عن هذه الحملة ، ومن دونهما من المؤرخين لم ترق كتاباته إليهما، ولهذا قد يكون من المفيد أن نستخدم روايتهما أثناء حديثنا عن هذه الحملة مع إضافة ما يمكن إضافته من المصادر الأخرى .

يقول بسلوس 'جاءت المراكب الروسية ، والتي كانت هائلة العدد لدرجة يصعب معها حصرها إلى البروبونتس واحتلت مداخلة، فكانت هذه المراكب أشبه بالغمامة التي جاءت من البحر لتكسوا المدينة بالظلام' (١٧٧) . ويشير بعض المؤرخين إلى أن عدد المراكب الروسية كان سبعمائة مركب (١٧٨) ، بينما يذكر أطلاليس أنها كانت أربعمائة مركب (١٧٩) . وهذه المراكب كانت تحمل ما يقرب من مائة ألف مقاتل حسب تقدير كدرينوس (١٨٠) ، لكن هذا التقدير مبالغ فيه بكل تأكيد . ومن الممكن استنتاج عدد القوات الروسية بالتقريب بناء على ما يلي : يذكر نسطور أن قوات فلانيمير التي نزلت إلى الشاطئ على أثر العاصفة التي هبت عليهم ودمرت مراكبهم ، في المرحلة الثانية من القتال ، كانت ستة آلاف (١٨١) . بينما يذكر كدرينوس أن القوات الروسية التي هلكت في المعارك بين الطرفين ، بدءا من المرحلة الأولى وحتى هبوب العاصفة على الروس كانت خمسة عشر ألفا (١٨٢) . فتكون جملة القوات حتى الآن واحد وعشرين ألفا ، ولابد لنا أن نضيف إليهم بضعة آلاف من الجند الذين نجوا من القتال وعادوا إلى بلادهم ، وهم ليسوا بالكثرة التي تجعل التقدير يقفز بعيدا . على هذا ، فمن المحتمل أن تعداد القوات الروسية كان يتراوح ما بين عشرين ألفا ، حسب تقدير المؤرخ الإنجليزي جونان شبرد (١٨٣) ، وواحد أو اثنين وعشرين ألفا حسب تقديرنا،

(١٧٦) Attaleiates, pp. 20-21.

(١٧٧) Psellus, p. 199.

(١٧٨) السطيمى ، ص ٤ .

(١٧٩) Attaleiates, p. 20.

(١٨٠) Cedrenus, II, p. 551.

(١٨١) R.P.C., p. 138.

(١٨٢) Cedrenus, II, p. 553.

(١٨٣) Shepard, J., " Why did the Russians attack Byzantium in 1043? ", BNJbb, 22 (1979), pp. 157-158.

ومع هذا يظل تقدير القوات الروسية في حملة ١٠٤٣م محل افتراض وتخمين وتقديرنا محل نقد وتصحيح من الآخرين .

على كل حال، تحرك الأسطول الروسى^(١٨٤) وظهر فجأة بصورة لم يتوقعها البيزنطيون في البروبونتس، وهذا ما يؤكد ميخائيل أطلانتس حيث يشير إلى السهّل والرعب الشديد الذى أصاب البيزنطيين عندما فوجئوا بالمركب الروسية وأنهم لم يكونوا على أهبة الاستعداد لمثل هذا الحدث^(١٨٥) . ويشير بسلوس إلى أن الروس قد استعدوا لهذا الهجوم سر^(١٨٦) . وإزاء الظهور المفاجئ للروس فى البروبونتس ووصول الأتباء إلى الإمبراطور ، قام الأخير بإرسال رسله إلى فلاديمير للتفاوض معه طالبا منه أن يغمد سلاحه ولا يفسد العلاقات الحسنة بين البلدين كما أبدى استعداداه لتعويضه عن الخسائر التى لحقت بالروس^(١٨٧) . ويؤكد ابن الأثير على هذه المراسلات بين الطرفين إلا أنه ينكر أن الروس هم الذين بدأوا بمراسلة الإمبراطور البيزنطى قسطنطين مونوماخوس^(١٨٨) ، إلا أن الأمير الروسى فلاديمير رفض عروض الإمبراطور البيزنطى ، بل وخاطب سفراء الإمبراطور بوقاحة؛ عندئذ أدرك الإمبراطور أنه لا جنوى من التفاوض مع فلاديمير وأخذ يعدّ لقتاله^(١٨٩) .

اتخذ الإمبراطور قسطنطين إجراءات عسكرية فورية للاستعداد لقتال الروس، فارتفعت رايات الحرب فى المدينة^(١٩٠) ، وأخذ المبلغون يعلنون فى المدينة عن الحرب ضد الروس^(١٩١)؛ بوقام الإمبراطور البيزنطى بالقبض على الروس الموجودين فى القسطنطينية ، خشية تواطؤهم مع ذويهم أثناء القتال^(١٩٢) ، وبعث بهم إلى الثيمات الثانية وهم تحت الحراسة إلى أن تضع الحرب أوزارها^(١٩٣) . وحشد الإمبراطور كل ما تيسر له من القوات ومن سكان القسطنطينية وجعلهم على سفن حربية ومراكب خفيفة ،

(١٨٤) يشير المؤرخون البيزنطيون إلى أن مرابك الروس كانت مصنوعة من جذوع الأشجار التى تم قطعها وتجهيزها، وكانت متباعدة فى الحجم منها الكبير ومنها الصغير . انظر ،

Psellus, p. 200; *Cedrenus*, II, p. 551.

(١٨٥)

Analeiates, p. 20.

(١٨٦)

Psellus, p. 200.

(١٨٧)

Cedrenus, II, p. 551.

(١٨٨) ابن الأثير ، *الكامل* ، ج٩ ، ص ٣٩ .

(١٨٩)

Cedrenus, II, p. 551; *Psellus*, p. 20.

(١٩٠)

Psellus, p. 200.

(١٩١)

Psellus, p. 201.

(١٩٢)

Cedrenus, II, p. 551.

(١٩٣)

Finlay, *Greece*, II, p. 435.

وافطلق بهم إلى الميناء^(١٩٤) ، كما صحبه برا عدد لا بأس به من الفرسان^(١٩٥) ، وبعد تأمين السواحل انطلق الإمبراطور بقواته وسفنه ، وقد ركب سفينه الملكيه لمقابلته العدو في الميناء . ويذكر أطلالياتس أنه زود سفنه بالنيران الإغريقية ، كما أمر قواته بإطلاق الصيحات المدوية والتهافتات لإرهاب العدو^(١٩٦) . وقد اصطفت سفن وقوات الإمبراطور عند أحد جانبي الميناء بينما مراكز فلاديمير عند الجانب الآخر دون اشتباك ، حتى بدأت الشمس في الغروب^(١٩٧) . وهنا قرر الإمبراطور مراسلة فلاديمير مرة ثانية ليعرض عليه عقد سلام بينهما ، إلا أن فلاديمير أساء معاملته رسل الإمبراطور أيضا ووضع شروطا مجحفة للسلام ، كان على الإمبراطور بمقتضاها أن يدفع له تمويضا بواقع ثلاثة جنيهاات ذهبية عن كل جندي من جنود أسطول^(١٩٨) ؛ الأمر الذي قوبل بالرفض من قبل الإمبراطور والاستعداد لخوض المعركة . ويعلق بسللوس على شروط فلاديمير للسلام بقوله: " أنهم كانوا يتصورون أن هناك ينابيع ذهب تسم ممتلكاتنا .. وأنهم يعتمد منهم وضعوا شروطا مستحيلة التنفيذ، وذلك حتى يصير لديهم مبرر مقبول ظاهريا للاستمرار في الحرب .. وقد اعتقدوا أن بأعدادهم الكثيفة سوف يجبرون المدينة وسكانها على الاستسلام"^(١٩٩) .

على كل حال ، اصطفت السفن الإمبراطورية بقيادة الإمبراطور نفسه عند أحد جانبي الميناء بينما نظم الروس مراكزهم على شكل سلسلة بحرية متصلة الحلقات في هيئة نصف دائرية ، وقد أصبحوا على أهبة الاستعداد للهجوم . وإزاء رفض فلاديمير عروض السلام أعطى الإمبراطور الإشارة لبدء القتال ، فتحركت سفينتان كبيرتان^(٢٠٠) من قطع الأسطول البيزنطي إلى الأمام صوب العدو ، في تناسق بديع ، بعد أن حملتا بحملة الرماح ورماة الأحجار وقاذفى النيران الإغريقية . وقد ابتلع الروس هذا الشوك البيزنطي، فما أن رأوا هاتين السفينتين بمفرديهما حتى انفرط عقد المراكب الرومسية التي أسرع بالجمع حول السفينتين وانقسموا إلى مجموعتين تحاصر كل منهما واحدة من السفينتين، وأخذت القوات البيزنطية تمطرهم بالأحجار والنيران الإغريقية في

(١٩٤) Cedrenus, II, p. 552; Attaleiates, p. 20.

(١٩٥) Cedrenus, II, p. 552.

(١٩٦) Attaleiates, pp. 20-21.

(١٩٧) Psellus, pp. 201-202.

(١٩٨) Cedrenus, II, p. 552; Psellus, p. 200; Court, La Russie, p.125.

(١٩٩) Psellus, pp. 200-201.

(٢٠٠) يذكر كيرينوس أن السفن التي تحركت كانت ثلاثا (Cedrenus, II, p. 552) ، إلا أن بسللوس

كان شاهدا عيانا على الأحداث، على حد قوله، انظر، Psellus, pp. 201-202.

الوقت الذي كان يحاول فيه الروس تقب السفينتين عن طريق وخزها بأعمدة طويلة . وقد اشتد الرماة البيزنطيون في إبطار الروس بالأحجار حتى عجزوا عن الرؤية، فبدلوا في الانسحاب إلى الداخل للعودة إلى رفاقهم بعد أن فقدوا الأمل في أسر السفينتين^(٢٠١) ، وبعد أن أفقدهم البيزنطيون سبعا من مراكبهم بفعل النيران الإغريقية وأسروا ثلاثا منها بالإضافة إلى عشرات القتلى الروس^(٢٠٢) .

على هذا النحو تنتهي المرحلة الأولى من المعركة ، وكان النصر فيها للإمبراطور البيزنطي . ويشير كثرينوس إلى أن القوات البيزنطية البرية هاجمت الروس أيضا في هذه المرحلة وأوقعت فيهم خسائر فادحة، لدرجة أن عدد القتلى بلغ خمسة عشر ألفا من الروس على طول الساحل؛ وقد قامت القوات البيزنطية بتجريد القتلى الروس من متاعهم وأسلحتهم وغنموا غنائم كثيرة^(٢٠٣) .

وبتبدأ المرحلة الثانية من القتال بإعطاء الإشارة لأربع وعشرين سفينة بيزنطية^(٢٠٤) للتحرك صوب الروس ومطاردتهم . ونظرا للإرهاق الذي أصاب طاقم السفن من طول الملاحقة والمطاردة، واختباء الروس في مواضع كثيرة في الميناء، خرج الروس بكامل طاقتهم لتطويق السفن البيزنطية، وتمكن الروس من تطويق السفن البيزنطية، حتى فشل البيزنطيون في إيجاد مخرج لهم من هذه الحلقة؛ عندئذ اشتبك البطريق كابلوروس *Caballurus*، قائد أسطول الكيبيروت بسفينته وبصحبه عشر سفن أخرى مع الروس في قتال عنيف أسفر عن مصرعه واستيلاء الروس على أربع سفن بيزنطية بما فيهم سفينة القيادة ، وقتلوا جميع من كان عليها من البيزنطيين . وقد تحطمت بعض السفن البيزنطية على أثر اصطدامها ببعض الصخور ، بينما عاد البعض الآخر إلى القاعدة . وإزاء هذا الفوز المباغت قرر الروس العودة إلى بلادهم^(٢٠٥)، لكن شامت الأقدار ألا تنكس بيزنطة رأسها أمام الروس فهبت رياح عاصفة على الروس في ذلك الوقت فانفرد عقدهم ، وتبعثرت مراكبهم محطمة على الشواطئ المنحدرة والصخور ، وهنا تحولت الهزيمة البيزنطية إلى نصر غير موضوع في الحساب ، ودار القتال بين الطرفين ؛ وبلغ من كثرة القتلى أن اصططغت مياه البحر باللون الأحمر، وقد استولى البيزنطيون على بعض المراكب الروسية بينما تحطم

(٢٠١) Psellus, p. 202; Attaleiates, pp. 20-21.
(٢٠٢) Cedrenus, II, p. 553; Attaleiates, p. 21.
(٢٠٣) Cedrenus, II, p. 553.
(٢٠٤) R.P.C., p. 138.
(٢٠٥) Cedrenus, II, p. 254.

الكثير منها على الشواطئ المنحدرة والصخور، كما سبق القول^(٢٠٦). وإزاء هذه العاصفة وتحطم كثير من المراكب الروسية، نزلت القوات الروسية التي كانت تحت قيادة فلاديمير وكان قوامها ستة آلاف إلى الشاطئ؛ بينما ركب هو أحد المراكب الروسية بعد تحطم مركبه رافضا النزول معهم إلى الشاطئ. وقد قاد قائده فيشاتا *Vishata* هذه القوات برا للعودة إلى بلاده^(٢٠٧). لكن القوات البيزنطية البرية هاجمتهم بقيادة كاتاكالون كيكومينوس *Catacalon Cecaumenos*، حاكم الإقليم المجاور لنهر الدانوب عند مدينة فارنا *Varna* وانتصر عليهم وأسر منهم ثمانمائة، أرسلهم مكيلين إلى القسطنطينية^(٢٠٨). وقد كان فيشاتا من ضمن الأسرى الذين يقول نسطور أن الإمبراطور فقاً أعين الكثير منهم^(٢٠٩)، بينما يذكر ابن العبري أن أيادهم اليمنى قد بترت^(٢١٠). ليا كان الأمر، كان هذا هو مصير القوات الروسية التي اتخذت البر سبيلا للعودة إلى بلادها، بينما تمكن فلاديمير من الهرب بحرا والعودة إلى بلاده بسلام^(٢١١).

على هذا النحو ينتهي الهجوم الروسي الأخير على القسطنطينية في عام ١٠٤٣م. وعلمنا الآن أن نبحث في الأسباب والدوافع التي أدت إليه. ولنبدأ أولا بالأسباب التي يطرحها المؤرخون البيزنطيون، يذكر كدريوس بوضوح تام أن مشادة وقعت في القسطنطينية آنذاك قتل على أثرها أحد التجار الروس، كما يصف قائد الروس فلاديمير بأنه كان عصبى المزاج حاد الطبع فاندفع بسرعة للانتقام^(٢١٢). أما ميخائيل بسلوس فيذكر سببا آخر غير ذلك، حيث يقول أن الروس كان يكون كرها عميقا للبيزنطيين، وفي كل فرصة ممكنة يختلقون ذريعة ما لشن الحرب ضد بيزنطة^(٢١٣)، وبهذا يجعل من كره الروس للبيزنطيين سببا مباشرا لهذه الحرب. هذه هي الأسباب التي يقدمها المؤرخون البيزنطيون لهذا الحدث، بينما صممت المصادر الروسية عن هذا الأمر. وهناك إشارة عند ميخائيل جليكاس قد تؤكد السبب الذي أورده كدريوس، فهو يذكر " أن الروس شنوا هذا الهجوم عندما سنحت لهم فرصة

^(٢٠٦) Psellus, pp. 202-203.

^(٢٠٧) R.P.C., p. 138.

^(٢٠٨) Cedrenus, II, p. 554.

^(٢٠٩) R.P.C., p. 138; Rambaud, *La Russie*, p. 62.

^(٢١٠) Court, *La Russie*, p. 126.

^(٢١١) R.P.C., p. 138.

^(٢١٢) Cedrenus, II, p. 551; Finlay, *Greece*, II, p. 435.

^(٢١٣) Psellus, p. 199.

ضئيلة^(٢١٤). ولا بد أن ميخائيل جليكاس كان يعني بهذه الفرصة، مقتل التاجر الروسى فى القسطنطينية، والذي كان خير ذريعة لكيف لشن الحرب على القسطنطينية. أما السبب المباشر الذى أورده ميخائيل بسللوس فهو غير منطقي، لأن كدريوس يؤكد فى بداية كلامه على أن العلاقات كانت تسير بصورة طيبة بين الطرفين، وحركة التجارة بينهما كانت قائمة^(٢١٥)؛ ومع ذلك فقد أورد عبارة "...وفى كل فرصة ممكنة * والتسى تتطابق مع عبارة جليكاس *...". عندما سنحت لهم فرصة ضئيلة * ليؤكدوا مع السبب الذى أورده كدريوس . وطبقاً لرواية كدريوس فإن الحرب نشبت بسبب مقتل التاجر الروسى . ولكن لنعد إلى الوراء قليلاً إلى عام ١٠٢٤م حيث يخبرنا كدريوس نفسه أن أحد الأمراء الروس ويدعى خريشوخير *Chrysochir* ومعه ثمانمائة جندي ركبوا على متن سفنهم، جاء إلى القسطنطينية^(٢١٦) بحجة أنه متكفل بالدفاع عن مصالح الإمبراطورية^(٢١٧)، لكنه تلقى إنذاراً رسمياً من الإمبراطور بمغادرة الدردنيل بعد إلقاء أسلحته هو ومن معه، إلا أن خريشوخير رفض وأبحر فى الأرخبيل حتى وصل إلى جزيرة ليمنوس *Lemnos* . وهنا خرج أسطول الكسبريوت ومعه دلوود الأخرى *Davido Achridensi* استراتيجوس ساموس *Samos* ومعه حاكم تسالونيك نفقور كباسيلي *Nicephorus Cabasila* ، الذين قتلوا خريشوخير ومن معه^(٢١٨).

هذه الحادثة التى راح ضحيتها نبيل روسى ومعه مئات من الروس، ألا يجب أن تكون ذريعة مناسبة لكيف لشن الحرب على القسطنطينية فى عام ١٠٢٤م؟! لكن بالرغم من وقوع هذه الحادثة لم تحرك كيف ساكننا ، ولم يهب ياروسلاف للدفاع عن مصالح الروس، ولم تبعث القسطنطينية ولو برسول إلى ياروسلاف للاعتذار عما وقع وتعويضه حسب معاهدة ٩٤٥م المبرمة بين البلدين، ألا يدفعنا هذا لضرورة البحث عسى أن نجد أسباباً أخرى تكون أكثر إقناعاً لهذه الحرب . لقد تعددت آراء المؤرخين حول أسباب هذه الحملة، فمنهم فريق يرى أن هذه الحملة قام بها الروس لمساعدة جورج مانياكس فى ثورته داخل بيزنطة وبوساطة هارولد هاردرادا ، الذى أطلع ياروسلاف على الأوضاع الداخلية لبيزنطة^(٢١٩). إلا أن المؤرخ الإنجليزي شيرد أثبت

^(٢١٤) Glycas, col. 594.

^(٢١٥) Cedrenus, II, p. 551.

^(٢١٦) Cedrenus, II, p. 478.

^(٢١٧) Court, *La Russie*, p. 122.

^(٢١٨) Cedrenus, II, pp. 478-479.

^(٢١٩) Poppe, A., " La dernière expédition russe contre Constantinople ", *BzL*, 32 (1971), pp. 1-29, 233-268.

بطلان هذه النظرية^(٢٢٠) . وفريق آخر يرى أن هذه الحملة كانت محاولة من جانب الروس لتوكيد استقلالهم التام عن بيزنطة وكنيستها^(٢٢١) .

لكن بالرغم من السبب الوجيه الذى يورده كلرينوس، والذي يمكن اعتباره الشرارة المباشرة لاشتعال الحرب بين البلدين، إلا أن شبرد يورد بعض الأسباب الأخرى التي قد تبدو مقبولة أيضا . فهو يود أن يؤكد على عامل الهيبة حيث يرى أن هيبة الأمير الروسى سفياتوسلاف كانت قد انحط مقامها على الجبهة البيزنطية؛ فى الوقت الذى كان يسعى فيه جاهدا لإعلاء شأنه على الجبهة الأوربية، وعلى الرغم من نجاحه فى عقد عدة مصاهرات سياسية مع ملوك وأمرأء من أوروبا، بل إنه سعى بنفسه لمصاهرة البيت الحاكم فى ألمانيا، لا نقرأ عن مصاهرات مع البيت الحاكم فى القسطنطينية . وعندما وقعت حادثة خريسوخير فى عام ١٠٢٤م ثم مقتل التاجر الروسى فى عام ١٠٤٣م لم تقدم القسطنطينية أية اعتذارات لياروسلاف أو تعويضات له استنادا إلى بنود معاهدة ٩٤٥م . الأمر الذى فسره على أنه تهديد فى هيبة ياروسلاف بين مواطنيه على الجانب البيزنطى، لاسيما أمام التجار الروس. كما يضيف عاملا آخر، وهو العلاقات الطيبة بين بيزنطة والأمير الروسى مستسلاف أمير تموتوراكان، والذي نشبه صراع بينه وبين أخيه ياروسلاف على الحكم فى عام ١٠٢٣م^(٢٢٢)، ويشير إلى استعانة مستسلاف بالبيزنطيين لإقامة نهضة عمرانية فى تموتوراكان وتشرينجوف وإلى الصلات الحضارية بين الطرفين . هذه العلاقة بين بيزنطة ومستسلاف، منافس ياروسلاف على العرش، لابد وأنها أغضبت ياروسلاف وجعلته يضمر العداء لبيزنطة ويبحث الفرصة لقتالها؛ وقد واثته هذه الفرصة تدريجيا، أى بوفاة منافسه على العرش فجأة أثناء رحلة صيد فى عام ١٠٣٦م، ثم انتصاره الساحق على البشناق فى نفس العام، وبهذا أراحهم من طريقه نحو القسطنطينية، ولم تعد لكلمات قسطنطين بورفيروجينيتوس عن الدور الذى يلعبه البشناق فى منع الروس عن القسطنطينية أى وجود فى منطقة السهوب. وأخيرا جاء السبب المباشر والذي كان خير ذريعة لياروسلاف لشن هذه الحملة على القسطنطينية^(٢٢٣). على هذا النحو يمكننا أن نجمل أسباب هذا الهجوم فيما يلى :

(٢٢٠) نظرا لأن هذه الأسباب دار حولها جدلا كبيرا بين المؤرخين المحدثين، فمكتفى هنا بنكر النتائج التى توصلوا إليها، انظر ،
(٢٢١) Shepard, *Russians attack*, pp. 147-211.
Angold, *Byz. Empire*, p. 13 .
(٢٢٢) R.P.C., pp. 134-135 .
(٢٢٣) Shepard, *Russians attack*, pp. 171-211.

أولاً : العلاقات بين بيزنطة ومستلأف، منافس ياروسلاف على العرش ، وحتى وفاته فى عام ١٠٣٦ ، والتي أوعرت صدر ياروسلاف ضد بيزنطة .
ثانياً : عامل الهيئة الدولية لياروسلاف على الجبهة البيزنطية والذي سافه شبرد. ثالثاً : مصرع التاجر الروسى فى القسطنطينية فى عام ١٠٤٣ م .
وبالرغم من هذه الحملة التى شنّها الروس على القسطنطينية فى عام ١٠٤٣م، وجدت الحضارة البيزنطية لها طريقاً لتغزو بلاد الروس . حتى أننا نجد ياروسلاف وقد بنى له قصراً ذو بوابة ذهبية كذلك التى فى القسطنطينية ، هذا على سبيل المثال لا الحصر .

ويبدو أن محادثات للسلام قد دارت بين القسطنطينية وكييف عقب انتهاء هذه الحملة وزول خطرهما عن بيزنطة، وتم عقد معاهدة سلام بين الطرفين فى عام ١٠٤٦م لا نعرف شيئاً عن بنودها ؛ لكننا نعرف أن الأمير فسيفولود Vsevolod بن ياروسلاف تزوج فى ذلك العام من الأميرة البيزنطية ماري ابنة الإمبراطور البيزنطى قسطنطين مونوماخوس^(٢٢٤) . وهكذا ، انتهى التهديد الروسى للقسطنطينية إلى الأبد ، ولم نعد نقرأ عن هجمات قام بها الروس ضد بيزنطة، ولكن كما سبق وقلنا أقدم ياروسلاف فى عام ١٠٥١م على خطوة تنسم بالجرأة والشجاعة وهى فصل الكنيسة الروسية عن كنيسة القسطنطينية بتعيينه هيلاريون مطرانا على الروس فى كنيسة آيا صوفيا . ولم تشر المصادر البيزنطية إلى أية ردود فعل لكنيسة القسطنطينية حيال هذا الحدث . ولعل ياروسلاف أراد بهذا العمل أن يؤكد استقلاله التام عن بيزنطة، وأن يجعل من الكنيسة الروسية كنيسة جديرة بأن تخطب ودها الكنائس العالمية الأخرى . وعلى الرغم من هذه الخطوة ظلت العلاقات بين بيزنطة وكييف تحكمها دوافع المصلحة الخاصة بهما والتى جعلت كلا منهما يحرص على إقامة علاقات طيبة مع الآخر^(٢٢٥) .

على هذا النحو مضت العلاقات بين الروس والعالم الخارجى طوال عهدهى فلاديمير وابنه ياروسلاف . ويمكننا أن نخلص من خلال الأحداث الماضية إلى أن بيزنطة لم تعد هى حجر الزاوية فى علاقات الروس مع العالم الخارجى، واكتشف

^(٢٢٤) Soloviev, A., " Marie fille de Constantine IX Monomaque ", B, 33 (1963), p. 244;
Obolensky, D., *Six Byzantine Portraits*, (Oxford, 1988), pp. 83-85;
Baumgarten, *Généalogies*, p. 69.
^(٢٢٥) Obolensky, D., "The Relations between Byzantium and Russia (eleventh to fifteenth century)", *XIIIth International Congress of Historical Sciences*, (Moscow, 1970), p. 2.

الروس دعماً سياسياً لهم في المنطقة بتحالفهم مع القوى الأوربية، وهو الأمر الذي نجحوا فيه بكل تأكيد بدءاً من فلاديمير ووصولاً إلى الذروة في عهد ياروسلاف الذي في عهده بلغت هيبة أمير الروس العظيم ذروتها بين الدول والممالك الأوربية . ومع هذا لم يغفل الروس الجبهة البيزنطية ، والتي كانت تميل إلى صالح الروس ، حيث نجحوا في الزواج من أميرتين بيزنطيتين إحداهما وليدة الأرجوان ، وهي الأميرة آنا بورفيروجنيتا ، والأخرى الأميرة ماري ابنة الإمبراطور قسطنطين مونوملخوس . ولا يمكن إغفال أن هاتين الزوجتين ساعدتا على انتشار الحضارة البيزنطية بين الروس ، ولا ذلك السيل من رجال الدين الذين كانوا يقدون إليهم بصورة متصلة . وعلى الرغم من الخطوة التي اتخذها ياروسلاف لفصل كنيسة روسيا عن أحضان الأم في القسطنطينية سجد أنها سرعان ما ستعود إليها ثانية في أعقاب الحرب الأهلية التي نشبت بعد وفاة ياروسلاف .

والآن ، يرقد ياروسلاف على فراش الموت وقد جمع حوله أبناءه ليملى عليهم وصيته التالية : أرى أبنائي ، إني على وشك الرحيل عن هذا العالم . فليحب كل منكم الآخر ، لأنكم أخوات من أب وأم واحدة، فإذا ما عشتُم بالحب فإله سوف يكون معكم وسيهلك أعداءكم وستعيشون في سلام . أما إذا عشتُم في شجار ونزاع وبغض فأنتم لن تهلكوا فقط بل إن الأرض التي حافظ عليها آباؤكم وأجدادكم بجهد شديد سوف تتبدد معكم، فلتعيشوا في سلام ولتتصت الأخ لأخيه . وإني لأعهد بعرضي في كييف إلى ابني الأكبر أزياسلاف ليحل محلي فلتصفوا إليه كما تصفون لي، لأنه سوف يأخذ مكانتي بينكم، واعطى تشرنيجوف إلى سفياتوسلاف، وبيرياسلاف إلى فسيفلود ، وإلى ابجور فلاديمير ، وإلى فياتشسلاف Vyacheslav سمولنسك^(٢٢٦) . ورحل ياروسلاف في عام ١٠٥٤م^(٢٢٧) تاركا أبناءه لينفذوا وصيته. ولكن كان الواقع أقوى من وصية ياروسلاف الحكيم، ومزقت الحرب الأهلية أوصال الروس والإمارات الروسية معا لعشرات من المئين تلت^(٢٢٨) .

^(٢٢٦) R.P.C., P. 142; Dimnik, M., *The Dynasty of Chernigov 1054-1146*, (Toronto, 1994), p. 19.

^(٢٢٧) R.P.C., p. 142; *Chron. Novgorod*, p. 4.

^(٢٢٨) Dimnik, *Chernigov*, pp. 18-33.

انظر،

الباب الثانى

الروس والقوى الشرقية

الفصل الرابع: الروس ومسلمو القوقاز

الفصل الخامس: الروس بين البشتاق وقوى القوقاز

الفصل الرابع

الروس ومسلمو القوقاز

عندما خرج الروس من شبه جزيرة اسكنديناوه واتجهوا نحو شرق وجنوب شرق بحيرة لادوجا *Ladoga* في أواسط القرن التاسع الميلادي فصاعداً، حيث وصلوا إلى منطقة السهوب، أدركوا أن بقاءهم بين قوى السهوب في ذلك الوقت يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحجم قوتهم العسكرية . فقد كانت هناك قوى سياسية تسيطر على منطقة السهوب، لاسيما الواقعة شمال البحر الأسود، ومنها الخزر الذين بسطوا نفوذهم على كييف نفسها. وفي شمال نهر الفولجا كان البلغار يسيطرون على هذه المنطقة، ويتحكمون في التجارة العابرة من شرق الفولجا حيث الإمارات الإسلامية الواقعة في منطقة القوقاز، إلى غربي الفولجا حيث الإمارات الإسلامية الواقعة في منطقة القوقاز، إلى غربي الفولجا حيث التجار الروس والصقالبية كانوا يفتدون للتجارة . أما الإمبراطورية البيزنطية فقد كان لها موضع قدم لايتزلزل في شبه جزيرة القرم متمثلاً في مستعمرة خرسون والمدن التابعة لها، حيث اتخذت منها بيزنطة موضعاً لمراقبة الخريطة السياسية وتحولاتها في منطقة السهوب.

وبالرغم من أن التجار الروس، الذين كانوا يتوافدون باستمرار إلى حوض نهر الفولجا، كانوا يدركون حجم قوتهم مقارنة بقوى المنطقة السياسية، إلا أن طبيعتهم الإقليمية والعرقية دفعتهم للاصطدام ببعض هذه القوى أو مسالمة البعض الآخر منها . فقد أدى نهيمهم التجاري إلى شن هجومهم الأول على القسطنطينية في عام ٨٦٠م، كما عرفنا من قبل، وهو الهجوم الذي منى بالفشل، ولم يسفر عن أية نتائج إيجابية بالنسبة لهم. ولا غرو، فقد حرصوا على ألا يعادوا القوى الشرقية عند الفولجا، كالخزر والبلغار في هذه المرحلة من تكوينهم السياسي في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، وكما سنرى في الصفحات القادمة أنهم سالموا الخزر، على الرغم من انتزاعهم لمدينة كييف منهم، فقد فطن الروس إلى أن الخزر والبلغار هم الذين يتحكمون في التجارة القادمة من الشرق حيث إمارات القوقاز الإسلامية، والتي تنتقل إلى شبه جزيرة اسكنديناوه بوسطهم؛ وأنهم إذا خسروا الروابط السلمية مع هاتين القوتين، فإنهم بهذا يحكمون على أنفسهم بالإفلاس الاقتصادي، والاحتطاط الاجتماعي بين ذويهم . ومتى أدرك الروس أن هذه القوى تسعى إلى الثراء مثلهم تماماً، فلماذا لا يقدمون على مشروعات حربية تغل عليهم جميعاً الخير الوفير؛ وبما إن الخزر والبلغار

لا يمكنهم معاداة بلاد القوقاز الإسلامية، لصلاتها السياسية ببغداد، ولتحكمها فى التجارة الشرقية، فلماذا لا يحملون على عاتقهم هذه المهمة! ولأجل كسب الخزر، على سبيل المثال، والذين بحكم موقعهم الجغرافى كانوا يتحكمون فى الطرق التى تصل بين بلاد القوقاز الإسلامية وبلاد الروس، عقدوا معهم اتفاقيات عدة تسمح لهم بالمرور العسكرى عبر أراضيهم لشن هجمات على بلاد القوقاز الإسلامية .

لقد يمم الروس أنظارهم شطر هذه المنطقة بالذات من العالم الإسلامى، وهى المنطقة التى تحدث المؤرخون والجغرافيون المسلمون عن أهميتها الاقتصادية . لقد أغاروا عليها عدة مرات فى مدة قد تزيد على نصف القرن قليلاً. إن هذا الضغط الروسى على بلاد القوقاز، وبالشكل الذى سيمر علينا، يجبر الباحث على الوقوف قليلاً والتأمل فى التركيبة العرقية لهم، والحياة البيئية التى خرجوا منها، بل وجغرافية المكان؛ فكل هذا كان دافعاً للروس للخروج إلى ما وراء السهوب خاصة نحو الشرق من عاصمتهم كييف . ولعل ما يدفعنا إلى ذلك أيضاً تقارب العادات والتقاليد بين الروس وشعوب السهوب، ومن ناحية أخرى صمت المصادر عن ذكر أسباب مباشرة لهجمات الروس على مسلمى القوقاز .

لقد كانت العقيدة الدينية والمناخ القاسى^(١) الذى تحيا فى ظله الإمارات والمدن الروسية، والذى آلفه الروس منذ مهدهم عاملاً هاماً فى تكوينهم العرقى وفكرهم السياسى الذى طغى عليه الطابع القبلى فى هذه الفترة من تاريخهم، فقد جعلهم هذا المناخ يرون المعاش والكسب فى السيف على حد قول المروزى^(٢)؛ ويضيف المؤرخ الفارسى الكرديزى عبارته التالية " ...وليس عندهم زرع ولا بئر، أما زراعتهم فهى الغارة على الصقالبة ..."^(٣) ويشير الكرديزى بهذا إلى أن الروس لا يعملون بالزراعة، والى يتبعها بطبيعة الحال استقرار اجتماعى وسياسى، ومن ثم فقد كانوا يقتاتون من

(١) يذكر المؤرخون أن "فهار عند الروس يبلغ قصره فى الشتاء أن يكون ثلاث ساعات ونصفا ... انظر، الأديسى، *نزهة المشتكى*، ص ٩١٨. ولتقدم فيها صغار وجبال لا يفرقها الثلج والبرد ... انظر، القلقندى، *صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء*، ج٢، (القاهرة، دت)، ص ٤٦٦ . وقد أكد المسعودى على هذا بقوله أن "لدهم بعد عن الشمس" فطر، المسعودى، *أخبار الزمان*، تحقيق / عبد الله الصاوى، (بيروت، ١٩٧٨)، ص ٩٣، المشتكى، *نخبة الدهر*، ص ٢٧٥، وأخيراً نرى صورة كاملة للمناخ القاسى الذى كان يعيش فى ظله الروس عند القزوينى حيث نجد "البرد عظيم والهواء غليظ والثلج دائم". فطر، القزوينى، *أخبار البلاد وأخبار العباد*، (بيروت، ١٩٦٠)، ص ٢١٧، أبو الفداء، *تقويم البلدان*، نشره / رينو وميك كوكين دوسلان، (باريس، ١٨٤٠)، ص ٣٥ .

(٢) المروزى، *أبواب فى الصين والتوك والهند*، منتخبة من كتاب *طبائع الحيوان*، نشره / ف. مينورسكى V.Minorsky، (لندن، ١٩٤٢)، ص ٢٣ .

(٣) الكرديزى، *زين الأخبار*، ترجمة / عفاف السيد زيدان، (القاهرة، ١٩٨٢)، ص ٤٧٤ .

وراء غاراتهم على القبائل السلافية القاطنة شمالي وجنوبي عاصمتهم كييف، وهو الأمر الذي تفيض في ذكره الحولية الروسية الأولى، أو كما رأينا من قبل كيف قتل ابجور على أيدي الدريفلين .

هكذا دفعهم سوء المناخ إلى سوء أخلاقهم واتخاذهم الغزو والسلب والنهب حرفة لهم، حتى غدا مولعين بالقتال^(٤٩)، وصار السيف أنيس أبنائهم منذ ميلادهم، فعندما * يولد لهم ابن فإنهم يمتشقون الحسام ويضعونه أمامه ويقول الوالد : ليس عندي ذهب ولا فضة ولا مال فأتركه ميراثاً لك، هذا ميراثك فامتشقه وجرده لنفسك...^(٥٠) وقد لعبت طبائع الروس دوراً كبيراً في دفعهم إلى الخروج بقوتهم العسكرية إلى ما وراء السهوب وما وراء الفولجا، وهي المناطق التي بدت في أعينهم مصدراً للثراء السهل، ومركزاً للتجارة القادمة من الشرق .

جدير بالذكر أن الأراضي التي كان يعيش عليها الروس مترامية الأطراف^(٥١) والمدن التي يقطنونها متباعدة فيما بينها، وليس هناك أدق مما قاله الانريسي في هذا المقام 'وأما أرض الروسية فهي أرض كبيرة، وبلاد قليلة، وعمارات منقطعة، ويبين البلد والبلد مسافات متباعدة'^(٥٢) .

ويذكر مؤلف كتاب حدود العالم أن الروس 'بدائيو الطابع، يتسمون بالعند والغطرسة وهم مشاكسون ومولعون بالقتال...'^(٥٣)، كما أنهم أهل غدر على حد قول ابن بطوطة^(٥٤)، ويتسمون بسوء الأخلاق وقسوة القلوب وتغلب عليهم الحيوانية وحسدة النفس والغضب^(٥٥) .

وهكذا، بناء على ما ذكره المؤرخون المسلمون يمكننا القول أن الروس كانوا سادة لأنفسهم، وكان من الصعوبة بمكان أن ينقادوا لأحد، أو لشريعة من الشرائع فسي هذه الفترة من تاريخهم^(٥٦) . وإذا كانوا يتقاتلون في بعض الأحيان فيما بينهم البعض^(٥٧)

^(٤٩) Hudud al-'Alam, Eng. trans. V. Minorsky, (Oxford, 1937), p. 159 .

^(٥٠) الكندي، زين الأخبار، ص ٤٧٤ .

^(٥١) Hudud al-'Alam, p. 159.

^(٥٢) الانريسي، نزهة المشتاق، ص ١٩٠٤ ابن الوردي، خريدة المعجب، ص ٩٣ .

^(٥٣) Hudud al-'Alam, p. 159.

^(٥٤) ابن بطوطة، رحلة بن بطوطة، (بيروت، ١٩٦٠)، ص ٣٤٤ .

^(٥٥) التمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٧٥. يضيف ابن فضلان أضعاف أضعاف ما ذكره المؤرخون والجغرافيون المسلمون عن الروس وطبائعهم، انظر، الرسالة، ص ١٧٥ - ١٨٨ .

^(٥٦) ابن الوردي، خريدة المعجب، ص ٩٣ .

^(٥٧) الانريسي، نزهة المشتاق، ص ٩٠٤ .

إلا أن السمة العامة التي طغت عليهم هي اتجاههم للغزو الخارجي سواء نحو الإمبراطورية البيزنطية، كما رأينا في الفصول الماضية، أو نحو بلاد القوقاز الإسلامية وقوى الفولجا كما سنرى^(١٢). وإذا كان الروس قد نجحوا في غزو بيزنطة مراراً، إلا أن الهزائم العسكرية كانت دوماً من نصيبهم، بل نجحت القسطنطينية في دق قلب كييف بنوافيس آيا صوفيا، واستخدمتهم كمرتزقة في جيوشها للزود عن أراضيها . وقد اختلف الوضع في منطقة الفولجا والقوقاز، وتنوعت سياسة الروس تجاه كل قوة من قوى هذه المنطقة، إلا أنها اتسمت بالعداء السافر لمسلمي القوقاز. لقد أصبح الروس بعد أن كانوا تجاراً مسلمين يدفعون العشور^(١٤) يفضلون الذهب البراق الملطخ بالدم على الربح التجاري الثابت^(١٥). ولنا أن نضيف شيئاً إلى كل ما ذكره المؤرخون عنهم فيما سبق، أن الروس حتى أواسط القرن العاشر الميلادي كانوا وثنيين. وعلينا أن نضيف هذه النقطة الأخيرة إلى جغرافية وطبوغرافية بلاد الروس وكذا عاداتهم وصفاتهم الاجتماعية للقول بأن هذه العوامل جميعاً لعبت دوراً فعالاً في تشكيل الفكر السياسي الروسي المتصنف بالقبلية تجاه القوى السياسية الدولية . ولنسر على الصفحات التالية كيف تحول الروس بقوتهم العسكرية صوب بلاد القوقاز الإسلامية .

يشير المؤرخ الفارسي ابن سفيديار^(١٦) إلى أن أقدم إغارة شنها الروس على بلاد القوقاز الإسلامية تلك التي حدثت في عهد سيد حسن ابن زيد^(١٧) في الفترة من ٢٥٠ إلى ٢٧١هـ / ٨٦٤ إلى ٨٨٤م، وكانت وجهتها الأساسية بلدة آيسكون^(١٨)، الواقعة جنوب شرقي بحر الخزر^(١٩).

^(١٢) يقول مؤلف حدود العالم "... وهم يتقاتلون مع كل الكثرة الذين يعيشون حولهم، ويخرجون منتصرين..." انظر، *Hudud al-'Alam*, p. 159 ويؤكد هذا الإدريسي بقوله "ولهم مع جنسهم ومن قاربهم من بلادهم حروب ومعارضة، انظر، *نزهة المشتاق*، ص ٩٠٤.

^(١٣) انظر الفصل الثاني من هذا الباب، والفصل الثاني من الباب الثالث .

^(١٤) Mcevedy, C., *The Penguin Atlas of Medieval History*, (New York, 1978), p. 58.

^(١٥) Ibn Sfydiyar, *Tarikhe Tabaristan*, trans. E. G. Brown, (London, 1905), p. 198; ^(١٦) Chadwik, W., *The Beginning of Russian History*, (Cambridge, 1966), pp. 60, 61.

^(١٧) الحسن بن زيد الطوسي، كان حاكماً لطبرستان آنذاك . انظر، *القزويني، آثار البلاد*، ص ٤٠٤.

^(١٨) آيسكون، يفتح الهمزة ويسكون الألف، وقع الباء الموحدة والسين المهملة ساكنة، وكاف مضمومة، وواو ساكنة ونون، ورواء يضمن بهمزة بعدها ياء ليس بينها ألف . وهي بلدة على ساحل بحر الخزر، بينها وبين جرجان ثلاثة أيام، وأقربا ينسب بحر آيسكون . ويقول اليعن أن أحد ملوك الفرس هو الذي شيدها . لمزيد من التفاصيل عنها انظر، ابن حوقل، *صورة الأرض*، (إيدن، ١٩٦٧)، ص ١٢٩؛ *المشتقى، نخبة الدفهر*، ص ٢٢٦؛ *ياقوت الحموي معجم البلدان*، ج١، ص ٥٢ .

^(١٩) بحر الخزر، يطلق عليه عدة مسميات هي بحر جرجان، بحر طبرستان، البحر الخراساني، لاتصاله ببلاد خوارزم من أرض خراسان، وبحر قزوين . يقول عنه أحد المؤرخين أنه "بحر مفرد قريب من الإستدارة"،

وقد لحق القتل الذريع بهذه الإغارة الروسية، حيث هزمتهم قوات حسن بن زيد وذهبت الكثيرين منهم^(٢٠). وعلى هذا النحو تمت أولى الغارات الروسية على بلاد القوقاز الإسلامية، التي لم يعهد أهلها عدوا يأتي إليهم من قبل، لاسيما عبر بحر الخزر، كما يذكر المسعودي^(٢١). ولابد أن نلاحظ أن هذه الإغارة وقعت في الفترة التي أعقبت هجومهم الأول على القسطنطينية في عام ٨٦٠م، والذي منى بالقتل الذريع، هذا من ناحية. ومن الناحية الأخرى، لابد وأن هذه الإغارة قد تمت بموافقة خاقان الخزر، الذي كان ولابد أن يأخذوا الإذن منه بالمرور عبر أراضيه، مقابل جزء من الغنيمة؛ ومما يرجح هذا أن الروس لو كانوا قد مروا عبر أراضيه دون رضاه، لأُتزل بهم جام غضبه عند عودتهم وهم مكسورون الجناح على أيدي قوات حسن بن زيد، وهو الأمر الذي كان ولابد لابن اسفنديار من إبرازه.

على أية حال، يبدو أن هذه الإغارة المبكرة كان هدفها استطلاعياً للتعرف على طبيعة هذه البلاد الاقتصادية عن قرب، واختبار مدى قدراتها وقدراتهم العسكرية على حد سواء. وللمرة الثانية ينفع الروس بقواتهم العسكرية نحو بلاد القوقاز لينغروا ثانية على مدينة آيسكون وبعض البلاد المجاورة لها^(٢٢). والمؤرخ الوحيد الذي يمدنا بتفاصيل هذه الإغارة هو ابن اسفنديار^(٢٣). وعلى حد قوله جاء الروس في عام ٢٩٨هـ/٩١٠م في حوالي ست عشرة سفينة إلى آيسكون فغزبوا ونهبوا هي والشواطئ المتصلة بها، وقتلوا وأسروا كثيراً من المسلمين، ثم عادوا إلى بلادهم.

انظر، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٣٥. ويقول المسعودي أن عرض هذا البحر ستمائة ميل، وطوله ثمانمائة ميل، انظر، التنبيه والإشراف، ص ٦٩، الأبريسي، ترجمته لشمس الدين، ص ٨٣١. وهذا البحر مستنقلاً بذاته ولا يتصل بغيره من البحور، ويصب فيه نهر آتل. وهو بحر صالح ليس له مد ولا جزر. ونفسراً لأن قعره من طين قد عدا لونه قاتماً، وبدا وكأنه مظلم. ويحده من الشرق صحراء متصلة بالغز وخوارزم، وحده الشمالي يتأخم الغز وبعض من الخزر، أما حده الغربي فيتأخم مدن الخزر وأذربيجان، وأخيراً يجاور حده الجنوبي مدن جيلان والذيلم وطبرستان وجورجان. لمزيد من التفاصيل عن بحر الخزر، انظر، *Hudud al-'Alam*, p. 53; Minorsky, V., *Commentary on Hudud al-'Alam*, pt. III, (Oxford, 1937), p. 180.

Ibn Sfyndiyar, *Tabaristan*, p. 198; Chadwik, *Russian History*, p. 57.
انظر أيضاً، كويستلر، الخزر، ص ١٤١، تلوب، تاريخ بيوت الخزر، ترجمة / سهيل زكرو، (دمشق، ١٩٩٠)، ص ٣١٦ - ٣١٧.

مروج الذهب، ج ١، ص ٧٦.
تخطيط خادويك بين هذه الغارة وبين التالية لها في عام ٩١٢/٣٠٠هـ وتجعلها إغارة واحدة. لكن تفاصيل الإغارة التالية ٩١٢/٣٠٠هـ تختلف تماماً عن رواية ابن اسفنديار، وقد أتت على كثير من بلاد القوقاز الإسلامية. انظر،
Chadwik, *Russian History*, p. 61.
Ibn Sfyndiyar, *Tabaristan*, p. 198.

وفى العام التالي عاودوا الهجوم ثانية فى قوة أكبر، حيث هاجموا بلدة السراى ^(٢٤) *Sari* وبنجاة - هزار *Panjah- Hazar* ^(٢٥) وأسروا الكثير من المسلمين وعذبت أجروا إلى كشمه رود *Chashma-Rud* من بلاد الديلم ^(٢٦). وقد أنس الروس من أنفسهم القوة وامتلاك زمام الأمر، فزلت كوكبة منهم إلى شاطئ بحر الخزر قبالة جبلان ^(٢٧)، فقام رهن من أهلها بالانقضاض على سفنهم وحرقوها، وقتلوا أولئك الذين على الساحل وعلى أثر هذه المقاومة الإسلامية فر الروس بما أمكنهم من مراكب عبر بحر الخزر .

ويبدو أن خاقان الخزر ^(٢٨) لم يكن راضياً عن هذا الهجوم الروسى، أو أنهم شنوا هذا الهجوم البحرى على المسلمين فى القوقاز دون استئذانه عند المرور عبر أراضيه، كما سيحدث فى الإغارة التالية لهم على بلاد القوقاز أيضاً . ومما يدعم ما نذهب إليه هنا، أنه ما أن سمع خاقان الخزر بهزيمة الروس حتى انقضض عليهم مدمراً مراكبهم، فأضيا عليهم ^(٢٩). ويعتقد كويستلر *A.Koestler* أن هجوم الروس هذا قد خلق موقفاً خطيراً بالنسبة للخزر بسبب علاقات الصداقة التى تربطهم بالخلافة العباسية هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى بسبب الفرقة الخاصة من الجند المسلمين العاملين فى جيش الخزر أيضاً ^(٣٠). وربما يكون هذا قد حدث فى البداية، الأمر الذى دفع خاقان الخزر للانقضاض على قلوب الروس الهاربة بحراً ليحافظ على علاقته مع الخلافة، وليؤمن

^(٢٤) السراى، بلدة تقع على الطريق الممتد بين مدينة مرند ومدينة نشوى فاردنبيل . انظر، ابن خرداذبه، *المسالك والممالك*، (القاهرة، دت)، ص ٢١٣ .

^(٢٥) لم يتمكن من الحصول على معلومات عنها .

^(٢٦) بلاد الديلم، يحدها من الجنوب [إندة] قزوین والطرم وشى من أذربيجان وبعض الرى، ويتصل بها من جهة الشرق بقية الرى وطبرستان، ويتصل بها من جهة الشمال بحر الخزر، ومن جهة المغرب شى من أذربيجان وبلدان الران ... ويحكمها آل جستان، ومقر ملكهم يسمى بانجهم روزبار . وقد أسلمت الغالبية منهم فى عهد الحسن بن زيد العلوى . انظر، الإصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ٣٥٢ .

^(٢٧) جبلان، تسمى كيلان وبالغربية الجبل وجبلان أيضاً . ويحيط بها من الغرب شى من أذربيجان وبعض بلاد الرى، ويحيط بها من جهة الجنوب قزوین وشى من أذربيجان وبعض الرى، ويحيط بها من جهة الشرق بقية الرى وطبرستان، ويحيط بها من الشمال بحر الخزر، وكيلان غربى طبرستان ... وهى صقع واسع مجاور لبلاد الديلم . لمزيد من التفاصيل، انظر، أبو الفداء، *تقويم البلدان*، ص ٤٢٦ - ٤٢٧؛ القلقشندى، *صبح الأعشى*، ج ٤، ص ٤٨٠؛ المصطفى، *نخبة الدهر*، ص ٢٢٦ .

^(٢٨) يطلق عليه ابن اسفنديار اسم شروان شاه، وتسمى ملك شروان . انظر، *Ibn Sfandiyar, Tabaristan*, p. 198. الإصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١١٢. وهذا يعنى إما أن شروان كانت تحت السيادة الخزرية، أو أنه خطأ من ابن اسفنديار نفسه .

^(٢٩) *Ibn Sfandiyar, Tabaristan*, p. 198; Chadwik, *Russian History*, p. 57.

^(٣٠) يشير ابن اسفنديار هنا إلى أن حملات السلب والنهب التى كان يقوم بها الروس قد توقفت . لكن سبب الأحداث التالية عكس ما زعم . كويستلر، *الخزر*، ص ١٤١ .

نفسه من شر انقلاب الفرقة المسلمة العاملة في جيشه عليه . وبهذا يمكن تفسير موقف خاقان الخزر من الروس بناء على الافتراضات السابق طرحها .

جدير بالذكر أن الروس كانوا قد شنوا هجوماً ثانياً على القسطنطينية في عام ٢٩٥هـ/ ٩٠٧ م بقيادة أميرهم أولج، وهو الهجوم الذي انتهى بعقد معاهدة بين الطرفين في عام ٢٩٩هـ/ ٩١١ م^(٣١). وهكذا في الوقت الذي شن فيه الروس ثلاث حملات على بلاد القوقاز حتى الآن، شنوا في المقابل حملتين على القسطنطينية . وفي الوقت الذي توقفوا فيه عن القيام بحملات على القسطنطينية لمدة أربعة وثلاثين عاماً، وحتى عام ٣٣٠هـ/ ٩٤١ م، قاموا بشن حملة أخرى على بلاد القوقاز خلال هذه الفترة. وهذا التركيز العسكري الروسي على بلاد القوقاز قد يدفعنا للقول بأن الروس كانوا يولون اهتماماً بها لا يقل عن اهتمامهم بالجبهة البيزنطية؛ وهو الأمر الذي له دلالاته التاريخية، والتي نرجئها قليلاً لحين الانتهاء من استعراض سياسة الروس تجاه بلاد القوقاز الإسلامية .

لقد فشلت الحملة الروسية على بلاد القوقاز عام ٢٩٨هـ/ ٩١٠ م، وبالرغم من هذا أقدم الروس على شن غارة كبرى عليها فيما بعد عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢ - ٩١٣ م^(٣٢). وقد أمدنا المسعودي، ونقل عنه الحميري، بتفاصيل هذا الهجوم، ورد الفعل الإسلامي تجاهه^(٣٣).

يقول المسعودي بعد عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢ - ٩١٣ م جاءت خمسمائة سفينة روسية تحمل كل منها مائة مقاتل إلى خليج بحر نيطنش^(٣٤)، وتوقفوا عند فم هذا الخليج، لأنه لم يكن بمقدورهم المضي قدماً في أراضي الخزر إلا بإذن من الخاقان. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن قوة الخزر العسكرية كانت تفوق قوة الروس بل وقوة الأمم المجاورة لهم، وأنهم كانوا أصحاب السيادة في منطقة جنوبي القوقاز^(٣٥). بالإضافة إلى ذلك فإن العلاقات الخزرية - البيزنطية، وإن كان قد أصابها بعض التوتر في ذلك الوقت، كانت دعماً سياسياً إعلامياً للخزر في المنطقة. فقد كانت العلاقات الخزرية -

^(٣١) انظر ما سبق عرضه في التمهيد للبحث .

^(٣٢) هذا هو التعبير المصدري الوارد عند المسعودي . ومن ثم لا ندري بالتحديد المنة التي حدثت فيها هذه الأحداث .

^(٣٣) لمسعودي، «روح قصب»، ج١، ص ١١٤ - ١١٦؛ الحميري، «روض المعطر»، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

^(٣٤) المقصود بخليج نيطنش بحر أزوف المتفرع من بحر يونتش (البحر الأسود) .

^(٣٥) كانت أراضي الخزر تمتد فيما بين مجرى القوقاز الأدنى والشمالية للقوقاز، وامتدت إلى الأراضي القائمة حول بحر أزوف . انظر، دنلوب، «الخزر»، ص ١١ . ولمزيد من التفاصيل عن قوة الخزر العسكرية وحجمها السياسي في المنطقة انظر، الفصل التالي من البحث ص ٢٢ وما بعدها .

البيزنطية تمتد إلى قرون خلت قبل هذا الوقت . أليس المهندسون البيزنطيون هم الذين شيّدوا قلعة ساركل الخزرية^(٣٧)! وإذا كان الروس قد منّوا بالهزيمة مرتين أمام البيزنطيين، فلا ينبغي أن تتكشف عورتهم العسكرية أمام قوى القوقاز، وهى الأندلس مكانة من بيزنطة .

نضيف إلى كل ما سبق أن تعداد الجيش الروسى المهاجم لبلاد القوقاز هو رقم مبالغ فيه إلى حد كبير . فالروس فى قمة مجدهم الحربى فى عهد الأمير سفياتوسلاف عندما توجه إلى البلقان كان يقود ستين ألفاً منهم^(٣٧). ويخبرنا الإصطخرى أن قوام جيش خاقان الخزر كان اثنا عشر ألف مقاتل^(٣٨)، غالبيتهم من المسلمين^(٣٩). وإذا كان الروس قد قدموا لقتال المسلمين فى بلاد القوقاز فى خمسين ألف مقاتل (مائة مقاتل × خمسمائة سفينة)، على حد ذكر المسعودى، فإن هذا يعنى أن قوتهم العسكرية كانت تساوى أربعة أضعاف قوة الجيش الخزرى؛ ومن ثم لماذا إذن يحتاجون إذن خاقان الخزر للمرور عبر أراضيه؟! فقد كان بإمكانهم أن يجتاحوا بلاده بهذا الجيش الجوار، الذى ذكره المسعودى . كما أن الروس لم يكن عندهم سفناً حربية بالمعنى المفهوم، كما كان الحال عند البيزنطيين، بحيث تستوعب هذا العدد الضخم من المحاربين بل كانوا يبحرون فى قوارب نهريّة تسمى المونوكسيلا^(٤٠). وهكذا، بناءً على الألة التاريخية التى ساقها المؤرخون لنا تبو رواية المسعودى عن تعداد الجيش الروسى فى هذه الحملة على القوقاز مبالغ فيها إلى حد كبير، وأن التعداد الحقيقى له لابد وأن يكون أقل بكثير من تعداد جيش خاقان الخزر؛ وهذا يفسر الدافع الذى حدا بالروس لأخذ الإنن منه للمرور عبر أراضيه .

أرسل الروس رسلهم إلى خاقان الخزر يستأذنونه فى المرور عبر أراضيه من خلال نهر أتل^(٤١)، حتى يتمكنوا من الوصول إلى بحر الخزر، أداة الوصول إلى بلاد

^(٣٧) قسطنطين بورغويونيوس، الإبراءة، ص ١٤٧-١٤٨ جنوب، الخزر، ص ٢٥١-٢٥٣ .

^(٣٨) انظر الفصل الثانى من البحث .

^(٣٩) المسالك والممالك، ص ١٢٩ .

^(٣٩) المسعودى، مروج الذهب، ج١، ص ١١٢ .

^(٤٠) قسطنطين بورغويونيوس، الإبراءة، ص ٦٠ .

^(٤١) نهر أتل، هو الآن نهر القوقاز، وهو من أعظم أنهار تلك البلاد وأشهرها . ينبع من أقصى الشمال والشرق من حيث لأصارة هناك، ويمر بالقرب من مدينة بلغار ويستدير عليها من شمالها وغربها . ويمر النهر بعدد من الأمم الواقعة عليه مثل بلغار القوقاز، والخزر، والروس . ويصب هذا النهر فى بحر الخزر، حيث يتشعب هناك إلى نيف وسبعين فرعاً . ويصل من هذا النهر فرع يمر فى جهة الغرب حتى يصب فى بحر بوتس (البحر الأسود) . وهو نهر كبير، سريع الجريان، يتجمد ماؤه فى الشتاء . عن هذا النهر انظر، أبو الفداء، تواريخ البلدان، ص ١٦٤ الأندلس، نزهة المشتاق، ص ٨٣٤ - ٨٣٥، ٩١٩ - ٩٢٩، للمثقى، نخبة الدهر، ص ١١٠٦ الإصطخرى، المسالك والممالك، ص ١٢٠، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٩٢، ابن

القوقاز الإسلامية . وقد عرضوا عليه النصف مما سيغنونه هناك، ومن ثم فقد أعطاهم الإذن بالمرور عبر أراضيهم . وعلى الفور ركب الروس سفنهم صاعدين، عبر نهر الدون، ثم نازلين عبر نهر أتل، إلى أن وصلوا إلى مدينة أتل الخزرية^(٤٦). وما أن وصلت المراكب الروسية إلى مدينة أتل عند مصبات نهر أتل في بحر الخزر، حتى أخذت في الانتشار بحراً؛ فانتشرت سرايا الروس على سواحل الجبل والديلم وبلاد طبرستان^(٤٧) وأبسكون، وهي بلاد ساحل جرجان، وبلاد النغاطة^(٤٨) ونحو بلاد أذربيجان^(٤٩). وقاموا بأعمال السلب والنهب، والقتل والنهب على مدى ثلاثة أيام متوالية. وليس هناك أنق مما قاله المسعودي في هذا المقام "فصفت الروس السماء، واستباحات النسون والولدان، وغنمت الأموال، وشتت الغارات وأضربت وأحرقت". وقد اشتبكوا في حروب كثيرة مع الجبل والديلم وساحل جرجان^(٥٠) ونغر من أهل

الوردي، خريطة المجانب، ص ١٤٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٦٧ - ٤٦٨؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ١٠٣؛ الحميري، الروض الممطر، ص ١١١؛ Hudud al-'Alam, pp. 75, 216.

^(٤٦) يطلق المسعودي عليها اسم أمل، انظر، مروج الذهب، ج١، ص ١١٥ . والصحيح مدينة أتل الخزرية، كما يذكر الحميري، لأن أمل تقع في إقليم طبرستان . عن أمل انظر، الإصطخري، المسالك والممالك، ص ١٢٤؛ القنص، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (القاهرة، ١٩٩٢)، ص ٣٥٩ .

^(٤٧) طبرستان، هي مدن كثيرة وأصايل واسمة وبها عياض لا تحصى وأنهار ومياه واسمة، وبها عدة معادن أجلاها الذهب، وبها مزروعات كثيرة . انظر، أبو دلف، الرسالة الثانية، تحقيق/ بطرس بولغاكوف وأفس خاندوف، ترجمة / محمد منير مرسى، (القاهرة، ١٩٧٠)، ص ٨٢ - ٨٤ . ويدها شمالاً بحر الخزر، على مسيرة أقل من يوم منه، وشرقها جرجان . وطولها من الشرق إلى الغرب أربعون فرسفاً، وعرضها من الشمال إلى الجنوب عشرين فرسفاً . وعاصمة الإقليم مدينة أمل، انظر، الإصطخري، المسالك والممالك، ص ١٢٤؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٢٣ - ٣٢٤؛ الدمشقي، نخبه الدهر، ص ١٢٢٦؛ ابن العسيري، تاريخ الزمان، ترجمة / الأب لسنق رملة، (بيروت، ١٩٩١)، ص ١٨؛ أبو الفداء، تواريخ البلدان، ص ٤٣٢ - ٤٣٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٨٤ - ٣٨٦ .

^(٤٨) بلاد النغاطة، تسمى باكوه أو باكويه، وهي مدينة بنواحي دربند بقرب شروان، بها عين نطف عظيمة تبلغ قبالتها في كل يوم ألف درهم، وإلى جانبها عين أخرى تسيل بنطف أبيض كدهن النثيق، لا تنقطع نهجاً ولا ليلاً، تبلغ قبالتها مثل الأولى، وهذه المدينة كانت من أهم مصادر النطف في هذه المنطقة . عنها انظر، الإصطخري، المسالك والممالك، ص ١١٢؛ المسعودي، الإشراف، ص ١٦٩؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٥٧٨؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٤٥ .

Hudud al-'Alam, p. 145.

^(٤٩) انظر أيضاً، فيز اسكندر، الحياة الاقتصادية في أرمينية، (الإسكندرية، ١٩٨٨)، ص ٣٧ . أذربيجان، ناحية واسمة بين قهستان وأران . تحدها برذعة من الشرق، ولرزجان من الغرب، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم والجبل والظرم، وكانت حاضرتها كديما المراجعة ثم أصبحت تبريز . وبها مدن كثيرة وقرى وجبال وأنهار كثيرة . انظر، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٨٧ - ٢٩٠، ٢٩٩؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٢٨٤ - ٢٨٥؛ الدمشقي، نخبه الدهر، ص ١١٨٧؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ١٥٩ - ١٦١ .

^(٥٠) جرجان، يقول عنها الإصطخري "ولما جرجان فأكثر مدنها جرجان، وهي أكبر من أمل، وبنواها من طين، وهي أيسر تربة من أمل؛ وأقل مطراً وأنداء من طبرستان، وأهلها أحسن وقاراً ومروءة ويساراً في كبرائهم، وهي قطعتان إحداهما المدينة والأخرى بكراباز، بينهما نهر كبير يحتمل أن تجري فيه السفن..." انظر،

مودعة وأران^(٤٧) والسفان وأندريجان مع قائد لابن أبي الساج^(٤٨)، وقد انتهوا فسي هذه المرحلة من الهجوم إلى ساحل بلاد النفاطة، حيث كانت الروس تلأوى عند رجوعها إلى جزائر تقع بالقرب منها ثم تعاود الهجوم ثانية.

وعلى أثر هذه الكارثة خرج المسلمون وركبوا القوارب ومراكب التجار وساروا في بحر الخزر نحو تلك الجزائر ليهاجموا الروس، إلا أن الأخيرين تغلبوا عليهم وقتلوا جمعاً غفيراً منهم، كما غرق ما يقرب من الألف من المسلمين. ومن المحتمل أن رد الفعل الإسلامي هذا كان نتيجة استفاد حاكم شروان^(٤٩) المسمى على بن الهيثم. وقد استوطن الروس في هذه الجزائر شهوراً كثيرة حتى سئموا طول البقاء فيها، فحملوا ما أمكنهم من الغنائم وساروا نحو فم نهر أتل ومصبه ثم راسلوا خاقان الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم المتفق عليها. ولما علمت الأريسية والمسلمون المقيمون ببلاد الخزر بهذه الأحداث استأعوا وقالوا لخاقان الخزر: "... خلنا وهؤلاء القوم، فقد أغاروا على بلاد المسلمين، وسفكوا الدماء، وسبوا النساء والذرائر...". ولم يستطع خاقان الخزر منعهم، فبعث إلى الروس يخبرهم بما عزم عليه المسلمون من حربهم. ونزل المسلمون ومعهم خلق من النصارى مع نهر أتل؛ وكان عددهم عندئذ خمسة عشر ألفاً، يطلبون الروس للقتال. وما أن وقعت العين على العين حتى دارت رحى القتال بين الطرفين برأ، على مدى ثلاثة أيام. وقد انتهى الأمر بانتصار المسلمين عليهم وأخذوهم بالسيف بين قتيل وغريق، ونجا منهم خمسة آلاف فقط، ركبوا مراكبهم وهربوا عبر نهر أتل شمالاً. وعند بلاد البرطاس ترجلوا عن مراكبهم، فانقض البرطاس عليهم، كما أكمل عليهم بلغار الفولجا حتى بلغ عدد القتلى الروس على شواطئ النهر نحواً من ثلاثين ألفاً^(٥٠).

^(٤٧) المسالك والممالك، ص ١٢٥؛ أبو دلف، الرسالة الثانية، ص ١٨٧؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٣٤٨ - ٣٤٩؛ المقدسي، احسن التقاسيم، ص ٣٥٤؛ أبو الفداء، تواريخ البلدان، ص ٣٦.

^(٤٨) الزان، كورة من كور إقليم الرحاب، ومصبتها مدينة بردعة، انظر، المقدسي، احسن التقاسيم، ص ٣٧٤؛ أبو الفداء، تواريخ البلدان، ص ٣٨٦.

^(٤٩) هو أبو القاسم يوسف ابن أبي الساج، توفي ٣١٥ هـ / ٩٢٨ م، انظر، دنلوب، الخزر، ص ٢٨٢، ٣.

^(٥٠) شروان، مدينة من نواحي باب الأبواب، الذي تسميه القوس الدريد. بناها أنوشروان فسميت بإسمه، وهي مدينة عامرة كبيرة، بناؤها من الحجر وبها مسجداً. انظر، أبو الفداء، تواريخ البلدان، ص ٣٩٦ - ٣٩٧؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٥٨؛ المقدسي، احسن التقاسيم، ص ٣٧٦؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٦٠٠ - ٦٠١.

^(٥١) المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ١١٤ - ١١٦؛ الحميري، السروض المطار، ص ٣٤٠ - ٣٤١؛ دنلوب، الخزر، ص ٢٨٠ - ٢٨٢؛ كويستلر، الخزر، ص ١٤٤ - ١٤٢؛ Franklin & Shepard, Rus, p. 69.

ينبغي أن نشير إلى أن هذا الرقم لا يتناسب مع النتائج المسجلة التي افترضناها حول تعداد الجيش

وعلى هذا النحو فشلت هذه الحملة الروسية على بلاد القوقاز الإسلامية، وتم تدمير القوات الروسية بعنادها الحربى . وإذا كان الروس قد نجحوا فى احتلال بعض مناطق القوقاز الإسلامية بضعة أشهر وغنموا ما غنموا إلا أن نهايتهم على أيدي القوات الإسلامية كان لها أثر كبير عليهم فيما بعد . فقد أحجموا عن التوسع الخارجى سواء صوب الفولجا، أم نحو بيزنطة لمدة تقرب من الثلاثين عاماً تقريباً . ففى هذه الأثناء كان ايجور قد تولى الحكم بعد موت أولج، وكان لزاماً عليه أن يبسط سيادته أولاً على القبائل السلافية التى تقطن أيضاً بلاد الروس . فقد هاجم الدريفليسون الأراضى الروسية فى عام ٩١٣م، فاضطر ايجور لقتالهم فى عام ٩١٤م؛ كذلك هاجم البشناق الأراضى الروسية للمرة الأولى فى عام ٩١٥م، فاضطر لشن الحرب عليهم أيضاً فيما بين عامى ٩١٦ - ٩٢٠م^(٥١). ولا تمدنا الحولية الروسية الأولى بأية معلومات أخرى عن الحالة التى كان عليها الروس آنذاك، حتى قاموا بشن هجومهم على القسطنطينية فى عام ٩١٤م^(٥٢)، وعلى بلاد القوقاز فى عام ٩٤٣-٩٤٤م^(٥٣).

ومن المعروف أن الهجوم الروسى على القسطنطينية فى عام ٩٤١م قد انتهى بعقد معاهدة بين الطرفين فى عام ٩٤٥م، مع ملاحظة أن الروس كانوا يتأهبون لشن حملة تالية على القسطنطينية فى عام ٩٤٤م، لكن نجاح الدبلوماسية البيزنطية حال دون إتمامها . ولأى كان الأمر، فقد كانت معاهدة ٩٤٥م كسباً عظيماً للروس والبيزنطيين على حد سواء . وفى نفس الأونة تقريباً كان الروس يذقون أبواب القوقاز فى عام ٩٣٢هـ/ ٩٤٣ - ٩٤٤م^(٥٤).

وقبل أن ننتقل للحديث عن الهجوم الروسى على بلاد القوقاز الإسلامية فى عام ٩٣٢هـ/ ٩٤٣ - ٩٤٤م ينبغي علينا أن نتناول بالتحليل موقف المسلمين من خاقان الخزر وتحالفه مع الروس فى عام ٣٠٠هـ/ ٩١٣م .

الروسى، ومعاده المؤرخين فى ذلك الوقت لجا المسعودى إلى المبالغة لإبراز حجم المقاومة الإسلامية للروس. ولنا نستبعد أن يكون عدد القتلى الروس ثلاثة آلاف وليس ثلاثين ألفاً، ومع ذلك لا نستطيع تأكيد ذلك لافتقارنا إلى الأدلة التاريخية ليقى هذا الأمر محل افتراض.

^(٥١) R.P.C., p.71.

^(٥٢) R.P.C., p.72.

^(٥٣) Chadwik, Russian History, p. 61.

^(٥٤) يعتبر ابن مسكويه هو الراوى الرئيسى لهذه الحملة، ونقل عنه باقى المؤرخون المسلمون، وقد تون رويته عن تلك الأحداث نقلاً عن شهود عيان ذكرهم بالإسم أثناء سرده للأحداث؛ لذلك سيكون ابن مسكويه مصدراً الأول الأمين عن هذه الحملة .

لقد ورد في سياق نص المسعودي عن هذه الحملة أن الأريسية والمسلمين المقيمين في بلاد الخزر اعترضوا على خاقان الخزر وأنهم هم الذين تولوا عبء المقاومة ضد الروس والانتقام منهم . وهذا يدفعنا بطبيعة الحال إلى إثارة تساؤل هام: هل كان المسلمون يشكلون جبهة قوية في خزاريا تقف في وجه الخاقان ؟ ولماذا لم يمنعوا الروس من البداية ويحولوا دون الهجوم على ذويهم في القوقاز ؟ ولماذا اشترك البرطاس وبلغار الفولجا في الهجوم على الروس والنيل منهم ؟

يقول الإصطخرى، وهو من أقدم الجغرافيين المسلمين، عن سكان خزاريا*... والخزر مسلمون ونصارى ويهود وفيهم عدة أوثان، وأقل الفرق اليهود، وأكثرهم المسلمون والنصارى، إلا أن الملك وخاصته يهود ... وللملك سبعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان...^(٥٥). ويؤكد ابن حوقل نفس كلمات الإصطخرى بقوله*... وفيهم خلق من المسلمين يزيدون على عشرة آلاف مسلم، وبها نحو ثلاثين مسجداً ... والملك يهودى ... وبهاتين الناحيتين مسلمون ونصارى وعبدة الأوثان، وأقل الفرق منهم اليهود وأكثرهم المسلمون، إلا أن الملك وخاصته يهود^(٥٦).... أما المسعودي فينفرد برواية أكثر دقة وتفصيلاً من هذين الجغرافيين عن وضع المسلمين في بلاد الخزر آنذاك .

يقول المسعودي^(٥٧)*... والغالب في هذا البلد المسلمون، لأتباع جند الملك، وهم يعرفون في هذا البلد بالارشيّة، وهم نازلة من نحو بلاد خوارزم، وكان في قديم الزمان بعد ظهور الإسلام وقع في بلادهم جند ووباء فانتقلوا إلى ملك الخزر وهم ذوو بأس وشدة، وعليهم يعول ملك الخزر في حروبه . وأقاموا في بلده على شروط من بينها أحدها إظهار والمساجد والأذان وثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم. والوزير في وقتنا هذا منهم هو أحمد بن كويه وثالثها أنه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا في عسكره منفردين عن غيرهم، لا يحاربون أهل ملتهم، ويحاربون معه سائر الناس من الكفار ... ولهم قضاة مسلمون . ورسم دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة، إثنان منهم للمسلمين وإثنان للخزر يحكمون بحكم التوراة، وإثنان لمن بها من النصرانية يحكمون بحكم النصرانية، وواحد منهم للصقالية والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية ... وكل مسلم من تلك الديار يعترف بأسماء

^(٥٥)المسالك والممالك، ص ١٢٩ .

^(٥٦)صورة الأرض، ص ٣٩٠ .

^(٥٧)سراج الذهب، ج١، ص ١١٤ - ١١٦، نطوب، الخزر، ص ٢٨٠ - ٢٨٢، كويستلر، الخزر، ص ١٤٢ - ١٤٤ .

هؤلاء القوم اللارثية ... وفي بلاده خلق من المسلمين تجار وصناع غير اللارثية ...
ولهم مسجد جامع، والمنارة تشرف على قصر الملك، ولهم مساجد أخرى فيها المكتتب
لتعليم الصبيان القرآن، فإذا اتفق المسلمون ومن بها من النصاري لم يكن للملك بهم
طاقة وعلى هذا النحو يمكننا إجمال كلمات المؤرخين والجغرافيين المسلمين عن
وضع المسلمين في بلاد الخزر :

أولاً، كان السكان المسلمون في خزاريا هم الأغلبية الساحقة بتعدادهم الذي كان
يبلغ عشرة آلاف مسلم، وبما لهم من مساجد بلغت ثلاثين مسجداً غير المسجد الجامع .
ثانياً، كانت الأقلية من اليهود، الذين كان منهم الخاقان نفسه، وتعدادهم أربعة آلاف
يهودي^(٥٨) . ثالثاً، كان الخاقان يعتمد على المسلمين في حروبه، حيث كانت غالبية
الجيش الخزري، الذي كان قوامه اثني عشر ألف مقاتل من المسلمين . رابعاً، كان
خاقان الخزر يضع في حسبانته العواقب الوخيمة التي تعود عليه من اتحاد المسلمين مع
النصارى، حيث قال المسعودي '... لم يكن للملك بهم طاقة ...'، وهو ما حدث بالفعل
إزاء رد الفعل الإسلامي تجاه تحالف الخاقان مع الروس ضد المسلمين، فقد تحالف
المسلمون مع النصاري ضد خاقان الخزر والروس . ومن ثم أسرع الخاقان بإبلاغ
الروس بما سيحدث لهم من جراء هذا التحالف الإسلامي - المسيحي .

لقد أخذ خاقان الخزر بالشروط التي أملاها عليه المسلمون مقابل الإقامة
والخدمة العسكرية في الجيش الخزري؛ ويبدو أنه تحالف مع الروس سراً وسمح لهم
بالممر عبر أراضيهم لمهاجمة بلاد القوقاز الإسلامية مقابل الحصول على نصف
الغنائم . وعندما اكتشف المسلمون المقيمون في خزاريا هذا التحالف، بعد هجوم
الروس على بلاد القوقاز، ثاروا على خاقان الخزر وتحالفوا مع النصاري وقرروا
جميعاً قتال الروس . وهكذا خرج المسلمون والنصارى لقتال الروس وأنزلوا بهم
هزيمة فادحة ولوا على أثرها الأديار عبر نهر أتل . أما الشيء الذي يثير الحيرة هو
إجهاز البرطاس والبلغار على قلوب الروس الهاربة عبر نهر أتل !!

يشير معظم الجغرافيين المسلمين إلى أن البرطاس أمة كانت تعيش بين خزاريا
جنوباً وبلغار شمالاً ويخضعون لخاقان الخزر، ولهم لسان مختلف عن لسان من
جاورهم من الأمم وأنهم كانوا مسلمين^(٥٩) . أما البلغار فكانوا يعيشون شمالاً على

^(٥٨) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ١١٢٩ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٩٠ .

^(٥٩) القزويني، آثار البلاد، ص ٥٧٩؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ١٢٧؛
Hudud al-'Alam, p. 162. ولمزيد من التفاصيل انظر الفصل التالي من البحث

ضفاف نهر الفولجا وعاصمتهم مدينة بلغار، وكانوا يدينون بالإسلام أيضاً، ولهم مسجد جامع^(١٠). وقد كانوا يقفون دائماً في وجه الروس لمنعهم من التوسع صوب مصبات الفولجا^(١١). وبالرغم من الحروب والمنازعات التي كانت تقع بين البرطاس والبلغار^(١٢) إلا أنهم كانوا يتحدون عند ظهور عدو لهم^(١٣). وعلى هذا يمكن تفسير هجوم البرطاس والبلغار على الروس عند فرارهم أمام المسلمين عبر نهر أثل . فوحدة المصير على ضفاف الفولجا بين هذه الأمم كانت دافعا لهم للوقوف لا أمام الروس فحسب بل أمام خاقان الخزر أيضاً .

والآن بحثنا ابن مسكويه^(١٤) عن هجوم الروس على بلاد القوقاز الإسلامية في عام ٩٤٣هـ / ٩٤٤م . فيروي أن الروس قد ركبوا البحر الذي يلي بلادهم إلى نهر يعرف بالكر^(١٥)؛ ولما وصلوا إليه توجه إليهم صاحب المربان [هو المربان بن محمد أي ابن محمد بن مسافر] وخليفته على برذعة^(١٦)، وكان في ثلاثمائة رجل من الذئلم ونحو من عددهم صماليق^(١٧) وأكراد؛ واستنفر العامة

^(١٠) الإصطخرى، المسالك والممالك، ص ١٣١ - ١٣٢ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٣٩٦ المروزي، طبائع الحيوان، ص ٤٤ .

^(١١) بارتولد، و.. تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة / أحمد السيد سليمان، (القاهرة، ١٩٥٨)، ص ٦٨ .
^(١٢) فكريزي، زين الأخبار، ص ٤٦٥ المروزي، طبائع الحيوان، ص ٢٦ الحميري، الروض المصنوع، ص ٨٨ .

^(١٣) تجارب الأمم، ج١، ص ٦٢ - ٦٥ . انظر أيضاً، Franklin & Shepard, Rus', p. 147 .
^(١٤) يبدو أن الطريق الذي سلكه الروس في هذه الحملة كان مختلفا تماما عن سابقه في حملة ٩١٣م . فالبحر الذي

يلى بلادهم هو بحر بونتس وليس بحر الخزر، الذي اتجهوا منه إلى نهر الكر . والدليل على ذلك أولا: عدم وجود ذكر للخزر أو خاقانهم، مما يدل على أن الروس اتبعوا طريقا مختلفا عن سابقه، ورغم وجود الفسز كقوة سبائية في حوض الفولجا الأدنى . ثانيا : أن ابن مسكويه يذكر أنهم قطعوا هذا البحر إلى نهر عظيم يعرف بالكر، أي أن المرحلة الثانية في سيرهم كانت إلى نهر الكر مباشرة . ويبقى التساؤل، كيف وصلوا بمراكبهم من بحر بونتس إلى نهر الكر، ورغم عدم اتصالهما ببعضهما البعض؟ وربما يكونون قد حللوا مراكبهم في المسافة الواقعة فيما بين بحر بونتس ونهر الكر، مثلما كانوا يفعلون عند عبورهم شلالات الفبير، حسب وصف قسطنطين بورغرونجنوتوس.

^(١٥) نهر الكر، يقع في أرمينية ويمر من المغرب إلى المشرق، ويخرج من جبال أذربيجان وأرمينية، ويصب في بحر الخزر . وهو نهر كبير تجري فيه السفن، وتقع عليه مدينة تقيس وبرذعه وغيرها، انظر، الإدريسي، نزهة المشتقى، ص ١٨٣٠ ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج١، ص ٦٢ .

^(١٦) برذعة، مدينة كبيرة للقبيلة، مباحثها أكبر من فرسخ في فرسخ، وهي قصبة إقليم آران، ومقر ملك هذا الإقليم؛ وهي ذات أهمية اقتصادية وتجارية قل أن تجد لها مثيلا بين مدن المنطقة . لمزيد من التفاصيل عنها، انظر، الإصطخرى، المسالك والممالك، ص ١٠٨ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٢٢، إيسو القاء، تعويم البلدان، ص ٤٠٣، النمشقي، نخبة الدهر، ص ١٨٩ المقدسي، احسن التقاسيم، ص ٢٧٥، القنطشدي، صبح الأعشى، ج١، ص ٢٦١ الحميري، الروض المصنوع، ص ٨٧ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ١٢٠ - ١٢١
^(١٧) صماليق صحتها صماليك وهي جمع صملوك . والمصملوك هو الفقير، انظر، المعجم الوجيز، (القاهرة، ١٩٩٠)، ص ٣٦٥ .

فخرج معه من المطوعة نحو خمسة آلاف رجل لجهاد هؤلاء، وكانوا مغتربين، لا يعرفون شدتهم، وحسبوا أنهم يجرون مجرى الأرمن والروم . فلما صافوهم الحرب لم تكن إلا ساعة حتى حملت الروسية حملة منكرة فهزموا العسكر وولت المطوعة جميعا وسائر العسكر إلا الذيل، فإتبعهم شتوا ساعة فقتلوا كلهم، إلا من كان بينهم فارس، وأتبعوا الفل إلى البلد، فهرب كل من كان له مركوب بجملة من الجند والرعية، وتركوا البلد فنزلته الروسية وملكوه^(٦٩). وهكذا استولى الروس على مدينة برذعة، وعندما دخلوها نادوا في أهلها أنه "لا منازعة بيننا وبينكم في الدين وإنما نطلب الملك، علينا أن نحسن السيرة وعليكم حسن الطاعة". ولم ينصت المسلمون إليهم بل جاءت الجند من كل صوب وحذب، فكانوا "يخرجون إليهم ويهزمونهم. وكان أهل برذعة يخرجون معهم، فإذا حمل عليهم المسلمون كبروا ورجموهم بالحجارة، فكانت الروسية تتقدم إليهم بأن يضبطوا أنفسهم ولا يدخلون بين السلطان وبينهم فيقبل أهل السلامة خاصة، أما العامة ومعظم الرعا فكانوا لا يضبطون أنفسهم ويظهرون ما في نفوسهم ويتعرضون لهم ... فلما طال عليهم ذلك نادى مناديتهم ألا يقيم في البلد أحد من أهلهم، وأجلوهم ثلاثة أيام من يوم نذاتهم . فخرج كل من كان له ظهر يحمله، ويحمل حرمه وولده، وهم نفر يسير وجاء اليوم الرابع والأكثر مقيمون، فوضعت الروسية فيهم سيوفهم، فقتلوا خلقا عظيما لا يحصى عددهم وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف رجل وغلّام مع حرمهم ونسائهم وبناتهم . وجعلوا النساء والصبيان في حصن داخل المدينة، وهى شيرستان ... وكانوا قد نزلوه وعسكروا به وتحصنوا فيه؛ ثم جمعوا الرجال إلى المسجد الجامع ووكّلوا بابوابه وقالوا لهم اشترؤا أنفسكم^(٧٠). وإذا كان ابن مسكويه لم يذكر عدد قتلى المسلمين صراحة فإن ابن العبري ذكر أن الروس قتلوا زهاء عشرين ألف نسمة من المسلمين^(٧١). وقد أشار مؤلف حدود العالم إلى أن الروس أقاموا معسكرهم في قرية كبيرة عند باب برذعة تسمى مباركي^(٧٢).

وقد كان بالبلدة كاتب نصراني له رأى سديد يعرف بلابن سمعون^(٧٣)، وكان يسعى في السفارة بينهم، ووافق الروسية أن يبتاع كل رجل منهم بعشرين درهما .

^(٦٩) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص ٩٢ - ٩٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٢٩٧ .

^(٧٠) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص ٦٣ .

^(٧١) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٥٨ .

^(٧٢) Hudud al-'Alam, p. 144.

^(٧٣) قد يشير هذا الاسم لأن يكون الكاتب يهوديا، لأن اسمه من الأسماء اليهودية؛ ومع هذا لا يمكننا أن نجزم بهذا لأن ابن مسكويه ينقل عن شهود عيان من ضمنهم المزيان نفسه، كما أن سمعون هو تعريب للمسمى الأجنبي Symeon وهو من المسميات المسيحية أيضا .

فوافقه على ذلك عقلاء المسلمين وخالف الباقون وقالوا : إنما يريد ابن سمعون أن يلحق المسلمين بالنصارى في أداء الجزية . فأسسك ابن سمعون وتوقف الروسية عن قتل الرجال طمعا في هذا القدر اليسير، أن يحصل لهم من جهنم . فلما لم يحصل لهم شيء وضعوا فيهم السيوف، فقتلهم عن آخرهم إلا عددا يسيرا أخرجوا في قناة ضيقة كانت تحمل الماء إلى المسجد الجامع، وإلا من اقتنى به نفسه بذخيرة كانت له . وربما وافق الواحد من المسلمين الروسي على مال يقتنى به نفسه فحضر معه إلى منزله أو حانوته، فإذا استخرج ذخيرته وكانت زائدة على مال وموافقة، لا يمكن صاحبها منها وإن كانت أضعافاً مضاعفة عليه، وعطف بالمطالبة حتى يجتاحه . فإذا علم أنه لم يبق له عين ولا ورق ولا جواهر ولا فرش ولا كسوة أفرج عنه وأعطاه طيناً مختوماً يلصق به من غيره، فاجتمع لهم من البلاد [برذعة] شيء عظيم يجلب قدره، ويعظم حظره؛ وكانوا قد حازوا النساء والصبيان فقجروا بهن وبهم واستعبدهم^(٧٤). على هذا النحو كان سلوك الروس مع أهل برذعة، ولا تساعدنا الروايات التاريخية سواء عند ابن مسكويه أو من نقلوا عنه، على معرفة السبب الحقيقي الذي دفع بكاتب برذعة النصراني للقيام بالوساطة بين الروس والمسلمين، فلا يقدم ابن مسكويه سببا سوى أن هذا الرجل عرف عنه السداد في الرأي !

"ولما عظمت المصيبة التي حلت بالمسلمين في برذعة وانتشر خبرها بين البلدان الإسلامية المجاورة تنادوا بالنفیر؛ وجمع المرزبان ابن محمد عسكره واستنفر الناس وأتاه المطوعة من كل ناحية فصار في ثلاثين ألف رجل فلم يقاوم الروسية مع إجماع هذه العدة، ولا أمكنه أن يؤثر فيهم أثراً . فكان يغاديهما القتال ويراجعه، وينقلب عنهم مغلولاً؛ واتصلت الحرب بينهما على هذه الصورة أياما كثيرة، فكانت الدبرة أبداً على المسلمين". وعندما وجد المرزبان ابن محمد أن الدائرة تدور على المسلمين على هذا النحو فكر في عمل حيلة حربية، خاصة وأن الأتباء وصلته بأن الروس عندما وصلوا المراجعة^(٧٥) تبسطوا في أكل الفاكهة، وكانت متعددة الأنواع هناك، فمضوا وحل بينهم الوباء، لأن بلادهم لا تنبت فيها هذه الأنواع من الفاكهة، وكانت حيلة المرزبان على النحو التالي : "... فكر المرزبان في الحيلة، ووقع له أن يكمن لهم ليلاً . وواطأ^(٧٦) عسكره أن يبادروا الحرب، فإذا حمل عليهم القوم انهزم هو وانهزموا معه وأطمعهم

^(٧٤) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص ٦٣ - ٦٤ .

^(٧٥) المراجعة، إحدى مدن لوزيبجان وتلي أرنديل في الكير، وكانت في قديم الأيام المعسكر ودار الإمارة وكان عليها سور خربه ابن أبي الساج . فظهر الاصطخري، الممالك والممالك، ص ١٠٨ .

^(٧٦) واطأ (فأطأ) فلأنا على الأمر أي وافقه، انظر، المعجم الوجيز، ص ٦٧٣ .

بذلك في العسكر والمسلمين . فإذا تجاوزوا موضع الكمين عطف المرزبان ورجاله عليهم، وصاحوا بالكمين بشعار وافقوا عليه، فإذا حصر الروسية في الوسط تمكنوا منهم. فلما أصبحوا على هذه المكيدة تمكنوا منهم تقدم المرزبان وأصحابه، وبرز الروسية وأميرهم [المقصود هنا قائدهم] راكباً حمراً . وخرج رجاله واصطفوا للحرب فجروا على عادتهم وانهزم المرزبان والمسلمون واتبعهم الروسية حتى تجاوزوا موضع الكمين واستمر الناس على هزيمتهم^(٧٧).

وعندما رأى المرزبان ابن محمد هذه الحالة التي عليها المسلمون "صاح بهم واجتهد بهم أن يراجعوا الحرب فلم يفعلوا، لم تمكن في قلوبهم من هيبته، وهنا علم أن استمر الناس على هزيمتهم عاد القوم فلم يخف عليهم موضع الكمين فيكون ذلك هلاكهم" . ويقول المرزبان أنه عاد بمفرده مع خاصته وعلماؤه وبعض من تبعهم إلى ميدان القتال . وعندئذ نادى المرزبان على الكمين فخرجوا من مكمنهم وتمكنوا من الروس حتى قتلوا سبعمائة منهم كان من بينهم قائدهم، بينما فر الباقون إلى حصن المدينة ليتمحصنوا به؛ وكانوا قد شحنوه بغلال كثيرة وميرا عظيمة، وحشدوا فيه السبايا والأموال التي غنموها، وقد اشتد المرزبان في قتالهم، إلا أنه لم يستطع أن يظفر بهم، فلم تكن له حيلة حينئذ سوى الصبر عليهم^(٧٨). وفي هذه الأثناء وقعت بعض القلاقل السياسية في بغداد، كان من آثارها محاولة خلع المرزبان ابن محمد بن مسافر، فاضطر إلى ترك بضعة آلاف من رجاله ومن المتطوعين لقتال الروس، ومضى بقواته لقتال ابن عبد الله الحسين بن سعيد الذي جاء للاستيلاء على أذربيجان^(٧٩).

ولم يزل أصحاب المرزبان وجنودهم يقاتلون الروس ويحاصروهم في الحصن، إلى أن ضجر الروس من طول الحصار لاسيما بعد انتشار المرض بينهم. وكان الرجل إذا مات منهم دفنوا معه سلاحه وثيابه وآلته وزوجته أو غيرها من النساء^(٨٠) وغلّاه إن كان يحبه على سنة لهم^(٨١). وعندما رأى المسلمون هذا نبشوا قبورهم واستخرجوا

^(٧٧) حتى هذا الجزء من الأحداث كان ابن مسكويه ينقل عن أحد شهود العيان ويدعى أبو العباس ابن نادر، انظر، تجارب الأمم، ج٦، ص ٦٣ . أما الأحداث التالية فينقلها عن لسان المرزبان نفسه، انظر، تجارب الأمم، ج٦، ص ٦٥ .

^(٧٨) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص ٦٥ .

^(٧٩) عن هذه الأحداث انظر، ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص ٦٥ - ٦٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٢٩٨ .

^(٨٠) يشير هذا إلى أن الروس اصطحبوا معهم نساءهم وزوجاتهم في الحروب، وهو الأمر الذي رأيناه فيما بعد عند قتالهم للبيزنطيين أمام دريسترأ سنة ٩٧١م بقيادة أميرهم سيفاتوسلاف .

^(٨١) عن طقوس دفن الموتى عند الروس، انظر، ابن فضلان، الرسالة، ص ١٨٠ - ١٨٧؛ الكندي، زين الأخبار، ص ٤٧٥ .

منها سيوفاً يتنافس فيها إلى اليوم لمضائها وجودتها^(٨٢). ونظراً لتناقص عدد السروس رويدا رويدا خرجوا من حصنهم أيلًا، وحملوا على ظهورهم كل ما أمكنهم من المال والجواهر والثياب الفاخرة، وأحرقوا الباقي، واصطحبوا معهم من استحسنوه من النساء والفتيات والصبيان، ومضوا إلى نهر الكر وهناك كانت السفن فى انتظارهم مع ملاحبها وثلاثمائة رجل من الروس ... وعلى هذا النحو رحلوا عن البلاد^(٨٣). ويضيف ابن الأثير أن أصحاب المرزبان عجزوا عن اتباعهم وأخذ ما معهم فتركوهم، وطهر الله البلاد منهم^(٨٤). وقد استمر احتلال الروس لمدينة بردعة والمناطق المجاورة لها عاما كاملاً^(٨٥).

وبعد انتهاء ابن مسكويه من روايته عن الهجوم الروسى على القوقاز ٣٣٢هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤م، تقابلنا عدة ملاحظات تاريخية، إزاما علينا عرضها وتحليلها قدر المستطاع .

أولاً : لا تبدو لنا أسباب واضحة حتى الآن لهجوم الروس على بردعة غير الأسباب السياسية، والتي أشار إليها ابن مسكويه فى سياق حديثه عنه؛ فقد ذكر أن

^(٨٢) سيوفهم صفائح جملية أفريقية . انظر، ابن فضلان، الرسالة، ص ١٧٥ . أما البيروني فقد أسهب فى الحديث عن سيوف الروس وكيفية صناعتها، انظر، كتاب الجماهير فى معرفة الجواهر، (جندر آباد، ١٣٥٥هـ)، ص ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٤ .

^(٨٣) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٢، ص ٦٢ - ٦٥ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، (القاهرة، دت)، ص ١٢٠٨ المروزي، طبائع الحيوان، ص ١٢٣ ابن الجبري، تاريخ الزمان، ص ١٥٨ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٣٩ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ١٣٠١ كويستلر، الخزر، ص ١٤٥ دنلوب، الخزر، ص ٣١٨ - ٣١٩

Chadwik, *Russian History*, pp. 52 - 58; Vernadsky, *Crimea*, p. 256.

^(٨٤) ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص ٢٩٧ . هناك رواية للمؤرخ الأرمنسى موسى الكالانكاتوكى *Moses of Kalankatuk*، نقلها لنا شالويك . تختلف بعض الشئ عن تلك التى رواها ابن مسكويه . وموضع الخلاف بينهما هى فى قوله "... وفى نفس الوقت انتشر هناك شعب، اجنبى الشكل، جاء من بلاد الشمال، وكان لسه ظهورا غريبا، وهو ما يطلق عليه اسم *Ruzik* . وقد وصل الى بحر قزوين فجأة فى غضون ثلاثة أيام، واستولى على بردعه لىسميها بارتاف *Partav*، وأخضعوها للسيف . وهذه المدينة لم تكن لديها أية وسائل دفاعية، وتصرفوا بحرية مع كل فئات الشعب . وقد حاصرهم السلاسل نفسه، إلا أنه لم يستطع تدميرهم بسبب تداعى قوته العسكرية . لكن نسوة المدينة، اللاتى عرفن الطريق لذلك، صنعتن شرايا روسيا أسموه كسوب الموت . ولما علم الروس بالخدمة قاموا بتقطيع النساء وإيقاعهم دون رحمة . وبعد أن استمروا فى هذا ستة أشهر تركوا المدينة خاوية مقفرة . أما البقية الباقية فقد عادت الى أراضيها، بطريقة مجهولة لنساء . ومعهم غنائم من كل نوع . وقد أظهر المؤلف الأرمنى هذا أن الروس مكثوا ستة أشهر وليس عاما كما ذكرت المصادر الإسلامية، وأن الحملة وقعت فى عهد السلاسل محمد بن مسافر وليس فى عهد ابنه المرزبان ابن محمد بن مسافر . ويفسر شلويك هذا بأن المرزبان ابن محمد بن مسافر كان قد لبر إليه، وأنه كان على قيد الحياة عند وقوع الهجوم الروسى على بردعة، ومن ثم فقد اختلط الأمر على موسى الكالانكاتوكى . ويميل الباحث إلى رواية ابن مسكويه تماما لأنه نقلها بدقة شديدة عن شهود عيان كان منهم المرزبان نفسه . عن رواية موسى الكالانكاتوكى ومناقشتها، انظر، Chadwik, *Russian History*, pp. 55 - 56.

^(٨٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ١٣٠١ كويستلر، الخزر، ص ١٤٥ .

الروس عندما دخلوا برذعة قالوا لأهلها " ... لا منازعة بيننا وبينكم في الدين، وإنما نطلب الملك وعلينا أن نحسن السيرة وعليكم حسن الطاعة"^(٨٦)...". ومن هذه العبارة يمكن استنتاج أن الروس كانوا يسعون إلى التوسع الخارجي فيما وراء نهر الفولجا، الذي كان تحت سيادة الخزر والبلغار بالدرجة الأولى، ولم يكن هدفهم هدفاً دينياً، فحتى ذلك الوقت كان الروس من عبدة الأوثان؛ وقد أشاروا إلى ذلك صراحة في حديثهم لأهل برذعة . أما الدافع الاقتصادي فلا يمكننا الجزم به الآن، إلا بعد عرض الأهمية الاقتصادية لبلاد القوقاز الإسلامية، وهو ما نرجئه قليلاً لحين الانتهاء من استعراض باقي الحملات الروسية عليها .

ثانياً : انعدام رد فعل الخلافة العباسية في بغداد تجاه هذه الأحداث التي وقعت على بعد عدة أميال منها، وليس من المستبعد بطبيعة الحال أن تكون أخبارها قد وصلت إلى بغداد نفسها^(٨٧). واقتصرت المقاومة الإسلامية للروس على المجاهدين المحليين والبلاد المجاورة. ومن المعلوم أن الخلافة العباسية في هذه الفترة من عمرها، العصر العباسي الثاني، كانت تمر بأحلك فترات عمرها، حيث الوزراء العجم والترك الذين سيطروا عليها وكان جل اهتمامهم هو الإبقاء على الخليفة العباسي بين جدران قصره والهيمنة على شئون الخلافة في كل أرجائها. وليس أدل على ذلك من القتال الذي دار بين ناصر الدولة ومعز الدولة عقب وفاة توزون في بغداد، وإرسال أبو عبد الله الحسين بن سعيد للاستيلاء على أنديجان في نفس الوقت الذي كان المرزبان ابن محمد بن مسافر يجاهد فيه ضد الروس^(٨٨).

ثالثاً : عدم لجوء الروس إلى خاقان الخزر، الذي لم يرد له ذكر في الأحداث، على الرغم من أن الخزر كانوا قوة سياسية في منطقة الفولجا الأدنى . وقد ثبت لنا أن الروس اتخذوا طريقاً مغايراً عند هجومهم على برذعة، غير الذي سلوكه في حملتهم السابقة في عام ٣٠٠هـ / ٩١٣م على بلاد القوقاز الإسلامية . ومن خط سير حملة الروس في عام ٣٣٢هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤م على برذعة يمكننا استنتاج أن الروس تجنبوا الاصطدام بالخزر، فقد رحلوا عبر بحر بونتش ومنه مباشرة إلى نهر الكر، الذي يقع خلف جبال القوقاز . فلماذا إذن تجنب الروس الخزر، ولم يتحالفوا معهم

^(٨٦) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص ٦٣ .

^(٨٧) حدث في حملة الروس على أيسكون في عام ٩١٠م أن كتب أبي درغام أحمد بن القاسم إلى أبي العباس يخبره بما حدث، ومع هذا انعدم رد فعل الخلافة العباسية. انظر،

Ibn Sfandiyar, *Tabaristan*, p. 198.

^(٨٨) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص ٦٥ - ٦٦ .

كالمرة السابقة؟ ليس هناك ثمة شك في أن الضغط الداخلي الذى مارسه الأغلبية المسلمة على خاقان الخزر جعلته يفكر بدلاً من المرة ألف مرة قبل أن يقدم على محالفة الروس، ومن ثم لم يكن بمقدوره التحالف معهم في هذه المرة. وقد يكون من المحتمل أن الروس بعثوا إليه يطلبون مثل هذا الطلب، إلا أنه لم يكن فى استطاعته الموافقة، ومن ثم تحتم على الروس تغيير خط سيرهم نحو برذعة .

جدير بالذكر أن العلاقات بين الخزر والروس قد أصابها بعض التوتر عقب حملة الروس الفاشلة على القوقاز في عام ٣٠٠هـ / ٩١٣ م . فبعد أن نفذ الروس اتفاقهم مع خاقان الخزر وبعثوا له بنصف الغنيمة تخاذل في حمايتهم، وهم يعبرون عبر أراضي في نهر أتل، بدليل هجوم البرطاس عليهم وهم من أتباعه، ثم هجوم البلغار عليهم أيضا. ومما قد يؤكد زعمنا هذا تلك العبارة الهامة التي وردت عند خاقان الخزر يوسف في خطابه إلى حسداى بن شبروط بالأنكلس^(٩٠). يقول الخاقان يوسف "... وأنا أحرس بعون الله، مصب النهر [الفولجا]، ولا أسمح للروس القادمين في سفنهم أن يغزوا بلاد العرب ...، ولنا أخوض ضدهم [الروس] حروباً ضارية؛ لأننى إذا أنتت لهم بذلك فسوف يكتسحون بلاد المسلمين ربما حتى بغداد^(٩١). ولنا يصد تحليل هذه العبارة بل ما يهمنا منها هو ما تعكسه من حرص الخاقان على عدم السماح للروس بمهاجمة الأراضي الإسلامية، وليس هذا بطبيعة الحال حياً في المسلمين، فما أكثر الحروب التي دارت بين الجيوش الإسلامية وبين الخزر بدءاً من عصر الخلفاء الراشدين وحتى عصر الدولة الأموية^(٩٢)، ولكن نتيجة لضغط الأغلبية المسلمة التى تعيش في خزاريا في القرن العاشر الميلادى، والتي كان يعتمد عليها خاقان الخزر في حروبه في المنطقة؛ بالإضافة إلى مدى الخطر الذى يشكلونه في خزاريا إذا اتحدوا مع النصارى هناك أيضا ضد الخاقان . لأجل هذا كان محتماً على خاقان الخزر أن يحجم عن التعاون العسكرى مع الروس في حملتهم على برذعة سنة ٣٠٠هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤ م . ومما زاد التوتر بين الطرفين ذلك الهجوم الذى قام به الروس ضد الخزر بإيحاء من بيزنطة في الفترة من عام ٩٣٢ - ٩٤١م؛ والذي على أثره لم يظهر دور

^(٩٠) ولد حسداى بن شبروط سنة ٩١٠م في قرطبة لأمره يهودية، اشتغل بالطب والوزارة في عهد عبد الرحمن الثالث . وعثما علم بوجود مملكة اليهود تسمى خزاريا أرسل إلى ملكها يستفسر منه عن ماهيتها وطبيعتها وعنه هو نفسه . وقد رد عليه خاقان الخزر المسمى يوسف آنذاك بخطاب وصل البناء غاية في الأهمية . وتعرف هذه المراسلات باسم المراسلات الخزرية، وتنسب إلى النصف الثاني من القرن العاشر الميلادى . انظر، كويستلر، الخزر، ص ٧٩ - ٩٥، دنلوب، الخزر، ص ١٧٦ - ٢١٢ .

^(٩١) نقل عن : كويستلر، الخزر، ص ٩٣ .

^(٩٢) انظر، دنلوب، الخزر، ص ٧١ - ١٣٤ .

للخزر في حملة الروس هذه على بلاد القوقاز الإسلامية . وعلى هذا ينبغي أن نذكر أن هذا الإحجام الخزري قد خلق توتراً في العلاقات بين الخزر والروس مما سبب عواقب وخيمة فيما بعد^(١٢)

رابعاً : الملاحظة الأخيرة التي تلفت النظر هنا هي تبين مدة احتلال الروس لبلاد القوقاز الإسلامية . ففي عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ - ٩١٣ م احتل الروس الجزائر الواقعة بالقرب من أبسكون وبلاد النفاطة بضعة شهور . وفي عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤ م احتلوا برزعة سنة كاملة . وإن دل هذا فإنه يدل على ازدياد مؤشر القوة الروسية في المنطقة في خلال ثلاثين عاماً على الأقل، وليس أدل على ذلك من أن الروس قاموا بشن حملتين على القسطنطينية في غضون أربعة أعوام . ففي عام ٩٤١ م شن إيجور حملته الفاشلة على القسطنطينية وانسحب إلى بلاده ثم أعاد الكرة نفسها في عام ٩٤٤ م، إلا أن الدبلوماسية البيزنطية المحنكة أثبتت عن استكمالها؛ وفيما بين هذين التاريخين شن الروس حملة على برزعة . إذن قام الروس بثلاث حملات خارجية في الفترة من ٩٤١ م - ٩٤٤ م، كانت جميعها تهدف إلى التوسع الخارجي؛ مما يدل على ازدياد قوتهم العسكرية آنذاك، وهو ما سينجلي تماماً في غضون العتدين التاليين في عهد الأمير الروسي سفياتوسلاف .

وبعد .. هل توقف الروس عن حملاتهم على بلاد القوقاز الإسلامية عقب حملتهم على برزعة في عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤ م ؟ لقد توقف الروس لمدة قد تزيد على الأربعين عاماً عن شن حملات على بلاد القوقاز الإسلامية ويذكر المؤرخون أن هناك حملتين وقعتا في أعوام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م، ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م على بلاد القوقاز الإسلامية، دون أن نعرف وجهتيهما على وجه التحديد . والمصدر الإسلامي الوحيد الذي يتحدث عن هاتين الحملتين هو كتاب جامع الدول، لأحمد بن لطف الله منجم باشي، الذي لم تشر أجزاء كبيرة منه تتحدث عن نشاط الروس العسكري في بلاد القوقاز الإسلامية في هذه الفترة^(١٣). وهنا سوف نلاحظ أن المدة التي توقف فيها النشاط العسكري للروس في بلاد القوقاز الإسلامية كانت طويلة إلى حد ما مما يدفعنا إلى أن نقبل ببصرنا في سماء الروس في هذه الفترة عسى أن نجد تفسيراً لهذا.

لقد قتل الأمير الروسي العظيم إيجور في عام ٩٤٥ م كما عرفنا، وانضغلت أرملة أولجا، الوصية على العرش، بالانتقام من قتل زوجها؛ ثم قيامها بزيارة

^(١٢) لمزيد من التفاصيل انظر، الفصل التالي من البحث، ص ٣٣ وما بعدها .
^(١٣) Minorsky, V., *Studies in the Caucasian History*, (London, 1953), p. 76.

القسطنطينية في عام ٩٥٧م وكذلك اهتمامها بشئون البلاد . وما أن شُبب ابنها سفياتوسلاف عن الطوق حتى بدأ في تأديب القبائل السلافية والخزر، الأمر الذي أزعج بيزنطة . لأنها لم تكن تستطيع أن تنال قريرة العين، وهناك من يعبث بمسيادتها على شعوب السهوب . وعلى الفور فكر الإمبراطور نقفور فوقاس في ضرب الروس ببلغار الدانوب . ومن ثم طلب من سفياتوسلاف المجيء إلى بلغاريا لتأديب البلغار، ونحن نعرف جيدا ما نجم عن ذلك من أحداث دامية في البلقان حتى مصرع الأمير الروسي سفياتوسلاف على أيدي البشناق في عام ٩٧٢م . وبمصرع سفياتوسلاف يدخل الروس في دوامة الحرب الأهلية بين ياروبولك Yaropolk وأخويه، والتي انتهت بانهلاك فلاديمير Vladimir بالحكم بعد انتصاره على أخيه ياروبولك في عام ٩٨٠م^(٩٤). وسوف نلاحظ هنا أن حملات الروس على بلاد القوقاز، في عهد فلاديمير، تكاد تتزامن مع حملته على مدينة خرسون البيزنطية . فهل بعث فلاديمير بجزء من قواته من هذا الموقع المكتسب إلى بلاد القوقاز ؟ في الواقع لا يمكننا الإجابة على هذا التساؤل، لعدم وجود الأدلة التاريخية التي تساعدنا على وضع تصور معين لمثل هذه الأحداث . على كل، ربما أرسل فلاديمير حملته الأولى ٣٧٧هـ/٩٨٧م قبل ذهابه إلى خرسون، وحصلته ثغوية ٣٧٩هـ/٩٨٩م عقب عونه إلى كييف رغم أننا لا نملك ثمة توثيق على ذلك .

على كل حال، يخبرنا منجم باشي أن الروس قاموا بشن غارة على شروان الواقعة ببلاد القوقاز في عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م^(٩٥). ونظراً لما في النص من إشكاليات لغوية ينبغي علينا ذكر نص منجم باشي عن هذا الهجوم "وفي عام ٤٢١هـ أرسل الفضل^(٩٦) ابنه وولي عهده موسى بن الفضل^(٩٧) في جمع إلى قتال ابنه الآخر عسكويه ببلقان، وكان قد عصى على أبيه وأخيه، وجمع جمعا وأراد الخروج على أبيه، فسار موسى واستعان بالروسية على أخيه، لأن طائفة منهم كانت قد خرجت بنحو ثمان وثلاثين سفينة إلى بلاد شروان، فحاربهم صاحب شروان منوهر . (فعمد منوهر) الرس لمنعهم من الصعود، ففرقوا جماعة من المسلمين؛ فأخرجهم موسى بن الفضل وأعطاهم أموالا جمة، وحملهم إلى بيلقان فأخذها بهم، وقبض على أخيه عسكويه،

^(٩٤) R.P.C., pp. 91 - 94 .

^(٩٥) كانت أسرة الشداية تحكم إقليم آران، وموسسها هو محمد بن شداد بن كزطق . انظر، منجم باشي، باب ثنى الشداية من كتاب جامع الدول، ملحق مع كتاب :

Minorsky, V., *Studies in the caucasian History*, (London, 1953), pp. 1 - 3.

^(٩٦) هو الفضل بن محمد بن شداد، تولى الحكم عام ٣٧٥هـ/٩٨٥م . انظر، منجم باشي، الشداية، ص ١١

^(٩٧) كان موسى بن الفضل وليا للمهد في إقليم آران عند وقوع هذه الأحداث، على حد ذكر منجم باشي، وليس حكما له كما ذكرت الدكتوراة ليلي عبد الجواد، انظر، الروس، ص ٣٩ .

فقتله. ثم أن الروسية خرجوا من آران إلى الروم وامتدوا إلى الروس^(٩٨). لقد دخل الروس إلى مناطق كانت واقعة في نطاق نزاع أسرة الشنادية، وعلى الرغم من أن منوچهر صدهم ووقف أمامهم، إلا أن الفضل أرسل ابنه وولى عهده موسى بن الفضل إلى الروس يطلب معونتهم العسكرية ضد أخيه. ولم يكن الروس معنيين بطبيعة الحال بمهاجمة هذا النزاع، متى كان هناك مقابل سيدفع لهم. وبالفعل أعاد عليهم موسى بن الفضل الأموال ليسيروا معه ضد أخيه، وبمعنى آخر يمكن القول أن الروس عملوا كمرتزقة لصالح الفضل بن محمد بن شداد وولى عهده موسى بن الفضل، وهذا شئ غير مستغرب عليهم. وبعد قضاء حاجة الفضل وابنه موسى رحل الروس إلى بلادهم، وكان من الطبيعي أن يمرؤا بأراضى البيزنطيين، والمقصود هنا الممتلكات البيزنطية في منطقة القرم. وترد عبارة في النص قد يستعصى فهمها على المرء، يقول فيها منجم باشى "... فعقد منوچهر الرس لمنعهم من الصعود، فغرقوا جماعة من المسلمين..." والفعل عقد هنا يقف حائلا دون فهم العبارة! يقول علماء اللغة أن هذا الفعل من معانيه ربط أو جعل الشئ غليظا أو جامدا بفعل السبرودة أو الحرارة^(٩٩). ورغم عدم تطابق معانى الفعل مع الأحداث، إلا أنه ينبغي اعتبار أن الكاتب يريد القول أن منوچهر وقف في وجه الروس، لمنعهم من الانتشار في المنطقة والصعود شمال شروان نحو مدن القوقاز الإسلامية كبرذعة وبلاد النغاطة وأردبيل وغيرهم. لكن تكمن المشكلة الرئيسية في كلمة "الرس" التي أوردها المؤلف، فهل كان يقصد نهر الرس أم أنه تصحيف لاسم الروس؟

يحدثنا مؤلف حدود العالم عن نهريْن أحدهما يسمى نهر الرس، وهو نهر يجوى في شمال إقليم الغز، وهو نهر كبير مياهه ذات لون أسود ومذاق سيئ، وينبع من الجبل الذي يقع على الحدود بين الكيماك والخرخيز، ويعبر إقليم الغز ويصب في بحر الخزر^(١٠٠). ويذكر مينورسكى أن هذا النهر متصل بنهر إرتش وأنه يقع في منطقة الأورال، ومن ثم فهو أبعد ما يكون عن الروس وعن نهر الفولجا^(١٠١). أما النهر الثاني فيسميه نهر الروس، وهو نهر ينبع من إقليم الصقالية الداخلي ويجرى في اتجاه شوقي حتى يصل إلى حدود الروس؛ وهناك يُلْتَف حول بعض مدنها مثل كييف، ليتجه بعد ذلك صوب الجنوب نحو حدود البشناق حيث يصب في نهر أتل^(١٠٢). ويقول

^(٩٨) منجم باشى، الشنادية، ص ١١ - ١٢.

^(٩٩) المعجم الوجيز، ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

^(١٠٠) Hudud al-'Alam, p. 75.

^(١٠١) Minorsky, Commentary, p. 215.

^(١٠٢) Hudud al-'Alam, p. 75، انظر أيضاً، المثنى، نغمة الدهر، ص ١٠٦.

مينورسكى أن هذا النهر إما المجرى العلوى لنهر الفولجا الواقع أعلى نقطة اتحاده مع نهر كاما، أو نهر الدون^(١٠٣). وبناء على وصف مؤلف حدود العالم لهذين النهرين لا ينطبق أى منهما على كلمة "الرس" والواردة عند منجم باشى . ولكى نجزم بأن هذه الكلمة ما هى إلا تصحيف لكلمة الروس، لابد أن نشير إلى أن المسلمين أطلقوا عليهم اسم الروس أو الروسية، أما البيزنطيون فقد أطلقوا عليهم اسم الروس Rus / Ρως أو السكيثيون Θκυθιοι.

وعلى هذا فقد نتج التصحيف عن ناشر النص مينورسكى، وليس مؤلفه منجم باشى . وبهذا يستقيم معنى العبارة، لتعنى أن منوچهر وقف فى وجه الروس لمنعهم من الصعود شمالا نحو مدن القوقاز الأخرى، وقد أغرقوا [وليس فترقوا كما فى النص] جماعة من المسلمين . وأيا كان الأمر فقد عاد الروس إلى بلادهم كما مر بنا. ويعتقد مينورسكى أن هدف الروس من هذه الإغارة كان الدوران حول بحر بونتس، والاستيلاء على إمارة تموتوراكان^(١٠٤)، الواقعة عند مدخل بحر أزوف والتي يملكها مستسلاف Mstislav، شقيق ياروسلاف Yaroslav، أمير كييف . فقد كانت تقف فى وجه توسعات ملك ياروسلاف فى تلك المنطقة^(١٠٥).

وفى عام ٤٢٢هـ / ١٠٣١م توفى الفضل بن محمد بن شداد، حاكم آران، وكانت مدة حكمه سبعة وأربعين عاما، ليتولى الإمارة بعده ابنه موسى بن الفضل بن محمد بن شداد فى ذى الحجة عام ٤٢٢هـ / نوفمبر ١٠٣١م . وفى عهده هاجم الروس بلاده، فالتقى بهم عند بلاد النفاطة، ودارت رحى القتال بينهما، وقتل منهم موسى بن محمد خلقا كثيرا، وأخرجهم من البلاد منتصرا عليهم^(١٠٦). وفى طريق عودتهم إلى بلادهم أوقع بهم غازى حاكم الباب والأبواب^(١٠٧) فى معر، واستولى على ما كان معهم من غنيمة بعد أن أبادهم^(١٠٨).

^(١٠٣) Minorsky, *Commentary*, pp. 216 - 217.

^(١٠٤) Minorsky, *Studies*, p. 77.

^(١٠٥) Vernadsky, *Kievan Russia*, p. 68.

^(١٠٦) منجم باشى، *الشذائىة*، ص ١٢ .

^(١٠٧) الباب والأبواب، مدينة محصنة تقع على بحر الخزر . يعتقد أن الذى بناها كبرى ثوشروان لينفع بها ذى الأمم المجاورة له، لاسيما الخزر . ويطلق عليها أيضا اسم دريذ خزران . عنها انظر، الاصطخرى، *الممالك والممالك*، ص ١٠٩ - ١١٠ المسعودى، *مروج الذهب*، ج١، ص ١١٠ المقسى، *أحسن التقاسيم*، ص ٣٧٦؛ *الدمشق*، نخبة *الدهر*، ص ١٨٩؛ *القفقندى*، *صريح الأعشى*، ج١، ص ٣٦٤ .

^(١٠٨) Minorsky, *Studies*, p. 77.

وأخيراً من المحتمل أن الإغارة التي شنّها الألمان والسريريون على بلاد شيروان في عام ٤٢٣هـ/١٠٣٢م كانت بالاشتراك مع الروس، على حد قول مينورسكي^(١٠٩). والآن وبعد الانتهاء من الحديث عن الهجمات التي شنّها الروس على بلاد القوقاز الإسلامية في أعوام ٢٥٠هـ / ٨٦٤م، ٢٩٨هـ / ٩١٠م، ٣٠٠هـ / ٩١٢م - ٩١٣م، ٣٣٢هـ / ٩٤٣م - ٩٤٤م، ٣٧٧هـ / ٩٨٧م، ٣٧٩هـ / ٩٨٩م، ٤٢١هـ / ١٠٣٠م، ٤٢٢هـ / ١٠٣١م، علينا حصر المدن والبلاد الإسلامية الواقعة في بلاد القوقاز، والتي هاجمها الروس في تلك الأعوام . سوف نجد أن هجمات الروس تركزت على أبسكون، الجبل، طبرستان، آران، بلاد الفخافة، جرجان، أنريجان، بردعة، شرون، الديلم . وهذا سوف يدفعنا بطبيعة الحال للقول، لماذا كانت بلاد القوقاز الإسلامية بالذات هدفاً للروس في الجبهة الشرقية لهم، والتي كانت بها مجموعة كبيرة من القوى السياسية، كالخزر والبلغار، والبرطاس، والغز، والسلان، والسريير وغيرهم ؟! هل كانت هذه الحملات التوسعية بهدف السيادة، كما قال الروس لأهل بردعة في عام ٣٣٢هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤م ؟ ولإجابة على مثل هذا التساؤل لا يمكننا البحث في مقياس القوة لكل هذه القوى الشرقية لمقارنتها بالقوة الروسية، ولكن يمكننا البحث في طبيعة مدن القوقاز الإسلامية، والذي قد يسفر عن سبب يصير أقوى من كل الأسباب التي دفعت بالروس إلى بلاد القوقاز الإسلامية .

يقول المؤرخون والجغرافيون المسلمون عن هذه المدن ما يلي : فأما الجبل أو جيلان فهي "... شديدة الأمطار، كثيرة الأنهار، كثيرة الفواكه ... وجميع مبانيتها بالأجر مفروشة أيضاً كما في بغداد ... وبها حمامات يجري إليها الماء من الأنهار، والبقر والغنم عندهم بكثرة، وأسعارهم متوسطة إلى الرخص؛ ... بها الرمان والبلوط والفواكه .. وخيلهم براذين، وفي سروجهم المحلي بالفضة وغيره ..."^(١١٠). أما الديلم فيصفها المقتضى على النحو التالي^(١١١) "هذا إقليم القز والصوف، به ضياع حذاق، وفواكه تحمل إلى الآفاق، ... كثير الأمطار، مستقيم الأسعار، مصر طريف، ... بحره عميق، به مدن تطيف، به أسماك سريه، وضياح جليلة وفواكه لذيذة ... به تين وزيتون وتمر ونج وخرنوب، كثير العناب، حسن الأعناب، رساتيق رحاب، ومن طيب ... وخيش عجاب، واسم كبير، وماء غزير، ودخل كثير، وبسر خطير ...". أما طبرستان فقد اشتهرت بأنها كثيرة الأسماك والثوم وطير الماء، وبها مزارع الكتان

^(١٠٩) Minorsky, *Studies*, p. 77.

^(١١٠) القنصندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٨٠؛ أبو الفداء، *تقويم البلدان*، ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

^(١١١) المقتضى، *الحسن التقاسيم*، ص ٣٥٣ .

والقنب^(١١٣)، وخشب كثير من أصلب أنواع الأخشاب^(١١٣). أما بلاد النفاطة (بساكو)، فإنها اشتهرت بآبار النفط، الذي وصل من غزارته أنه كان يتدفق إلى سطح الأرض من تلقاء نفسه^(١١٤). وجرجان "مدينة عظيمة مشهورة بقرب طبرستان ... بها فواكه الصرود والجروم ... بها البلح والنخل والزيتون والجوز والرومان والأترج وقصب السكر، وبها من الثمار والحبوب السهلية والجبلية المباحة، ... ويوجد في صيفها جنى الصيف والشتاء من الباذنجان والفجل والجزر، وفي الشتاء الجدى والحملان والألبان والرياحين... وهي مجمع طير البر والبحر..."^(١١٥). أما أنزبيجان فقد اشتهرت بأنها صقع جليل ومملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال، وخيراتها واسعة، وفواكه جمّة، بسائنها كثيرة، ومياها غزيرة، بها الكثير من المدن العامرة^(١١٦). ومدينة برذعة هي "مدينة كبيرة للغاية ... وهي نزهة خصبة، كثيرة الزرع والثمار جدا، وليس فيما بين العراق وخراسان بعد الرى وأصبهان مدينة أكبر ولا أخصب ولا أحسن موضعا ومرافق من برذعة ... مشبكة البساتين والباغات كلها فواكه، وفيها البندق الجيد ... وبها شاهبلوط أجود من شاهبلوط الشام^(١١٧)... وبرذعة تين يحمل اليها من لصوب". كذلك كان يوجد بها العديد من أنواع الأسماك الجيدة المشهورة في المنطقة، كما كان بها سوق مشهور يسمى سوق الكركي يعقد كل يوم أحد من كل أسبوع^(١١٨). كما أن هذه المدينة تشتهر بالحريز والأخشاب الجيدة واليغال الجيدة وكثافة أشجار اللوت بها، حتى صار مشاعاً للخلق^(١١٩). أخيرا فإن شروان كانت مدينة كبيرة، كثيرة البلاد، حكمتها أسرة من أقوى الأسر وهي أسرة الشدادية؛ وكانت تعقد بها الأسواق، ويخترقها النهر^(١٢٠).

على هذا النحو كانت تتمتع بلاد القوقاز الإسلامية بالرخاء الاقتصادي سواء الزراعي أو التجاري^(١٢١)، حتى أن الأسعار وصلت بها من الرخص أنك تبلغ في بعض المواضع الشاة بدرهمين، وربما بلغ العسل في بعض الأغاليب المنويين^(١٢٢)

^(١١٣) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ص ٣٥٤ .

^(١١٤) الإصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١٢٤ .

^(١١٥) انظر، هـ ٤٤ من هذا الفصل .

^(١١٦) القزويني، *آثار البلاد*، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

^(١١٧) بقوت الحموي، *معجم البلدان*، ج١، ص ١٦٠ .

^(١١٨) نوع من الثمار يجمع في طعمه ما بين البندق والرطب .

^(١١٩) الإصطخرى، *المسالك والممالك*، ص ١٠٨ - ١٠٩ فيز اسكندر، *أرمينية*، ص ١٤-١٥ .

^(١٢٠) *Hudud al-'Alam*, p. 143.

^(١٢١) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ص ٣٧٦ .

^(١٢٢) انظر الياقبة القلقلي من البحث .

^(١٢٣) الغناء، وحدة مكيال كانت تسمى أيضاً في بعض المناطق آنذاك الرطل .

والثلاثة بدرهم^(١١٣). وهذه الحالة الاقتصادية التي كانت عليها هذه البلاد تجعلنا نضعها في موضع مقارنة مع البيئة القاسية التي كان يعيش في ظلها الروس، والتي أفرزنا لها بضع صفحات في بداية الحديث في هذا الفصل، وكيف أن هذه البيئة كانت على النقيض تماما من بلاد القوقاز الإسلامية، حتى أنها دفعتهم لاحتراف السيف والكسب من ورائه. لقد كانت بلادهم لا يصح فيها زرع ولا ضرع، وكان عملهم الرئيسي هو التجارة سواء مع القوى الشرقية أو مع بيزنطة أو مع شبه جزيرة اسكنديناو؛ أما السيف فقد كان مقدمهم عندما يتاجرون أو يحاربون.

ومن المحتمل أن الثراء الاقتصادي الذي كانت تعيش فيه بلاد القوقاز الإسلامية، لاسيما وأنها كانت من البلاد المنتجة للحديد وهو من أهم السلع في التجارة العالمية آنذاك، أغرى الروس على غزوها بل واحتلالها في بعض الأحيان لمدة عام كامل؛ ولولا تضافر جهود المسلمين لطردهم من هذه البلاد لما انتهى احتلالهم لها بهذه السرعة في كل مرة^(١١٤). لقد كان الروس يسعون للسيطرة على مراكز التجارة الهامة الإستراتيجية في منطقة القوقاز^(١١٥) والتي كان ينبغي أن يؤمنها سيادة سياسية على هذه البلاد وهو ما كشف عنه الروس عندما دخلوا مدينة بردعة في عام ٣٣٢هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤ م.

^(١١٣) الاصطخرى، المسالك والممالك، ص ١١٢.

^(١١٤) لقد أيدني أ.د. جوناثان شيرد J. Shepard، الأستاذ بكلية التاريخ، جامعة كامبردج، في إحدى المراسلات بيننا بتاريخ ٣ يونيو ١٩٩٧م، أن العامل الاقتصادي كان الأساس في هجمات الروس على المناطق الواقعة حول بحر الخزر (قزوين).

^(١١٥) Franklin & Shepard, Rus', p. 147.

الفصل الخامس

الروس بين البشناق وقوى الفولجا

إذا كان الروس قد أفلحوا في النفاذ إلى بلاد القوقاز الإسلامية عدة مرات ، سواء برضى من خاقان الخزر أو بدون رضاه ، فلا يمكننا تحديد الحد الشرقي لبلاد الروس آنذاك . ولكن يمكننا القول أن الروس وصلوا بحدودهم الشرقية إلى ما قبل نهر الفولجا بقليل ، ولم يستطيعوا أن يجعلوا من هذا النهر حداً شرقياً روسياً ؛ فقد كانت تسيطر عليه مجموعة من القوى السياسية في تلك الفترة ، بدءاً من الخزر الذين كانت تتركز ممتلكاتهم في الجزء الجنوبي من النهر ، مروراً بالبرطاس ، حيث كانوا يعيشون على ضفاف النهر الوسطى ، وانتهاءً ببلغار الفولجا الذين كانوا يسيطرون على معظم الجزء الشمالي من النهر .

وإذا كان الأمير الروسى سفياتوسلاف قد شن هجوماً على قوى الفولجا ، وتبعه ابنه الأمير فلاديمير في هذه السياسة ، إلا أن جهودهما الحربية في هذا الجانب لم تكن بنفس المستوى الحربى الروسى مع قوى أخرى كالإمبراطورية البيزنطية على سبيل المثال . ومن ثم لم تسفر سياستهما تجاه قوى الفولجا كما سنرى ، لا عن إخضاع هذه القوى لسلطان الروس ولا عن جعل نهر الفولجا حداً شرقياً روسياً . ومما ساهم في هذا وجود البشناق في المنطقة سواء شمال بحر الخزر أو شمال بحر بونتنس . فقد أدى نشاطهم الحربى المحموم في المنطقة سواء ضد بيزنطة أو الروس أو حتى القبائل الرعوية في منطقة السهوب إلى تغيير كبير في الخريطة السياسية لمنطقة السهوب وفي ميزان القوى السياسية . وقد دفع هذا الروس إلى الدخول فى حروب مستمرة معهم ، كما دفعتهم للإغارة المستمرة على بلاد الروس كلما ساحت لهم أفلحت في ترويض البشناق وتسخيرهم لقضاء حوائجها السياسية للسيادة على منطقة السهوب ، كانت الإمبراطورية البيزنطية . وكان الفضل بطبيعة الحال يعود إلى جهازها الدبلوماسى الخطير لا إلى جيشها العتيذ الفرصة . ويمكن القول أن القوة السياسية الوحيدة التى ، الذى لم يكن له وجود بين قوى السهوب .

لقد كان البشناق يشكلون تهديداً خطيراً لا على العاصمة الروسية كييف فحسب بل على بلاد الروس جميعاً . ويمكن القول أنهم حالوا بين الروس وبين سيطرتهم التامة على سواحل بحر بونتنس ، وبهذا كفلوا لبيزنطة سواء بطريق مباشر أو غير

مباشر حق السيطرة والهيمنة على بحر بونتس . ونظراً لأهمية الدور الذى لعبه البشناق تجاه الروس فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، والذى تفوق به البشناق على غيرهم من القوى الشرقية ، سواء الخزر أو بلغار الفولجا ، فإنه قد يكون من المناسب أن نجعل البشناق فى مقدمة القوى السياسية الشرقية التى احتكت بالروس آنذاك ؛ ومن ثم قد يكون مناسباً أن نبدأ الحديث بهم . ولكن قبل أن نخوض فى تفاصيل العلاقات الروسية – البشناقية ، ينبغي علينا أن نلقى بعض الضوء على موطن البشناق وتطوره التاريخي .

الروس والبشناق:

يكاد يتفق المؤرخون المسلمون على أن البشناق عنصر من العناصر التركية^(١)، بينما يعتبرهم البعض فرعاً من فروع الغز^(٢) . أما مؤلف حدود العالم فيصنف البشناق على أساس فرعين أحدهما يطلق عليه اسم بشناق الترك^(٣) ، والآخر بشناق الخزر^(٤) . وقد أسفرت الدراسات التاريخية الحديثة عن معرفة أصل البشناق ، حيث اعتبرتهم شعباً من الشعوب التركية المنتمية إلى الغز ، وأن عملية انفصالهم عن الغز قد تمت فى فترة باكراً من تاريخهم منذ أن كانوا بتركستان^(٥) . وقد وقع صراع بين الغز والبشناق فى أواسط القرن الثامن الميلادى ، ربما من أجل السيطرة على مواطن الكلأ الواقعة فى نطاق بحر آرال جنوب نهر سيحون^(٦) ؛ الأمر الذى أسفر عن هزيمة البشناق فى هذه المنطقة وهجرتهم إلى المنطقة الواقعة شمال بحر الخزر^(٧) . وقد أشار مؤلف حدود العالم إلى الموطن الذى استقر فيه البشناق فى المنطقة الواقعة حول أنهار الأميا والأورال وأتل . وها هو يرسم لنا خريطة إثنية لهذه المنطقة .. شرق هذا الإقليم تقع حدود الغز ، وجنوبه تلك التى لبرطاس وباراندس ؛ وغربه تقع حدود المجيار والروس ؛ وشماله نهر روتا Rutha^(٨) .. وهو فى حرب مع كل

(١) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ٣١ ؛ القزويني ، آثار البلاد ، ص ٥٨٠ ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٥١٨ ؛ انظر أيضاً ، كويستلر ، الخزر ، ص ١٢٦ .

(٢) بارتولد ، الترك ، ص ١٠١ ؛ المتولى السيد تميم ، البشناق والبيزنطيون ، دراسة فى سياسة بيزنطة الشمالية (٨٥٠-١١٢٢ م) ، رسالة ماجستير لم تشرع بعد ، (كلية أدب المنصورة ، ١٩٩٦) ، ص ٤٢ .

(٣) Hudud al-'Alam, p. 101.

Hudud al-'Alam, p. 160.

(٤)

(٥) المتولى تميم ، البشناق ، ص ٤٤ .

(٦) المتولى تميم ، البشناق ، ص ٥٠ .

(٧) Pritsak, O., " The Pecenegs, a Case of Social and Economic Transformation ", AEM, 1 (1975), p. 215 .

Minorsky, Commentary., P. 217.

(٨) عن نهر روتا انظر ،

جيرانه..^(٩) . ويؤكد هذا الموطن قسطنطين بورفيروجينيتوس حيث ذكر أن البشناق كانوا يقيمون على نهري أتل وجيش ^(١٠) *Geich* ولهم حدود مشتركة مع الخزر والغز^(١١) . وقد تعرض البشناق في تلك المنطقة لغارات دورية من جانب جيرانهم وبخاصة الخزر ، الذين كانوا يسترقونهم ويفرضون عليهم في كثير من الأحيان جزية سنوية^(١٢) .

ويذكر قسطنطين بورفيروجينيتوس أنه منذ خمسين عاماً أو خمسة وخمسين عاماً سبقت تأليف كتابه" عن الإدارة الإمبراطورية" حدث أن اتفق الغز والخزر على قتال البشناق وطردهم من أراضيهم . وقد نجح التحالف الغزى - الخزرى في هزيمة البشناق وطردهم من أراضيهم الواقعة شمال بحر الخزر^(١٣) . وعلى أثر هذا حاول البشناق أن يستقروا في خزاريا ، ولكن الخزر طردوهم ، وواصل البشناق هجرتهم صوب الغرب ، وعبروا نهر الدون ؛ وغزوا أرض المجيار ، فاضطر المجيار بدورهم إلى مزيد من التراجع نحو الغرب حتى المنطقة الواقعة بين نهري الدنيبر وسيريت^(١٤) .

ولما كانت الأسباب التي أدت إلى نشوب القتال بين البشناق من ناحية ، والغز والخزر من ناحية أخرى ، إلا أن الحقيقة الثابتة هي أن البشناق أصبحوا يقيمون الآن شمالى بحر بونتس (البحر الأسود) في منطقة السهوب الواقعة جنوب بلاد السروس ، وبالتحديد في منطقة ليبديا ، التي هجروها بعد ثلاث سنوات من الإقامة فيها والاستقرار نهائياً في المنطقة الواقعة بين نهري الدنيبر وسيريت ، والتي تعرف باسم أتل كوزو *Atel-kouzu* ، أى أرض ما بين النهرين^(١٥) .

(٩) المروزي ، طبائع الحيوان ، ص ٢٠-٢١ ؛

(١٠) جيش هو الأسم التركي لنهر الأول ، ويسمى باليونانية *Γερ* انظر ،

Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio*, vol. II, *Commentary*, ed. R. Jenkins, (London, 1962), P. 143; Minorsky, *Commentary*, p. 213.

(١١) *DAI*, I, p. 167.

(١٢) قسطنطين بورفيروجينيتوس ، الإدارة ، ص ١٣٦ .

(١٣) المتولى تميم ، البشناق ، ص ٥٣ ، ١٠١ ؛ كويستر ، الخزر ، ص ١٢٥ .

(١٤) قسطنطين بورفيروجينيتوس ، الإدارة ، ص ١٣٦ ؛ كويستر ، الخزر ، ص ١٢٥ .

(١٥) قسطنطين بورفيروجينيتوس ، الإدارة ، ص ١٣٦ ؛ كويستر ، الخزر ، ص ١٢٦ .

(١٦) كويستر ، الخزر ، ص ١٢٦ . ولمزيد من التفاصيل الدقيقة حول أسباب هجرة البشناق إلى شمالي البحر الأسود ومراحل هذه الهجرة انظر ،

DAI, I, pp. 167, 171; *DAI*, II, p. 149; Pritsak, *Pecenegs*, pp. 216-217.

قسطنطين بورفيروجينيتوس ، الإدارة ، ص ١٣٦-١٣٨ ؛ المتولى تميم ، البشناق ، ص ٥٣-٦٠ .

وإذا كانت الخريطة السياسية قد أعيد تشكيلها مع بداية القرن العاشر الميلادي على هذا النحو في منطقة السهوب الواقعة شمالي البحر الأسود ، فما الأثر المباشر الذي عاد على الروس من جراء هذا ؟!

في واقع الأمر لا يمكننا معرفة هذا أكثر إلا من خلال معرفتنا لموقع البشناق الجديد من الأمم المجاورة لهم . فيخبرنا قسطنطين بورفيريوجينيتوس أن البشناق صاروا يجاورون البلغار والمجيار والروس والصقالبة . وأصبحت المسافة بين البشناق والغز والخزر تستغرق رحلة خمسة أيام^(١٦) ، وستة أيام إلى آلتيا ، وعشرة أيام إلى مورديا^(١٧) ، ورحلة يوم واحد إلى بلاد الروس ، وأربعة أيام إلى بلاد المجيار ، ونصف يوم إلى بلغار الدانوب^(١٨) . وهكذا ، من خلال المعلومات التي قدمها قسطنطين بورفيريوجينيتوس يتبين لنا أن البشناق صاروا على مقربة شديدة من بلغار الدانوب ، حيث يبعدون عنهم مسيرة نصف يوم ، ومن الروس الذين يبعدون عنهم مسيرة يوم فقط، وإزاء هذا التقارب الحدودي بين الروس والبشناق من ناحية ، والتوسع الناجح للبشناق في شمالي البحر الأسود حيث صار حدهم الشرقي نهر الدون ، الذي تقع عليه قلعة ساركيل الخزرية^(١٩) ، وحدهم الغربي حتى دولة بلغار الدانوب ، أما جنوباً فقد أشرقوا على جزء من ساحل بحر بونتس ، وصاروا على مقربة من مدينة خرسون البيزنطية وكذلك مدينة بسبور^(٢٠) ، كان لزاماً على كل منهما أن يتكيف مع الآخر حتى يتمكن من العيش في المنطقة تحت مظلة السلام . لكن يبدو أن الطبيعة العرقية التي فطر عليها كلاهما كانت أقوى مما يفترضه المرء . فالروس حتى ذلك الوقت لم يعض على وجودهم في كييف سوى بضعة عقود ، تمكنوا خلالها من السيطرة على القبائل السلافية وجمع الجزية منها ، وتقليص النفوذ الخزري عليها ، كما قاموا بالإغارة مرتين على القسطنطينية. وبالرغم من هذا النشاط الروسي ، إلا أن الدولة الروسية ، إذا جاز التعبير ، كانت لا تزال في رحم إمارة كييف ، التي كانت

(١٦) كانت المسافات بين المدن والبلاد الإسلامية يطلق عليها اسم "مرحلة" أو "مسيرة يوم". والمرحلة هي المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم واحد ، وتقدر بثلاثين كيلو متراً تقريباً . ومسيرة يوم هي : المسافة التي يقطعها المسافر في يوم واحد ، وهي تساوي نفس المسافة التي يقطعها المسافر في المرحلة الواحدة . انظر ، عبد الرحمن محمد العيد النقي ، موقف البيزنطيين والفاطميين من ظهور الأتراك السلاجقة بمنطقة الشرق الأدنى الإسلامي ، حواشي الآداب ، ١٥ (الكويت ، ١٩٩٥) ، ص ١٥-١٦ ، هـ ١٠

(١٧) من المحتمل أنها تشير إلى إقليم الـ Mordvinians . انظر المتولى تيمم ، البشناق ص ٦٣ ، هـ ١ .
(١٨) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، الإثارة ، ص ١٣٨ ،
DAL, I, p. 169
(١٩) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، الإثارة ، ص ١٤٧ ،
DAL, I, pp. 182-183
(٢٠) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، الإثارة ، ص ١٣٨ ،
DAL, I, p. 169

مقرأً للأمير الروس العظيم . ولا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نعين الحدود الأربعة لبلاد الروس في هذه الفترة . وعلى النقيض يمكننا القول أن البشناق تمكنوا في خلال عدة سنوات ، منذ أواخر القرن التاسع الميلادي وحتى بدايات القرن العاشر الميلادي ، أن يستقروا في منطقة معلومة المعالم ، على النحو الذي ذكرناه . ولم يكن البشناق من الناحية الاجتماعية يختلفون كثيراً عن الروس ، فكلاهما كان لا يزال في طور القبليّة وما يتبعها من نظم عصبية . ولكن الشيء الذي تميز به الروس عنهم كانوا تجسراً في المقام الأول ، بينما كان البشناق رعاة يسرون بقطعانهم بحثاً عن الكلأ^(٢١) ، ومن ثم كانت إمكانية احتكاك الروس بالأمم الأخرى سلمياً أكبر بكثير من البشناق ، مما دفع بعجلة الحضارة الروسية إلى الأمام في القرن العاشر الميلادي لتبلغ ذروتها في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي .

لقد فرضت المصالح المحلية الخاصة بكل من الروس والبشناق عليهما واقعاً لم يكن هناك مناص منه . فتخبرنا الحولية الروسية الأولى أن أول هجوم قام به البشناق على بلاد الروس كان في عهد الأمير الروسي العظيم إيجور ، في عام ٩١٥م ، وقد انتهى بعقد اتفاقية سلام بين الطرفين ، عاد البشناق على أثرها إلى حيث خرجوا^(٢٢) . وليس هناك سبب ظاهر في المصادر التاريخية لهذا الهجوم ، لكن يبدو أنها كانت مجرد إغارة على المناطق الروسية الحدودية المشتركة مع البشناق . ولم يقف الأمير الروسي ساكناً إزاء هذا الهجوم ، فقد أغار عليهم في العام التالي^(٢٣) . ولا تقدم لنا المصادر التاريخية أيضاً أية معلومات عن الهجوم الروسي على البشناق . وهكذا بدلت أول نتائج الجوار بين البشناق والروس تأخذ طريقها إلى الظهور ، وهو الأمر الذي سجله بنكاه الجغرافي العربي ابن حوقل من أنهم صاروا شوكة للروسية^(٢٤) ، أو بمعنى آخر صاروا يحاربون الروسية^(٢٥) .

وقبل أن نمضي بالحديث عن الاحتكاكات الحربية التي قامت بين البشناق والروس في القرن العاشر الميلادي ، عقب استقرار البشناق في موطنهم الجديد ، فيما بين نهري الدون شرقاً وسيريت ، أحد فروع الدانوب غرباً ، شمال بحر بونتس ، ينبغي علينا ألا ننظر إلى ميزان القوى في هذه المنطقة بعين الروس فقط ، بل النظر إليه

(٢١) الكريزي، زين الأخبار ، ص ٤٦٢ ، الموزي ، طبائع الحيوان ، ص ٢٠-٢١ .

R.P.C., p.71.

R.P.C., p.71.

(٢٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٥ .

DAI, I, p. 169 .

(٢٥) قسطنطين بوزيفوجينيتس ، الإدارة ، ص ١٣٨ .

يعين بيزنطة أيضاً ، لأن البشناق صاروا مجاورين للروم أيضاً على حد قول المؤرخين والجغرافيين المسلمين^(٢٦) ؛ كما أنهم صاروا على مقربة شديدة من إقليم خرسون وكذلك مدينة بسبور^(٢٧) . وإزاء هؤلاء المهاجرين الجدد الذين وصلوا إلى شمال بحر بونتس ، مع مستهل القرن العاشر الميلادي ، كان على بيزنطة ، التي وصلتها الأنباء بالفعل عن طريق مدينة خرسون ، بما كان يحدث في المنطقة ، أن تتخذ من سياستها التقليدية مع مثل هذه الشعوب سبيلاً للوصول إلى البشناق ، محاولة ترويضهم لحسابها . لقد تمثلت هذه السياسة في تقديم الرشاوى المالية والوثاق الحربية الموشاة بالذهب والأقمشة الأرجوانية والهدايا الأخرى للبشناق كل عام^(٢٨) ، وعقد اتفاقيات ومعاهدات الصداقة معهم^(٢٩) . ومما حدا ببيزنطة لانتهاج مثل هذه السياسة مع البشناق هو أنها أدركت أهمية وجود مثل هذا العنصر الجديد في المنطقة ، لإحداث توازن بين قوى السهوب ، وجعل ميزان السيادة السياسية يميل لصالحها . لقد كان الروس يشكلون تهديداً خطيراً لبيزنطة ، كما أن الأخيرة دخلت في صراع مع بلغار الدانوب في عهد قيصرهم سيمون Symeon البلغاري ، أضف إلى ذلك التهديد المجاري الذي كان يلوح في الأفق لبيزنطة . ومن نفس هذه الأسس السياسية البيزنطية ، نبعت سياسة البلغار تجاه البشناق أيضاً . فالصراع العسكري بين البلغار وبيزنطة في ذلك الوقت دفع كلا من الطرفين للسعي لكسب البشناق لصالحه ، وكان البلغار هم الأسبق في التعامل مع البشناق . ففي خلال المرحلة الأولى من هذا الصراع العسكري ، الذي بدأ في سنة ٨٩٣م ، شارك البشناق إلى جانب سيمون البلغاري ضد المجار ، الذين ربما وجهتهم بيزنطة ضد البلغار ، ونتج عن هذا هزيمة المجار وتوسيع البشناق لحدودهم حتى نهر سيريت ، أحد فروع نهر الدانوب^(٣٠) . وفي خلال المرحلة الثانية من هذا الصراع العسكري بين بيزنطة والبلغار ، والذي بدأ في عام ٩١٤م ، شارك البشناق في هذا الصراع ، وللمرة الأولى في تاريخهم ، إلى جانب بيزنطة ، وكان ذلك في عهد وصاية الإمبراطورة زوي Zoe على ابنها الإمبراطور قسطنطين بورفيريوجينيتوس^(٣١) . وكما يذكر المؤرخ ماكارتيني Macarteny أن كلا من البلغار والبيزنطيين سعوا لكسب البشناق إلى صفوفهم . فقد

(٢٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٥ ؛ الأديمسي ، نزعة البشناق ، ص ٩٦٠ .

(٢٧) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، الإدارة ، ص ١٣٨ .

(٢٨) Jenkins, *Byzantium*, p.260.

(٢٩) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، الإدارة ، ص ٥٤ .

(٣٠) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، الإدارة ، ص ١٤٣ .

(٣١) المتولى تميم ، البشناق ، ص ٧٤ .

قدم البلغار مشروع زواج سياسي بين خان البشناق وابنة قيصر البلغار^(٣٢). بينما أرسل البيزنطيون يوحنا بوجاس *John Bogas* حاكم خرسون إلى البشناق الأقوياء لبحث معهم إذا ما كان في مقدورهم الانتفاض على مؤخرة سيمون البلغاري^(٣٣)، وبطبيعة الحال كان يوحنا بوجاس يحمل معه الهدايا والرشاوى لهم^(٣٤).

ويذكر المؤرخ الإنجليزي جنكينز *Jenkins* أن رسل البشناق جاءوا إلى القسطنطينية في عام ٩١٥م وقد توصلوا إلى اتفاق مع البيزنطيين^(٣٥). وهكذا استجاب البشناق لطلب البيزنطيين وخرجوا لمساعدتهم ضد البلغار^(٣٦). لكن وقع خلاف بين قادة الجيش البيزنطي، وعلى مرأى من البشناق، الذين انسحبوا بلا قتال عائدين إلى بلادهم تاركين البيزنطيين يواجهون مصيرهم مع البلغار^(٣٧)، حيث هزمت القوات البيزنطية هزيمة فاحشة من سيمون البلغاري في عام ٩١٧م^(٣٨). وهكذا، من خلال الأحداث الماضية، تظهر لنا الأهمية الاستراتيجية التي كان يحتلها البشناق آنذاك، وكيف أنهم أصبحوا عنصر توازن في المنطقة. والأهم من هذا كله أن البشناق كانوا يدركون أهميتهم في المنطقة، على حد تعبير جنكينز^(٣٩).

لقد كان البيزنطيون يدركون الفائدة العظيمة التي ستعود عليهم من وراء تحالفهم مع البشناق، ولهذا حرصوا كل الحرص، كما سبق وأوضحنا، على إرسال الهدايا والرشاوى لهم كل عام مع مبعوث إمبراطوري^(٤٠). كما أن البيزنطيين كانوا يدركون تماماً أن جزءاً كبيراً من شبه جزيرة القرم كان في أيدي البشناق^(٤١)، وأنهم صاروا على مقربة شديدة من خرسون ومدينة بسبور^(٤٢)، وهو الأمر الذي يشكل

(٣٢) Macarteny, C. "The Petchenegs", *SIEERev*, 8 (1928), p. 345.

(٣٣) Jenkins, *Byzantium*, p. 234.

(٣٤) Macarteny, *Petchenegs*, p. 345.

(٣٥) Jenkins, *Byzantium*, p. 234.

(٣٦) *R.P.C.*, p. 71.

(٣٧) *R.P.C.*, p. 71; Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 55.

(٣٨) نظر، Theophanes Continuatus, *Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1838), pp. 388-390; Symeon Magister ac Logothetae, *Chronographia*, ed. I.

Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1838), pp. 724-725; Zonaras, III, pp. 464-465; Leo Gram-

maticus, *Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1842), pp. 295-296.

(٣٩) Jenkins, *Byzantium*, p. 260.

(٤٠) *DAI*, I, pp. 48-49; قسطنطين بورفيروجينيتوس، ص ٥٣-٥٤

(٤١) Obolensky, *Crimea*, p. 129.

(٤٢) *DAI*, I, p. 169; قسطنطين بورفيروجينيتوس، *الإدارة*، ص ١٢٨

Obolensky, *Crimea*, p. 129. انظر أيضاً،

تهديداً خطيراً للوجود البيزنطي في القرم ، وللنفوذ البيزنطي في منطقة السهوب . وهذا بطبيعة الحال ما جعل قسطنطين بورفيروجينيتوس يقول "إذا لم يكن البشناق في وفاق مع الإمبراطورية ، فإنهم قد يقومون بغارات نهب وسلب ضد إقليم خرسون"^(٤٣) . ونلاحظ من كتاب "الإدراء الإمبراطورية" أن عشائر البشناق التي كانت تعيش في هذه المناطق كانت على قدر كاف من العلاقات السلمية مع خرسون ، حيث كانوا يتبادلون التجارة مع هذا الإقليم"^(٤٤) .

لقد أدرك البيزنطيون جيداً أن نمط الحياة في منطقة السهوب قد أصبح مختلفاً الآن عن ذي قبل ، وعن مثيله في مناطق الغابات الشمالية"^(٤٥) . فقد سبق لهم واحتكوا بالروس ، الذين وفدوا من المناطق الشمالية ، وها هم الآن يروضون شعباً جديداً جاء إلى منطقة السهوب من آسيا الوسطى ، ويتخذون منه حليفاً لهم ضد قوى السهوب . لقد أعطى التحالف البيزنطي مع البشناق بعض الحماية للبيزنطيين ضد الروس ، نظراً لأن البشناق تحكموا في الطرق الواقعة في الجزء الجنوبي لنهرى الدون والدنيبر ، وهي الطرق التي كان يسلكها الروس إذا أرادوا الوصول إلى ساحل بحر بونتس للإغارة على بيزنطة"^(٤٦) .

لقد أصبح البشناق في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي مصدر تهديد في المنطقة وإزعاج لا ينقطع لا للروس فحسب بل للمجيار والبلغار أيضاً"^(٤٧) ، نظراً لأن البشناق كانت لديهم القدرة على شن الحرب ضد هؤلاء جميعاً ، مما جعل هذه القوى تنظر للبشناق نظرة ملؤها الخوف والرعب ، على حد تعبير قسطنطين بورفيروجينيتوس"^(٤٨) . ونظراً لأن كل هذه القوى تقف موقف عداء من الإمبراطورية البيزنطية فقد كان بديهياً أن تسعى بيزنطة لكسب البشناق إلى جانبها ، حتى يصبحوا الأداة المنفذة لمشيتها وسط هذه الشعوب . ولهذا حرصت بيزنطة على إرسال رسائلها كل عام إلى البشناق لعقد الاتفاقيات معهم وتقوية روابط الصداقة بينهما ، وكانوا

^(٤٣) قسطنطين بورفيروجينيتوس ، الإدارة ، ص ٥٤؛

^(٤٤) قسطنطين بورفيروجينيتوس ، الإدارة ، ص ٥٧؛

^(٤٥) Obolensky, *Crimea*, p. 129.

^(٤٦) Angold, M., *The Byzantine Empire 1025-1204*, (London, 1984), p. 12.

^(٤٧) Angold, *Byz. Empire*, p. 13.

^(٤٨) *DAI*, I, pp. 48 – 53;

^(٤٩) *DAI*, I, pp. 56 – 57;

^(٤٣) قسطنطين بورفيروجينيتوس ، الإدارة ، ص ٥٤

^(٤٤) قسطنطين بورفيروجينيتوس ، الإدارة ، ص ٥٧

^(٤٥) انظر أيضاً ،

^(٤٦) انظر ، الفصل الأول من البحث ، ص ١٢-١٣

^(٤٧) انظر ، قسطنطين بورفيروجينيتوس ، الإدارة ، ص ٥٤ - ٥٧

^(٤٨) قسطنطين بورفيروجينيتوس ، الإدارة ، ص ٥٩

يحملون بالهدايا والثياب الحريرية وغيرها لكسب ودهم . وفي المقابل كان على البشناق الإسراع بتلبية نداء بيزنطة وقت الحاجة^(٤٩) .

وإذا كان الإمبراطور قسطنطين بورفيريوجينيتوس قد أكد على ضرورة التحالف السياسي مع البشناق لردع الروس والمجيار والبلغار^(٥٠) ، فإنه قد بين أيضاً سياسة البلغار تجاههم ، كما ألقى بعض الضوء على سياسة الروس تجاههم أيضاً .

يقول قسطنطين بورفيريوجينيتوس " .. إذا رغب البشناق في شن الحرب على البلغار ، سواء كانت هذه الحرب لصالحهم أم لصالح الإمبراطور البيزنطي ، فإنهم بقوتهم وكثرة عددهم يتفوقون عليهم ويهزمونهم . ولهذا يسمى البلغار باستمرار للمحافظة على السلام والوثام مع البشناق ، لأنهم سبق وأن هزمهم ونهبهم أكثر من مرة ، وأدرك البلغار قيمة وفائدة العيش في سلام مع البشناق^(٥١) . وعلى هذا النحو أجمل لنا قسطنطين بورفيريوجينيتوس طبيعة العلاقات بين البشناق والبلغار . أما الروس فقد سبق الحديث عن موقفهم من البشناق ، وموقف الأخيرين منهم بعد أن استقروا شمالي البحر الأسود ، وصاروا على بعد مسيرة يوم من بلاد الروس .

ويؤكد قسطنطين بورفيريوجينيتوس في كتابه "عن الإدارة الإمبراطورية" أن الروس مهتمون أيضاً بالمحافظة على العلاقات السلمية مع البشناق .. لأنه إذا لم يكن الإثنان على وفاق ، فإن البشناق يغيرون على بلاد الروس ، ويلحقون بها الخراب والدمار^(٥٢) . وقد رأينا مثلاً على هذا في الإغارة التي قاموا بها على بلاد الروس في عام ٩١٥م^(٥٣) . بالإضافة إلى ذلك لا يمكن للروس الدخول في حرب فيما وراء حدود بلادهم إلا إذا كانوا في سلام مع البشناق^(٥٤) . ونظراً لأن الروس كانوا يدركون هذا الواقع ، فقد سعى أميرهم العظيم إيجور في عام ٩٤٤م لكسبهم إلى جانبه ، حتى يتمكن من القيام بحملته الثانية على القسطنطينية ، وهو مؤمن الظاهر^(٥٥) . ولهذا فقد أعندق عليهم الهدايا والرشاوى حتى صاروا حلفاء له^(٥٦) . لقد كان الروس يدركون خطورة البشناق في المنطقة عامة ، وبالنسبة لهم خاصة . فقد كان البشناق يتسمون بقوة

(٤٩) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، الإدارة ، ص ٥٣-٥٤ ، ٥٩ .

(٥٠) *DAI*, I, pp. 48 - 49, 56 - 57; Diaconu, *Petchénégus*, p. 40.

(٥١) *DAI*, I, pp. 52 - 53;

(٥٢) *DAI*, I, pp. 48 - 49;

(٥٣) *R.P.C.*, p. 71.

(٥٤) *DAI*, I, pp. 50 - 51;

(٥٥) *R.P.C.*, pp. 72-73; Court, *La Russie*, p. 96.

(٥٦) Court, *La Russie*, p. 96.

عناصرهم البشرية ، وكانت لديهم القدرة على ضرب الروس في ظهورهم وتدمير وتخريب ممتلكاتهم ، في أثناء غياب أميرهم العظيم بقواته خارج كييف . كما أن البشناق كانوا يقفون حائلاً بين الروس ، سواء المقاتلين أو التجار ، وبين القسطنطينية لأن البشناق ، كما سبق الذكر^(٥٧) ، كانوا يسيطرون على مناطق الشلالات المائية في نهر الدنيبر ، وهي التي لا يستطيع الروس عبورها بمراكبهم إلا إذا حملوها على أكتافهم ؛ وعندئذ يهجم عليهم البشناق . وعلى هذا اهتم الروس بمسالمة البشناق والتحالف معهم حتى يجنوا من وراء هذا أكبر فائدة ممكنة^(٥٨) .

وبالرغم من هذه السياسة الروسية تجاه البشناق ، نجد أنهم كانوا يميلون نحو القوة الأكثر هيمنة على المنطقة ، والأقدر على تقديم الهدايا والتهاب الحرية والأموال بصورة تفوق غيرها من القوى السياسية آنذاك . وبطبيعة الحال كانت بيزنطة هي الأقدر على تقديم كل ما يشتهي البشناق من نعم الحياة ، كما أنها الأرفع شأنًا والأكثر قوة من كل القوى الهائلة في منطقة السهوب . ويتجلى التعاون البيزنطي - البشناقي ضد الروس في أعقاب الغزو الروسي الذي قام به الأمير الروسي العظيم سفياتوسلاف ، لبغاريا . فإزاء الضغط الروسي على البلقان اضطر الإمبراطور البيزنطي إلى أن يطلب من حلفائه البشناق تخفيف الضغط العسكري الروسي عن البلقان ، والتخلص من شبح الروس الذي يهدد القسطنطينية نفسها . فقام البشناق في عام ٩٦٨م بمهاجمة مدينة كييف للمرة الأولى وشددوا الحصار حولها ، مستغلين فرصة غياب سفياتوسلاف عنها ، وقد حاولوا بين شقي المدينة الواقعة على نهر الدنيبر . وتحصنت الأميرة أولجا مع أحفادها في مدينة كييف ، التي أصبحت قباب قوسين أو أدنى من السقوط في أيدي البشناق^(٥٩) .

وقد تمكن القائد الروسي المدعو بريتش *Pretich* من التخلص من هذا الحصار البشناقي الشديد لمدينة كييف بالحيلة . فذات صباح ركب ورفاقه القوارب وابتعدوا في النهر قبل الفجر ، وفي نفس الوقت أطلق سكان كييف صيحة عالية ، تزامنت مع صوت أيق بريتش . فظن البشناق أن الأمير الروسي سفياتوسلاف هو القادم ، مما جعلهم يولون الأذبار ، وعندئذ لم يكن هناك مفر أمام زعيمهم سوى التقاع

(٥٧) انظر ، الفصل الأول من الباب الأول ، ص ٢ .

(٥٨) قسطنطين بورغوجنيوس ، *الإدارة* ، ص ٥٤-٥٥ .

(٥٩) *DAI*, I, pp. 48-51; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 202; Karamsin, *Histoire*, pp. 216-218; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 34-35; Le Clerc, *La Russie*, pp. 136-137.

انظر أيضاً ، الفصل الثاني من الباب الأول ، ص ٥٢ وما بعدها .

مع بريتش ، الذى أوهم زعيم البشناق أنه يقود طليعة جيش سفياتوسلاف ، القادماً فى الطريق خلفه بجيوش جرارة . لذلك دعى زعيم البشناق بريتش ليصبح صديقاً له ، فوافقه على طلبه . وتصافح الإثنين ، وقدم زعيم البشناق إلى بريتش رمحه وسيفه وسهامه كهدية ، بينما قدم له الأخير صديريته المدرعة ، ودرعه ، وسيفه . وهكذا رفع البشناق الحصار عن مدينة كييف^(١٠) . وبالرغم من هذا أرسل سكان كييف إلى أميرهم سفياتوسلاف ، الذى كان يحارب فى البلقان ، يطلبون منه العودة سريعاً للزود عن بلاده ، خشية أن يعاود البشناق الهجوم مرة ثانية على كييف . وقد استجاب سفياتوسلاف لنداء الوطن وعاد على الفور إلى كييف ، حيث اطمئن على أسرته ، ثم جيش جيوشه ضد البشناق ، فهاجمهم ودفع بهم بعيداً إلى منطقة السهوب . وهكذا خيم السلام ثانية على أرجاء بلاده^(١١) .

ويبدو أن البشناق تغلبت عليهم طبيعتهم العرقية ولم ينسوا عودة الأمير الروسى سفياتوسلاف لمهاجمتهم وتشتيتهم فى عام ٩٦٠ ، حيث رفضوا فى صيف عام ٩٧١ م ، مطلب الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزميسكس السماح للأمير الروسى المهزوم وقواته المرور بسلام عبر أراضيهم للوصول إلى كييف^(١٢) . وقد انتهى الأمر كما سبق وأوضحنا^(١٣) باغتيال الأمير الروسى سفياتوسلاف ، وصنع قوريسا زعيم البشناق من مجتمه قنحاً يحتسى فيه الشراب .

وفى أثناء الحرب الأهلية التى دارت عقب وفاة سفياتوسلاف بين ولديه ياروبولك أمير كييف (٩٧٣-٩٧٨ م) وفلاديمير أمير نوفجورود (٩٧٠-٩٧٨ م) ، كانت النصيحة التى وجهها فارايازكو *Varayazhko* ، مستشار ياروبولك ، إليه أن يفر إلى البشناق عقب هزيمته على أيدي أخيه فلاديمير ، لكنه فضل أن يسلم نفسه لأخيه ، حيث فتك به الفارانجيون حلفاء فلاديمير . وقد فر فارايازكو إلى البشناق ، واستمر فى مناوأة فلاديمير إلى أن استطاع فلاديمير كسب ولائه^(١٤) . وتعمس لنا هذه الأحداث كيف أن الروس بدأوا يتجهون إلى البشناق لمناصرتهم وترجيح كفة أمير على آخر .

^(١٠) R.P.C., pp. 85-86.

^(١١) R.P.C., p. 86.

لمزيد من التفاصيل حول هذه الأحداث انظر ،

Clerc, *La Baumgarten, Saint Vladimir*, pp. 34-35; Karmsin, *Histoire*, pp. 216-218; Le *Russie*, pp. 136 - 137.

^(١٢) Cedrenus, II, p. 412; Zonaras, III, p. 535.

^(١٣) عن تفاصيل هذه الأحداث انظر ، الفصل الثامن من الباب الأول ، ص ٥٢-٥٦ .

^(١٤) انظر أيضاً ، المتولى تميم ، البشناق ، ص ٩٣-٩٤ . R.P.C., p. 93.

وفي عهد الأمير الروسي فلاديمير (٩٧٨-١٠١٥م) ازدادت هجمات البشناق على الأراضي الروسية بصورة ملحوظة ، مما دفع فلاديمير إلى بناء مجموعة من القلاع الحربية الحدودية على أنهار دسنا *Desna* وتروبيش *Trubezh* وسولا *Sula* وستوجنا *Strugna* ، حيث جمع خيرة رجاله من القبائل السلافية ووضعهم كحاميات في هذه القلاع . ليس هذا فحسب ، بل أن فلاديمير تحالف مع الغز لمواجهة خطر البشناق ، حيث يذكر المؤرخون المحدثون أن الحملة الروسية - الغزية ضد بلغار الفولجا ، حلفاء البشناق ، في عام ٩٨٥م كان الهدف منها هو ضرب البشناق اقتصادياً بالسيطرة على الطرق التجارية^(١٥) .

وفي عام ٩٩٢م هاجم البشناق بلاد الروس ، مستغلين فرصة انشغال الأمير الروسي فلاديمير في حربه مع الكرواتيين . وما أن فرغ فلاديمير من هذه الحرب حتى استدأر بقواته لقتال البشناق عند نهر تروبيش ، ودار القتال بين الطرفين . وتروى الحولية الروسية الأولى أن زعيم البشناق اقترح على فلاديمير أن يجعل المعركة بين مقاتلين أحدهما بشناقى والآخر روسى ، وذلك حقناً للدماء ، وقال 'إذا قتل الروس البشناقى ، فسوف نتعهد بأن نترك بلادكم في سلام لمدة ثلاث سنوات ، وإذا قتل البشناقى الروسى ، فسوف ندحر بلادكم لمدة ثلاث سنوات أيضاً' . وقد وافق فلاديمير على الاقتراح وقدم كل طرف مرشحة ، ليبدأ بينهما القتال ، الذى أسفر عن مقتل البشناقى . وعلى هذا هرب البشناق أمام الروس ، الذين دفعوهم بعيداً إلى منطقة السهوب . وتخليداً لذكرى هذا الانتصار أقام فلاديمير مدينة في الموضع الذى دارت فيه المعركة ، أطلق عليها اسم البطل الروسى الذى فتك بغريمة البشناقى ، فصارت تعرف باسم مدينة بيرياسلاف 'Pereyaslav'^(١٦) .

وتحت أحداث عام ٩٩٤-٩٩٦م تذكر الحولية الروسية الأولى أن البشناق أغاروا على مدينة فازيليفو *Vasilevo* الروسية^(١٧) . فسار الأمير الروسي فلاديمير وبصحبه جيش صغير لملقاتهم . وعندما التقى الطرفان لم يستطع فلاديمير التغلب

(١٥) Pritsak, *Pecenegs*, p. 233; Macarteny, *Petchenegs*, p. 345; Baumgarten, *Saint Vladimir*, p 115; Shepard, J., "The Russian Steppe-Frontier and the Black Sea Zone", *Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies* : "The Byzantine Black Sea," 18-20 March, ed. A. Bryer, 'Αρχ. Πόλις, 35(1978), p. 223.

(١٦) R.P.C., pp. 119-120; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 113-114; Le Clerc, *La Russie*, pp. 164 - 165 .

(١٧) تقع مدينة فازيليفو على نهر سترجنا ، وهي على بعد ٣٥ كم جنوب غرب كييف . انظر، R.P.C., p. 248, n. 96.

على البشناق، الذين ألحقوا به هزيمة ثقيلة، ووصل الأمر إلى أنه فر واختبأ أسفل أحد الجسور ، حيث أخفى نفسه بالكاد عن عيون العدو . وقد عزم فلاديمير حينئذ على بناء كنيسة في هذه المدينة ، إذا نجى من الموت . وبالفعل بعد أن وضعت الحرب أوزارها أسس فلاديمير الكنيسة ، وأقام احتفالاً كبيراً دعى إليه النبلاء والشيوخ من شتى المدن وأناس آخرين ، ووزع على الفقراء الروس مبلغ ثلاثمائة جريفنا ، وقد استمر الاحتفال ثمانية أيام عاد بعدها فلاديمير إلى كييف ليقيم احتفالاً مماثلاً فيها^(٢٨) .

وكما يذكر نسطور في جوليته أن البشناق انتهزوا فرصة غياب فلاديمير عن كييف ، حيث كان في مدينة نوفجورود آنذاك ، وهاجموا مدينة بيلجورود ^(٢٩)Belgorod الروسية . ونصبوا الحصار حولها لفترة طويلة ، مما أدى إلى انتشار المجاعة بين السكان ، وفي النهاية اضطر البشناق إلى رفع الحصار عن المدينة والعودة إلى أوطانهم بعد أن تغلب الروس عليهم باستخدام الحيلة^(٣٠) .

وفي عام ١٠١٥م هاجم البشناق بلاد الروس ، فأرسل فلاديمير ، الذي كان أسير المرض ، ابنه بوريس *Boris* لقتالهم . لكن ما أن خرج لقتالهم حتى وافقه الأنباء بموت أبيه فلاديمير فعاد إلى كييف دون ملاقة البشناق^(٣١) .

ومن الملاحظ أن هجمات البشناق على الأراضي الروسية قد زادت في عهد الأمير الروسي فلاديمير . ولأسف الشديد لا تقدم لنا المصادر التاريخية سبباً واضحاً يفسر ذلك ، الأمر الذي يدفعنا إلى افتراض أن هناك ارتباط بين تلك الهجمات المتتالية من جانب البشناق على الأراضي الروسية ، وبين الصراع الدائر في البلقان بين باسيل الثاني والبلغار . وعلى الرغم من أن العلاقات البيزنطية - الروسية كانت ودية آنذاك، حيث شاركت الفرقة الفارنجية التي كان قد بعث بها فلاديمير في القتال إلى جانب البيزنطيين ، كما أنه كانت هناك مصاهرة عائلية بين فلاديمير والبييت الحاكم في القسطنطينية ، حيث تزوج فلاديمير الأميرة أنا بورفيروجينا ، أخت الإمبراطور باسيل الثاني ، فإن ذلك لم يمنع الأخير من الاحتياط من الروس خشية أن يقوم فلاديمير بمهاجمة الأراضي البيزنطية أثناء انشغاله بحروبه البلغارية ، أو ينجح البلغار في كسب الروس إلى جانبهم . وبناء على هذا ربما طلب الإمبراطور باسيل الثاني من

^(٢٨) R.P.C., pp. 120-121.

^(٢٩) تقع مدينة بيلجورود على نهر إرپن *Irpen* ، على بعد ٢٥ كم جنوب غرب كييف . انظر ،

R.P.C., p. 243, n. 83.

^(٣٠) R.P.C., pp. 122-123; Baumgarten, *Saint Vladimir*, pp. 114-115.

^(٣١) R.P.C., p. 124.

البشناق مناوشة الروس بالهجمات المتوالية على أراضيهم ، فلا يلتفتون إلى ما يسدور في البلقان، وينهمكون في أمر الزود عن أراضيهم ضد البشناق^(٧٢) .

ومرة ثانية يظهر لنا البشناق كعنصر من العناصر المدعومة للأمرء الروس في الحروب الأهلية التي كانت تنشب بينهم ، والتي كان سببها في الغالب الجلوس على عرش إمارة كييف ، عاصمة الروس . فبعد وفاة الأمير الروسي فلاديمير في ١٥ يوليو من عام ١٠١٥م ، ترك وراءه ابنه سفياتوبولك حاكماً على إمارة كييف (١٠١٥-١٠١٩م) ، وباروسلاف حاكماً على إمارة نوفجورود (١٠١٠-١٠١٩م) ، وقد دب الخلاف بينهما على العرش . فحشد باروسلاف جيشاً من اتباعه في نوفجورود وسار نحو كييف لقتال أخيه سفياتوبولك ، الذي تمكن من كسب البشناق إلى صفه، وقد خرج إليه أيضاً عند مدينة لوبيتش *Lyubech* الواقعة على إحدى ضفتي نهر الدنيبر^(٧٣) .

ورابط الأخوان بقواتهما على ضفتي النهر ، كل منهما على الضفة المواجهة للآخرى ، ولم يجرؤ أحدهما على مهاجمة الآخر لمدة ثلاثة شهور على حد قول نسطور . وأخيراً لم يكن هناك مناص من القتال بين الطرفين . فدخل الجيشان في معركة انتهت بهزيمة سفياتوبولك . وقد عجز البشناق عن تقديم العون له ، لتأخرهم في الوصول إليه وبسبب البحيرات التي كان يربط عندها عند القتال. لكن في عام ١٠١٨م تمكن سفياتوبولك من استرداد عرش كييف ثانية ، بفضل تحالفه مع ملك بولندا . ولم يهنا سفياتوبولك طويلاً بعرش كييف ، فقد آتاه باروسلاف بقوات ضخمة وانتزع كييف منه ، بينما فر سفياتوبولك إلى البشناق طلباً للمساعدة . وبالفعل استطاع في عام ١٠١٩م أن يحشد جيشاً كبيراً من البشناق واتجه به شمالاً لملاقاة باروسلاف واسترجاع كييف . ودارت المعركة بينهما عند نهر ألتا *Al'ta*^(٧٤) ، وانتهت بهزيمة سفياتوبولك وفراره ، حيث قتل في منطقة بين بوهيميا وبولندا ، ودخل باروسلاف كييف ، عاصمة الروس ، وصار أميراً عليها (١٠١٩-١٠٥٤م)^(٧٥) .

(٧٢) الفتوى تميم ، البشناق ، ص ٩٦ .

(٧٣) بينما نتحدث الرواية هنا عن لوبيتش الواقعة على الضفة الغربية لنهر الدنيبر شمال موضع التقاء مع البريت *Pripet* ، فإن هذه المدينة تنتمي إلى منطقة تشرنيغوف ، ولم تكن تابعة لإمارة كييف . وعلاوة على ذلك، يعتبر أحد المؤرخين أنها مدينة تحمل نفس الاسم ، وكانت تقع على الضفة الشرقية لنهر الدنيبر على بعد نحو خمسة أميال شمال شرق كييف . انظر ،

(٧٤) نهر ألتا هو أحد فروع نهر نروبيش ، وهو رافد شرقي للدنيبر أسفل كييف ، انظر ،

R.P.C., p. 252, n.120.

R.P.C., pp. 131-134.

(٧٥) عن هذه الأحداث انظر ،

وعلى هذا النحو ، رأينا من خلال الأحداث السابقة كيف أن البشناق ظلت علاقاتهم مع الروس ، وبالتحديد مع الأمراء الروس ، علاقة حربية في المقام الأول والأخير . ولعل قرب الحدود بين الشعبين ، حيث كانت المسافة بينهما تبلغ مسيرة يوم كامل ، كان من العوامل التي أدت إلى سرعة الاحتكاكات الحربية بينهما . وعلينا أن نضيف إلى ذلك الأطماع المتوارية للإمبراطورية البيزنطية في منطقة السهوب ، الأمر الذي جعلها تحرك بأصابعها الخفية تلك القوى بعضها ضد بعض ، اتباعاً للمبدأ الروماني " فرق تسد " . ولما كان البشناق يفتقرون إلى الفكر السياسي الأمثل^(٣١) ، فقد كان من السهل على بيزنطة أن تروضهم لصالحها ولأجل بقاء نفوذها شامخاً في منطقة السهوب . أما الروس فكانوا قد تخلصوا من نظامهم القبلي إلى حد ما ، وصار لهم نظام سياسي واضح الشكل إلى حد كبير ، فالحكم أصبح وراثياً عندهم ، يتولى أميرهم الأعظم أمرهم ومقره إمارة كييف ، وباقي الأمراء يتولون حكم الإمارات الروسية الأخرى باسمه ، فهو الذي يتولى توزيع الحكم في الإمارات عليهم . وبعد وفاة الأمير الروسي العظيم يتولى ابنه الحكم من بعده ، وإن كان قاصراً تتولى أمه الوصاية عليه ، كما في حالة الأمير سفياتوسلاف ، الذي تولت الأميرة أولجا الوصاية عليه . وقد نشب الحروب الأهلية بين الأمراء ، كذلك التي أعقبت وفاة سفياتوسلاف في عام ٩٧٢م أو وفاة فلاديمير في عام ١٠١٥م ، وذلك لاختلاف الأبناء على أنصبتهم من الحكم . ولهذا لم تفلح بيزنطة في استقطاب الروس إليها وإدخالهم في فلكها إلا باستخدام الدين ، وصارت الكنيسة الروسية الابنة الكبرى لكنيسة القسطنطينية . وأصبح رجال الدين البيزنطيون يتولون مناصبهم في روسيا برضى من الأمير الروسي العظيم .

وإذا تتبعنا علاقات البشناق منذ قدومهم إلى شمال بحر بونتس ، في أوائل القرن العاشر الميلادي ، مع الروس سنجد أن المرحلة الأولى منها كانت عبارة عن إغارات من البشناق على الأراضي الروسية ورد من الروس عليها ؛ وقد ازدادت هذه الإغارات في عهد الأمير الروسي فلاديمير . وتأتى المرحلة الثانية منها وهي عبارة عن توقف الإغارات البشناقية على الأراضي الروسية ، وتدخلهم في الحروب الأهلية التي نشبت بين الأمراء الروس ، وكان من أبرزها تلك التي نشبت عقب موت فلاديمير سنة ١٠١٥م . وفي هذه الحرب نجد أن الأمير الروسي سفياتوبوك قد استعان بالبشناق في معظم حروبه ضد أخيه ياروسلاف ، أمير نوفجورود ، وأصبح

(٣١) عن نظام الحكم عند البشناق ، انظر، المتولى تميم ، البشناق ، ص ١٣٢-١٣٤ .

البشناق عنصرًا لا يمكن لسفياتوبولك الاستغناء عنه في صراعه مع ياروسلاف . لذلك لا غشاضة في أن ترى سفياتوبولك يهرب إليهم ويعود بهم إلى كيف أكثر من مرة ، وبهذا لم تكن هناك حاجة للبشناق للإغارة على الروس ، فقد صاروا بينهم وعلى أرضهم يقفون محاربين مناصرين للأمراء الروس في نزاعاتهم الداخلية . ولكن يبدو أن رياح الحرب الأهلية الروسية بين سفياتوبولك وياروسلاف قد أثت على التحالف الروسي - البشناقي ، الذي ظهر في الحروب الأهلية الروسية . فقد تولى الحكم في نهاية المطاف الأمير الروسي ياروسلاف ، بعد أن تمكن من هزيمة أخيه سفياتوبولك واحتلاله في عام ١٠١٩م . وقد قبض ياروسلاف على تمام الأمور في بلاده بقبضة قوية وأعاد النظام إليها ، وبدأ نهضة علمية وتعليمية ودينية في بلاده على شاكلة تلك التي قام بها شارلمان في مملكته ، حتى استحق أن يطلق عليه المؤرخين اسم ياروسلاف الحكيم (١٠١٩م-١٠٥٤م) . ويبدو أن هذا قد أزعج البشناق ، فقد صاروا الآن خارج دائرة الضوء ، ولم تظهر حاجة الروس إليهم على مدى ما يقرب من سبعة عشر عاماً تلت . وفي عام ١٠٣٦م بروى لنا نسطور تفاصيل الهجوم الذي قام به البشناق ضد الروس^(٧٧) ، ولم يقدم لنا سبباً مباشراً لهذا الهجوم . ولكن نخرج بسبب يمكن قبوله لهذا الهجوم علينا أن نقوم بمسح جغرافى - تاريخى للخريطة السياسية لمنطقة السهوب في الربع الأول من القرن الحادى عشر .

لقد تعرضت منطقة السهوب الشرقية لموجة من الجفاف نتج عنها هجرة أعداد كبيرة من القبائل الرعوية المقيمة هناك ، نتيجة لتقلص المراعى ، فاتجهت نحو الغرب . وقد أثرت تلك الهجرات القبلية على الغز والكومان ، حيث استقر الأخيران في المناطق الساحلية الشمالية لبحر الخزر ، بينما استقر الغز في الشمال الغربى للمنطقة التي يقطنها الكومان . ونفعت تلك الهجرات الكومان إلى الضغط على الغز ، الذين اضطروا بدورهم إلى الاتجاه غرباً وعبور نهر الدون . وهناك اضطر البشناق ، تحت ضغط الغز ، إلى الهجرة فاندفعت مجموعات منهم إلى الأراضى الروسية والمجيارية ، بينما اندفعت المجموعة الرئيسية إلى الأراضى البيزنطية ، عبر نهر الدانوب ، لتبدأ سلسلة من الصراعات المتوالية مع بيزنطة ابتداء من عام ١٠٢٦م^(٧٨) .

ويخبرنا زونارس أنه في عهد الإمبراطور قسطنطين الثامن *Constantine VIII* (١٠٢٥-١٠٢٨م) أغار البشناق على بلغاريا ، وكانوا كثيراً ما يعبرون نهر

(٧٧)

R.P.C., pp. 136-137.

(٧٨) المتولى تيم ، البشناق ، ص ١٠١ .

الدانوب فيعيشون في الولايات فساداً ، ينهبون البلاد ، ويقتلون الأسرى عن بكرة أبيهم^(٧٩) . ويذكر أحد المؤرخين المحدثين أن هذه هي المرة الأولى التي يعبر فيها البشناق نهر الدانوب إلى الأراضي البيزنطية ، نتيجة الضغط الاقتصادي الناتج عن فقدان الأراضي الرعوية القديمة^(٨٠) . وقد اضطرت بيزنطة نتيجة لذلك أن تقوى دفاعات إقليم باريسريون *Paristrion* . واستمرت اغارات البشناق على بلغاريا خلال فترة حكم الإمبراطور ميخائيل الرابع *Michael IV* (١٠٣٤-١٠٤١م) . وفي عام ١٠٣٦م ، وهو العام الذي وقع فيه الهجوم البشناق على السروس ، انتهت اغارات البشناق على بلغاريا بعقد اتفاقية مع بيزنطة ظلت سارية المفعول لمدة إثني عشر عاماً ، إلى أن نقضها البيزنطيون أنفسهم في عام ١٠٤٨م ، في عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس *Constantine IX Monomachus* (١٠٤٨-١٠٥٣م)^(٨١) . ومنذ ذلك الوقت اتخذت هجرات البشناق إلى داخل الأراضي البيزنطية شكلاً واسع النطاق بهدف الاستقرار^(٨٢) .

على هذا النحو رأينا كيف أن الطبيعة لعبت دوراً فعالاً في تغيير الخريطة الإثنية لمنطقة السهوب ، وكيف تبدلت مواضع الأمم فيها . فالكومان ضغطوا على الغز ، الذين بدورهم ضغطوا على البشناق ، الذين لم يكن بإمكانهم إنشاء شعب من الشعوب التي تنتميهم في المكان ، فلم يكن هناك محيص أمامهم سوى العبور عبر نهر الدانوب إلى الأراضي البيزنطية . ولم يكن بوسعهم في هذه الآونة ، وهم تحت التهديد الغزى لهم ، أن يتفقوا جميعاً إلى الأراضي الروسية ، التي كانت تحت حكم الأمير الروسي ياروسلاف الحكيم . فقد دخلت جماعات محدودة منهم إلى الأراضي الروسية والمجارية ، أما السواد الأعظم منهم فقد عبر الدانوب إلى الأراضي البيزنطية . ومنذ أن دخل البشناق إلى الأراضي البيزنطية ، وتولى ياروسلاف الحكيم الحكم في كييف ، لم يكن بمقدور البشناق العودة إلى هجماتهم على الأراضي الروسية ، نظراً لأنهم انشغلوا بصراعاتهم الحربية مع الإمبراطورية البيزنطية ، من أجل البقاء . وإذا كان البيزنطيون قد أفلحوا في إيقاف المد البشناقي في البلقان في نهاية المطاف بعقد معاهدة معهم في عام ١٠٣٦م ، استمرت لمدة إثني عشر عاماً ، إلا أن البشناق لم يكونوا عن

Zonaras, III, pp. 579-590.

Macarteny, *Petchenegs*, p. 346.

Macarteny, *Petchenegs*, p. 346.

(٧٩)

(٨٠)

(٨١)

انظر أيضاً، العريبي ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٦٦ .

(٨٢) المتولي تيم ، البشناق ، ص ١٠١ .

قتال الروس متى اتحت لهم الفرصة . ويعتقد انه قد يكون من المحتمل أن البشناق لم يتوجهوا لقتال الروس في عام ١٠٣٦م إلا بعد المعاهدة التي أبرمت بينهم وبين البيزنطيين ، فلم يكن من البديهي أن يقاتلوا في جبهتين في آن واحد في صراع حتمى من أجل البقاء . ومن المحتمل أيضاً أنه كرد فعل لنجاح البيزنطيين في كبح جماح البشناق وترويضهم كان من السهل عليهم أن يتجهوا نحو بلاد الروس التي اعتادوا الدخول إليها ، وذلك لفتح جبهة جديدة أمامهم عسى أن يغنموا من ورائها بعض الأراضي التي يمكنها أن تستوعب أعداداً منهم ، أو تستخدم كظهر لهم في حالة تجدد الصراع الحربي مع بيزنطة . ولاغرو ، فقد كانت أعداد البشناق المحاصرين لكيف في عام ١٠٣٦م لا تعد ولا تحصى على حد تعبير نسطور نفسه^(٨٢) .

ففي عام ١٠٣٦م استغل البشناق فرصة وجود الأمير الروسي ياروسلاف في مدينة نوفجورود ، حيث كان ينصب ابنه أميراً عليها ، ودخلوا بلاد الروس في أعداد غفيرة وضربوا الحصار على العاصمة الروسية كييف . ووصلت أنباء هذا الهجوم إلى ياروسلاف ، فقام في التو بحشد جيشه من الفارانجيين والسلاف وعاد إلى كييف ، التي دخلها بقواته . ومن هناك بدأ الاستعداد لقتال البشناق ، فظم قواته على النحو التالي : القوات الفارانجية في الوسط ، ورجال كييف في اليمين ، أما رجال نوفجورود فقد وضعهم في الميسرة ، وعلى هذا النحو كان جيشه يتبع تنظيمًا عسكرياً قوامه قلب وجناحين . وتقابل الجيشان ، الروسي والبشناقي ، خارج مدينة كييف ، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس . وكان القتال ضارياً بين الطرفين ، على حد تعبير نسطور ، لكن بحلول المساء استطاع ياروسلاف أن تكون له اليد العليا في المعركة ، وبصعوبة شديدة . وحلت الهزيمة بالبشناق ، الأمر الذي دفعهم للهرب أمام القوات الروسية بلا تنظيم وإلى مواضع شتى . ونظراً لجهلهم بالجهات التي يولون الألبار نحوها فقد غرق بعضهم في نهر ستومل^(٨٣) ، والبعض الآخر في الأنهار الأخرى . ولتخليد ذكرى هذا الانتصار أقام الأمير الروسي ياروسلاف كنيسة سانت صوفيا *St. Sophia* في الموضع الذي دارت فيه المعركة بين الروس والبشناق^(٨٤) .

ويعتبر هذا الهجوم البشناقي على الروس في عام ١٠٣٦م هو آخر الهجمات التي قاموا بها ضد بلاد الروس ، ولم نعد نسمع عنهم في الحواريات الروسية بعد ذلك ،

(٨٢)

R.P.C., p. 136.
(٨٣) ستومل ، كان نهراً ينساب فيما مضى إلى نهر بوتشانا عبر الجزء الشمالي للبودول Podol أو عبر قطاع من ضفة أسفل كييف . انظر ،
(٨٤) *R.P.C.*, p. 257, n. 164.
R.P.C., pp. 136-137; Minorsky, *Commentary*, p. 316.

الهم إلا في عام ١٠٣٠م فقط^(٨٦). فقد وضع ياروسلاف نهاية للوجود البشناقى فى المنطقة ، وأصبحوا أقلية تعمل فى خدمة الروس وشعوب المنطقة ، كما أكسب هذا الانتصار ياروسلاف شهرة كبيرة باعتباره منقذاً لبلاده من البشناق . بل إن بعض المؤرخين المحدثين يشبهون انتصاره على البشناق بانتصار شارلمان على الأفار فى عام ٨٠٠م ، وانتصار أوتو الأول *Otto I* على المجيار فى عام ٩٥٥م^(٨٧). وإذا كان الأمير الروسى ياروسلاف قد نجح فى طرد البشناق من بلاده، بعد كسر شوكتهم ، فإن هذا قد دفع بالبشناق إلى تركيز مجهوداتهم الحربية فى جبهة واحدة ، هى جبهة البلقان. وقد تكون هزيمة الروس للبشناق فى عام ١٠٣٦م ، واحدة من العوامل التى حدثت بالبشناق إلى القيام بحركة الهجرة الواسعة إلى أراضي الإمبراطورية البيزنطية فى عام ١٠٤٨م بغرض الاستقرار وإقامة موطن لهم . وفى الحقيقة كانت هناك عوامل أخرى، ربما أكثر أهمية مما نذهب إليه ، حدثت بالبشناق إلى القيام بهذه الهجرات بدءاً من عام ١٠٤٨م ، لعل أهمها هو الصراع الذى نشب بين قطبى البشناق ، والمدعو أحدهما *Tyrach* والآخر *Kegen* على الزعامة بينهم ، لكن مع ذلك لا يمكن أن نفعل الأثر البعيد لهزيمة الروس لهم فى عام ١٠٣٦م^(٨٨).

وبعد أن انتهينا من الحديث عن العلاقات بين الروس والبشناق ، وما أحدثته مجئ الأخيرين إلى منطقة السهوب الواقعة شمالى بحر بونتس فى مستهل القرن العاشر الميلادى من تغييرات فى الخريطة السياسية للمنطقة ، على النحو الذى يبيّن ، لزاماً علينا الآن أن نبحر فى نهر أثل (الفولجا) بدءاً من مصباته فى بحر الخزر جنوباً صعوداً حتى منابعه فى الشمال ؛ وذلك للتعرف على القوى السياسية القائمة على ضفافه وحجم العلاقات بينها وبين الروس فى الحقبة محل الدراسة .

الروس والخزر:

وإذا بدأنا الإبحار فى نهر أثل بدءاً من الجنوب فإننا بلا شك سوف نصطدم بمملكة الخزر وما كان لها من سلطان فى المنطقة التى كانت تمتد يوماً ما فيما بين

^(٨٦) R.P.C., p. 202.

^(٨٧) Pritsak, *Pechenegs*, p. 233; Macarteny, *Pechenegs*, p. 346.

^(٨٨) عن هجرة البشناق إلى أراضي الدولة البيزنطية فى عام ١٠٤٨ وما نجم عنها انظر، Zonaras, III, pp. 641-642; Cedrenus, II, p. 585; Kazhdan, A., "Once more about the "Alleged" Russo-Byzantine Treaty (ca.1047) and the Pecheneg Crossing of the Danube", *JOB*, 26 (1977), pp. 65-77; Shepard, J., "John Mauropus, Leo Tornicius and an Alleged Russian Army: The Chronology of the Pecheneg Crisis of 1048-1049, *JOB*, 24 (1975), pp. 61-89; Diaconu, *Pechenegs*, pp. 56-66.

نهرى الأورال شرقاً والذئير غرباً ، وكان يحميها بحر الخزر من الشرق ، وجبال القوقاز من الجنوب ، وبحر بونتس من الغرب . وليس أدل على امتداد سلطان الخزر فى المنطقة من أن بحر قزوين صار يعرف آنذاك باسمهم ، وأن نهر الفولجا وعاصمتهم صارا يحملان اسماً واحداً وهو أثل . وحتى ندرك حجم قوة الخزر فى المنطقة وكيف تعامل الروس معهم لابد لنا أولاً أن نعرف من هم الخزر ؟ وما حجمهم فى الخريطة السياسية لمنطقة السهوب بل وفى الخريطة السياسية الدولية ؟ ذلك حتى يتسنى لنا تفسير العلاقة بينهم وبين الروس على نحو صحيح .

تكاد تكون رواية الجغرافى العربى الاصطخرى ، الذى توفى فى عام ٣٤٠هـ/٩٥١م ، من أقدم الروايات التاريخية عن مملكة الخزر ولا يضارعها سوى رواية الوزير العباسى أحمد بن فضلان ، الذى قام برحلته إلى بلغار الفولجا فى عام ٣٠٩هـ/٩٢١م ، فكان خير شاهد عيان على ما رآه بنفسه ووصل إلينا . وبصفة عامة فإن المصادر العربية تكاد تكون المصدر الأول من بين المصادر التاريخية قاطبة التى تحدثت عن تاريخ مملكة الخزر ، والتى يعود أغلبها إلى القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى .

يقول الاصطخرى أن اسم الخزر هو اسم للإقليم وعاصمته تسمى إتل ، وإتل اسم النهر الذى يجرى إليه من الروس وبلغار^(٨٩) ويفيض فى بحر الخزر^(٩٠) . وكان يطلق على ملكهم لقب خاقان^(٩١) وعلى نائبه خاقان به^(٩٢) . وكان لخاقان الخزر حاشية قوامها أربعة آلاف رجل^(٩٣) ، وهو الذى يقود الجيوش ويسوسها ويدير أمر المملكة ويقوم بها ، ويظهر ويغزو ، وله تدعى الملوك الذين يصابقون^(٩٤) . وتذكر بعض المصادر العربية أنه كان هناك ملك للخزر^(٩٥) إلا أن الخاقان كان يعطوه مكانة بين الرعية ، أو كما يقول الاصطخرى "هو أجل من ملك الخزر" ، برغم أن الأخير هو

(٨٩) المسالك والممالك ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٨٩ .

(٩٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٨٩ .

(٩١) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٩١ .

(٩٢) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٩١ ؛ يطلق الاصطخرى هذا اللقب على الخاقان نفسه وليس نائبه حيث يقول "ويسمى الملك بلسانهم بك ، ويسمى أيضاً بك" . انظر ، المسالك والممالك ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٨٩ .

(٩٣) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٠ .

(٩٤) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٩١ .

(٩٥) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ١٣١ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٨٩ - ٣٩٠ ؛ ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٩١ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١١٢-١١٣ ؛ الكندي ، زيرين الأخبار ، ص ٤٦٣ ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٥٨٤-٥٨٥ ؛ دمشق ، نخبه الدهر ، ص ٢٦٣ .

الذي يقيمه^(٩٦) . ويمكننا أن نعتبر خاقان الخزر نائب المملكة فهو الذي كان بيده الحل والربط في البلاد ، أما منصب الملك فكان منصبا شرفيا في المقام الأول . وليس أدل على مكانة الخاقان سوى كلمات المسعودي الذي قال عنه : ' .. ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلا بخاقان يكون عنده في دار مملكته، ومعه في حيزه ، فإذا أُجديت أرض الخزر أو ثابت بلادهم نائية أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم ، أو فاجأهم أمر من الأمور .. قالت العامة لملكهم قد تطيرنا بهذا الخاقان وليامسه ، وقد تشامنا به ، فأقتله أو سلمه لنا نقتله ، فربما سلمه إليهم فقتلوه وربما تول هو قتله وربما رق له فدافع عنه ..'(٩٧) . هكذا بين لنا المسعودي مكانة الخاقان بين رعيته وكيفية توليه الحكم وعلاقته بالملك . وقد كانت الخاقانية حكراً على بيت من البيوت الخزرية المعروفة^(٩٨).

أما عن جيش خاقان الخزر فيقول البعض أن تعداده كان إثني عشر ألفاً من الرجال^(٩٩) ، والبعض الآخر يقول أنه كان عشرة آلاف رجل فقط^(١٠٠) . وأياً كان الأمر فإن قوام جيشه كان كبيراً بالدرجة التي دفعت الروس لطلب الإذن من الخاقان بالمرور عبر أراضيهم وهم في طريقهم لغزو بعض المدن الإسلامية الواقعة في منطقة القوقاز في عام ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م^(١٠١) . وكانت غالبية هذا الجيش من المسلمين القاطنين في خزاريا ، والذين كانوا يشكلون جبهة قوية في الداخل قادرة على الوقوف في وجه ملكهم في بعض الأحيان^(١٠٢) ، خاصة وأن تعدادهم يزيد على العشرة آلاف مسلم^(١٠٣) ، وقد بلغ من قوتهم أنهم إذا تحالفوا مع المسيحيين من الخزر صاروا قوة واحدة لا يستطيع خاقان الخزر مجابهتها^(١٠٤) .

جدير بالذكر أن مملكة الخزر ، خازاريا Χαζαρία كما كان يطلق عليها البيزنطيون ، كانت عبارة عن اتحاد كونفدرالي لقبائل بدوية ، واتباع يودون الجزية في

(٩٦) *الممالك والممالك* ، ص ١٣١ .

(٩٧) *مروج الذهب* ، ج٢ ، ص ١١٣ .

(٩٨) *الاصطخرى ، الممالك والممالك* ، ص ١٣١ ؛ *المشقى ، نخبة الدرر* ، ص ٢٦٣ .

(٩٩) *الاصطخرى ، الممالك والممالك* ، ص ١٢٩ .

(١٠٠) *الموزني ، طبائع الحيوان* ، ص ٢١ .

(١٠١) انظر ، الفصل الرابع من البحث ، وقد سبق وناقشت هذه الإشكالية التاريخية في الفصل السابق .

(١٠٢) انظر ، الفصل الرابع من البحث .

(١٠٣) *الاصطخرى ، الممالك والممالك* ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٠ ؛ *الحميري* ؛

الروض الممطر ، ص ٢١٩ .

(١٠٤) *المسعودي ، مروج الذهب* ، ج١ ، ص ١١٢ .

ظل سيادة خاقان الخزر عليهم^(١٠٥). فقد كانت مملكة الخزر تحوى بين جنباتها مسلمين ومسيحيين ويهودا ووثنيين^(١٠٦) بالإضافة إلى سيادتها على القبائل السلافية والفنلندية في منطقة السهوب وشمالها ، ولهذا استحدث أن يطلق عليها المؤرخ والأثرى الإنجليزي ويتو Whitto عبارة اتحاد كونفدرالى . وتتبع الإشارة إلى أن اليهود كانوا أقل الفئات السكانية في خزاريا ، أما الأغلبية فكانت للمسلمين والمسيحيين ؛ وبالرغم من هذا كان ملكهم وخاصته من اليهود^(١٠٧) . وقد سبقت الإشارة إلى النظام القضائى فى خزاريا ، وكيف أن كل فئة من فئات السكان الخزر كان لها حكامها أوقضاؤها^(١٠٨) .

أما عن الموارد المالية التى كان يعتمد عليها ملك الخزر وخاقانه فكانت تعتمد على الضرائب التى كان يفرضها على التجارة المارة عبر أراضيه أو التى تقوم عليها. وفى هذا الشأن يقول الاصطخرى "... وأبواب مال هذا الملك من الأرصاد وعشور التجارات ، وعلى رسوم لهم من كل طريق وبحر ونهر ، ولهم وظائف على أهل المحال والنواحى من كل صنف ، مما يحتاج من طعام وشراب وغير ذلك .."^(١٠٩) . وتضيف الحولية الروسية الأولى إليها دخلاً آخر غير ضريبة العشور تتمثل فى الجزية التى كان يفرضها الخزر على القبائل السلافية ، التى كانت تعيش فى منطقة السهوب ، وكان مقدارها قطعة فضية عن كل نصل محراث^(١١٠) ؛ ونعرف جيداً أنه منذ حوالى منتصف القرن السابع الميلادى وحتى نهاية القرن التاسع الميلادى كان المجيار يجبون الجزية لحساب الخزر ، من الشعوب السلافية والفنلندية التى كانت تقطن المنطقة الواقعة شمال موطن المجيار فى منطقة السهوب وفى منطقة الغابات الواقعة إلى الشمال من ذلك^(١١١) . لكن يبدو أن مجئ الروس إلى منطقة السهوب والغابات الشمالية أثر تأثيراً بالغاً على هذه الدخول . فنذكر الحولية الروسية الأولى أنه فى عام ٨٥٩م صار الفارانجيون يقاسمون الخزر فى الجزية المفروضة على القبائل السلافية والفنلندية . فكان الفارانجيون يفرضون الجزية على قبائل التشود Chuds

^(١٠٥) Whitto, M., *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (London, 1996), p. 223.

^(١٠٦) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٠ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج١ ، ص ١١٢ ؛ ابن القلائس ، نطق ، ص ٢٠٣ .

^(١٠٧) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٠ .

^(١٠٨) ونظر الفصل السابق ، ص ١٤ .

^(١٠٩) المسالك والممالك ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٠ ، ٣٩٢ .

^(١١٠) R.P.C., 84; Franklin and Shepard, *Rus*, p. 77.

^(١١١) كويسلر ، الخزر ، ص ١٢٠ ، عن موطن المجيار وعلاقتهم بالخزر ، انظر الصفحات التالية .

والسلاف *Slavs* والميريين *Merians* والفيز *Ves* والكريفثيين *Krivichians* ؛ بينما فرض الخزر الجزية على الرانميتشيين *Radimichians*^(١١٢) وعلى البوليين *Polyanians* والسيفيريين *Severians* والفياتشيين *Vyatichians*^(١١٣) . ويبدو أن هذه المشاطرة الروسية للخزر في الجزية المفروضة على تلك القبائل حدثت بعد استيلاء الروس على مدينة كييف وانتزاعها من أيدي الخزر ، ففى أواسط القرن التاسع الميلادي .

الجدير بالذكر أن عاصمة الخزر كانت مدينة أتل أو إتل كما يسميها البعض^(١١٤) ، وكان يشطرها نهر أتل إلى شطرين أحدهما شرقي والآخر غربي . ويقع ملك الخزر وحاشيته في الشطر الغربي منها ، وهو الشطر الأكبر حجماً^(١١٥) ، وكان يطلق عليه اسم خزران^(١١٦) ؛ أما باقي الرعية من المسلمين وغيرهم فكانوا يقيمون في الجانب الشرقي منها^(١١٧) ، وكان يطلق عليه اسم أتل^(١١٨) . والشئ الحضاري الهام الذي ينبغي ملاحظته على العاصمة الخزرية أتل ، في القرن العاشر الميلادي ، أن ملك الخزر كان يتخذ له قصرأ من الأجر وليس لأحد بناء من أجر غيره ، ولا يسمح الملك لأحد أن يبني بالأجر ، كما كان يحيط به سور ذو أبواب أربعة ، بالجانب الغربي من المدينة، الذي يقطنه الملك وحاشيته^(١١٩) . ويذكر الادريسي أن مدينة أتل كانت تبلغ من الطول ثلاثة أميال ويحيط بها سور منيع^(١٢٠) ، وكان أغلب أبنيتها عبارة عن خيم وأكوخ خشبية وليود وخركاهاات والقليل منها بنى من التراب والطين ، كما كانت

(١١٢)

R.P.C., p. 61.

(١١٣)

R.P.C., pp. 58, 59; Franklin and Shepard, *Rus*, p. 77.

(١١٤) الاصطخرى ، الممالك والممالك ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٨٩ ؛ ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٩٤ ؛ الادريسي ، نزهة المشتاق ، ٨٣٤ المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦٠ ؛

Hudud al-'Alam, p. 161.

(١١٥) الاصطخرى، الممالك والممالك ، ص ١٢٩ ؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٨٩ ؛ ابن فضلان،

الرسالة ، ص ١٩٤ ؛ الحميري ، الروض المطار ، ص ١١ ؛

Hudud al-'Alam, p. 161.

(١١٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٨٩ .

(١١٧) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٩٤ ؛ الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٨٣٤ ؛

Hudud al-'Alam, p. 161.

(١١٨) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٨٩-٣٩٠ .

(١١٩) الاصطخرى ، الممالك والممالك ، ص ١٢٩ ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦١ ؛ الحميري ،

الروض المطار ، ص ١١ .

(١٢٠) نزهة المشتاق، ٨٣٤ ؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٦١ ؛ الحميري، الروض المطار، ص ١١ .

زاخرة بالأسواق والحمامات العامة والمساجد وبعض الكنائس^(١٢١) . وبالإضافة إلى مدينة أتل كانت توجد مدن هامة أخرى يأتي على رأسها مدينة سمندر ، التي تقع على ساحل بحر الخزر ، خارج الباب والأبواب^(١٢٢)، وأبنيتها من الخشب ، وسطوحهم مسنمة^(١٢٣) . وهذه المدينة بها خلق من المسلمين^(١٢٤) ، وإن كان يغلب عليها المسيحيون^(١٢٥) ؛ وكانت تنقسم بالثراء والرخاء الاقتصادي . والمسافة بين مدينة سمندر والعاصمة الخزرية أتل كانت مسيرة ثمانية أيام^(١٢٦) أو سبعة أيام^(١٢٧) . كما كانت هناك مدن أخرى منها مدينة خمليج وبلنجر البيضاء ، التي قال فيها الباحثي :

شرفتر بدبالعالق إلى الذي عهدوه في خليج أويلنج^(١٢٨)

وجميع هذه المدن كانت تحيط بها الأسوار المنيعة^(١٢٩) .

والآن علينا أن نتعرف على مواقع الأمم الأخرى من الخزر ، من واقع المسافات التي تفصل بينها وبين العاصمة الخزرية أتل ؛ فمن أتل إلى أول حشد من برطاس عشرون يوماً ؛ ومن أتل إلى مملكة السيري^(١٣٠) ، مزوراً بسمندر وباب الأبواب ، خمسة عشر يوماً ؛ ومن أتل إلى موطن البشناق مسيرة شهر ؛ ومن أتل إلى بلغار الفولجا على طريق المفازة نحو شهر ، وفي الماء نحو شهرين فسي الصعود والحدود في النهر نحو عشرين يوماً^(١٣١) . ولا يوجد ذكر لحدود مشتركة للخزر مع الروس في بدايات القرن العاشر الميلادي ، على عكس بلغار الفولجا ، الذين كانوا

(١٢١) الأصبخري ، المسالك والممالك ، ص ١٢٩ ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٨٣٤ ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦١ ؛ ابن الوردي ، خريدة المعانيب ، ص ٩٤ ؛ ابن القلائسي ، دمشق ، ص ٢٠٣ ؛ الحميري ، الروض المظهر ، ص ١١ ، ٢١٩ .

(١٢٢) ابن خردادبة ، المسالك والممالك ، ص ٦٣ ، ١٢٤ ؛ الأصبخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٠ ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦١ ؛ Hudud al-'Alam, p. 161.

(١٢٣) الأصبخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٠ ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦١ .

(١٢٤) الأصبخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٠ .

(١٢٥) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦١ .

(١٢٦) الأصبخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٢ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٨ .

(١٢٧) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٨٣٤ .

(١٢٨) ابن خردادبة ، المسالك والممالك ، ص ١٢٤ ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩١٨ .

(١٢٩) Hudud al-'Alam, p. 161.

توجد العديد من المدن الخزرية الأخرى ، لكنها اكتفينا بذكر أهمها ، للمزيد من التفاصيل ، انظر المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٥٥ ؛ المروزي ، طليع الحيوان ، ص ٢١ الكريزي ، زين الأخبار ، ص ١٤٦٤ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج١ ، ص ٤٥٩ .

(١٣٠) عن مملكة السيري انظر ، الأصبخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٠ .

(١٣١) الأصبخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٢ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٨ ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩١٩ .

يبعدون عن حدود الروس مسيرة عشر مراحل ، وعن مدينة كويابه (كييف) نحواً من عشرين مرحلة^(١٣٦) . ويشير بارتولد إلى وجود منطقة غير أهلة بالسكان ، ليست ملكاً لأحد *No man's land* ، بين حدود الخزر الشرقية وبين حدود البلاد الإسلامية ، ولم تكن هذه المنطقة خاضعة لا للخزر ولا للمسلمين^(١٣٧) .

وقبل أن نمضي إلى الحديث عن العلاقات الخزرية - الروسية ينبغي أن نبرز الدور الذي كان يلعبه الخزر في الخريطة السياسية لمنطقتي القوقاز والسهوب . يشير ابن الوردي إلى نقطة غاية في الأهمية وهي أنه لم يكن هناك جيوش للأمم المحيطة بالخزر ، والوحيد الذي كانت له هذه الميزة هو خاقان الخزر ؛ وفي هذا الصدد يقول: "وليس من الملوك التي في تلك النواحي من عنده جند مرتزقة غير ملك الخزر"^(١٣٨) . أما ابن فضلان فيشير إلى سيادة خاقان الخزر على من جاوره من الأمم والقبائل ، لدرجة أنه كان يتزوج من ابنة كل ملك من الملوك الذين يجاورونه ، سواء طوعاً أو كرهاً ، حتى بلغن خمس وعشرين امرأة^(١٣٩) . وعلى هذا لم يكن من المستغرب أن تدعن له الأمم المجاورة وملكها^(١٤٠) . وقد كان ملك الخزر يتمتع بهيبة في المنطقة أضافت إليه سلطاناً فوق سلطانه ، فعلى سبيل المثال إذا خرج للقتال يكون بينه وبين الموالكب ميلاً ، فلا يراه أحد من رعيته إلا خر لوجهه ساجداً ، لا يرفع رأسه حتى يجوز^(١٤١) ، ومن المحتمل أن هذه الهبة انتقل خبرها إلى الأمم المجاورة، فكانت عاملاً على بسط سلطانه عليهم . ولعل مما دعم سلطانه أيضاً في المنطقة تلك السلسلة القوية من التحصينات العسكرية التي كفلت الحماية لحدود مملكته . فقد شكلت هذه الحصون قوساً صلباً شبه دائري يمتد من القرم - التي حكمها الخزر لفترة من الزمن - إلى نهر أتل ، عبر الروافد الجنوبية لنهر الدونetz والدون ، بينما كانت المملكة محمية جنوباً بواسطة سلسلة جبال القوقاز ، ومن الغرب ببحر بونتس ، ومن الشرق ببحر الخزر . بيد أن التحصينات الشمالية كانت تمثل مجرد حلقة داخلية تحمي قلب الخزر ، أما الحدود الحقيقية لسيطرتهم على قبائل الشمال فكانت تتغير وفقاً لمصائر حروبهم^(١٤٢) . ومن أشهر القلاع الخزرية التي حفظها التاريخ لنا ، قلعة الساركل ،

(١٣٦) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩١٩ ؛ الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٢ .

(١٣٧) بارتولد ، الترك ، ص ٦٠ .

(١٣٨) خريطة المجانب ، ص ٩٥ .

(١٣٩) الرسالة ، ص ١٩٢ ؛ كوستلر ، الخزر ، ص ٩١ .

(١٤٠) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٩١ .

(١٤١) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٩٣ .

(١٤٢) كوستلر ، الخزر ، ص ٢٤ .

وهي القلعة التي بناها البيزنطيون لهم تحسب أشرف القائد البيزنطي بترونس *Petronas* ، وكانت تقع على الشاطئ الأيسر لنهر الدون^(١٣٩) . وقد كان الهدف من بناء هذه القلعة هو صد الهجمات الآتية من صوب الغرب ؛ فالأعداء الذين يهددون الخزر من هذه الناحية ، وكذلك يهددون شبه جزيرة القرم البيزنطية في نفس الوقت ، كانوا يتمثلون بالدرجة الأولى في الروس^(١٤٠) ويضيف إليهم المؤرخ الإنجليزي المشهور أولينسكي المجيار أيضاً^(١٤١) . وربما لنفس السبب قامت بيزنطة بإنشاء ثيم خرسون فيما بعد^(١٤٢) .

وقد وردت عبارة في رسالة الملك يوسف إلى الوزير الأندلسي حصدای بن شبروط غاية في الأهمية تكشف لنا عن قوة خاقان الخزر في المنطقة فهو يقول : "وأنا أحرس - بعمون الله - مصب النهر (أتل) ، ولا أسمح للروس القادمين في سفنهم أن يغزوا بلاد العرب .. وأنا أخوض ضدهم حروباً ضارية ، لأني إذا أنذرت لهم بذلك فسوف يكتسحون بلاد المسلمين ، ربما حتى بئداد"^(١٤٣) . ومما يؤكد حسن علاقاته مع المسلمين ، والهدوء الذي كان يسود حدوده معهم عبارة المسعودي التي يذكر فيها أن المسلمين في القوقاز لم يعهدوا عدواً يأتي إليهم قبل الروس^(١٤٤) . فقد كانت العلاقات طيبة بينه وبين مملكة السرير وبين الأخيرة والمسلمين في القوقاز ، حيث كانت تجمعهم جميعاً هدنة^(١٤٥) . والمرة الوحيدة التي تحالف فيها خاقان الخزر مع عدو للمسلمين ، أعنى الروس سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢-٩١٣م ، وسمح لهم بالمرور عبر أراضيهم لقتالهم ، انقلب المسلمون الخزر عليه ونهروه على عمله هذا وتولوا بأنفسهم الثأر من الروس ، الذين لم يجد تحذير الخاقان لهم نفعاً^(١٤٦) . وربما من أجل هذا

(١٣٩) Obolensky, *Crimea*, p. 128; Whittow, *Byzantium*, p. 233.

Obolensky, *Crimea*, p. 128;

(١٤٠) كوينستر ، الخزر ، ص ١٠٦ .

Obolensky, *Crimea*, p. 128;

(١٤١) دنلوب ، الخزر ، ص ٢٥ .

DAL, I, chap. 42, pp. 182-185;

لمزيد من التفاصيل عن قلعة الساركل ، انظر ،

McGovern, M., "Sarkel-a Reflection of Byzantine Power or Weakness ? ", *BsL*, 50

(1989), pp. 177-180;

دنلوب الخزر ، ص ٢٥١-٢٥٠ .

McGovern, *Sarkel*, p. 178.

(١٤٢) كوينستر ، الخزر ، ص ٩٣ ؛ دنلوب ، الخزر ، ص ٣١٩ .

(١٤٣) مروج الذهب ، ج١ ، ص ٧٦ .

(١٤٤) الإصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ١٣٠ .

(١٤٥) انظر ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ، ص ١١٥-١١٦ ؛ الحميري ، الروض المبطر ، ص ٢٤١ .

وانظر أيضاً الفصل السابق ، ص ١٦-١٤ .

أحجم الخاقان عن الإنان لهم في إغارتهم الثانية على القوقاز في عام ٣٣٢م/٩٤٣-٩٤٤م ، مما اضطرهم إلى تغيير خط سيرهم^(١٤٧) .

ويذكر الكريزي أن الخزر كانوا يشنون الحرب على البشتاق سنوياً . ويجلبون من هناك المال والسبايا^(١٤٨) ؛ وقد سبق وعرضنا للتحالف الغزي - الخزري ضد البشتاق وما نجم عنه من هجرة البشتاق إلى منطقة السهوب الواقعة شمال بحر بوننس ، في مستهل القرن العاشر الميلادي^(١٤٩) . ولهذا ليس من المستغرب أن يقوم قسطنطين بورفيريوجينيتوس في كتابه عن "الإدارة الإمبراطورية" : "يستطيع الغز مهاجمة الخزر ، لأنهم مجاورون لهم .."^(١٥٠) . وذلك لأن الغز أصبحوا الجيران المباشرين للخزر شرقاً . أما البشتاق فقد قاموا بطرد المجرار ، الذين كانوا يعيشون في كنف خاقان الخزر في المنطقة الواقعة فيما بين نهري الدون والدينير شمال بحر بوننس، نحو الغرب حتى المنطقة الواقعة بين نهري الدينير وسيريت ؛ ولكن البشتاق هاجمهم ثانية بالتحالف مع بلغار الدانوب ومن ثم انسحب المجرار إلى الموضع الذي يعيشون فيه حتى الآن^(١٥١) .

الجدير بالذكر أن الخزر خسروا من وراء هذا ، نظراً لأن المجرار كانوا يؤدون لهم خدمات جليلة كجباية الجزية من القبائل السلافية والفنلندية لصالحهم ، كما أنهم كانوا يتحالفون مع خاقان الخزر في كل حروبه ، مما دفع خاقان الخزر لتزويج نبيلة خزرية من أمير المجرار ، المدعو ليبيدياس *Lebedias*^(١٥٢) . ويمكن استنتاج أن إقامة المجرار شمال بحر بوننس ، والتي كانت برضى من خاقان الخزر ، كانت لخدمة الأغراض الخزرية الدفاعية . فقد استطاع المجرار أن يساعدوا الخزر في مراقبة تقدم الروس صوب الاتجاهين الجنوبي الشرقي والجنوبي^(١٥٣) ، لا سيما بعد أن انسرح الروس كييف من أيدي الخزر وشاركهم في الجزية المفروضة على القبائل السلافية والفنلندية .

^(١٤٧) عن هذه الأحداث انظر ، الفصل السابق ، ص ١٧-٢٣ .

^(١٤٨) *زين الأختار* ، ص ٤٦٤ .

^(١٤٩) انظر ، ص ٣ ، من هذا الفصل .

^(١٥٠) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، *الإدارة* ، ص ٦٤ ، *Dal*, pp.62-63;

^(١٥١) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٤٠-١٤١ ؛ كويستلر ، الخزر ، ص ١٢٥-١٢٦ .

^(١٥٢) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، *الإدارة* ، ص ١٤٠ ، *Dal*, pp.170-171;

Shepard, J., " The Khazars' Formal Adoption of Judaism and Byzantium's Northern Policy ", *OSP*, 31 (1998), p. 25.

^(١٥٣) كويستلر ، الخزر ، ص ١٢١ .

ويمكننا القول أن الخزر ظلوا سادة الفولجا (أتل) وما حوله حتى أواخر القرون التاسع الميلادي، وينسب إليهم أنهم هم الذين أوقفوا الغاتحين المسلمين عن المضى قسماً في فتوحاتهم شمال القوقاز^(١٥٤)، أو كما يقول كويستلر نقلاً عن أولينسكي "إن ما أضافه الخزر بشكل أساسي إلى تاريخ العالم هو نجاحهم في أن يقيموا من سلسلة جبال القوقاز عقبة تصد انقضاض العرب الزاحف من الجنوب"^(١٥٥). لكن بدءاً من القرن العاشر الميلادي، كان بساط السيادة يسحب من تحت أقدام الخزر، وكان على الخزر أن يواجهوا عدواً شديداً تمثل في الروس، كما كان عليهم أن يواجهوا أعداء أكثر ضراوة منهم تمثلوا في الغز والبشناق^(١٥٦). ولعل التغير الذي حدث في الخريطة السياسية لمنطقة الفولجا والسهوب، في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، من ظهور قوى جديدة في منطقة السهوب، أكثر قدرة وتأثيراً فيها من الخزر، كان دافعاً لبيزنطة للبحث عن حلفاء جدد في هذه المنطقة غير الخزر، لحلفائهم القدامى، وبكلمات المؤرخ الإنجليزي ويتو "كان القرن التالي لعام ٨٥٠م عصر اضمحلال الخزر والبحث البيزنطي عن حليف جديد في الأرض الواقعة شمال البحر الأسود، وهو العصر الذي شهد أيضاً قيام دولة للروس"^(١٥٧).

لقد كانت بيزنطة بتكائها الدبلوماسية المعهود تعتمد على الخزر لسنوات طويلة، تعود إلى عصر الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م)، في تنفيذ أغراضها بين شعوب القوقاز - الفولجا - السهوب. فالتعاون العسكري المباشر بينهما وضع جلياً في الدور الذي قاموا به في الصراع البيزنطي - الفارسي في عهد الإمبراطور هرقل *Heraclius*، والزيجات السياسية بين البلاط البيزنطي والبلاط الخزري سجلها المؤرخون بجلء.

ويجمل لنا المؤرخ موشين *Mosin* طبيعة العلاقات البيزنطية - الخزرية في أبسط كلمات بقوله "لعبت العلاقات مع الخزر، منذ القرن السابع وحتى القرن التاسع الميلادي، دوراً كبيراً في الحياة السياسية للإمبراطورية البيزنطية. فقد جذبت الدبلوماسية البيزنطية الخزر في تحالف مبدئي ضد الفرس ثم ضد العرب؛ وأمس الأباطرة الذين كانوا ضحايا ثورات القصر يبحثون عن طوق النجاة في خزاريا، كما

(١٥٤) عن الحروب الخزرية - العربية، انظر، نطوب، *الخزر*، ص ٧١-١٣٤؛ كويستلر، *الخزر*، ص ٣٤-٣٩، ١٠٣-١٠٥.

(١٥٥) كويستلر، *الخزر*، ص ٣٩.

(١٥٦) Whittow, *Byzantium*, p. 229.

(١٥٧) Whittow, *Byzantium*, p. 241-242.

تزوج الأباطرة البيزنطيون من أميرات خزرديات ؛ وحاولت القسطنطينية إدخال المسيحية إلى أراضي الخزر ، حيث وجدت سلسلة من الأسقفيات ، وأرسلت عدداً من علماء الدين البارزين إلى هناك ؛ كما شيد المهندسون البيزنطيون قلاعاً لحفائض هذا الشعب التركي^(١٥٨) . وبالرغم من هذا لا نستطيع تتبع مراحل تطور العلاقات بين الطرفين حتى بداية القرن العاشر الميلادي ، نظراً لقلة المعلومات الواردة عنها في المصادر البيزنطية ؛ وسنجد لزماً علينا أن نقف بين ثانيا المصادر الأخرى سواء العربية أو الروسية أو ما بقي من المصادر الخزرية للخروج برؤية عامة توضح لنا الوضع الذي صار عليه الخزر في المنطقة بعد التحولات التي رايناها في الخريطة السياسية للسهوب . وفي الحقيقة فإن حجم التغير في النظرة البيزنطية للخزر كحليف مطلق في منطقة القوقاز وما حولها ، صار مرتبطاً بحجم العلاقات البيزنطية التنامية مع الأمم الأخرى ، خاصة الروس والبشناق ، الذين يمكن القول أنهم سحبوا البساط من تحت أقدام الخزر ، والذين تحولوا من مرحلة التبعية إلى مرحلة السيادة . والدليل على ذلك عدد المعاهدات التي عقدت بين البيزنطيين والروس ، والتي بلغت أربع معاهدات في أقل من سبعين عاماً ، وكانت جميعها تعكس المصالح المتبادلة بين الطرفين سواء سياسية أو عسكرية أو اقتصادية ؛ وهي تعكس لنا أيضاً حجم القفل الذي أحرزته الروس، منذ هجومهم الأول على القسطنطينية في عام ٨٦٠م وحتى هزيمة سفياتوسلاف في عام ٩٧١م ، في منطقة السهوب ، الأمر الذي حدا بالبيزنطيين للإفادة منهم بقدر الإمكان على النحو الذي رايناه في الباب الأول من البحث . لقد أدرك البيزنطيون حجم القوى الجديدة في منطقة السهوب ، في القرن العاشر الميلادي ، وأن نجم الخزر قد أفل في سماء تلك المنطقة ، وأن المد والتوسع الروسي شرقاً وجنوباً كان يقابله انحسار سياسي خزري ؛ كما أن الوجود البشناق في شمال بحر بونتس وتأثيرهم المباشر في الأوضاع السياسية للأمم المجاورة لهم ، جعلهم يتخذون منهم حلفاء وأعواناً لهم في تحقيق أغراضهم في المنطقة والحفاظ على استمرارية الوجود البيزنطي فيها . لقد زادت علاقات بيزنطة بالروس والبشناق وكذلك بالآلان في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي^(١٥٩) ، لدرجة جعلت البيطريك نيقولا مستيكوس يلوح لسيمون البلغاري مهدداً بإمكانية حدوث هجوم عليه من شعوب السهوب ، السالف ذكرها ، دونما أدنى إشارة للخزر^(١٦٠) .

Mošin, V., "Les Khazares et les Byzantins", B, 6 (1931), p. 309.

Shepard, *Khazars*, p. 29 .

Nicholas I, pp. 159 – 161; Shepard, *Khazars*, p. 29 .

(١٥٨)

(١٥٩)

(١٦٠) انظر ،

والدارس للخريطة السياسية لمنطقة السهوب في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، بصفة خاصة ، سيلقى نفسه في مفترق طرق ، أحدها يشكل التوسع الروسي في المنطقة ، على حساب القوى السابقة ، والآخر يشكل المسمى البيزنطي الدائم للحفاظ على الوجود البيزنطي فيها ، الرامى إلى الزود عن الحد الشمالي لبيزنطة وكبح جماح قوى السهوب ؛ وبينهما يقف البشناق يتحينون الفرص للاستفادة من هذا الوضع ، فتارة يتحالفون مع بلغار الدانوب ضد المجار ، وأخرى يتحالفون مع بيزنطة ضد بلغار الدانوب أنفسهم ، أو يغيرون على أراضي الروس ، أو يتحالفون مع بيزنطة ضد الروس ، أو يعملون في الجيش الروسي لقتال البيزنطيين . ومن هذا المنطلق لا يمكن لنا أن ننفرّد بالحديث عن العلاقات بين الروس والخزر دون النظر بعين الاعتبار إلى الوجود البيزنطي في المنطقة ، وما كان له من تأثير عليهما .

إن أول المصادر التاريخية التي تلقى الضوء على العلاقات الخزرية - البيزنطية - الروسية ، في النصف الأول من القرن العاشر بصفة خاصة ، هي تلك الوثيقة الخزرية الهامة والتي تعرف باسم وثيقة كامبردج *The Document of Cambridge*^(١١١) ، وهي مجهولة المؤلف . وهذه الوثيقة تلقى الضوء ، بصورة لم نجد لها مثيلا في المصادر المعاصرة لها ، عن الخزر بين الروس والبيزنطيين ، ونظرا لقيمتها التاريخية الثمينة يكون من المستحسن أن نقلها إلى العربية ، نقلا عن ترجمة المؤرخ موشين ، ثم ننتبعها بالتحليل التاريخي :

{... وفي عصر الملك يوسف ...^(١١٢) ، فإن سيدى ... (مساعدة) ، وفى عصر اضطهاد رومانوس الشرير ؛ (فى نفس الوقت) فإن سيدى ، المشهور بعمل ذلك ، داس

^(١١١) عرفت باسم وثيقة كامبردج لأنها محفوظة في مكتبة جامعة كامبردج بإنجلترا ، وهي عبارة عن شذرة من مخطوطة خطاب باللغة العبرية القديمة ، ليس لها نهاية أو بداية أو تاريخ ، واستنادا إلى علم الخطوط وجد أنها تعود إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، ونسخت عن أصل يعود إلى القرن العاشر الميلادى . انظر، Mošin, *Khazares*, p. 310.

^(١١٢) هذه التناقل تكل على فجوات بنص الوثيقة ، أما الملك يوسف فقد حكم في الفترة من ٩٢٠-٩٦٠ م . انظر Noonan, T., "Byzantium and the Khazars: a special relationship" ? In: *Byzantine Diplomacy, Papers from the Twenty-four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March, 1990*, ed. J. Shepard and S. Franklin, (Hampshir, 1992), p. 115.

بأقدامه حشد من غير المختونين . وقد أرسل رومانوس (الشرير) هدايا عظيمة إلى هيلجو Helgou ، ملك الروس ، محرصاً إياه على القيام بأعمال من شأنها جلب الشقاء على نظيره . فجاء أثناء الليل نحو مدينة S-mk-rai^(١١٦) ، وفتحها بغته ، إذ لم يكن هناك وإليها راف حاشموناي rav-Hashmonai ؛ واستكمل هذا العمل في بولشيتزي Bolchitzi . وقد حكى هذا للحارس بساح Peisah ، الذي شق طريقه ضد مدن رومانوس ، فأسر الرجال والنساء ، واستولى على ثلاث مدن تكتظ بالسكان . وسار منها نحو شورشون Chourchoun فقاتلها ... وخرجوا من البلاد على طريقة الودود... من إسرائيل ، ومات تسعون منهم ... وأجبرهم على أداء الجزية ، وأنقذ ... من أيدي الروس ، وانتصر على هؤلاء الذين كانوا هناك (ونجحهم بالسيف) . وسار من هناك نحو هيلجو ، حيث تقابل معه مدة ... شهر ، وكسر الرب شوكتة أمام بساح . وقد وجد ... الغنيمة ، التي استولى عليها نظيره من مدينة S-mk-rai . وقال : "لقد دفعني رومانوس إلى فعل هذا" ، فرد عليه بساح قائلاً : "لو كان هذا حقيقة سر نحو رومانوس ، وشن عليه الحرب ، مثلما فعلت معي ، وعن نفسي سوف أُنسحب من عندك ، وإلا سأموت هنا ، أو سأحيا حتى اللحظة التي سأخذ فيها بثأري . ولم يكن أمام المذكور إلا الرحيل وشن الحرب على قسطنطينة Counstantina (أي القسطنطينية) الواقعة على البحر ، مدة أربعة شهور . وقد هلك هؤلاء الأبطال هناك ، حيث انتصر عليهم المقدونيون (أي البيزنطيون) بواسطة النار الإغريقية . وهرب وعاد إلى بلاده يجر أنيال الخيبة ، ومر عبر البحر بفارس Perse ، وهلك هو نفسه وشعبه . ومنذ ذلك خضع الروس لسلطان الخزر . وأنا أعيد هنا لسيدى اسم بلادنا ، مثلما وجدناها في الكتب - أرقانوس Arcamus ، واسم عاصمة المملكة - خزر

^(١١٦) المقصود هنا مدينة تموتورا كان (مطرخه) ، وكانت تحت السيادة الخزرية آنذاك . انظر ، Noonan, *Byzantium*, p. 115; Soloviev, *L'etat Russe*, p. 262. ويقول عنها الأديسي ، "مدينة مطرخا مدينة أرزية ، قديمة العهد ، لا يعرف باقيها ، ولها كروم ومزارع . وهي مدينة كثيرة البشر ، عامرة الأقطار ، وبها أسواق واجتماعات مواعد يتوئها من أقاص البلاد المتجاورة والأقطار المجاورة" . انظر، نزعة المشتاق ، ص ٩٠٨ .

Khazar ، وهو اسم النهر الذي نعيه - *Ilil* . وهي تقع إلى الشرق من البحر الذي يمتد من بلادكم حتى قسطنطينية . والذي نعيه رسلك ؛ وهي تمتد حسبما اعتقد ، من البحر العظيم . ومدينتنا ليست قريبة من هذا البحر ، فهي على بعد ألفين ومائة وستين فرسخاً ، والمسافة بين بلادنا وقسطنطينية تستغرق رحلة تسعة أيام بالبحر وثمانية وعشرين يوماً بالبر . والشعوب التي نتقاتل معها هي : آسيا *Asia* ، وباب الأبواب ، وزيبوس *Zibus* ، ولونين *Luznin* (...) ^(١١٤) ، وعلى هذا النحو انتهت الوثيقة . ومن خلال إعادة قراءة هذه الوثيقة التي هي جزء من مخطوطة خطاط ، سجد أنها كتبت في عهد الملك يوسف (٩٢٠-٩٦٠م) أو بعده بقليل وأن هذا الملك كان معاصراً للإمبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس (٩٢٠-٩٤٤م) . ويرى كاتب الوثيقة أن الإمبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس بعث بهدايا ثمينة إلى أمير الروس العظيم ، طالباً منه القيام بشن هجوم على بلاد الخزر . وقد استجاب الأمير الروسي لطلب رومانوس ليكابينوس وقام بشن هجوك على الممتلكات الخزرية في شبه جزيرة القرم . والمسؤال الذي يبدو لنا الآن ما السبب الذي دفع رومانوس ليكابينوس لطلب مثل هذا من أمير الروس ؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نعود قليلاً إلى الوراء ، إلى عهد بنيامين *Benjamin* ، ملك الخزر (٨٨٠-٩٠٠م) ؛ الذي كان عليه أن يواجه تحالفاً بين بزنطة من جهة ، والبرطاس والغز والبلغار السود والبشناق من جهة أخرى لمهاجمة الخزر ^(١١٥) . والوحيد الذي ساعد الخزر حينذاك هو ملك الألمان ^(١١٦) *Alans* ، إذ أن جزءاً منهم كان يدين باليهودية ^(١١٧) . وقد استطاع ملك الألمان أنه يهزم قوات التحالف البيزنطي ^(١١٨) . وفي عهد الملك الخزري عارون *Aron* (٩٠٠-٩٢٠م) اتبعت بزنطة سياسة مختلفة لهزيمة الخزر ؛ فقد رشي الإمبراطور البيزنطي ملك الألمان ليشن هجوماً على الخزر ، وهو ما قام به بالفعل . لكن عارون استعان بالغز ، سواء في شكل مرتزقة ، كما يقول المؤرخ توماس نونان *T. Noonan* ^(١١٩) ، أو في شكل الاستعانة المباشرة بملك الغز الذي كان صديقاً لعارون ،

^(١١٤) Mošin, *Khazares*, pp. 313-314; Noonan, *Byzantium*, pp. 115-116; Chadwick, *Russian Histo.* rj, pp. 44-45.

^(١١٥) Noonan, *Byzantium*, p. 115.

^(١١٦) *DAL*, pp. 186 - 18.

^(١١٧) Mošin *Khazares*, p. 312.

^(١١٨) Mošin, *Khazares*, p. 312; Noonan, *Byzantium*, p. 115.

^(١١٩) Noonan, *Byzantium*, p. 115.

كما يقول المؤرخ موشين^(١٧٠) . وقد هُزم الآلان وأسر ملكهم ، الذي تعاهد مع عارون وقام بتزويج كريمة من يوسف ابن عارون^(١٧١) . إلا أن ملك الخزر كبل حرية ملك الآلان ثانية وفرض نفوذه على مملكته أيضاً^(١٧٢) . لقد كان الآلان يشكلون خطراً على مملكة الخزر ، نظراً لأن مملكتهم كان بجوارها تسعة أقاليم خزرية تنقسم بالرخاء الإقتصادي^(١٧٣) ، لهذا فرض عارون نفوذه عليها حتى لا تهاجم مملكته ثانية . وقد دفع هذا قسطنطين بورفيريوجينيتوس لأن يقول عبارته التالية *.. ويستطيع الآلان ، إذا رغبوا، نهب هذه المناطق (أي الأقاليم الخزرية التسعة) ويلحقون بالخزر الخراب والدمار ، لأن هذه المناطق التسع تعتبر مصدر أرزاق الخزر وفيها رعاوهم^(١٧٤) .

بهذا نرى أن بيزنطة ، في أواخر القرن التاسع الميلادي وبدايات القرن العاشر الميلادي ، كانت قد بدلت في فك عرى التحالف مع الخزر والاستعانة بمجموعة من القبائل التركية وتشجيعهم للهجوم على الخزر والتلئ منهم ؛ وينبغي أن نتوقع بطبيعة الحال أن بيزنطة قدمت الرشاوى والهدايا الثمينة لزعماء هذه القبائل ، الذين كانوا يتوفون إلى هدايا للقسطنطينية الخلافة . وتمكن لنا الأحداث السابقة إلى أي مدى كانت قوة الخزر العسكرية والتي كان يقابلها تحالف بيزنطي - تركي قوامه مجموعة من القبائل التركية ، البرطاس والغز والبلغار السود ، واليشناق ؛ ومع هذا هزم هذا التحالف ، الذي خيب آمال بيزنطة في القضاء على الخزر وأكد سيادة الخزر على هذه القبائل، التي لم تفكر في إعادة الكرة ثانية عليهم. ومع هذا تمضى بيزنطة في محاولاتها للقضاء على الخزر، ويفشل حلفاؤها من الآلان في هزيمتهم، بل يتمكن الخزر من بسط سيادتهم عليهم . وهنا نتجه بيزنطة ببصرها نحو قوة أخرى من قوى السهوب لإزعاج الخزر وشن هجوم عليهم، فتوددت إلى الروس وأرسلت هدايا ثمينة لأميرهم ، ونجحت في دفعهم للهجوم على الخزر .

لقد بدأ العداء البيزنطي للخزر، حلفاء الأمس، في عهد الإمبراطور البيزنطي باسيل الأول المقدوني *Basil I* (٨٦٧-٨٨٦م) ، بسبب سياسة بطريك القسطنطينية الذي عمد اليهود بالقوة^(١٧٥) ، الأمر الذي أثار حفيظة ملك الخزر، الذي كان يدين

Mošin, *Khazares*, p. 312.

Mošin, *Khazares*, p. 312; Noonan, *Byzantium*, p. 115; Shepard, *Khazars* p.29.

Mošin, *Khazares*, p. 319.

DAL, I, pp. 64 - 65 ;

Vernadsky, *Crimea*, p. 253.

Mošin, *Khazares*, p. 319.

(١٧٠)

(١٧١)

(١٧٢)

(١٧٣) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، الإدارة ، ص ٦٤

(١٧٤) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، الإدارة ، ص ٦٤ ،

(١٧٥)

باليهودية هو وخاصته^(١٧٣)؛ ومنذ هذا الوقت بدأ العداء بيزداد رويداً رويداً بين الإمبراطورية البيزنطية ومملكة الخزر. وقد بلغ قمة العداء البيزنطي للخزر باضطهاد اليهود في بيزنطة وإجبارهم على التحول إلى المسيحية في عهد الإمبراطور رومانوس ليكابينوس؛ بل ذهب الأخير إلى أبعد من ذلك وقام بطردهم هم والأرمن الذين لم يستقوا المسيحية على المذهب الأرثوذكسي، خارج البلاد^(١٧٤). ويذكر المؤرخون أن السبب في إجبار رومانوس ليكابينوس لليهود على التحول إلى المسيحية، ذلك الخطاب الذي تلقاه من بطريرك القدس، يخبره فيه بأن أعداداً من اليهود في القدس قد تحولوا إلى المسيحية، ويطلب منه القيام بتحويل كل اليهود في بيزنطة إلى المسيحية. وبطبيعة الحال كان لدى رومانوس بواعت عديدة للقيام بذلك، أولها: أنه كان مغتصباً للعرش ويرغب في تدعيم ملكه، عن طريق الاستجابة لطلب بطريرك القدس؛ ثانيها: أنه كان يرغب في إقامة أسرة حاكمة ثابتة الأركان تحمل اسمه وتتولى حكم بيزنطة؛ ثالثها: فشل البعثات التبشيرية البيزنطية بين الآلان، حلفاء بيزنطة، وترزعج الوجود البيزنطي في القوقاز بسبب هزيمة الخزر للآلان في عهد الملك عارون؛ رابعها: نهج الأسرة المقدونية المعادي لليهود منذ تأسيسها على أيدي باسيل المقدوني، والذي لم يكن لرومانوس أن يخالفه خاصة وأن حكمه غير شرعي^(١٧٥). وعلى أثر هذا قسام ملك الخزر بالانتقام من المسيحيين الخزر الذين يعيشون في بلادهم^(١٧٦). لقد وقعت الاضطهادات البيزنطية لليهود فيما بين عامي ٩٣٢م، ٩٤٣م، أي في خلال فترة حكم الإمبراطور رومانوس ليكابينوس^(١٨٠). وقد تفاقت المشكلة بين الخزر وبيزنطة، خاصة بعد لجوء اليهود إلى ملك الخزر، فكان على السيف أن يقول كلمته.

^(١٧٣) عن تحول الخزر إلى اليهودية انظر، المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ١١؛ المشقي، نخبه الدهر، ص ٢٦٣؛

Zuckerman, C., "On the date of the Khazars' Conversion to Judaism and the Chronology of the Kings of the Rus' Oleg and Igor", *REB*, 53 (1995), pp. 238-270; Vernadsky, G., "Byzantium and Southern Russia", *B*, 15 (1940-41), pp. 76-86; Franklin and Shepard, *Rus'*, pp. 95-96; Mošin, *Khazares*, pp. 311-312.

انظر أيضاً، خنلوب، الخزر، ص ١٣٥-٢٧٢؛ كروماتر، الخزر، ص ٧٢-٧٩، بيلوتود، الشرق، ص ٦٣-٦٤.

^(١٧٤) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ١١١. Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 231.

^(١٧٥) انظر، Shapard, *Khazars*, p.30؛ Sharf, A., *Byzantine Jewry from Justinian to the Fourth Crusade*, (London, 1971), p.99.

^(١٧٦) Noonan, *Byzantium*, p. 115; Shapard, *Khazars*, p.30.
^(١٨٠) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ١١١. Mošin, *Khazares*, p. 320.

بيد أن المشكلة التي ظهرت لبيزنطة هنا هي أنه لم يسبق لها أن ألقت بجيوشها في منطقة السهوب أو الفولجا ، بل تعتمد بالدرجة الأولى على جهازها الدبلوماسي النشط، الذي اكتسب خبرة طويلة في التعامل مع مثل هذه الشعوب التي تعيش في مناطق القوقاز - الفولجا - السهوب ؛ وقد نجح هذا الجهاز في تسخير العديد من القبائل التركية للهجوم على الخزر مرتين، لكن هاتين المرتين أخفقتا، كما سبق القول. ولم يعد أمام بيزنطة إلا أن تلجأ للروس، الذين أغاروا عدة مرات على القسطنطينية، في الفترة من ٨٦٠-٩٤٤م، وعقدوا عدة معاهدات أيضا مع البيزنطيين، كانت مثمرة للطرفين . لقد كان النشاط الروسي الحربي في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، في منطقة السهوب، تتركه بيزنطة جيدا عن طريق نيم خرسون وعن طريق حلفائها في المنطقة. ولاغضاضة في أن تطلب بيزنطة من الروس مهاجمة الخزر، وبهذا تتال إحدى الصنيتين إما تقويض دعائم مملكة الخزر، وفي هذه الحالة تكسب الروس لصالحها كحلفاء جدد، أو التخلص من قوة الجيش الروسي، الذي كان يتغلغل في منطقة السهوب مهددا الممتلكات البيزنطية في شبه جزيرة القرم، في حالة ما إذا هزم من الخزر .

أيا كان الأمر، قام الأمير الروسي بحشد قواته والهجوم ليلًا على مدينة تموتوراكين، التي كانت تحت السيادة الخزرية، الواقعة في شبه جزيرة القرم. وقد أدرك الخزر أن هذا الهجوم الذي قام به الروس كان وراءه البيزنطيون، بدليل أن الحاكم الخزري العسكري المدعو بساح شن هجوما على المدن البيزنطية الواقعة في منطقة القرم؛ وقد استولى على ثلاث مدن وعدة قرى في الوقت الذي حاصر فيه مدينة خرسون^(١٨١) ، وهي التي تقابلها المؤرخة شانويك W.Chadwik بشورشون الواردة في نص الوثيقة^(١٨٢). وكانت الخسائر البيزنطية البشرية في هذه المرحلة من رد الفعل الخزري تسعين من القتلى والعديد من الأسرى^(١٨٣) . وجاءت المرحلة الثانية من رد الفعل الخزري في الانتقام من الروس أنفسهم، لتجروهم على مهاجمة بلاد الخزر ، فقرر بساح أن يقود قواته ويهاجم الأمير الروسي نفسه؛ وقد ألحق به الهزيمة بعد

Noonan, *Byzantium*, p. 115.

Chadwik, *Russian History*, p. 45.

Noonan, *Byzantium*, p. 115.

(١٨١)

(١٨٢)

(١٨٣)

أربعة أشهر، واسترد منه الغنينة التي أخذها من مدينة تموتوراكسان^(١٨٤). وتروى الوثيقة أن الأمير الروسي بعد أن هزم من بساح اعترف أمام الأخير بأنه ما أقدم على ما فعله إلا بتحريض من الإمبراطور رومانوس ليكابينوس ، عندئذ سأله بساح أن يقوم بشن هجوم على بيزنطة نفسها، في مقابل الجلاء عن أراضيه، وإلا فالحرب مستمرة بينهما حتى النهاية. ولم يكن هناك مفر أمام الأمير الروسي إلا القبول . وبناء عليه قلم الأمير الروسي بحملة على القسطنطينية، انهزم فيها بفعل النار الإغريقية وهرب هو ورفاقه عبر البحر إلى فارس، حيث مات هناك^(١٨٥).

وحتى هذا الجزء من الأحداث تبدو الشهادات التاريخية التي تتضمنها الوثيقة منطقية ولا يمكننا رفضها ، ولكن تكمن المشكلة الرئيسية في اسم الأمير الروسي الذي ورد بها، فقد أطلقت عليه اسم هيلجو Helgou ، وهو اسم اسكنذاقي بكل تأكيد. ولا بد لنا معرفة من يكون الأمير هيلجو الوارد بالوثيقة، حتى نستطيع أن نحدد بالضبط متى وقع الهجوم الروسي هذا على بلاد الخزر، خاصة وأن المصادر الروسية لا تقدم أية معلومات عن هذا الأمر. ونظرا لأن لقب هيلجو والذي كان يعني بالسويدية القديمة قديسا، كان يطلق على كل أمير من الأمراء الروس^(١٨٦)، فقد أحدث هذا ارتباكاً بين المؤرخين المحدثين. فذهب فريق منهم، على رأسه العالم الروسي كوكوفتزووف Kokovtsov^(١٨٧) والمؤرخ نونان^(١٨٨) ، إلى مطابقة اسم هيلجو مع أولج Oleg أمير الروس العظيم، الذي ذكرته الحولية الروسية الأولى تحت أحداث عام ٨٧٠-٨٧٩م وحتى وفاته في عام ٩١٢م^(١٨٩) . لكن التناقضات الحتمية التي توصلوا إليها أجبرت مجموعة أخرى من العلماء على رفض مماثلة هيلجو ، الوارد في وثيقة كامبردج، مع

^(١٨٤) Noonan, *Byzantium*, p. 115.

^(١٨٥) Mošin, *Khazares*, p. 313; Noonan, *Byzantium*, pp. 115-116.

^(١٨٦) كان يطلق على أولج اسم هيلجي - ، وعلى إيجور اسم هيلجي - إيجور ، وعلى أولجا اسم هيلجا - أولجا ، أما سفيوتسلاف ، فالمقطع الأول من اسمه سفيات يعني قديس ، وأخيرا عندنا القديس فلايمير . انظر Mošin, *Khazares*, p. 321, n. 1.

^(١٨٧) Kokovtsov, P. K., *Ereisko-Khazaraskaia Perepiska V.X. Veka*, (Leningrad, 1932)

^(١٨٨) Noonan, *Byzantium*, pp. 115-116.

^(١٨٩) R.P.C., pp. 60, 65-71.

اولج المذكور فى الحولية الروسية الأولى؛ وفيما يلى الأسس التى استندوا إليها فى هذا
الرفض :

١- هيلجو الوارد فى وثيقة كامبردج معاصر للإمبراطور البيزنطى رومانوس
ليكابينوس (٩٢٠-٩٤٥م) وملك الخزر يوسف بن عارون (٩٢٠-٩٦٠م) .
أخيرا فإن حرب اولج مع بيزنطة توجت بمعاهدة بينهما فى عام ٩١١م^(١٩٠) ، وقد
توفى فى عام ٩١٢م على حد ذكر نسطور^(١٩١) .

٢- تذل شروط معاهدة ٩١١م بين الروس وبيزنطة على نجاح اولج فى الحصول على
أكبر فائدة ممكنة من البيزنطيين^(١٩١) ، بينما هلك أسطول هيلجو، الوارد فى وثيقة
كامبردج، بفعل النار الاغريقية .

٣- طبقا لرواية المجهول، فإن هيلجو بعد هزيمته تغلغل فى فارس حيث هلك هناك
هو ورفاقه ؛ فى الوقت الذى أشارت فيه الحولية الروسية إلى أن اولج مات فى
روسيا^(١٩٢) .

٤- وينبغى أن نضيف نقطة رابعة وهى أن كاتب الوثيقة المجهول يعى تماما سبب
الحرب، وهو اضطهاد الإمبراطور رومانوس ليكابينوس لليهود فى بيزنطة،
ونحن نعرف أن هذه الاضطهادات وقعت فيما بين عامى ٩٣٢م و ٩٤٣م ، أى
بعد عصر الأمير اولج بفترة طويلة . وبناء على ما سبق لا يمكن قبول مماثلةة
هيلجو باولج، لمجرد تشابه فى الأسماء^(١٩٣) .

وينبغى علينا إزاء رفض مماثلةة هيلجو باولج أن نبحث عن أمير روسى آخر
حدث فى عهده الأحداث الواردة بوثيقة كامبردج . وقد تنفعنا ملايسات الأحداث إلى
محاولة مماثلةة هيلجو بايجور، مثلما فعل بعض العلماء من قبل . فالمؤرخ بروتزكوس
Brutzkus ترجم معطيات وثيقة كامبردج على النحو التالى :

Mošin, *Khazares*, p. 320.

R.P.C., p. 71.

R.P.C., pp. 64-69; Sorlin, *Les traites*, pp. 342-359.

R.P.C., pp. 70-71; Mošin, *Khazares*, p. 320.

Mošin, *Khazares*, p. 320.

(١٩٠)

(١٩١)

(١٩٢) انظر ،

(١٩٣)

(١٩٤)

وقع العداء بين الخزر واليونانيين بسبب اضطهاد اليهود في عام ٩٣٢ م .
وعندما اقتصر يوسف من المسيحيين في خزاريا قام رومانوس الأول، لأجل الانتقام،
بحث الأمير الروسي إيجور على اجتياح أراضي الخزر . واستولى إيجور على مدينة
الخرز تموتوركان (*S-mk-rai*)، وغزا اليونانيون بمساعدته الولايات الخزرية كليمانتا
Climata في شبه جزيرة القرم نحو عام ٩٣٥ م . ورد عليهم الخزر باجتياح شبه
جزيرة القرم . وفي ٩٣٩ م فتحوا خرسون، وبعد أن ألحقوا الهزيمة بجيش الأمير
إيجور، أجبروه على شن القتال ضد بيزنطة. وقد انتهت هذه الحرب بتدمير الأسطول
الروسي في عام ٩٤١ م وبحملة القوات الروسية على فارس في عام ٩٤٣ م^(١٩٥) .
وعلى الرغم من عدم ذكر الأسس التي على أساسها فهم بروتزكوس وثيقة
كامبردج على النحو السالف ذكره، وأيضاً رفض موشين مماثلة هيلجو بايجور^(١٩٦)،
إلا أن الباحث يملك من المعطيات ما يدفعنا للقول بأن الهجوم الروسي على الخزر،
الوارد في وثيقة كامبردج، وقع في عهد الأمير الروسي إيجور، وبالتحديد في الفترة
الواقعة فيما بين عامي ٩٣٢ م و ٩٤١ م، وهي على النحو التالي :

أولاً : وقع الهجوم الروسي على بلاد الخزر في عهد الملك يوسف بن
عارون، والذي تتزامن مدة حكمه مع الإمبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس،
الوارد صراحة في الوثيقة. وفي هذه الأثناء كان يحكم الروس أميرهم العظيم إيجور
(٩١٣-٩٤٥ م)^(١٩٧) .

ثانياً : قام الأمير الروسي العظيم إيجور بحملته الأولى على القسطنطينية في
عام ٩٤١ م، وهي حملة مشنومة انتهت بتحطيم الأسطول الروسي بفضل فانفات النار
الاعريقية البيزنطية^(١٩٨) . وهو الأمر الذي يتفق مع الدلالات التاريخية الواردة في
الوثيقة.

Mošin, *Khazares*, p. 321.
Mošin, *Khazares*, p. 321.
R.P.C., pp. 71-78.
R.P.C., pp. 71-72.

^(١٩٥) نقل عن،
^(١٩٦)
^(١٩٧)
^(١٩٨)

ثالثاً : تشير الوثيقة إلى وقوع اضطرابات بيزنطية لليهود في بيزنطة في عهد الإمبراطور رومانوس ليكاينوس، وهو ١١٣١ هـ بدأ في عام ٩٣٢م، كما سبق ونكرناه.

رابعاً : ينبغي أن نضع في الاعتبار أن سبب الحرب الحقيقي لم يكن سببا دينيا، حسبما يوحى كاتب الوثيقة، بل هو محاولة بيزنطية للتخلص من قوة الخزر في المنطقة، لاسيما بعد هزيمتهم لحلفائها من القبائل التركية المجاورة لهم ولالآن من بعدهم، بل والأدهى من ذلك فرض سيادتهم على ملك الألان، وقد كان حليفاً آنذاك لبيزنطة^(١٩٩). وكل هذا يعنى بالتأكيد أنه لم تكن هناك قوة تستطيع مواجهة الخزر في المنطقة، ولهذا فإنهم سيشكلون تهديدا للممتلكات البيزنطية في القرم، على أثر التوتر الذي انتاب العلاقات بين بيزنطة والخزر في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي.

خامساً : ينبغي أن نضع في الاعتبار أيضا رغبة بيزنطة في صرف نظر الروس عن أملاكها وعن حدها الشمالي، فقامت بتسليط الروس على الخزر، عسى أن يقضى أيا منهما على الآخر. فإذا انتصر الروس، فإنه سيصبحون حلفاء لها، وإذا هزمهم الخزر فإنها براء مما فعل الروس؛ لكنها لم تضع في الحسبان أن القائد الروسي سيعترف أمام نظيره الخزري بما وقع من اتفاق بينه وبين الإمبراطور رومانوس ليكاينوس .

سادساً : صممت المصادر البيزنطية عن ذكر أية حملة روسية وقعت على القسطنطينية في عهد الأمير الروسي اولج، على الرغم من ذكر الحولية الروسية لمثل هذا الحدث؛ على عكس حملة إيجور على القسطنطينية في عام ٩٤١م التي ذكرتها المصادر البيزنطية والروسية^(٢٠٠) .

سابعاً : إذا لم يكن هيلجو، الوارد بوثيقة كامبردج، هو الأمير إيجور نفسه، فلا بد في هذه الحالة أن يكون أحد قواده، والذي يتشابه إسمه مع أميره، لاسيما وأن

Mošin, *Khazares*, pp. 312, 319; Noonan, *Byzantium*, p. 115.
Chadwick, *Russian History*, p. 44.

(١٩٩)

(٢٠٠)

مسألة تشابه الأسماء الاسكندنافية أمر وارد عند الروس، كما رأينا في مقمّة معاهدة ٩٤٥م المعقودة بينهم وبين البيزنطيين . فقد كان هناك أحد النبلاء يحمل اسم أوليف *Olief* وينوب عن الأمير فلاديسلاف، وآخر من التجار وينيل آخر يحمل اسم فريستين *Freystein* وينوب عن الأمير ثورث، وثان ينوب عن الأمير هاقون وثالث ينوب عن الأمير بيورن، كما كان هناك أحد التجار يحمل نفس الإسم، واثنين من الأمراء يحملان اسم ثورث *Thorth* ^(٢٠١) . وعلى هذا ربما كان القائد الروسي الذي قاد الهجوم على الخزر في وثيقة كامبردج، يتشابه في اسمه مع اسم الأمير الروسي إيجور الذي كان ينعت بهيلجي أيضا، وهو لقب اسكندنافي شائع .

ثامنا : من المحتمل أن الروس الذين قاموا بهذا الهجوم ليسوا من كييف، بل ممن يعيشون على شواطئ بحر بونتس ^(٢٠٢) . فالكاكتب العربي محمد بن إبراهيم الوراق يقول : ^(٢٠٣) (الروس) لهم جزر في بحر مايطس حيث يعيشون ويحاربون الخزر في قوارب حربية ، ويعدونهم عن الخليج الذي يفصل هذا البحر عن نهر أتل .. وعندئذ يشنون هجوما عليهم (على الخزر) ^(٢٠٣) . ويؤكد أبو الفدا قول الوراق حيث يقول : ^(٢٠٤) .. ولهم على بحر بنطس عمائر كثيرة .. ^(٢٠٤) .

تاسعا : إذا كان هيلجو الوارد في وثيقة كامبردج هو أولج فلماذا صممت الحولية الروسية الأولى عن ذكر هجومه على الخزر ؟! على الرغم من أنها أبرزت نشاطه الحربي ضد القبائل السلافية التي كانت خاضعة لخاقان الخزر وتكف عن الجزية. وهذا النشاط لابد وأنه أسفر عن عدا من جانب الخزر للروس، لأن أولج بهذا حرم خاقان الخزر من مورد أساسي من موارده الاقتصادية؛ حيث تروى الحولية الروسية الأولى أنه أخضع تلك القبائل له وفرض عليهم جزية خفيفة ^(٢٠٥) .

^(٢٠١) R.P.C., p. 61.

^(٢٠٢) Mošin, *Khazares*, p. 325.

^(٢٠٣) Frye, R., "Remarks on some new Islamic sources of the Rus", *B*, 18(1946-48), p. 123.

^(٢٠٤) تقيود البلدان ، ص ٢٢٣ ، الممشق ، نخبة الدهر ، ص ٢٦٢ .

^(٢٠٥) R.P.C., p. 61.

عاشرا : تبدو المشكلة هنا أيضا في أن كاتب وثيقة كامبردج ذكر أن هيلجو هلك هو ورفاقه في فارس، على الرغم من أننا نعرف أن أولج مات في روسيا، كما أن إيجور هلك على أيدي الدريغليين. وهذا يدفعنا إلى تأكيد أن قائد الهجوم الروسي على بلاد الخزر لم يكن لا أولج ولا إيجور، بل أحد قادة الأخير وسميه في نفس الوقت. ومن المحتمل أن يكون هذا القائد هو الذي قاد حملة الروس في عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م على بلاد القوقاز الإسلامية. وهذا ما تؤكدته النهاية المأساوية له، حيث هلك هو ورفاقه هناك على حد ذكر ابن مسكويه^(٢٠١). ونستطيع أن نؤكد أن الهجوم الروسي على بلاد الخزر تم في عهد إيجور بمقارنة العلاقات الروسية - الخزرية قبل حملة الروس في عام ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م على بلاد القوقاز الإسلامية وبعد حملتهم عليها في عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م. فيشير المؤرخون المسلمون إلى تحالف خاقان الخزر مع الروس في هجومهم على بلاد القوقاز الإسلامية في عام ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م، والإذن لهم بعبور أراضيهم^(٢٠٢)؛ وهذا الأمر إن دل فإنه يدل على الوفاق السياسي والمنفعة المتبادلة بينهما. وقد حدث توتر في العلاقات بين الطرفين على أثر فشل هجوم الروس هذا، وتخاذل خاقان الخزر عن حمايتهم من المسلمين الخزر. وفي عام ٣٣٢هـ/٩٤٣-٩٤٤م قام الروس بهجوم آخر على بلاد القوقاز الإسلامية، وهذه المرة لم يرد ذكر مطلقا لخاقان الخزر، وذلك إما أن الروس اتبعوا طريقا مغائرا لذلك الذي اتبعوه في حملة ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م، أو بمعنى آخر أنهم أرادوا تجنب خاقان الخزر. وهذا يدفعنا للتساؤل لماذا لم يستأن الروس خاقان الخزر هذه المرة كسابقتها، ولماذا تجنبوا المرور عبر أراضيهم^(٢٠٣)؟ على هذا ألا يمكن الربط بين هذه الأحداث وبين حملة الروس على بلاد الخزر في عهد إيجور؟! على كل، قبل أن نشرع في ربط هذه الأحداث ببعضها البعض علينا أن نوضح أن إيجور قام بحملة ثانية على القسطنطينية في عام ٩٤٤م، ثم وقع على المعاهدة المبرمة بينه وبين بيزنطة في عام ٩٤٥م وهو العام الذي لقي حقه فيه على أيدي الدريغليين. إذن

(٢٠١) تجارب الأمم، ج٦، ص ٦٥.

(٢٠٢) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ١١٤-١١٦؛ الحيدري، عروض السطر، ص ٣٤٠-٣٤١.

(٢٠٣) انظر، الفصل الرابع من البحث، ص ١٤٠.

متى وقع الهجوم الروسى على بلاد الخزر، حسب وثيقة كامبردج ؟ من خلال ما سبق ينبغي أن نتصور الأحداث على النحو التالى : فى عام ٣٠٠هـ / ٩١٢ - ٩١٣ م شن الروس هجوما على بلاد القوقاز الإسلامية برضى من خاقان الخزر، ثم توترت العلاقة نسبيا بينهما بسبب تخاذله عن حماية الروس، وهم فى طريق عودتهم عبر أراضيهم، من انتقام المسلمين الخزر منهم. وفى عام ٩٣٢ م وقع اضطهاد الإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس لليهود فى بيزنطة وطرده لهم ولجؤهم إلى ملك الخزر، وهو ما نجم عنه وقوع العداء بين الطرفين؛ الأمر الذى دفع برومانوس ليكابينوس لحث الروس للهجوم على الخزر، م لغة الروس بقيادة هيلجو بمهاجمتهم على النحو المذكور فى وثيقة كامبردج . وعلى أثر هزيمة الروس من الخزر على أيدى القائد الخزرى بساح عادوا إلى أميرهم بخفى حنين، ليخرجوا جميعا فى عام ٩٤١ م بقواربهم للهجوم على القسطنطينية، وقد فشل هجومهم ودمرت النار الاغريقية أسطولهم، وهذا تنقذ فيه وثيقة كامبردج مع المصادر البيزنطية والروسية، وفى عام ٣٣٢هـ / ٩٤٣-٩٤٤ م أرسل ايجور نفس القائد هيلجو على رأس حملة إلى بلاد القوقاز الإسلامية، وقد منيت بالفشل أيضا بل وقتل قائدها، وهذا يتفق فيه ابن مسكويه مع وثيقة كامبردج التى تذكر أن هيلجو مات فى فارس. وفى عام ٩٤٤ م شن ايجور هجومه الثانى على القسطنطينية، ولكن أثنته الدبلوماسية البيزنطية المحنكة عن استكمالها، ويتم توقيع معاهدة بين الطرفين فى عام ٩٤٥ م، وهو نفس العام الذى لقي فيه ايجور حتفه على أيدى قبيلة الدريفلين فى بلاده .

وبناء على الأسانيد التاريخية العشرة التى ذكرناها يمكننا القول أن هجوم الروس على بلاد الخزر، المذكور فى وثيقة كامبردج، قد حدث فى عهد الأمير الروسى ايجور وليس اولج، وبالتحديد فى الفترة الواقعة فيما بين عامى ٩٣٢ م و ٩٤١ م؛ كما أن قائد ذلك الهجوم لم يكن الأمير الروسى ايجور بل أحد قادته، وكان يتشابه فى اسمه مع لقب هيلجى الاسكندنافى الذى كان يطلق على الأمير الروسى أيضا؛ وقد هلك هذا القائد، الذى تطلق عليه وثيقة كامبردج اسم هيلجو ، فى فارس أى فى بلاد القوقاز الإسلامية فى عام ٩٤٣-٩٤٤ م .

وبعد هذا الهجوم الذي قام به الروس على بلاد الخزر فيما بين عامي ٩٣٢م و ٩٤١م تتحدث الحولية الروسية الأولى عن أول هجوم روسي مطلق على الخزر في عام ٩٦٥م . ويتبدو حرب الأمير الروسي سفياتوسلاف للخزر منطقة الأحداث ، فقد سبقها شئ من التمهيد العسكري ، حيث قام فيما بين عامي ٩٥٦-٩٦٤م بالذهاب إلى نهرى أوكا^(٢٠٩) و Oka والفولجا ، وفي طريق عودته أغار على الفياتشيين Vyatichians^(٢١٠) وسألهم إلى من يدفعون الجزية فأجابوا بأنهم يدفعون قطعة فضية عن كل نصل محراث للخزر^(٢١١) . وفي عام ٩٦٥م قاد سفياتوسلاف قواته ضد الخزر . وعندما سمع الخزر أنباء اقتراب الجيش الروسي منهم خرجوا للقاءه تحت قيادة خاقانهم . والتقى الجيشان ووقعت الواقعة وكان لنصر من نصيب سفياتوسلاف ، الذي استولى على مدينتهم بيلا فيزا Bela-Vezha^(٢١٢) .

وجدير بالذكر أن سفيا توسلاف قد عقد تحالفا مع الغز آنذاك ، ومن المحتمل أنهما اشتركا معا في شن هجوم ٩٦٥م على الخزر من الجانبين ، والذي أسفر عن هزيمتهم البالغة أمام القوات الروسية - الغزية المشتركة^(٢١٣) عند هذا الحد تتوقف الأحداث في الحولية الروسية الأولى ولا تقدم لنا المزيد من التفاصيل عن هجوم سفياتوسلاف على الخزر . إلا أن المؤرخين والجغرافيين المسلمين يقدمون المزيد من التفاصيل عن هذا الهجوم .

يشير ابن حوقل إلى أن الروس انتصروا على الخزر ، الذين فروا أمامهم نحو منطقة القوقاز حيث يقول ".. فأتوا (أي الروس) في خرجتهم هذه على جميع ما كان على نهر أتل من خزر وبلغار وبرطاس ، واستولوا عليهم . فلجأ أهل أتل إلى جزيرة باب الأبواب ، وتحصنوا بها ، وبعضهم في جزيرة سياه كويه ، وهم مقيمون

^(٢٠٩) نهر أوكا ، هو أحد الروافد العليا لنهر الفولجا .

^(٢١٠) كان الفياتشيون يتألفون من القارين من الحصون السلافية ومن يعيشون على الضفة اليسرى لنهر الدنيبر ومنحدراتها . . انظر، Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 144.

^(٢١١) R.P.C., p. 84; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 77; Karamsin, *Histoire*, p. 213.

^(٢١٢) R.P.C., p. 84; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 143; Karamsin, *Histoire*, pp. 213-214.

^(٢١٣) Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 145.

خائفون...^(٢١٤). وهكذا دفعهم الروس جنوباً إلى ما وراء مدينة سمندر ، الواقعة على بحر الخزر^(٢١٥). أما ابن مسكويه فيذكر أنه في عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م أغار جماعة من الترك على الخزر ، الذين فروا أمامهم نحو بلاد خوارزم ليستصروا بأهلها . وقد اشترط عليهم أهل خوارزم أن يعتنقوا الاسلام حتى يساعدهم ، فأسلموا إلا ملكهم الذي ظل يهودياً^(٢١٦). وهنا يخلط ابن مسكويه بين الترك (الغز) والروس ، لكنه ذكر سنة الهجوم الروسى على الخزر بدقة أكثر من غيره من المؤرخين المسلمين الآخرين . ويشير الإدريسي إلى أن الروس لم يكتفوا بتخريب العاصمة الخزرية أنزل فقط بل اجتاحتها أيضاً مدينة سمندر الخزرية وأتوا على كل ما بها من نعم الحياة ، حيث ينكسر في هذا الصدد "وأما مدينة سمندر فإنها كانت فيما سلف مدينة كبيرة عامرة ، وهى من بناء أنوشروان ، وكان بها من الأشجار والكروم ما لا يحصى عددها فأنت قبيلة الروس عليها فأهلكتها ، فغيرت حالاتها"^(٢١٧). وقد بلغ تخريب الروس للمدينة مداه حتى قال ابن حوقل "أنه لم يبق بالبلد عنب ولا زبيبة" ، ولم يبق هناك ورقة نبات على ساقها^(٢١٨).

وقد أتم سفياتوسلاف نصره على الخزر بالهجوم على الآلان (Yasians) والكاسوجيين Kasogians^(٢١٩). على هذا النحو ينتهى هجوم الروس بقيادة سفياتوسلاف على الخزر والآلان والكاسوجيين فى عام ٩٦٥م ، وقد نجحوا فى الاستيلاء على مدينة تموتوركان الخزرية ، الواقعة على شاطئ بحر آزوف الشرقى ، المتفرع من بحر بوننش^(٢٢٠). وبهذا صار لهم موضع قدم فى شبه جزيرة القرم بالقرب من

^(٢١٤) صورة الأرض ، ص ١٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ - ٣٩٤ .

^(٢١٥) Franklin & Shepard, Rus', p. 143.

^(٢١٦) تجارب الأمم ، ج٢٦ ، ص ٢٠٩ .

^(٢١٧) نزهة المشتاق ، ص ٨٣٥ .

^(٢١٨) صورة الأرض ، ص ٣٩٣ . وانظر أيضاً : أبو القدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٠٣ ؛ المقسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٦١ ؛ ابن الوردي ، خريدة المعجلب ، ص ٩٤ .

^(٢١٩) R.P.C., p. 84; Franklin & Shepard, Rus', pp. 143-144; Karamsin, Histoire, p. 214 .

^(٢٢٠) عاش الكاسوجيون شرق مضائق جبال القوقاز ، بينما كان موطن الآلان فى التلال السفحية لجبال القوقاز الشمالية . انظر ، Franklin & Shepard, Rus', p. 144; Vernadsky, Kievan Russia, p. 354.

Karamsin, Histoire, p. 214; Franklin & Shepard, Rus', p. 143 .

الأملاك البيزنطية ، الأمر الذى سيجعل الإمبراطور البيزنطى نفقور فوكاس يدعو سفياتوسلاف للهجوم على بلغار الدانوب لصرف نظره عن هذه المنطقة الحيوية بالنسبة لبيزنطة والمتعلقة بسيادتها على شعوب السهوب ، لا سيما بعد أن قهر سفياتوسلاف الخزر والالان والكاسوجيين ، وبهذا لم تعد هناك قوة على الجبهة الشرقية للروس يمكن أن تقف فى مواجهة توسعاتهم بالمنطقة ، بعد أن كان الخزر هم ساداتها . وتضيف الحولية الروسية أيضا أن سفياتوسلاف خرج فى العام التالى ٩٦٦م إلى القياتشين وهزمهم وفرض عليهم الجزية ، أو بقول آخر حول إلى كيف الفضة التى كانوا يدفعونها من قبل إلى خاقان الخزر^(٢٢١) .

ويعتبر كثير من المؤرخين أن انتصار سفياتوسلاف على الخزر ، على النحو الذى رأيناه هو نهاية لمملكة الخزر ، وهذا أمر سنرى من خلال الأحداث التالية خطأه. فتدمير ساركل وتخريب مدينتى أتل وسمندر ليس دليلا كافيا على انتهاء مملكة الخزر، بل يعتبر دليلا على انهيار قوة الخزر فقط . لقد نجح الروس فى تدمير مملكة الخزر بسلطانها الواسع فى المنطقة الدنيا لنهر أتل ، والاستيلاء على مدينة تموتوركان الواقعة على بحر آزوف^(٢٢٢) ، إلا أنهم لم يزيلوها من الوجود أو يضموها إلى حدودهم الشرقية، بل أن الخزر تمكنوا من اجتياز هذه المحنة العصيبة وعادوا إلى مدنهم مرة ثانية ، التى أعادوها أيضا إلى ما كانت عليه قبل هجوم الروس عليهم فى عام ٩٦٥م . وليس أدل على كلامنا هذا من أن ابن حوقل يقول عن سمندر " .. فلم تمض ثلاث سنوات إلا وقد عاد كما كان .."^(٢٢٣) . كما أن الرحالة اليهودى ابراهيم بن يعقوب ، السفير الأسباني لدى أوتو الأول ، كتب فى عام ٩٧٣م على الأرجح يصف بلاد الخزر فى عصره بأنها لا تزال مزدهرة^(٢٢٤) . وأخيرا تؤكد لنا الحولية الروسية الأولى استمرار مملكة الخزر فى الوجود، حتى بعد هجوم الروس الكاسح لها فى عام ٩٦٥م ،

R.P.C., p. 84 .

(٢٢١)

(٢٢٢) كويستلر ، الخزر ، ص ١٤٧ ، ١٦٠ .

(٢٢٣) صورة الأرض ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٨ .

(٢٢٤) كويستلر ، الخزر ، ص ١٦٠-١٦١ .

حيث يرد ذكر بعثة دينية خزرية ذهبت إلى الأمير الروسي فلاديمير لتعرض عليه اليهودية كديانة تصلح لشعبه في عام ٩٨٦م^(٢٢٥).

على هذا النحو أبرزت لنا المصادر الروسية والعربية نشاط الروس الحربى ضد الخزر في عهد الأمير الروسى سفياتوسلاف ، لكنها أجمعت عن ذكر الأسباب التى دفعته لشن هجومه الكاسح هذا على قوى الفولجا ، خاصة الخزر ! الأمر الذى يجعلنا نسعى فى سبيل الوصول إلى الأسباب التى أدت إلى ذلك . وفى الحقيقة ، ليس هناك سبب مباشر يمكن الوقوف عليه ، لكن .. إذا كان الروس يهدفون من حملتهم هذه إلى تدمير مملكة الخزر ، على النحو الذى رأيناه ، فلماذا إذن هاجم الروس البلغار والبرطاس أيضا ، وهم فى طريقهم إلى الخزر ، بل لماذا أكملوا سلسلة هجماتهم على قوى الفولجا ، بالهجوم على الألان والكاسوجيين ؟! إن هذا الهجوم الروسى على كل هذه القوى فى وقت متزامن يدفعنا لافتراض أن الروس كانوا يسعون إلى تأمين حدودهم الشرقية بجعل نهر الفولجا حدا شرقيا لهم ، وأن هذا لن يتأتى لهم إلا بعد القضاء على قوى الفولجا وتحويلها إلى قوى دنيا فى المنطقة ، تأتى فى المقام الثانى بعد الروس . ومما يدعم ما نذهب إليه أن الروس بعد أن خربوا هذه الممالك وهزموا شعوبها لم يستولوا على أراضيها ، ولم يضموها إلى بلادهم ، بل اكتفوا بما أحرزوه من انتصارات عسكرية وما جمعه من غنائم وعادوا إلى كييف ثانية . ويضيف بعض المؤرخين أن بقيام سفياتوسلاف بانتزاع نفوذ الخزر من منطقة السهوب إلى الجنوب الشرقى حصل على ميزة السيطرة على الطرق الواقعة بطول أودية أنهار الدونستر والدون ، والتي كانت قيد الاستخدام عندما كانت هناك اتصالات قائمة بين ستارايا لادوجا *Staraja Ladoga* وبين الخزر . وبإخضاع سفياتوسلاف للألان والكاسوجيين صارت الطرق عبر سهوب نهر الكوبان إلى بحر الخزر متاحة له أيضا^(٢٢٦) . ونظروا لانشغال سفياتوسلاف بعد ذلك بنشاطه الحربى فى البلقان ، لما غض الروس الطرف عن هذه الممالك ، واعطوها فرصة للحياة مرة ثانية . والدليل على ذلك قيام فلاديمير

R.P.C., p. 97.
Franklin & Shepard, *Rus*, pp. 144-145.

(٢٢٥)
(٢٢٦)

ابن سفياتوسلاف بشن حملة على الخزر في عهده ، في الفترة من ٩٧٩-٩٨٦ م .
فيذكر المؤرخ بومجارتن *Baumgarten* أن الوحيد الذي حفظ لنا ذكرى هذه الحملة هو
يعقوب الكاهن ، حيث ذكر أن فلاديمير سار نحو الخزر وهزمهم وفرض عليهم
الجزية^(٢٢٧) .

لقد صار الارتباط بين كييف وشعوب الفولجا المقهورة وإهيا على أثر انشغال
سفياتوسلاف في حروب البلقان ، مما جعل هذه الشعوب تستعيد حريتها ثانية وتبعث
الروح أيضا في ممالكها ، وهو الأمر الذي لم يتوافق مع هوى فلاديمير ، فقرر إعادة
الأوضاع إلى ما كانت عليه في عهد والده ، منتهزا فرصة وجود فرق الفارانجيين
الذين جاءوا معه من نوججورود ، لشن حرب على الخزر والشعوب التابعة له في
منطقة السهوب^(٢٢٨) .

وعلى هذا النحو مضت العلاقات بين الروس والخزر في عهد الأمير الروسي
فلاديمير ، الذي وافقه المنية في الخامس عشر من شهر يوليو عام ١٠١٥ م . وفي
العام التالي ١٠١٦ م ، يخبرنا المؤرخ البيزنطي كدريونوس عن هجوم بيزنطي -
روسي مشترك ضد بلاد الخزر . وقد صولت إلينا روايته عن هذا الهجوم على النحو
التالي : ' أرسل الباسيليوس أسطولا *στόλου* ، في شهر يناير من عام ٦٥٢٤ من
التقويم العالمي ، إلى بلاد الخزر *Χαζαρία* ، تحت قيادة مونجوس *Μονγός* بن
أندرونيكوس *Ανδρονίκου* ' دوق ليدوس *δουκάς τοῦ Λιδου* ؛ بالتحالف مع
سفنجوس أخو فلاديمير *Βλαδμηροῦ* *συνεργίᾳ Σφέγγου τοῦ ἀδελφοῦ* ،
نسيب الإمبراطور باسيل . وقد أخضع هذه البلاد له ، وأسر حاكم تلك البلاد جورج ابن
تزولوس *Γεωργίου τοῦ Τζούλου* خلال الهجمات الأولى . وأجبر الجميع وكذلك
سيناخيري *Σεναχηρείμ* على تقديم الطاعة للإمبراطور باسيل^(٢٢٩) . وهكذا انفرد
المؤرخ البيزنطي كدريونوس بسرد تفاصيل هذا الهجوم ، الذي لم تترك أصدأه في
المصادر الروسية . والشئ الجدير بالملاحظة هنا أن كدريونوس أورد اسم الأمير

Baumgarten, Saint Vladimir, p. 53.

Baumgarten, Saint Vladimir, p. 53.

Cedrenus, II, p. 464.

(٢٢٧)

(٢٢٨)

(٢٢٩)

الروسي الذي تحالف مع الإمبراطور البيزنطي باسيل ، وقاد قوات الروس في هذا الهجوم المشترك على الخزر . ولا يقدم لنا كدريوس سببا لهذا الهجوم البيزنطي - الروسي على بلاد الخزر . لكن يمكننا أن نستشف أن صاحب المصلحة الأولى في هذا الهجوم هو بيزنطة ، وأنها استعانت بأحد الأمراء الروس لدعم قواتها أثناء الهجوم . بيد أن واحدة من المشكلات التاريخية في نص كدريوس هي اسم الأمير الروسي حيث ورد اسمه مقرونا بكلمة أخ أوشقيق *αδελφός* فلاديمير . وفي الواقع، حسبما أوردت الحولية الروسية الأولى ، فإن فلاديمير لم يكن له سوى أخين هما أولج *Oleg* ، الذي توفي في عام ٩٧٧م ، ويسادويوك الأول ، الذي توفي في عام ٩٧٨م^(٣٢٠) . ومن ثم استوجب علينا معرفة ماهية سفنجوس الروسي الوارد في نص كدريوس .

لقد اعتاد المؤرخون قراءة كلمة *αδελφός* اليونانية على أنها أخ أوشقيق ، والتي لا يمكن قبولها على هذا النحو في نصنا هذا ، لتتأقفا مع الواقع آنذاك ؛ فكان علينا البحث في معانيها الأخرى والتي تعني رفيق ، رجل قبلي ، زميل ، قريب^(٣٢١) . وهكذا من خلال هذه المعاني فإن سفنجوس لم يكن أخ لفلاديمير ، كما جاء في النص ، بقدر ما هو أحد أقربائه وعلى هذا فمن المحتمل أن استعانة بيزنطة بالروس هنا لم تكن على الصعيد الرسمي بين البلدين ، حسب الاتفاقيات المبرمة بينهما في عامي ٩٤٥ ، ٩٧١م ؛ لأن بيزنطة لم تستعن هنا بأمير كييف العظيم ، الذي هو صاحب الحل والربط في بلاده ، والمسئول عن تنفيذ ما تم إبرامه من اتفاقيات بين بلاده والدول الأخرى ، كبيزنطة على سبيل المثال . ومن المحتمل أيضا أن يكون أمير كييف العظيم هو الذي أمر بإرسال القوات الروسية بقيادة سفنجوس ، دون أن يمكننا تحديد هوية هذا الأمير ،

^(٣٢٠) Genealogy of the Rurikids in the Period Covered by the Primary Chronicle, in : R.P.C.
^(٣٢١) Liddle & Scotte, *Greek - English Lexicon*, (Oxford, 1961), pp. 20-21.

نظرا لاشتغال الحرب الأهلية بين الأخوين ياروسلاف وسفياتوبولك فى عام ١٠١٦م^(٢٢٢).

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو إلى أين توجهت هذه الحملة البيزنطية - الروسية المشتركة بالتحديد ؟ لقد لخص المؤرخ الأمريكى دنلوب *Dunlop* آراء المؤرخين على النحو التالى : "لم يشك كوتشيرا *Kutschera* أن المقصود كان منطقة القوقاز ، ولعل مرد ذلك إلى ما ذكره كدريوس من أن بعد هزيمة جورج ابن ترولوس أرغم حاكم "صيديا العليا" على تقديم الطاعة . وافترض كوتشيرا أن هذا الحاكم ، ويدعى فى النص سيناخيريم ، كان خزريا يحكم فى منطقة من مناطق القوقاز ، لكن فى جميع الأحوال من الصعب أن نتصور يهوديا يحمل هذا الاسم . بينما يعتقد جراتز أن هذه الحملة توجهت ضد أملاك الخزر فى القرم وأنها دمرت البقية الباقية من حكم الخاقان هناك . وتبعا لمؤرخين آخرين فإن هذه الحملة توجهت ضد سواحل بحر أزوف . على كل حال ، قد يكون من المقبول أن نتصور أن الحملة البيزنطية - الروسية المشتركة ضد بلاد الخزر كان هدفها الرئيسى بلاد القوقاز ، مع الوضع فى الاعتبار أن الوضع فى إمارة تموتوراكان اعتبارا من عام ٩٨٨م ، عندما استقر الأمير مستملف فيها ، ظل غامضا"^(٢٢٣).

على هذا النحو تنتهى كلمات المؤرخ الأمريكى دنلوب ، ولكن سوف نثبت الآن خطأ نظريته بأن هدف الحملة البيزنطية - الروسية المشتركة على بلاد الخزر كان بلاد القوقاز . فقد عثر على ختم لجورج ابن ترولوس يحمل لقب بروتوسباتاريوس واستراتيجوس خرسون *Γεωργίου βασιλικῆς πρωτοσπαθαρῆος καὶ στρατηγῆος Χερσωνῶν* . ويعبارة أخرى يمكن القول أن أراضي القرم هذه التى يطلق عليها كدريوس إسم خزاريا أو بلاد الخزر ، ليست شيئا آخر سوى خرسون ؛ أو على أقل تقدير فإن خرسون جزءا منها . وعلى ما يبدو فإن كدريوس يتحدث هنا عن إحدى الثورات التقليدية التى كانت تنشب فى خرسون ضد سلطة الإمبراطورية البيزنطية ، وكان قائدها هذه المرة هو استراتيجوس خرسون

R.P.C., pp. 131-132.

انظر،

^(٢٢٢) دنلوب ، الخزر ، ص ٣٣٤ .

نفسه^(٣٢٤) . ولعل هذا يتفق مع ما ورد في معاهدة ٩٤٥م المبرمة بين الروس وبيزنطة، حيث ورد في البند الثامن ما يفيد بأنه إذا كانت خرسون غير خاضعة لبيزنطة، فإن الإمبراطور البيزنطي يتعهد بتزويد الأمير الروسي بأية قوات يطلبها لإعادتها إلى حظيرة بيزنطة ثانية^(٣٢٥) . وهو الأمر الذي أكدّه الأمير الروسي سفياتوسلاف في معاهدة ٩٧١م المبرمة بينه وبين الإمبراطور يوحنا تريمسكس ، حيث تعهد فيها بعدم مهاجمة خرسون والدفاع عن الأراضي الإمبراطورية إذا تعرضت لأية هجمات خارجية^(٣٢٦) . ومن المحتمل أن الإستراتيجوس استعان في ثورته بحاكم صيديا العليا ، المدعو سيناخيريم ، بدليل أن القوات البيزنطية - الروسية المشتركة أخضعته أيضا لسلطان الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني .

على أية حال ، تخبرنا الحولية الروسية الأولى بأن الأمير الروسي مستسلاف، شقيق ياروسلاف وحاكم إمارة تموتوركان ، قد استعان في عام ١٠٢٣م بقوة من الخزر والكاسوجيين ، الذين كان قد شن عليهم حملة ظافرة في العام السابق ١٠٢٢م ،

^(٣٢٤) Litavrin, G., "A propos de Tmutorokan", B, 35 (1965), p. 231.

^(٣٢٥) انظر الفصل الأول من البحث ، ص ١٩ .
^(٣٢٦) انظر الفصل الثاني من البحث، ص ٧٩-٨٠ . ينبغي أن نثبت هنا خطأ أحد المؤرخين الذي يرى أن من نتائج هذه الحملة الاستيلاء على خزاريا وأن بسيل الثاني بهذا العمل وضع خطوة هامة في تصفية دولة الخزر التي لم تستطع البقاء بعد ذلك طويلا ، بعد أن فقدت الجزء الأهم من أملكها وأراضيها ، فاستغقت رويدا رويدا وزالت كنولة مستقلة كان لها شأن في المصور الوسطى . انظر، محمد محمد مرسى الشيوخ، الخزر وعلاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ٤ (١٩٨٠) ، ص ٣٧٦ . وفي الحقيقة أن مملكة الخزر قد تفوضت دعائمها كما رأينا على أيدي سفياتوسلاف في عام ٩٦٥م ، لكنها استعادت كيانها مرة ثانية ، مما حدا بفلاتيمير لشن هجوما عليها . وقد أثبتنا أن حملة ١٠١٦م البيزنطية - الروسية لم يكن هدفها خزاريا بل خرسون بالدرجة الأولى ، التي ربما لجأ حاكمها جورج ابن ترولوس إلى الخزر . وقد ظل الخزر قوتين كforce سياسية في المنطقة بدليل أنهم شنوا هجوما سنة ١٠٣٠م على جيش كردى مغير (انظر، كويستر ، الخسزر ، ص ١٦٢) . كما أنهم شتركوا مع الكرج في عام ١١٢٠هـ/١١٢٠م في قتال المسلمين ، الذين خرجوا في تقسيمهم في ثلاثين ألفا ؛ لكنهم هزموا من الكرج والخزر . (انظر، الذهبي ، المعبر في ديوان من غير ، تحقيق/ صلاح الدين المنجد ، ج٤ ، (الكويت ، ١٩٦٣) ، ص ٣١) . وفي عام ٥٦٦هـ/١١٦٦م استولى الخزر على مدينة دوين الأرمنية ، وقتلوا من المسلمين نحو من ثلاثين ألفا . (انظر، الذهبي ، المعبر ، ج٤ ، ص ١٩٢) .

في قتاله ضد أخيه ياروسلاف^(٢٢٧). ومن المحتمل أن الخزر الذين استخدمهم الأمير مستسلاف كانوا من رعاياه في إمارة تموتوركان الروسية آنذاك^(٢٢٨).

لقد كان هذا الحدث هو آخر الوقائع في العلاقات الروسية - الخزرية في الفترة محل البحث؛ وفي نهاية المطاف لا يمكننا إلا أن نقر بأن حملة الأمير الروسي سفياتوسلاف على بلاد الخزر في عام ٩٦٥م قد قوضت دعائم هذه المملكة، ولولا انشغال هذا الأمير في طموحاته ومشروعاته في البلقان لكان قد ضم منطقة حوض الفولجا إلى بلاده بصورة نهائية. ومع هذا فقد ظلت مملكة الخزر قائمة في الوجود وإن كان قد تبدل الحال، وفقدت سلطتها الذي كانت تتزين به يوما ما قبل عام ٩٦٥م في المنطقة.

والآن لنكمل إبحارنا في نهر الفولجا، ونحن صاعدون فيه شمالا، لنصل إلى مملكة البلغار، لتتعرف على العلاقات الروسية - البلغارية في الفترة موضوع البحث. ولكن يتحتم علينا جغرافيا أن نمر على بلاد البرطاس، التي كانت تقع فيما بين مملكتي الخزر جنوبا وبلغار الفولجا شمالا.

الروس والبرطاس والبلغار:

يذكر المؤرخون والجغرافيون المسلمون أن البرطاس أمة متاخمة للخزر جنوبا، ليس بينهم وبين الخزر أم. غيرهم. وتبلغ مساحة بلادهم مسيرة خمسة عشر يوما، وهي نفس المسافة التي تنصل بينهم وبين الخزر جنوبا. وكان الغز يحيطون بهم من الشرق ويشاركون الخزر في حدود البرطاس الجنوبية، أما البشناق فكانوا يشاركون بلغار الفولجا في حدود البرطاس الشمالية، وفي الغرب كان يقع نهر أتل. وقد كان لهم من المدن مدينة برطاس ومدينة أخرى تسمى سوار. وكان البرطاس يدينون بالطاعة لملك الخزر، ليس لهم ملك سواه؛ إلا أن لهم في كل محلة حاكما يتحكمون إليه فيما يصيبهم^(٢٢٩). ويشير المؤرخون المسلمون إلى وجود عداوة بين

^(٢٢٧) R.P.C., p. 134; Karamsin, *Histoire*, p. 61.

^(٢٢٨) دغلوب، الخزر، ص ٢٢٤.

^(٢٢٩) انظر: الاصطخرى، *الممالك والممالك*، ص ١٣٠-١٣١؛ ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص ٣٩٤، ٢٩٦؛ أبو الفدا، *تقويم البلدان*، ص ٢٠٤؛ الكندي، *زین الأخبار*، ص ٤٦٤-٤٦٥؛ المروزي،

البرطاس من جهة ، ويلغار الفولجا والبشناق من جهة أخرى^(٢٤٠) ؛ لدرجة أن الحروب كانت تقع بينهم وبين البلغار والبشناق بصورة سنوية^(٢٤١) . ولابد لنا أن نتصور أن هذه الحروب كانت تقع بدافع من خافان الخزر لهم ، الذي كان يغزو بلادهم من حين لآخر^(٢٤٢) ، أو بسبب مواطن الكلأ .

ويشير ابن حوقل إلى أن الروس قد اغاروا على البرطاس في عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م^(٢٤٣) ، وهي الحملة التي قادها الأمير الروسي سفياتوسلاف على الخزر وأمم الفولجا الأخرى في ذلك العام . وقد نجح الروس في هزيمة البرطاس لدرجة جعلت الحميري يقول "... أن مساكنهم خلت بتغلب الروس على مدينتهم ، وأجلوهم عنها ، فشتوا في البلاد"^(٢٤٤) . ولعل هذا هو ما دفع نفس الكاتب للقول بأن مدينة برطاس متصلة ببلاد الروس^(٢٤٥) .

هكذا أتى الروس على بلاد البرطاس وشتوا أهلها في البلاد ، ولم تقسم لهم قائمة بعد ذلك ، كما لم نعد نسمع عنهم في المصادر التاريخية أيضاً . ولعل هذا يعكس مستوى قوة البرطاس ، الذي لم يكن على نفس مستوى قوة بلغار الفولجا أو الخزر ، الذين تعرضوا لما تعرض له البرطاس في عام ٩٦٥م ، لكنهم استطاعوا النهوض مرة ثانية بعد ذلك وظلوا قاتمين لسنين طويلة فيما بعد ، بلليل أننا نقرأ عنهم في مصادر القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين^(٢٤٦) . لقد كان مجموع البرطاس نحواً

طبايع الحيوان ، ص ٢١-٢٢ ؛ الإريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩٢٠ ؛ القزويني ، أشر البلاد ، ص ٥٧٩ ؛ الدمشقي ، نخبه الدهر ، ص ٢٦٤ ؛ ابن الوردي ، غرقة المعجب ، ص ٩٥ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ١٢٧ ؛ الحميري ، الروض الماطر ، ص ٨٨-٨٩ ؛
^(٢٤٠) الروزي ، طبايع الحيوان ، ص ٢١ ؛ الكندي ، زين الأخبار ، ص ٤٦٥ .
^(٢٤١) الكندي ، زين الأخبار ، ص ٤٦٤ .
^(٢٤٢) صورة الأرض ، ص ٣٩٣-٣٩٤ ؛ الإريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩٢٠ .
^(٢٤٣) الروض الماطر ، ص ٨٩ .
^(٢٤٤) الحميري ، الروض الماطر ، ص ٨٩ .
^(٢٤٥) يقول بارتولد أن الخزر انقطع ذكرهم بدءاً من القرن الحادي عشر الميلادي ، انظر ، الترك ، ص ٦٦-٦٧ ، وهذا قول مبني على خطأ . لأننا نقرأ عنهم في أعوام ٥١٤هـ/١١٢٠م ، ٥٦٦هـ/١٢٦٧م عند الذهبي ، انظر ، المعبر ، ج٢ ، ص ٣١ ، ١٩٢ وفي أعوام ١٠٢٣م عند نسطور ، انظر . R.P.C., p. 134.

من عشرة آلاف نسمة، يعيشون في أكواخ خشبية شتاء ، وأما فسي الصيف فيذهبون
يفترشون في الخرقاهات^(٢٤٧) . وبعبارة أخرى فإن المستوى الحضارى والسياسى
للبرطاس لم يرق إلى مستوى الخزر ، على سبيل المثال . فمن الناحية السياسية كانوا
أتباعا لملك الخزر يأمرون بأمره ؛ أما من الناحية الاجتماعية فكانت حياتهم بدائية ،
على الرغم من ثراء إقليمهم ، يسكنون أكواخا خشبية بسيطة أو يفترشون وادى نهر
أتل في الخرقاهات . ويمكن القول أن المصالح المشتركة بين الروس والبرطاس لم
تكن بنفس القدر الذى كانت عليه بين الروس من ناحية والخزر وبلغار الفولجا من
ناحية أخرى . فالبرطاس لم يكن لهم دور سياسى فى منطقة حوض الفولجا ، وكل ما
نعرفه عنهم فى هذا المضمار أنهم كانوا أتباعا لملك الخزر ، كما كانوا يناصبون بلغار
الفولجا والبشناق العداء ؛ ولابد أن نفترض أن مظاهر القتال بينهم كان يطغى عليها
الطابع القبلى ، لا الطابع النظامى المدروس . بالإضافة إلى ذلك فإن دورهم فى تجارة
الفولجا كان محدودا للغاية ، على عكس الخزر وبلغار الفولجا الذين كانوا يستأثرون
بها لأنفسهم . وقد يكون من المحتمل أنهم أظهروا بعض المقاومة لسفقاتوسلاف أثناء
مروره بأراضيهم ، الأمر الذى دفعه لقتالهم وهزيمتهم وطردهم من مواطنهم وتشيتهم
فى البلاد، على النحو الذى ذكره الحميرى .

ونأتى الآن إلى القوة السياسية الثانية بعد الخزر فى حوض نهر الفولجا ،
أعنى البلغار ، وعلاقتهم بالروس . وقبل الخوض فى غمار الحديث عن موضع بلغار
الفولجا فى السياسة الخارجية الروسية بدءا من القرن العاشر الميلادى ، ينبغى علينا أن
نقدم رؤية عامة عن بلغار الفولجا فى تلك الفترة ، والدور الذى كانوا يلعبونه فى
المنطقة العليا لنهر الفولجا .

يقول الكريزى ، أما البلغار فهى متصلة مع البرطاس ، وكان أهلها يعيشون
على نهر أتل ، الذى يصب فى بحر الخزر^(٢٤٨) . وكانت أرضهم تقع فى الجزء
الشمالى لحوض نهر الفولجا (أتل) ، وإلى جهة القطب أميل ، على حد قول

^(٢٤٧) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٥٧٩ .
^(٢٤٨) زين الأخبار ، ص ٤٦٧ ؛ الحميرى ، الروض المطهر ، ص ١٠١ .

المروزي^(٢٤٩). ويعيش شرق إقليم البلغار شعب يسمى الميرفاتيون *Mirvat* ، وجنوبه يقع بحر يسمى الجورز *Gurz* ، وغربه الصقالية ، وشماله يقع جبل يسمى جبل الروس^(٢٥٠). وعاصمة هذا الاقليم مدينة تسمى بلغار^(٢٥١) ، وكان يطلق عليها أحياناً اسم بلار ، وهي بلدة في نهاية العمارة الشمالية ، قريبة من شاطئ نهر أتل من السبر الشمالي الشرقي^(٢٥٢) ، وهي مدينة شديدة البرودة ، لا يكاد الثلج يقلع عنها صيفاً ولا شتاءً ، وكل ما يرى أهلها أرضاً جافة^(٢٥٣). ويقع بالقرب من عاصمة البلغار مدينة سوار ، في نفس الناحية التي تقع بها مدينة بلغار^(٢٥٤) ، وتبلغ المسافة بينهما مسيرة يومين على شاطئ نهر في غياض ، يتحصنون بينها من الأعداء^(٢٥٥).

والبلغار مسلمون^(٢٥٦) ، يقال أنهم اعتنقوا الإسلام في زمن الخليفة العباسي المقتدر ، في عام ٣١٠هـ/٩٢٢م ، على حد ذكر المسعودي^(٢٥٧). وقد أرسل ملكهم رسالة إلى الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥هـ/٩٠٧م - ٣٢٠هـ/٩٣٢م) يسأله فيها أن يبعث إليه بمن يفقه هو وشعبه في الدين الإسلامي ، ويعرفه شرائعه ، ويبين له مسجداً وينصب له منبراً ليقوم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته^(٢٥٨). وقد استجاب الخليفة العباسي المقتدر وأرسل لهم بعثة رفيعة المقام على رأسها الوزير

^(٢٤٩) طبائع الحيوان، ص ٤٤ .

^(٢٥٠) *Hudud al-'Alam*, p. 160.

^(٢٥١) الإصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ١٣١ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٦ ؛ المروزي ، طبائع الحيوان ، ص ٤٤ ؛ أبو القدا ، تجميع البلدان ، ص ٢١٦-٢١٧ ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦١ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٤٦٢ ؛ ابن الوردي ، خريدة المعانيب ، ص ٩٥ .

^(٢٥٢) أبو القدا ، تجميع البلدان ، ص ٢١٧ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٦٢ .

^(٢٥٣) أبو القدا ، تجميع البلدان ، ص ٢١٧ ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦١ ؛ المروزي ، طبائع الحيوان ، ص ٤٤ ؛ الإصطخرى ، صورة الأرض ، ص ١٣٢ .

^(٢٥٤) المروزي ، طبائع الحيوان ، ص ٤٤ .

^(٢٥٥) الإصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ١٣٢ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٦ ؛ أبو القدا ، تجميع البلدان ، ص ٢١٧ ؛ الدمشقي ، نخبه الدهر ، ص ٢٦٢ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٤٦٢ ؛ الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٠١ .

^(٢٥٦) مروج الذهب ، ج١ ، ص ١١٣ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٧٢ .

^(٢٥٧) Gerard, C., *Les Bulgares de la Volga et les Slaves du Danube*, (Paris, 1939), p. 56.

^(٢٥٨) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ٩٧-٩٨ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٧٢ ؛ أحمد فؤاد

سيد، الإسلام وثقافة العربية في بلاد ما وراء النهر الإسلامية ، (القاهرة ، ١٩٩٦) ، ص ١٢٩ ؛ Gerard, Bulgares, p. 56.

العباسي أحمد بن فضلان ، ونذير الحرمي ، وسوسن الرسي ، وتكن التركي ، وبارس الصقلابي^(٢٥٩) . ويضيف ابن حوقل أنه كان هناك مسيحيون بأرض بلغار^(٢٦٠) .

أما عن موقع البلغار من الأمم المجاورة فهي على النحو التالي : بين أنزل ، عاصمة الخزر ، وبلغار ، على طريق المغاوز نحو شهر ، ويصعد إليها في نهر أنزل نحو شهرين ، وفي الحدود نحو عشرين يوما . ومن بلغار إلى أول حد من حدود بيزنطة نحو عشر مراحل ، ومنها إلى مدينة كويابة (كثيف) ، مدينة الروس ، عشرون يوما^(٢٦١) ، وإلى أول حد من حدود الروس عشر مراحل^(٢٦٢) . ومن بلغار إلى بشجرد^(٢٦٣) خمس وعشرون مرحلة^(٢٦٤) . ومن بلغار إلى برطاس مسيرة ثلاثة أيام^(٢٦٥) ، وإلى خوارزم مسيرة ثلاثة أشهر^(٢٦٦) . ويذكر الكندي أن البلغار كانوا يتكونون من ثلاث طوائف عرقية ، الأولى كانوا يطلقون عليها اسم برسولا ، والثانية اسم اسكل ، والثالثة البلغار ؛ ويعيشون جميعا في مكان واحد^(٢٦٧) . وكما سبق القول فإنهم مسلمون على مذهب أبي حنيفة النعمان^(٢٦٨) ، وهم أمم عظيمة كما يقول ابن الوردي^(٢٦٩) . وكانت منازلهم مبنية من الخشب ، يأوون إليها في الشتاء ، وفي الصيف يفتشون في الخرقاهات^(٢٧٠) ، على شواطئ الأنهار^(٢٧١) . وتعداد البلغار

(٢٥٩) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ٩٨-١٠٠ . عن طبيعة هذا الواد والهدف من تشكيله على هذا النحو ، انظر ، أحمد فؤاد ، الإسلام ، ص ١٢٢-١٢٣ . وعن البلغار في ضوء كتابات أحمد ابن فضلان ، انظر ، ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٤٢-١٧٢ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٧٢-٢٧٦ ؛ Gerard, *Bulgares*, p. 55-60.

(٢٦٠) صورة الأرض ، ص ٣٩٨ .

(٢٦١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٢٦٢) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩٢٣ .

(٢٦٣) بشجرد أو بسجرت ، قيلتان تسكنان في آخر بلاد الغز على ظهر بلغار ، وعندهما حوالي ألفي رجل ، وهم صنف من الترك ، أشداء لا يقتر عليهم أحد ، انظر ، الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩٢٢-٩٢٣ .

(٢٦٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٢٦٥) الكندي ، زين الأخبار ، ص ٤٦٨ ؛ الحميري ، الروض المصطف ، ص ١٠١ .

(٢٦٦) المروزي ، طبائع الحيوان ، ص ٤٤ .

(٢٦٧) زين الأخبار ، ص ٤٦٧ ؛ القنطري ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٦٢ .

(٢٦٨) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢١٧ .

(٢٦٩) خريدة العجائب ، ص ٩٥ .

(٢٧٠) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٢ ؛ المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٣٦١ .

(٢٧١) الكندي ، زين الأخبار ، ص ٤٦٧ .

يختلف من مؤرخ إلى آخر ، فمنهم من يذكر أنهم حوالى خمسمائة ألف بيت^(٢٧٢) ، ومنهم من يذكر أنهم نحو خمسمائة أهل بيت^(٢٧٣) ، وأخيرا يذكر بارتولد أنهم كانوا خمسين ألفا من السكان^(٢٧٤) . وفى كل الأحوال لا يمكننا وضع رقم دقيق لتعداد بلغار الفولجا ، لكن لابد أن نستشهد بعبارة ابن الوردي ، السالفة الذكر ، "بأنهم أم عظيمة". وهناك أربعة أشياء جديرة بالملاحظة تخص بلغار الفولجا ، ينبغي تسجيلها هنا وأول هذه الأشياء أن البلغار عملوا بالتجارة سواء مع الخزر أو الروس أو البلاد الإسلامية ، ويمكن القول أنهم سيطروا على التجارة فى حوض نهر الفولجا الشمالى^(٢٧٥) . والشئ الثانى أنهم عملوا بالزراعة ، فقد كانت لهم مزارع كثيرة على حد قول المقدسى^(٢٧٦) ، وكانوا يزرعون كل الحبوب كالقمح والشعير والعدس والماشين ، وكل شئ غير ذلك^(٢٧٧) . كما كانوا يملكون الماشية ، وهى من مستلزمات الزراعة فى ذلك الوقت ، والدواب والحياد الأصيلة^(٢٧٨) . وقد امتدت أيضا فى بلادهم الغابات الواسعة الملتفة الأشجار^(٢٧٩) ، إلا أنها افتقرت إلى أشجار الفاكهة ، لشدة البرد بها^(٢٨٠) . وقد ارتقت الزراعة عندهم ، حتى أن الروس عندما كان يدركهم القحط كانوا يستوردون منهم المواد الغذائية^(٢٨١) . ويمكن القول أن الخير كان عندهم وفير ، حتى قال المقدسى أن "الخيز بها (أى ببلغار) واسع"^(٢٨٢) ، وقال ابن فضلان لملك البلغار ، ذات يوم ، "... مملكتك واسعة ، وأملاك جمّة ، وخرابك كثير..."^(٢٨٣) . كل هذا إن دل فإنه يدل على ثراء بلغار الفولجا الاقتصادى . والشئ الثالث الذى تدبى ملاحظته

^(٢٧٢) الكريزى، زين الأخبار ، ص ٤٦٧ .

^(٢٧٣) الحميرى، لرويض المعطر ، ص ١٠١ .

^(٢٧٤) بارتولد، الترك ، ص ٦٧ ؛ كويستلر ، الخزر ، ص ٥٤ .

^(٢٧٥) عن دورهم فى تجارة الفولجا ، انظر، الفصل السابع من البحث .

^(٢٧٦) الحسن التقيسيم ، ص ٣٦١ .

^(٢٧٧) الكريزى ، زين الأخبار ، ص ٤٦٧ . والماشين هو نوع من الحبوب كالحنس بطبخ ويؤكل ، انظر،

الكريزى ، زين الأخبار ، ص ٤٦٧ ، هـ ٤ .

^(٢٧٨) الكريزى ، زين الأخبار ، ص ٤٦٨ ؛

^(٢٧٩) الكريزى ، زين الأخبار ، ص ٤٦٧ .

^(٢٨٠) أبو القدا ، تقويم البلدان ، ص ٢١٧ ؛ التقيشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٤٦٢ .

^(٢٨١) بارتولد ، الترك ، ص ٦٨ .

^(٢٨٢) الحسن التقيسيم ، ص ٣٦١ .

^(٢٨٣) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٧٢ .

هنا أن مدينة بلغار كانت مدينة عظيمة العمارة مبنية من خشب الصنوبر ، وسورها من خشب البلوط^(٢٨٤) . وكان يوجد بها المساجد والمدارس والأئمة والمؤنسون^(٢٨٥) . والشئ الأخير الجدير بالانتباه هو أن البلغار سكوا عملة خاصة بهم في القرن العاشر الميلادي، كان على أحد وجهيها اسم الخليفة العباسي المستكفي ، متأثرين بجيرانهم السامانيين^(٢٨٦).

وبعد .. ماذا تعنى هذه الملاحظات الأربع التي تم تسجيلها عن بلغار الفولجا؟! إن اشتغالهم بالزراعة قد فرض عليهم نوع من الاستقرار والعمل الدائم ففى الحقول واستخدام الأدوات الزراعية والدواب ، وبهذا طغى عليهم الاقتصاد الزراعى ، لا الاقتصاد الرعوى الذى كان يميز معظم الأمم الأخرى المجاورة لهم . وجاعت التجارة كمورد من الموارد الاقتصادية الأخرى للبلغار ، والتي كان يتبعها احتكاك سلمى مع الأمم الأخرى ، وما يتبع ذلك من تطور حضارى غنى عن التعريف ؛ ويكفى أنهم تأثروا بجيرانهم من السامانيين المسلمين وسكوا عملة خاصة بهم ، وهم بهذا العمل تميزوا عن سائر شعوب الفولجا الأخرى . كما كان من نتائج انتشار الإسلام بينهم ، وجود الأئمة والمعلمين المسلمين ، انتشار المدارس والمساجد فى البلاد . لقد ارتقى البلغار درجة رفيعة من درجات الحضارة آنذاك ، أهلتهم للصمود فى وجه جيرانهم حتى القرن الثالث عشر الميلادى . ولبخص لنا أحد المؤرخين المحدثين المستوى الحضارى لبلغار الفولجا بقوله : لقد منحت علاقات البلغار الوثيقة مع الشعوب المجاورة ... فرصة استيعاب الانجازات الحضارية لكثير من الشعوب ، وخاصة الحضارة العربية ، التي كانت حينئذ فى مقدمة الحضارات . ونجد أسلوب التطور السلمى ، وتجنب الحروب العدوانية وإنشاء المدارس والاعتناق الرسمى للديانة الإسلامية قد أدى إلى سرعة توحيد البلغار ..^(٢٨٧) .

^(٢٨٤) القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٦١٢ .

^(٢٨٥) الكرنيزى ، زين الأخبار ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

^(٢٨٦) يارنولد ، الشرق ، ص ٦٦ ؛

Gerard, *Bulgares*, p. 57

^(٢٨٧) إيراد كريم الله ، من هم التتار ؟ ترجمة : رشيدة رحيم الصبروتى ، (القاهرة ، ١٩٩٤) ، ص ٣٩ .

أما عن السياسة الخارجية لبُلغار الفولجا ، فيشير الكريزي إلى أنهم كانوا يقومون بهجمات على جيرانهم من البرطاس ويأسرونهم^(٢٨٨) ؛ كما كانوا يتحاربون مع جيرانهم من القبائل التركية^(٢٨٩) ، ويفرضون سيادتهم ، على سبيل المثال ، على قبائل بسجرت^(٢٩٠) . أما علاقتهم بالخزر فقد مرت بمرحلتين ، الأولى عندما علم ملك الخزر بإسلامهم فغزاهم بجنود عظيمة ، لكنهم انتصروا عليه ، ثم تصالحوا فيما بعد^(٢٩١) . أما المرحلة الثانية فكان البُلغار يؤدون فيها الجزية لملك الخزر بمقدار جلسمور عن كل أسرة . ولكي يأمن ملك الخزر شرهم كان يحتفظ بأبن ملك البُلغار رهينة عنده . بل أن ملك الخزر أراد مرة أن يتزوج بأبنة ملك البُلغار ، وكانت مسلمة وهو يهودي ، فبعث في طلبها وأخذها عنوة ، لكنها ماتت عنده ؛ ثم أراد أن يتزوج بشقيقتها ، إلا أن ملك البُلغار زوجها من ملك اسكل ، التابع له ، خشية أن يغتصبها أيضا ملك الخزر . وعلى أثر هذا الحدث سادت العلاقات بين الخزر والبُلغار ، الأمر الذي دفع الأخيرين إلى أن يطلبوا من الخليفة العباسي المقنن بناء حصن لهم يحميهم من بطش ملك الخزر ويساعدهم في الزود عن بلادهم^(٢٩٢) . وقد استجاب الخليفة لطلبهم وأرسل لهم المعمارين والحرفيين ومن بينهم سوسن الرسي ، الذي كان يدير الأعمال^(٢٩٣) .

لقد جاء هذا الحدث ليقرّب بين الخلافة العباسية ، التي لم يكن يروق لها قيام مملكة يهودية على الحوض الأدنى للفولجا ، والبُلغار الذين اعتنقوا الإسلام وتشربوا الحضارة العربية . وربما بسبب هذا التقارب البلغاري - العباسي لم تول الدبلوماسية البيزنطية عناية كافية لبُلغار الفولجا^(٢٩٤) . وعندما سادت علاقات بيزنطة بالخزر في القرن العاشر من ناحية ؛ وإدراكها لقوة بُلغار الفولجا آنذاك من ناحية أخرى ، رأينا قسطنطين بورفيريوجينيتوس يقر بأن بُلغار الفولجا يمكنهم مهاجمة الخزر^(٢٩٥) . فقد

^(٢٨٨) زيف الأخير ، ص ٤٦٨ .

^(٢٨٩) المروزي ، طبائع الحيوان ، ص ٤٤ .

^(٢٩٠) الأديسي ، نزعة المشتاق ، ص ٩٢٣ .

^(٢٩١) القزويني ، آثار البلاد ، ص ٦١٢-٦١٣ .

^(٢٩٢) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٤٨ ، ١٧١-١٧٢ ؛ كويستر ، الخزر ، ص ٤٣ .

^(٢٩٣) Gerard, Bulgares, p. 56.

^(٢٩٤) Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 117.

^(٢٩٥) *DAI, I*, pp. 64 - 65; II, p. 62.

^(٢٩٥) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، الإدارة ، ص ٦٥ .

بلغت قوة البلغار العسكرية آنذاك أن أحمد بن فضلان أقر بأن جيش ملك البلغار يمكنه هزيمة جيش الخليفة العباسي ، وجيش أمير خراسان أيضا^(٢١٦) .

أما عن الروس وبلغار الفولجا ، فيشير مؤلف حدود العالم إلى أن البلغار كانوا في قتال دائم مع الروس^(٢١٧) ، يغلون تارة ويغلون تارة أخرى . وكانت تحركات الروس تتجه صوب الفولجا ببطء شديد ، لأن البلغار كانوا يمنعونهم^(٢١٨) . وقد تكون رواية مؤلف حدود العالم صحيحة إذا ما طبقناها على بعض الجماعات الروسية التي إما تقطن بالقرب من حدود البلغار الغربية ، أو تتعامل مع البلغار بصورة مباشرة . والأمر في هذه الحالة لا يعدو مجرد مناوشات تحدث بين الطرفين بعيدا عن امراء كييف ، بل دليل أننا لا نقرأ عن أية حروب وقعت بين الطرفين قبل حملة سفياتوسلاف عليهم في عام ٩٦٥م ؛ وهو الأمر الذي ترفع نسطور ، المؤرخ الكييفي ، عن ذكره . ويخبرنا ابن حوقل أن الروس اجتاحت بلغار في عام ٣٥٤هـ / ٩٦٥م واستولوا عليها^(٢١٩) ، وهي الحملة التي قادها سفياتوسلاف في عام ٩٦٥م لاعلى البلغار فقط بل على جيرانهم من البرطاس والخزر والآلان والكاسوجيين . ويضيف الإدريسي أن الروس "استخرجوا البلاد من أيديهم ، ولم يبق لغيرهم من الأمم إلا الاسم في الأرض فقط"^(٢٢٠) . وليس هناك سبب مباشر لذلك الهجوم الذي قام به سفياتوسلاف ضد بلغار الفولجا ، وربما كان نوعا من الردع وإظهار قوة الروس في المنطقة وتأمين الحد الشرقي لبلادهم ويفترض المؤرخان سيمون فرانكلين وجوناثان شبرد أن سفياتوسلاف كان يحاول أن يستولى ، إذا لم يكن يتحكم ، على المنافذ القائمة المؤدية إلى فضة السامانيين *Samanids' Silver* ، بالإضافة إلى فتح طرق جديدة تؤدي إلى بحر الخزر^(٢٢١) . وكما حدث مع الخزر ، فقد جاء ذهاب سفياتوسلاف إلى البلقان وإنشغاله بطموحاته ومشروعاته هناك فرصة للبلغار لاستعادة كياناتهم في المنطقة . ورويدا رويدا

^(٢١٦) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٥١ .

^(٢١٧) *Hudud al-'Alam*, p. 160 .

^(٢١٨) يارتولد ، الترك ، ص ٦٨ .

^(٢١٩) صورة الأرض ، ص ٣٩٣-٣٩٤ ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩٢٠ .

^(٢٢٠) نزهة المشتاق ، ص ٩٢٠ .

^(٢٢١) Franklin & Shepard, *Rus*, p. 145.

استردوا تجارتهم المربحة ، بشرط دفع الجزية لأمرأه كفيف ، والتي كانوا يفرضونها عليهم كرها^(٢٠١) . وقد قامت عدة نزاعات حدودية بين الروس وبلغار الفولجا ، وكان النزاع فى بعض الأحيان يتقالم ويصل إلى حد النزاع المسلح . ويمكن القول أن الهيمنة الروسية على بلغار الفولجا كانت شكلية إلى حد كبير ، بدليل أن ملوك البلغار ظلوا يسكون الدراهم الفضية حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، وهى الفترة التى بدأت تختفى فيها هذه الدراهم من آسيا الوسطى^(٢٠٢) .

وطبقا للحولية الروسية الأولى شن الأمير الروسى فلاديمير ومعه خاله المدعو دوبراينا هجوما بحريا على بلغار الفولجا فى عام ٩٨٥م وكان هذا الهجوم عملا مشتركاً بين الروس والترك الذين جاءوهم برا على صهوات جيادهم ، وقاموا جميعا بشن الهجوم على البلغار^(٢٠٣) . والمقصود بالترك هنا الغز ، الذين سبق أن تحالفوا مع سفياتوسلاف عند هجومه على الخزر فى عام ٩٦٥م^(٢٠٤) . وتدعى الحولية أن فلاديمير قهر البلغار ، والحقيقة أنه لم ينجح فى إحراز نصر حاسم عليهم ، بدليل أنه عقد اتفاق سلام معهم مؤكدا بالقسم بينهما . لقد قال دوبراينا لفلاديمير "لقد رأيت الأوسرى وهم منتعلون أحدى عالية الساق . وهم لن ينفعوا لنا جزية . فلتدعنا نبحث عن أعداء لنا ممن ينتعلون أحدى ليفة"^(٢٠٥) . لقد أشار دوبراينا إلى المستوى الحضارى الذى كان عليه البلغار ، فقد كانوا ينتعلون أحدى جديسة ترتفع لتغطى سيقانهم ، ونظرا لهذا المستوى الحضارى العالى ، فإنه ليس من السهل إجبارهم على دفع الجزية لهم . والأجدى ، من وجهة نظره ، أن يبحثوا عن أعداء آخرين لهم ممن ينتعلون نعالا مصنوعة من ليف الأشجار ، كإشارة إلى تننى مستواهم الحضارى وهم الذين يمكنهم دفع الجزية للروس بخضوع تام . وقد استجاب فلاديمير لكلمات دوبراينا وعقد سلاما مع البلغار مؤكدا بالقسم بينهما . وهكذا انتهت حملة فلاديمير على البلغار

Gerard, *Bulgares*, p. 61.

Gerard, *Bulgares*, p. 62.

R.P.C., p. 97; Franklin & Shepard, *Rus*, p. 156.

R.P.C., p. 97; Franklin & Shepard, *Rus*, p. 156.

R.P.C., P. 96; Franklin & Shepard, *Rus*, pp. 156-157.

الذين أظهروا أنهم هدف صعب المنال وأن أية محاولة للسيادة عليهم كانت بلا جدوى^(٢٠٧).

وتشير المصادر الروسية إلى أن فلاديمير لم يبدأ نشاطه العسكري ، عقب توليه حكم البلاد مباشرة ، بقتال البلغار ، بل بدأ بقتال القبائل الخاضعة له كالفياتشيين ، والرامتشيين والياتفياجيين *Iarviagians* ، الذين عاشوا فيما بين البريت *Pripet* والنمن *Neman*^(٢٠٨) . وربما كان فلاديمير يهدف إلى إخضاع هذه القبائل له وتوكيد سيادته عليها قبل أن يشرع في التوجه إلى ضفاف الفولجا لقتال البلغار .

ولا تذكر المصادر الروسية أسبابا لحملة فلاديمير على البلغار ، الأمر الذي يجعلنا ننظر إليه على أنه كان يرمى إلى التوسع الخارجى ، وإن كان بمقياس أقل من أبيه سفياتوسلاف . كما لا ينبغي أن نتجاهل الهدف الاقتصادى من حملته على بلغار الفولجا ، نظرا لأن تدفق الفضة على بلاده كان فى تناقص مستمر ، فى الوقت الذى كان فيه بلغار الفولجا يسكون الدراهم الفضية فى القرن العاشر الميلادى^(٢٠٩) . ويشير المؤرخون إلى أن فلاديمير كان يولى اهتماما لمدى قدرة دافعى الجزية ، كالفياتشيين مثلا ، على أدائها فى صورة فضة ، فى الوقت الذى انقطعت فيه مدينة جوروديشش - نوفجورود *Gorodishche-Novgorod* عن تلقى إمدادات الفضة الآتية من الشرق . وقد لا يكون من باب الصدفة أن حملة فلاديمير الوحيدة التى اشترك مع فيها دوبراينسا ، حاكم جوروديشش - نوفجورود ، كانت ضد بلغار الفولجا^(٢١٠) . وأيا كانت الأسباب والأهداف التى كان يرمى فلاديمير إلى تحقيقها من وراء هذه الحملة ، إلا أنه أخفق فى وقف انهيار تدفق الفضة إلى بلاده نتيجة فشله فى تلك الحملة^(٢١١) .

وهكذا ، بهذه النهاية الفاشلة لحملة فلاديمير على بلغار الفولجا نكون قد وصلنا إلى المرحلة الأخيرة فى سياسة الروس تجاه البلغار ؛ ولا تقدم لنا المصادر التاريخية

Franklin & Shepard, *Rus*, p. 157.
R.P.C., P. 96; Franklin & Shepard, *Rus*, pp. 157.
Franklin & Shepard, *Rus*, p. 157-158.
Franklin & Shepard, *Rus*, p. 157.
Franklin & Shepard, *Rus*, p. 157-158.

(٢٠٧)

(٢٠٨)

(٢٠٩)

(٢١٠)

(٢١١)

سواء الروسية أو غيرها أية إشارات لأحداث وقعت بعد ذلك بين الطرفين ، اللهم نكسر
الحولية الروسية الأولى للبعثة الدينية البلغارية التي ذهبت إلى كييف فى عام ١٩٨٦م
لتعرض على أميرها الإسلام كديانة مقترحة لشعبه^(٣١٢) .

وتبقى كلمة ينبغي أن نسجلها بهذا الصدد ، وهى أن العلاقات التجارية بين
التجار الروس وتجار الفولجا كانت تقع على عاتق تجار البلدين أنفسهم لا على عاتق
حكوماتهم ، الأمر الذى جعلها مستمرة حتى مع السياسة الهجومية التى اتبعتها حكومة
الروس الكييفية تجاه قوى الفولجا ، أو لنقل تجاه الجبهة الشرقية لهم عامة سواء
المسلمين فى القوقاز أو الخزر والبرطاس والبلغار على ضفاف نهر الفولجا .

لقد اتجه الروس بقواتهم نحو حوض الفولجا وموارءه ، بدءا من الأمير
الروسي إيجور وحتى الأمير الروسي ياروسلاف ، وهم عازمون على التوسع السياسى
والكسب المادى . فالتوسع السياسى لهم شرقا يعنى المزيد من الأراضى بما عليها من
شعوب وما ستغله عليهم من خيرات ؛ بينما تمثل الكسب المادى لهم فى السيطرة على
الطرق التجارية المؤدية إلى ما وراء حوض الفولجا ، أو بعبارة أخرى التخلص من
الوسطاء التجاريين المتمثلين فى الخزر والبلغار ، الذين كانوا يجبون العشور منهم
على تجارتهم ؛ هذا فى الوقت الذى بدأ فيه تدفق الفضة على خزائن كييف بتناقص
لعدة عوامل سياسية واجتماعية. ولكن رأينا أن النجاح الوحيد الذى حققه الروس فى
حوض الفولجا هو تقويض دعائم مملكة الخزر فى القرن العاشر الميلادى ، وتأمين
حدهم الشرقى ، وفتح الطرق المؤدية إلى بحر الخزر والمناطق الواقعة حوله ذات
الثراء الاقتصادى الكبير . وعلى الجانب الآخر فشلوا فى إخضاع شعوب الفولجا
لسيادتهم ، سواء الخزر ، الذين عمروا بلادهم ثانية بعد نكبة ٩٦٥م ؛ أو البلغار ،
الذين فشل فلاديمير فى قهرهم وعقد سلاما معهم . وظلت العلاقات التجارية بينهم كمل
هى قائمة على عاتق التجار الروس أنفسهم ، نظرا لفشل حكومة كييف فى ضمان
كسب مادى دائم لهم يعود عليهم ، ولاشغال أمرائها فى مشروعات سياسية أخرى أو
فى حروبهم الأهلية .

الباب الثالث

الروس والنجارة الدولية

الفصل السادس: الروس والنجارة معزز فطنة

الفصل السابع: الروس ونجارة الفولجا

الفصل السادس

الروس والتجارة مع بيزنطة

تشير المعاهدات التي عقدت بين القسطنطينية وكييف ، لاسيما معاهدة ٩٠٧م و ٩٤٥م إلى أن التجارة كانت من المحاور الرئيسية في المفاوضات بين الطرفين ، وإلى أن الطرفين كانا حريصين تماماً على توضيح البنود التجارية وتفصيلها في هاتين المعاهدتين . فما قصة التجارة الروسية في القسطنطينية ؟ يشير المسعودي^(١) إلى أن الروس كانوا يعملون بالتجارة مع الأمم المجاورة لهم ، فهم يتاجرون مع بلاد الأندلس وروما والقسطنطينية والخزر . ولعل المناخ الذي كان يعيش في ظلّه الروس لم يسمح بإقامة مجتمعات زراعية مستقرة ، بسبب البرودة الشديدة وقسوة الطبيعة التي فرضت إرادتها على الروس . وقد يؤكد الكرديزي هذا بقوله إن الروس ليس عندهم زرع ولا بذر^(٢) . وتنبغي الإشارة إلى أنه في الوقت الذي نملك نصوصاً تاريخية تشير من قريب أو بعيد إلى المعاملات التجارية بين الروس وكل من بيزنطة وشعوب الفولجا ، لا توجد نصوص تاريخية بالمرّة تساعدنا على رسم صورة ولو بسيطة لتجارة الروس مع الأمم الأخرى المجاورة لهم .

على كل حال ، يمكننا رسم صورة شبه كاملة للعلاقات التجارية بين الروس وبيزنطة من خلال النصوص التاريخية الباقية ، على الرغم من قلتها ، خلال القسرين العاشر الميلادي ومنتصف القرن الحادي عشر الميلادي . ومن حسن الحظ أن نصوص المعاهدات التي عقدت بين كييف والقسطنطينية وصلت إلينا سواء عن طريق المصادر البيزنطية أو الروسية ، وهي التي قد تكون خير فاتحة لهذا الموضوع الشائك . وعلى الرغم من أننا أوردنا نصوص معاهدة ٩٤٥م في موضع آخر من هذا البحث^(٣) إلا أننا سنناقشها هنا بشيء من التحليل .

يتضح من البنود التجارية الواردة في هذه المعاهدة^(٤) أن كلاً من البيزنطيين والروس مستفيدين منها ، ففي الوقت الذي يسمى فيه الروس ، بحكم أنهم أجانب عن القسطنطينية ، لضممان أكبر قدر من الامتيازات التجارية نرى أن بيزنطة ترفض

(١) مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٢) الكرديزي ، زين الأخبار ، ص ٤٧٤ .

(٣) انظر ، الفصل الأول من الباب الأول .

(٤) R.P.C., pp. 74-75.

مجيء التجار الروس إليها بلا بضائع روسية ، كما شددت الإجراءات الأمنية عليهم لضمان سلامة البلاد خلال إقامتهم بها . لقد كان الروس يشتهرون بالعديد من السلع التي كان الطلب يتزايد عليها في القسطنطينية فكانوا يأتون إليها محملين بالسلع والشمع اللازم لإنارة الكنائس البيزنطية ، والفراء ، لاسيما فراء السمور ، والرقيق من أسرى الحرب والصلاف^(٢)، والسيوف^(٣) . وفي المقابل ماذا عن البضائع البيزنطية التي كان يأتي من أجلها الروس ؟ .

لقد كانت القسطنطينية في ذلك الوقت مركزاً للتجارة العالمية ، وإليها يحج التجار من شتى أنحاء أوروبا وبلاد الروس ، فقد كانت همزة الوصل بينهم وبين التجارة الواردة إليها من الشرق ؛ وبهذا كانت تجمع هذه المدينة بكل أنواع السلع والبضائع والتي يكشف عنها كتاب وإلى المدينة . ومن نصوص هذا الكتاب الهام بالإضافة إلى البنود التجارية الواردة في معاهدة ٩٤٥م يمكننا استنتاج السلع التي كان يشتريها الروس من القسطنطينية ويعودون بها إلى بلادهم .

ولكن قبل أن نستعرض في الحديث عن هذه السلع هناك سؤال بلوح في الأفق ربما يستحق أن نبحث له عن إجابة، وهو متعلق بماهية الأصول التاريخية للبنود التجارية الواردة في معاهدة ٩٤٥م ؟ ولكي نضع إجابة مقبولة علمياً لهذا السؤال لابد لنا أن نلقي نظرة سريعة على شروط المعاهدات التي أبرمت بين الروس والبيزنطيين قبل ٩٤٥م، وبالتحديد معاهدي ٩٠٧ ، ٩١١م ، لكي نصل إلى الأصول التاريخية للبنود التجارية الواردة في معاهدة ٩٤٥م .

وإذا ما تفحصنا معاهدة ٩٠٧م التي عقدت بين الروس والبيزنطيين، عقب انتصار أولج ونجاحه في حملته على القسطنطينية، سنجد أنها مجرد اتفاق مبدئي، بين الطرفين . وهي تتناول الامتيازات الممنوحة للتجار الروس في بيزنطة . وقد تم هذا الاتفاق بواسطة خمسة رسل للأمراء الروس الرئيسيين، الذين كانوا موجودين بأنفسهم عند أسوار القسطنطينية، وكانوا جميعاً ذوي أصول اسكنندافية^(٤) . ويمكن القول أن هذا الاتفاق كان عبارة عن تعهد بيزنطي تجاه الروس الذين يأتون إلى القسطنطينية . وبقرأة نصوص هذا الاتفاق في الحولية الروسية الأولى سنجد أن أحد بنود معاهدة ٩٤٥م، وبالتحديد البند الثالث منها، يكاد يكون هو نفسه المذكور في معاهدة ٩٠٧م بلا

(٢) هليد ، ف ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة / أحمد محمد رضا ، ج١، (القاهرة ، ١٩٨٥) ، ص ٨٨ ؛ سعيد عاشور ، أوروبا والعصور الوسطى ، ج١ ، (القاهرة ، ١٩٨٣) ، ص ٢٤٣ .

(٣) Hudud al-'Alam, p. 159.

(٤) Soloviev, L'etat russe, pp. 249-250.

تغيير يذكر^(٨) . ولا توجد بنود أخرى في معاهدة ٩٠٧م يمكننا أن نعول عليها . أما معاهدة ٩١١م فتكاد تكون خالية من البنود التجارية، بل إنه يمكن اعتبارها استكمالاً لاتفاق ٩٠٧م ، لأن أغلب بنودها تعهدات روسية تتعلق بالأمور السياسية والعسكرية والأمنية بين البلدين^(٩) . على هذا، يمكن القول أن البنود التجارية الواردة في معاهدة ٩٤٥م استمدت أصولها التاريخية من معاهدة ٩٠٧م، وقد أضيفت إليها بعض البنود لتلائم الظروف التي عاصرت عقدها. فالبندين الأول والثاني منها كان الهدف منسهما هدف أمنى محض، وكان هذا طبيعياً بعد عدة حملات شنّها الروس على بيزنطة ، حملة ٨٦٠م ، ٩٠٧م ، ٩٤١م ، ٩٤٤م . على هذا لم تكف بيزنطة بما كان سائداً من قبل ، بل شددت من الإجراءات الأمنية وفرضت على التجار الروس الحصول على تصريح خاص من الأمير الروسى قبل سفرهم إلى بيزنطة، أو بالتعبير الحديث كان لابد من الحصول على جواز سفر لكل تاجر روسى موثق من الأمير الروسى حتى تتأكد الإدارة البيزنطية من أهدافه السلمية ومن عدد السفن الروسية المرسلة إليها . أما البند الرابع، والذي يفرض على الروس عدم شراء حرير بأكثر من خمسين نوميزماً ، فكان وضعه طبيعياً في هذه المعاهدة من قبيل الإدارة البيزنطية ، لأن الإمبراطور البيزنطى كان قد أصدر كتابه إلى والى المدينة وقد تضمن الكثير من القوانين التجارية التى تنظم المعاملات التجارية داخل أسواق القسطنطينية ، ونظراً لأن هذه القوانين لم تكن قد صدرت أثناء معاهدة ٩٠٧م فلماذا لا يوجد أثر لمثل هذا الشرط فى معاهدة ٩٠٧م ولم تكن هناك حاجة له ؛ ومع هذا فقد تميز الروس عن غيرهم من التجار الأجانب . أما التعهدات البيزنطية بتزويد التجار الروس بالمواد اللازمة لهم ولسفنهم لأجل رحلة العودة والواردة فى البند الرابع من معاهدة ٩٤٥م فهى التى وردت أيضاً فى نص اتفاق ٩٠٧م ، وبالتحديد فى مقدمة الاتفاق . ومن هنا يمكن القول أن البنود التجارية لمعاهدة ٩٤٥م قد استمدت بعض بنودها، وبالتحديد البند الثالث وجزء من البند الرابع من معاهدة ٩٠٧م .

والآن لنعد للحديث عن السلع المتبادلة بين البيزنطيين والروس والتي لم تشر معاهدة ٩٤٥م إليها ، والسلعة الوحيدة التى أشارت إليها كانت الحرير؛ حيث أعطت الحق لكل تاجر روسى أن يشتري منه بما يوازي خمسين نوميزماً فقط . وللتأكد من هذا الإجراء فرضت عليهم عرض مشترياتهم من الحرير على المندوب الإمبراطورى

R.P.C., p. 65; Sorlin, *Les traités*, pp. 330-331.
R.P.C., pp. 65-69.

(٨) نظر،
(٩) نظر،

ليقوم بدمغها ووردها إليهم مرة ثانية . وهذا الإجراء لم يكن مطبقاً فقط على الروس ، بل على كل التجار الأجانب في القسطنطينية ؛ وقد فرض عليهم الإمبراطور البيزنطي من خلال كتاب وإلى المدينة ، عدة قيود تجارية ، كان من أهمها القيود المفروضة على تجارة الحرير مع الأجانب . ولما كان الروس من ضمن هؤلاء الأجانب للقسطنطينية إلى القسطنطينية للتجارة ، فإن تلك القيود كانت تسرى عليهم ، حتى وإن لم ترد في معاهدة ٩٤٥ م . ففي الفصل الرابع من "كتاب وإلى المدينة" يتحدث الإمبراطور ليو السادس قاتلاً : "... لا يجوز لتجار الملابس الحريرية أن يعطوا للأجانب شيئاً من السلع المصنوعة من الحرير الأحمر أو الأرجواني ذات الحجم الكبير ، حتى لا تنتقل إلى أيدي الأجانب . وكل من ينتهك هذه القوانين ، يتم جلده ومصادرة سلعه"^(١٠) . "وكل من يبيع للأجانب سلعة دون علم وإلى المدينة" تعرض لمصادرة سلعه"^(١١) . على هذا النحو كانت هذه القوانين تسرى على التجار الأجانب داخل أسواق القسطنطينية ، ولم يكن هناك من يجرؤ على مخالفة هذه القوانين ، وإلا فإن العقوبات كانت إما الجلد ، أو مصادرة السلع ، أو الضرب وقص الشعر ، أو الطرد من النقابة التابع لها التاجر المخالف"^(١٢) . ولم يكتف الإمبراطور بفرض هذه القوانين في التعامل مع التجار الأجانب ، بل منع التجار البيزنطيين من السفر خارج البلاد ببيضاتهم من الحرير الخام للتجار فيها مع الأجانب ، وإلا تعرض التاجر المخالف للطرد من النقابة"^(١٣) . وقد اهتم الإمبراطور البيزنطي بمراقبة التجار الأجانب ، فعلى سبيل المثال لم يسمح للتجار الروس بدخول أسواق القسطنطينية إلا تحت إشراف المندوب الإمبراطوري ، لمراقبة سلوك هؤلاء التجار داخل المدينة وضمان انصياعهم للقوانين الإمبراطورية . ومن أجل هذا كان هناك مندوب إمبراطوري يخضع لإشراف وإلى المدينة ، ويطلق عليه اسم ليجاتاريوس *λεγαταριος* وكان مسئولاً عن اصطحاب التجار الأجانب إلى داخل القسطنطينية وفحص بضائعهم للتأكد من عدم احتوائها على سلع ممنوعة، كما كان عليه إرشادهم إلى القوانين التجارية المعمول بها داخل بيزنطة حتى لا يقوموا تحت طائلة القانون البيزنطي"^(١٤) . وعندما يقيم الأجانب داخل خانات

(١٠) ليو السادس ، كتاب وإلى المدينة ، ترجمة / السيد الباز العريضي ، مجلة كلية أدب القاهرة ، مج ١٩ ، ج ١ (١٩٥٧) ، ص ١٥٤ ، عن صناعة الحرير وأهميتها في بيزنطة ، انظر ،

Lopez, R., "Silk Industry in the Byzantine Empire", *SP*, 20 (1945), pp. 1-42.

(١١) وإلى المدينة ، ص ١٦١ .

(١٢) وإلى المدينة ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(١٣) وإلى المدينة ، ص ١٦١ .

(١٤) وإلى المدينة ، ص ١٧٤ .

Sorlin, *Les traités*, pp. 349-350.

القسطنطينية ، كانت تفرض عليهم رقابة صارمة ويمنعون من شراء الملابس الحريرية التي تزيد عن استخدامهم الشخصي، وينبغي عليهم عند مغادرة المدينة أن يعلنوا والى المدينة حتى يعلم مقدار ما اشتروه ؛ وكل من يساعدهم في إخفاء هذه الأشياء يتموضع للجلد ومصادرة السلع^(١٥) . ويبدو أن الحكومة البيزنطية كانت صارمة في تنفيذ هذه القوانين، وأصررت على تطبيقها حتى على سفراء الدول الأجنبية الرسميين ، مثلما فعلت مع ليوتبراند الكريمويني عام ٩٦٨م^(١٦) . ففى ختام سفارته الثانية إلى القسطنطينية^(١٧) ، وبينما كان بهم بالرحيل منها ، وقبل خروجه من المدينة، احتجزه موظفو الجمارك وقاموا بتفتيشه وتفتيش حقائبه تفتيشاً دقيقاً للغاية ، حيث عثروا معه على كميات من الثياب الحريرية ، التي اشترى بعضها بنفسه وأهدى إليه البعض الآخر . وقام موظفو الجمارك البيزنطيون باحتجاز خمساً من أجمالي قطع الثياب الحريرية بحجة أن تصديرها ممنوعاً . وعيناً حاول الأسقف إقناعهم بأن هذه الأقمشة تخص كنيسة ، وأن الإمبراطور صرح له بأن يشتري ما يشاء للكنيسة دون أن يحدد ثمناً لها . وعلى الرغم من إلحاحه عليهم ليتركوا له على الأقل القطع المهداة إليه، إلا أنهم أصرروا بشدة على مصادرتها . وبطبيعة الحال كانت هذه المعاملة القاسية من رجال الجمارك لهذا الأسقف متعمدة ، وكانت انعكاساً لسياسة الإمبراطور نفقور فوقاس تجاه الإمبراطور الألماني^(١٨) .

على هذا النحو ، تتضح لنا القيود الصارمة التي كانت موضوعة فى القسطنطينية على الاتجار بالحرير، ويمكننا من خلالها أن نخلص إلى أن الحرير كان من السلع الرئيسية المرغوبة في البلاد الأجنبية التي جاء منها التجار إلى القسطنطينية، وهذا ينطبق بدوره على الروس . ولا ينبغي أن يفوتنا القول أن الإدارة البيزنطية كانت تستخدم الثياب الحريرية كواحدة من وسائل الدبلوماسية، لاسيما مع الشعوب البربرية،

^(١٥) إلى المدينة ، ص ١٥٥ .

^(١٦) وسام عبد العزيز ، الدولة والتجارة ، ص ٤٦ .

^(١٧) جنير بالذكر أن ليوتبراند الكريمويني جاء مرتين إلى القسطنطينية ، الأولى في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع في عام ٩٤٩م ، وكان مندوباً عن المركز الإيطالي برنجار الألفرى *Brenegar of Ivrea* . وقد أحسن استقباله في هذه الزيارة وأعطت عليه الهدايا الثمينة . وعاد إلى بلاده بلا مناع. والزيارة الثانية كانت في عهد الإمبراطور نفقور فوقاس ، وكان مندوباً عن الإمبراطور الألماني أوتو الأول *Otto I* ، وفيها عومل بهمة شديدة وسخرية وتيكم من قبل البلاط البيزنطى . لمزيد من التفاصيل، انظر ، وسام عبد

^(١٨) العزيز ، الدولة والتجارة ، ص ٤٦ . عن تفاصيل هذه الزيارة وملابسها ، انظر ،

Liutprand of Cremona, *The Works of Liutprand of Cremona*, ed. B.G. Coulton & A. Pawer, Eng. trans. S. A., Wrght, (London, 1930), pp. 267-268.

وانظر أيضاً ، وسام عبد العزيز ، الدولة والتجارة ، ص ٤٦-٤٩ .

التي كانت تسمى إليه بكل جهدها . فقد كانت تكافئ البشاق ، على سبيل المثال ، بهدايا من الثياب الحريرية الأرجوانية والثياب الحريرية الموشاة بالذهب والتوابل والجلود وغير ذلك من الهدايا البيزنطية الثمينة، وذلك مقابل خدماتهم الحربية لهم فى منطقة السهوب ضد الروس والخزر^(١٩) . وهذه الوسيلة الدبلوماسية كانت من أنجح الوسائل فى التعامل مع شعوب منطقة السهوب ، بل وحتى مع الممالك والدول الأوربية . وقد علمنا فى موضع سابق من البحث ، أن الإمبراطور نقفورفوقاس كان قد أرسل مبعوثه الخاص كالوكيروس إلى الأمير الروسى سفياتوسلاف لأجل طلب العون العسكرى منه ومساعدته فى كبح جماح البلغار، وقد حملته بالهدايا الثمينة والرشاوى لكسب رضا هذا الأمير وموافقته. ولنا أن نتوقع أن الشيء الرئيسى فى هذه الهدايا الثمينة كانت الثياب الحريرية والحلى وغير ذلك . ولنا أن نقرأ محتويات الهدايا الثمينة التى أرسلها الإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس إلى هيو البروفنسسى *Hugh of Provence* ، ملك إيطاليا فى عام ٩٣٥م ، والتى تكشف عن دهاء السياسة البيزنطية فى استخدام الحرير والذهب والسلع الأخرى لكسب ولاء حكام البلاد الأجنبية المجاورة لها . لقد ضمت هذه الهدايا مجموعتين رئيسيتين ، الأولى تضمنت الهدايا النقدية والعينية التالية : قطاراً من الذهب نقداً ، عشر قطع من الملابس الداخلية، كأساً من العقيق، سبعة عشر إباءاً زجاجياً ، ثلاثين كيساً من البخور، خمسمائة مكيال من الزيت المعطر للملك . بالإضافة إلى قطعتين من الملابس الداخلية لكل كونت من كونتات الملك السبعة، وثوباً حريرياً أصفر اللون لكل واحد من أساقفة الملك . أما كونت ومركز الملك المسئول عن الإقليم المتاخم لثم لونجويارديا البيزنطى ، فقد أرسل الإمبراطور البيزنطى إليه تسعة أثواب حريرية من فئات مختلفة، وسبع قطع من الملابس الداخلية من فئات مختلفة ، وثلاث أوانى مطلية بالفضة .

أما المجموعة الثانية من هذه الهدايا فكانت تتكون من ملابس ومنسوجات غير مدرجة فى قائمة السلع المحظورة ، وقد حملها المبعوث البيزنطى من أجل تغطية نفقات رحلته الدبلوماسية . وهى تتكون من ستة أثواب حريرية من أنواع وألوان مختلفة ، ثلاثين قطعة من الملابس الداخلية ، عشرين ثوباً محلى بفسفور جلدية ، عشرين ثوباً أرجوانياً عادياً^(٢٠) . لقد كانت بيزنطة تسمى لإبهار الحكام الأجانب بكرمها وهداياها الثمينة . الأمر الذى دفع تجار تلك البلاد إلى السعى وراء السلع البيزنطية للحصول عليها . وفى الوقت الذى مكث فيه التجار البيزنطيون داخل مدينتهم

DAI, I, pp. 52-53;

(١٩) قسطنطين يوريجيوجينيتوس ، الإدارة ، ص ٥٧ .
(٢٠) وسام عبد العزيز ، الدولة والتجارة ، ص ٥١-٥٠ .

، كان التجار الأجانب يتحملون مشاق ومخاطر الرحلة إلى القسطنطينية للحصول على هذه السلع . وعلى قول هايد Hyde كان يحلو للبيزنطيين ويرضى كبرياءهم أن يشاهدوا السفن التجارية التابعة لمختلف البلاد الأوروبية وهي تدخل ميناء القسطنطينية ، وأن تصير القسطنطينية مركزاً لتجارة الغرب^(٢١) .

ولتعد ثانية إلى التجار الروس أنفسهم ونتمائل ، بماذا تميز التاجر الروسى عن غيره من التجار الأجانب ممن يقصدون بيزنطة للتجارة ؟ إن التاجر الروسى الذى كان يذهب إلى القسطنطينية منذ القرن التاسع الميلادى فصاعداً لم يكن تاجراً مسالماً كأولئك الذين يفدون إليها من الجمهوريات الإيطالية على سبيل المثال ، بل كان تاجراً مقاتلاً ، حتى أن أمراءهم كانوا يحملون أسلحتهم وهم يتاجرون . وفى لحظة كان يمكن لهذا التاجر أن يتخلى عن مقصده التجارى وأن يتحول إلى مقاتل شرس . وليس أدل على ذلك من أن الأمير اولج عندما دخل كييف وقتل الأخوين دير Dir وأسكولد Askold كان بصحبته مجموعة من التجار^(٢٢) . لهذا فرضت بيزنطة على الروس دخول القسطنطينية وهم مجردون من السلاح، فى مجموعات صغيرة قوام كل واحدة منها خمسين رجلاً فقط وتحت إشراف الليجاتاريوس ؛ على أن يكون دخولهم إليها من بوابة واحدة . وهذا يشير إلى أن الروس لم يكونوا مقيمين داخل القسطنطينية ، فقد كان حتى سان ماماس المخصص لإقامتهم يقع فى إحدى ضواحي المدينة ، نحو الجهة الشمالية^(٢٣) . لقد هدفت بيزنطة من وراء هذا إبقاء الروس تحت سيطرتها حتى إذا ما نشب نزاع أو حدث شغب بين التجار أو بينهم وبين سكان العاصمة ، ضمننت قمعه بأسرع ما يمكن وإبقاء الأمن مستتباً فى العاصمة .

ولتأت الآن إلى السلعة الثانية التى حرمتها بيزنطة على التجار الأجانب أو وضعت قيوداً صارمة عليها . لقد حرص الإمبراطور على ألا يخرج الذهب إلى ما وراء القسطنطينية ، خوفاً من وقوع هذا المعدن النفيس فى أيدي البرابرة ، مما يضر بقيمة النومي즈ما البيزنطية ، فتقل قوتها الشرائية . لذلك فقد منع منعاً باتاً وصول الذهب والفضة أو اللؤلؤ والأحجار الكريمة إلى التجار الأجانب . ومن يكون على دراية بحدوث مثل هذا ، عليه إبلاغ والى المدينة لمنع وقوع هذا وليجول دون تصديرها إلى البلاد الأجنبية^(٢٤) . وهذا القانون الذى أصدره الإمبراطور لوالسى المدينة ، يعود

(٢١) هايد ، تاريخ التجارة ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢٢) انظر الفصل الأول من البحث ، ص ٢٩ .

(٢٣) والى المدينة ، ص ١٥٢ .

Ramnaud, La Russie, p. 67.

بجنوره إلى مجموعة الإمبراطور جستنيان القانونية *Codex Justinianus* ، وبالتحديد إلى عام ٣٧٤/٣٧٥م^(٢٥) . ومع هذا فقد تم العثور على مجموعة من العملات البيزنطية في روسيا وشبه جزيرة اسكندنافيا وفي بعض الأقاليم الواقعة على حوض نهر الراين *Rhine* ، الأمر الذي قد يدفع المرء لافتراض أن هذه العملات البيزنطية ناتجة عن التبادل التجاري بين تجار هذه المناطق وبيزنطة . إلا أن ما أثبتته المؤرخون المحدثون يشير إلى أن هذه العملات وصلت إلى تلك المناطق برضى من الحكومة البيزنطية؛ أي أن بيزنطة قامت بدفعها للشعوب الأجنبية المستقرة في بعض تلك المناطق، أو للقبائل المتبريرة التي عبرتها لعداء أسرى الحرب ، أو كإعانات مالية ورشاوى استهدفت تحقيق أغراض سياسية ، ففي جميع هذه الحالات خرج الذهب البيزنطي بشكل مباشر خارج حدود بيزنطة . وبالطبع يجب أن تأخذ في الاعتبار حقيقة وجود ذلك التحكم الدقيق والنظام الصارم الذي فرضته الحكومة البيزنطية على حركة التجارة عبر حدودها بصفة عامة ، والحظر القانوني القائم على استخدام الذهب طرفاً في المعاملات التجارية مع الأجانب^(٢٦) .

على أية حال، سواء كانت العملات الذهبية البيزنطية التي عثر عليها في روسيا والأقاليم المجاورة لها ، نتجت عن التبادلات التجارية أو عن أن الإمبراطورية البيزنطية هي التي منحتها كهدايا أو إعانات مالية أو رشاوى للروس والأمم الشمالية ، فإن قلة ما عثر عليه يؤكد أن بيزنطة لم تسمح للأجانب عامة بما فيهم الروس بالحصول على المعادن النفيسة كالذهب والفضة بل وحتى الأحجار الكريمة . ولنا أن نفترض أن الروس ، إزاء هذه السياسة كانوا يتوقون للحصول على هذه المعادن من أسواق القسطنطينية أثناء إقامتهم بها .

أما السلعة الثالثة التي قيدها بيزنطة وحظر الإمبراطور البيزنطي بيعها للأجانب ، اللهم إلا الفاتن منهن ، فهي السمك المملح الذي كان من السلع الغذائية الهامة في البلاد^(٢٧) . لقد كانت هذه هي السلع الهامة التي تحظر بيزنطة الإتجار فيها أو تقيد التعامل فيها مع التجار الأجانب، وقد تراوحت قيودها بين المنع التام (المعادن النفيسة والأحجار الكريمة) ، البيع بقيود (كالثياب الحريرية) ، وبيع الفاتن (كالسمك المملح) . وكانت تهدف بيزنطة من وراء هذا أيضاً ضمان تنفق السلع وإمدادات الغذاء بصورة مستمرة إلى العاصمة وبأسعار ثابتة . لهذا فقد تحكمت الحكومة البيزنطية في

(٢٥) وسام عبد العزيز ، الدولة والتجارة ، ص ١٤ .

(٢٦) وسام عبد العزيز ، الدولة والتجارة ، ص ١٥ .

(٢٧) والي المدينة ، ص ١٧١ .

الإنتاج والتوزيع لأغراضها السياسية الخاصة^(٢٨) . وقد أدى طلب الروس والبلاد الشمالية على البضائع البيزنطية والسلع الكمالية أيضاً إلى زيادة ميزان الإمبراطورية التجارى بصورة مطردة . كما جعل التجار البيزنطيون لايدهقون أنفسهم بالسفر بعيداً للتجارة بل يبقون فى عاصمتهم ، كما سبق وأشرنا ، لحين مجئ التجار الأجانب إليهم^(٢٩) .

والآن هناك تساؤل ، هل وقع التجار الروس تحت طائلة هذه القوانين الإمبراطورية ، وما المزايا التى منحت لهم على أثر هجماتهم المتعددة على القسطنطينية ؟ فى الواقع لابد وأن نفترض أن التجار الروس وقعوا تحت طائلة هذه القوانين ، لأننا لم نقرأ عن أحداث شغب قام بها الروس فى القسطنطينية ، مثلما كان يحدث فى بعض الأحيان بين التجار الأجانب الآخرين ، أو إنهم كسروا القوانين الإمبراطورية من أجل الفوز بأكبر كمية من السلع الإمبراطورية ، اللهم إلا الحادث الذى وقع فى القسطنطينية فى عام ١٠٤٣ م ، وراح ضحيته أحد نبلاء التجار الروس ، وكان سبباً مباشراً لحملة الروس على القسطنطينية فى نفس ذلك العام . كما أن الإمبراطور البيزنطى منحهم بعض المزايا التجارية التى تجعلهم يوزون غيرهم من التجار الأجانب ، كما خصص لهم حياً عرف باسم سان ماماس . وفى الوقت الذى يشير فيه مكتب والى المدينة إلى معاقبة التجار البيزنطيين إذا باعوا ثياباً حريرية بأكثر من عشر نوميزمات للأجانب^(٣٠) ، نجد أن التجار الروس سمح لهم ، حسب البند الرابع من اتفاقية ٩٤٥ م ، بشراء ثياب حريرية بخمسين نوميظاً . وفى الوقت الذى لم يسمح فيه للأجانب بالإقامة فى القسطنطينية أكثر من ثلاثة شهور ، وإلا تعرضوا للمصادرة وقص الشعر والجلد والطرده من المدينة^(٣١) ، سمح للروس بالإقامة ستة شهور^(٣٢) ، ولم يحظر عليهم الإقامة فى حى سان ماماس إلا فترة الشتاء فقط ، حسب نصوص المعاهدة . كما كان للتجار الروس القادمين ببضائعهم إلى القسطنطينية الحصول على ما يحتاجون إليه من الحبوب ، كما تعهدت الحكومة البيزنطية بإمدادهم بمؤن طعام مجانية لمدة ستة أشهر ، تشمل على الخبز والخمر واللحم والسمك والفاكهة ، فضلاً عن حبال الأشرعة وصواري السفن والمؤن اللازمة لرحلة عودتهم إلى بلادهم . كذلك سمحت الحكومة البيزنطية للتجار الروس بمباشرة التبادل التجارى

Browning , *Bulgaria*, p. 107.

Browning , *Bulgaria*, p. 110.

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠) والى المدينة ، ص ١٦١ .

(٣١) والى المدينة ، ص ١٧٤ .

(٣٢)

R.P.C., p. 65; Sorlin, *Les traités*, p. 350.

في أسواق القسطنطينية دون دفع أية رسوم^(٣٣). ويمكن القول أنه رغم القيود التي فرضت على التجار الروس، كغيرهم من التجار الأجانب، إلا أنهم ظلوا متمتعين بمعاملة أفضل من التجار الأجانب الآخرين في العاصمة البيزنطية^(٣٤). وهذه المزايا التي منحت للتجار الروس جاءت إما لطول المعاناة التي عاها البيزنطيون من الروس، من خلال هجماتهم على أراضيها بدءاً من عام ٨٦٠م فصاعداً، أو لارتفاع قيمة السلع التي كان يجلبها التجار الروس إليهم من الفراء والشمع والعسل والرقائق، الذين كانوا يستخدمون للخنمسة في المنازل والأراضي الزراعية والمصانع البيزنطية^(٣٥). وتجدر الإشارة هنا إلى أن التعاملات التجارية بين البيزنطيين والروس كانت تقوم على نظام المقايضة وليس البيع النقدي^(٣٦).

على أية حال، يمكننا القول أن التجار الروس حرصوا على الحصول على الأقمشة الحريرية البيزنطية والتوابل وبضائع الشرق الأخرى^(٣٧). كما أنه من المفترض أنهم كانوا يقبلون على شراء السلع البيزنطية الأخرى المعروضة في أسواق القسطنطينية، والتي يسردها الإمبراطور ليو السادس بالتفصيل في كتابه إلى وإلى المدينة. ويمكننا أن نؤكد على السلع التي كان الروس يتوقون إلى شرائها من بيزنطة من خلال كلمات سفياتوسلاف إلى أمه الأميرة أولجا عندما قال لها إن "الذهب والحديد والخمر والفاكهة من كل نوع تأتي من بلاد اليونان (أي بيزنطة)"^(٣٨). لقد كانت الإمبراطورية البيزنطية كثيرة الخيرات وافرة الثمرات كثيرة البهائم من الدواب والمواشي على حد قول القزويني^(٣٩)، كما كانت مستودعاً للسلع الشرقية من التوابل والعطور واللباب الحريرية، لاسيما الأرجوانية، بالإضافة إلى الذهب والفضة والأحجار الكريمة والحلى البيزنطية.

ببد أن تلك السلع التي كان يقبل عليها التجار الروس منذ أن طرّقوا أبواب القسطنطينية وحتى عهد الأمير الروسي فلاديمير، لم يصحبها التغير إلا بدءاً من عهد

(٣٣) وسام عبد العزيز، الدولة والتجارة، ص ٤٢.

(٣٤) وسام عبد العزيز، الدولة والتجارة، ص ٤٣.

(٣٥) وسام عبد العزيز، الدولة والتجارة، ص ٤٣.

Browning, *Bulgaria*, p. 109.

(٣٦) Shepard, *The Russian Steppe*, p. 218; Andreades, A., "The Economic Life of the Byzantine Empire", in: *Byzantium, an Introduction to East Roman Civilization*, ed. N. Baynes and H. S. Moss, (Oxford, 1948), p. 66.

(٣٧) أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة: أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٢٨.

(٣٨) *R.P.C.*, p. 85; Franklin & Shepard, *Rus'*, p. 145.

(٣٩) أنثر البلاد، ص ٥٨٦.

ذلك الأمير، أو بمعنى آخر منذ تحول الروس إلى المسيحية . فقد تطورت التجارة الروسية مع بيزنطة في عهده ولم تعد قاصرة على السلع السابق ذكرها ، بل أضيفت إليها قائمة من السلع الجديدة التي طرأت على المجتمع الروسي منذ الربع الأخير من القرن العاشر الميلادي فصاعداً، وهذه السلع يمكن أن نطلق عليها اسم "السلع الترفيحية". فقد أصبح التجار الروس الآن يقبلون على شراء الحلوى والملابس البيزنطية الكنسية والكتب الدينية وغير ذلك . وقد زاد من حجم هذه التجارة بين بيزنطة والروس، الزيادة المطردة في عدد السكان وزيادة حجم الأسواق الداخلية في المدن الروسية، مما أدى إلى ازدياد الطلب على هذه النوعية من السلع البيزنطية^(٤٠). ليس هذا فحسب بل ازداد طلب الروس على الأواني الكنسية البيزنطية، والمقتنيات الشخصية كصليان الصدر المصنوعة من البرونز أو اللؤلؤ أو العرمرر وكذلك على الأيقونات . وهكذا ، كسبت بيزنطة سوقاً جديدة وواسعة لمنتجات أخرى لم تكن تحسب لها رواجاً بين الشعوب الشمالية . وقد أثبتت الاكتشافات الأثرية في روسيا الحديثة أن عدداً كبيراً من السلع الدنيوية البيزنطية قد وصلت إلى الأراضي الروسية، وهي الحلوى والسوارات الزجاجية، وقوارير الزيت والخمر والنفط ، بالإضافة إلى الحرير والسلع الأخرى . كما أثبت أن هذه السلع انتشرت حتى بين الطبقات الفقيرة في المجتمع الروسي الوسيط^(٤١) .

على كل حال، لقد تطورت بلاد الروس إلى درجة كبيرة مع نهاية القرن العاشر الميلادي لتبلغ ذروتها في عهد الأمير الروسي سفياتوسلاف . وبالمقاييس يمكن القول أن ذروة المعاملات التجارية بين الروس والبيزنطيين كانت في القرن الحادي عشر الميلادي .

وإذا كانت القسطنطينية قد نالت أكبر قدر من الاهتمام من قبل التجار الأجانب إلا أنه كانت هناك مدن أخرى ذات مراكز تجارية هامة في بيزنطة . وللسنا معنيين بالحديث عنها فليس هنا موضعها ، إلا أنه لا يمكن إغفال واحدة من أهم هذه المدن وهي مدينة خرسون ، فهذه المدينة كانت تلعب دوراً حيوياً في التجارة مع الأمم القاطنة إلى شمالها؛ وهذه الأهمية التجارية قد أشار إليها قسطنطين بورفيروجينيتوس في كتابه عن الإدارة الإمبراطورية ، عندما ذكر أن البشناق يتبادلون التجارة مع سكان خرسون، ويسدون لهم خدمات جليلة والإمبراطور البيزنطي أيضاً في بلاد الروس والخزر

Shepard, *The Russian Steppe*, p. 218.

Shepard, *The Russian Steppe*, pp. 228-229.

(٤٠)

(٤١)

وزيخيا وما وراءهم^(٤٦) . كما كان التجار الخرسونيون يذهبون للتجارة مع الروس ، وهذا ثابت عند قسطنطين بورفيريوجينيتوس عند حديثه عن مخاضة كراريون *Krariion*^(٤٧) . وقد كانت تجارة خرسون مع الشعوب الشمالية كبيرة للغاية ، وتركزت في المنتجات الطبيعية^(٤٨) والمحاصيل الزراعية كالقمح والنبذ والبضائع الأخرى التي كانت تحمل بها السفن الخرسونية من الولايات البيزنطية الواقعة على الساحل الجنوبي لبحر بوننس^(٤٩) .

ويمكن القول أن خرسون لعبت دور الوسيط التجاري بين الأقاليم البيزنطية والقسطنطينية وبين الشعوب المحيطة بها ، كما يمكن القول أنها كانت موضع التقاء حضارى بين العالم البيزنطى وعالم البرابرة ، بعيداً عن القسطنطينية . لكن هذا الوضع التجارى لمدينة خرسون قد تعرض للانهدام عندما استولى عليها فلاديمير ونهبها، وبهذا حرم البشناق من سوقهم الرئيسى فى المنطقة . ويبدو أن فلاديمير كان تواقاً لاحتكار التجارة بين هذه المدينة وبيزنطة نفسها^(٥٠)، وقد ترتب على غزو فلاديمير لخرسون أن هجرها التجار وذهبوا إلى القسطنطينية، وهم الذين استمروا فيما اعتادوا عليه ، أى فى التجارة التقليدية بين الشمال والجنوب ، وعملوا كصيارفة للمرتزقة الروس والفارانجيين العاملين فى الخدمة العسكرية البيزنطية، وكوكلاء للعديد من الملاك البلغار والسلاف، الذين اشتروا إنتاجهم^(٥١) . ويعتقد أحد المؤرخين أنه ربما عقدت اتفاقية تجارية بين فلاديمير، على أثر غزوه لخرسون، وبين الإمبراطور باسيل الثانى، كما يبدو أن الحكومة البيزنطية أعطت أفضلية للتجارة مع حليفها الجديد، ولهذا لم تهتم بإعادة الرخاء الإقتصادى إلى خرسون مرة ثانية، على الرغم من إدراكها أنها موضع الالتقاء بين التجار البيزنطيين وبين برابرة السهوب . وبهذا استراح أمير الروس العظيم فلاديمير من المنافسة البشناقية التي كانت قائمة هناك^(٥٢) .

والآن لنعد ثانية إلى البنود التجارية الواردة فى معاهدة ٩٤٥م المبرمة بين البيزنطيين والروس . يتضح لنا من مقدمة هذه المعاهدة أن الأمراء والنبلاء الروس كانوا يعملون أيضاً بالتجارة، إلا أنهم كانوا يتميزون بأن وكلاءهم هم الذين يتولون

DAI, I, pp. 52-53.

DAI, I, pp. 60-61.

Smedly, *Archaeology*, p. 189.

DAI, I, pp.285-286.

Shepard, *The Russian Steppe*, pp. 221-222.

Finlay, *Greece*, II, pp. 434-435.

Shepard, *The Russian Steppe*, p. 222.

^(٤٦) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، *الإشارة* ، ص ٥٧ .

^(٤٧) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، *الإشارة* ، ص ٦٢ .

^(٤٨) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، *الإشارة* ، ص ٢٢٥ .

^(٤٩) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، *الإشارة* ، ص ٢٢٥ .

^(٥٠) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، *الإشارة* ، ص ٢٢٥ .

^(٥١) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، *الإشارة* ، ص ٢٢٥ .

^(٥٢) قسطنطين بورفيريوجينيتوس ، *الإشارة* ، ص ٢٢٥ .

القيام بالأعمال التجارية لحسابهم؛ ولهذا لم يكن من المستغرب أن نرى هناك أربعة وعشرين سفيراً يمثلون الأمراء الروس ذهبوا إلى القسطنطينية للتوقيع على المعاهدة. والشيء اللافت للنظر هنا أن الأمير الروسي العظيم كانت له تجارته أيضاً، لذلك أرسل مندوباً عنه للتوقيع على المعاهدة، بصفته تاجراً، هذا إلى جانب التجار الروس التقليديين، وقد كانت غالبيتهم من شبه جزيرة اسكنديناوة ؛ وهذا بدوره يشير إلى أن الروس قد حملوا على عاتقهم مهمة الوساطة التجارية بين بيزنطة جنوباً وشبه الجزيرة الاسكندنافية شمالاً . الأمر الذي قد يشير إلى وجود طريق تجارى يربط بين شبه الجزيرة الاسكندنافية شمالاً وبيزنطة جنوباً مروراً بالأراضي والمدن الروسية . وبالفعل وجد طريق ملاحي كبير يربط بينهما، كانت تقع عليه العديد من المدن الروسية الكبيرة الهامة . كانت هذه المدن على النحو التالي : من الشمال إلى الجنوب، نوفجورود في الشمال، وسمولنسك في الوسط، وكييف في الجنوب . لكن نظراً لأن القسطنطينية كانت الهدف الرئيسي لهذه التجارة فقد كان يوجد حول كييف مجموعة من المدن الثانوية، بعضها يقع على الجداول المائية المتفرعة نحو الشرق من نهر الدنيبر، والأخرى قارية. وكانت هذه المجموعة الأخيرة تمثل عصب التجارة والحياة أيضاً عند الروس^(٤٩) . ويمكن القول أن مدينة كييف، بصفة خاصة، احتلت مكانة تجارية هامة بين المدن الروسية، فإليها كانت تأتي مراكب التجار الهولنديين والمجريين والألمان والاسكندنافيين والذين يعيشون في مناطق متفرقة، وقد كانت تضم هذه المدينة ثمانية أسواق على الأقل وإليها تفر المراكب التجارية من كل فج عميق^(٥٠) . وإذا كانت كييف مستودع التجارة الشرقية، سواء القادمة من بيزنطة أو الفولجا، ففى حوض الدنيبر الأدنى، فإن نوفجورود لعبت نفس الدور في حوض الدنيبر الأعلى، وأصبحت السلع والبضائع الشرقية من منسوجات وحلى وتوابل وعطور وأواني فضيصة ومشغولات ذهبية وغير ذلك تغطي أسواقها^(٥١) . ففي الوقت الذي كانت تتلقى فيه نوفجورود البضائع البيزنطية، كانت متصلة بطريق نهري يصل إلى الفولجا، وآخر إلى دفينيا، وكانت التجارة تسلك هذه الطرق منذ العصور القديمة . ونظراً لقربها من خليج فنلندا فقد كان يقصدها التجار الغربيون للحصول على البضائع الروسية والبيزنطية . فقد كان تردد الاسكندنافيين عليها أسهل لهم بكثير من الذهاب إلى كييف لأجل التجارة، فإذا

Pares, *Russia*, p. 21.

Rambaud, *La Russie*, p. 63.

Court, *La Russie*, pp. 70-71 , 121.

(٤٩)

(٥٠)

(٥١)

أراد أحد ملوك الشمال الحصول على ثياب حريرية أرجوانية أو مطرزة بالذهب، أو أدوات دقيقة الصنع لمائنته، كان يبعث بتجارة إلى أسواق نوفجورود^(٥١).

ولدينا وصف كامل لهذا الطريق المائي العظيم الممتد من اسكندنافيا شمالاً وحتى بيزنطة جنوباً مروراً ببلاد الروس، عند قسطنطين بورفيروجينيتوس. ولنقرأ الآن وصف قسطنطين بورفيروجينيتوس لهذا الطريق لتتعرف على المدن الروسية الواقعة عليه بالإضافة إلى التي سبق ذكرها، نوفجورود وسمولنسك وكييف، ولنرى حجم الصعوبات التي كان يتحملها تجار الشمال من أجل الذهاب إلى القسطنطينية. يشير الإمبراطور قسطنطين بورفيروجينيتوس إلى أن الروس كانوا يستخدمون نوعاً من المراكب أثناء رحلتهم إلى بيزنطة كان يطلق عليه اسم المونوكسيلا *μονοξύλα*^(٥٢). وهذه المراكب تأتي من نوفجورود، ومن سمولنسك، ومن تليوتزا ومن تشيرينجوف، ومن فيتشجورود، وتأتي المراكب من كل هذه المدن عبر نهر الدنيبر حيث تتجمع في مدينة كييف^(٥٣). وبهذا تنتهي المرحلة الأولى من الطريق المائي العظيم إلى القسطنطينية، والذي تتوقف فيه المراكب في كييف إما لتبادل السلع التجارية في أسواقها، أو لاستكمال المرحلة الثانية من الرحلة. وقد أشار قسطنطين بورفيروجينيتوس إلى الشعوب السلافية والفنلندية التي تقوم بتصنيع هذه المراكب وبيعها للروس.

وتبدأ هذه الرحلة من نوفجورود إلى كييف ثم القسطنطينية مع بداية فصل الربيع، حيث يذوب الثلج في نهر الدنيبر ويصبح صالحاً للملاحة، وحيث يتم إززال هذه المراكب إلى مياه البحيرات المجاورة لنهر الدنيبر. ونظراً لأن هذه البحيرات متصلة به فإن المراكب تنزلق مع مياهها إلى مجرى النهر ويذهبون بمراكبهم إلى كييف لبيعها إلى التجار هناك. وفي شهر يونيو يبحر الروس في نهر الدنيبر، لاستكمال المرحلة الثانية من الرحلة، وهي المرحلة المحفوفة بالمخاطر كما سنرى فيصلون إلى مدينة فيتشيف *Vitichev*، ويقفون هناك لمدة يومين أو ثلاثة حتى يكتمل جمعهم. ثم يواصلون رحلتهم في نهر الدنيبر إلى أن يصلوا إلى الجندل الأول، الذي

(٥١) هايد، تاريخ التجارة، ص ٩٠.

(٥٢) المونوكسيلا، تسمية يونانية مركبة من *μνο* أي واحد و *ξύλον* أي قطعة خشبية أو شجرة، فنظر، 1191-1192. Liddle & Scotte, *Lexicon*, pp. وكانت تطلق على المراكب المصنوعة من قطعة واحدة من الخشب أو من جزء شجرة ثم تغريغ بالطنه. انظر، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، (القاهرة، ١٩٦٧)، ص ٣٧١.

(٥٣) قسطنطين بورفيروجينيتوس، الأثر، ص ٦٠. *DAI*, I, pp. 56 – 57;

يسمى إيسوبي *Essoupi* ، وهي تعنى لا تتم^(٥٥) . وهذه التسمية أطلقها السلاف والروس لتشير إلى بداية المخاطر وإلى ضرورة توخي الحذر فهذه المنطقة ضيقة تتوسطها صخور حادة ، ويرتفع فيها صوت الأمواج بصورة مخيفة عند ارتطامها بهذه الصخور . لذلك لا يغامر التجار الروس بالدخول بين هذه الصخور ، ويسترجلون عن مراكبهم ، تاركين بضائعهم بداخلها ، ويقومون بسحبها وهم يتحسسون قاع النهر حتى لا ترتطم بتلك الصخور . وعن طريق هذا الحذر والحرص ينجحون في عبور هذا الجندل الأول ، ثم يصعدون إلى مراكبهم ثانية ويواصلون الإبحار بها حتى يصلوا إلى الجندل الثاني ، الذي يسمى بالروسية أولفورس *Oulvors* وبالسلافية أوستروفونيراش *Ostrovouniprach* ، أي جزيرة الجنادل . ومرة أخرى ينزل الروس من مراكبهم ويفعلون مثلما فعلوا في المرة الأولى . وبنفس الطريقة يمرّون من الجندل الثالث الذي يسمى بالسلافية جيلاندري *Gelandri* ، أي ضجيج الجنادل ؛ وبالجندل الرابع ، وهو أكبرهم على الإطلاق ، ويسمى بالسلافية نياسيت *Neasit* وبالروسية إيففور *Aeifor* ، لأن طيور البجع كانت تقم عنده . وهنا لا يكتفي الروس بالترجل عن مراكبهم فقط ، بل يقسمون أنفسهم إلى مجموعتين ، إحداهما تتولى مراقبة البشناق بحذر شديد ، لأنهم يترصون دائماً بالروس عند هذا الجندل ، والأخرى تتولى تفرغ المراكب من حمولتها ليحملها العبيد وهم مقيّدون بالسلاسل لمسافة ستة أميال ، حتى يجتازوا هذه المنطقة الوعرة . وعلى طول هذه المسافة يقوم التجار الروس بمسح مراكبهم أحياناً أو يحملونها على أكتافهم أحياناً أخرى ، ثم ينزلونها في النهر مرة ثانية ، ويضعون فيها بضائعهم وأمتعتهم ويركبونها ويعاودون الملاحاة مرة ثانية نحو القسطنطينية .

وعندما يصلون إلى الجندل الخامس الذي يسمى بالسلافية فولنيبراش *Voouniprach* وبالروسية فاروفوروس *Varouforos* ، لأنه توجد هناك بحيرة كبيرة ، يحرقون بمحاذاة حافة النهر وليس في الوسط ، كما فعلوا في المرتين الأولى والثانية . وبنفس الطريقة يعبرون الجندل السادس الذي يسمى بالسلافية فيروتزي *Veroutzi* وبالروسية ليانتي *Leanti* ، أي فوران الماء . وهكذا يستمرّون في الإبحار حتى يصلون إلى الجندل السابع والأخير من جنادل نهر الدنيبر ويسمى بالسلافية نابريزي *Naprezi* وبالروسية ستروكون *Stroukon* ، أي السد الصغير ، وهناك يجتازون مخاضة تسمى كرايون *Krarion* ، وهي المخاضة التي يمر من خلالها التجار الخرسونيون القادمون من بلاد الروس ، وكذلك البشناق الذاهبون إلى خرسون .

(٥٥) قسطنطين يوريفورجيتس ، *اللاذرة* ، ص ٦٠

وعند هذه المخاضة أيضاً يأتي البشناق ويهاجمون الروس مرة ثانية، مستغلين اتساع مجرى النهر في هذه المنطقة . وعندما يصل الروس إلى هذه المنطقة يقيمون في جزيرة سان جريجوري *St. Gregory* ، حيث يقومون بتقديم القرابين هناك. وتستمر الرحلة إلى أن يصلوا إلى جزيرة سان ايثيريوس *St. Aithrios* بعد أربعة أيام من الملاحة . وهناك يستريحون لمدة يومين أو ثلاثة أيام، يقومون خلالها بصيانة مراكبهم . ونظراً لأن نهر الدنيبر ينتهي عند هذه المرحلة حيث يصب في بحر بونتش، كانوا يتحولون بمراكبهم إلى نهر الدنيستر ، حيث ينزلون للراحة . وإذا كانت الأحوال الجوية معتدلة فإنهم يبحرون في البحر حتى يصلوا إلى نهر أسبروس *Aspros* . وبعد أن ينالوا قسطاً من الراحة يستأنفون الملاحة حتى نهر سليناس *Selinas*، أحد فروع الدانوب . وبهذا يدخل التجار الروس الأراضي البلغارية عند مصبات الدانوب في بحر بونتش . ومن هناك يسيرون حتى مدينة كونوباس *Konopas* ثم قسطنطينة *Constantina* ثم إلى نهر فارنا *Varna* ، ونهر ديتزينا *Ditzina* ، وكلها أراض بلغارية . ومن ديتزينا يصلون إلى ميزميريا *Mesembria* ، حيث يواجهون حياة قاسية هناك ومن هناك يدخلون الأراضي البيزنطية ، وأخيراً يصلون إلى القسطنطينية . وبعد الانتهاء من تجارتهم بها ، تبدأ رحلة العودة إلى كييف في شهر أبريل ، حيث يكون نهر الدنيبر قد بدأ في الذوبان ويصلح للملاحة^(٤١) .

على هذا النحو ، كان التجار الروس والشماليون يواجهون رحلة طويلة شاقة محفوفة بالمخاطر من أجل الوصول إلى القسطنطينية ، للحصول على البضائع اللازمة لهم ولبلادهم . وهذا الطريق المائي العظيم ، كما يسميه بعض المؤرخين كان عظيماً بحق ، لأنه كان وسيلة لوصول الحضارة البيزنطية إلى هذه الشعوب، مثلما استخدموه في شن حملاتهم العسكرية على بيزنطة . ويبدو من وصفه فعلاً أن المراكز الحضارية الروسية قامت بالدرجة الأولى على هذا النهر وفروعه بدءاً من نوفجورود شمالاً ثم سمولنسك وتليوتزا وتشرينجوف وفيتشجورود وكييف جنوباً. وقد بدأ الروس يعمرّون هذه البلاد ، فأقاموا منداً أخرى على نهر الدنيبر وفروعه منها مدينة بيريسلاف ، ومدينة قلاديمير وغير ذلك . وارتبطت كل هذه المدن بروابط سياسية واقتصادية مع مدينة كييف . ولما كانت مدينة كييف هي المركز السياسي والاقتصادي ، خاصة وأنها

DAI, I, pp. 58-63;

^(٤١) انظر، قسطنطين بورفيروجينيوس ، الإدارة ، ص ٦٠-٦٤

عصب التجارة في بلاد الروس، فقد أولاهما فلاديمير عناية فائقة وأقسام التحصينات المنيعة حولها لإدراكه لأهميتها التجارية العالية وأنها نقطة التقاء كل الطرق التجارية المارة في بلاده، لاسيما الطريق المائي العظيم الذاهب إلى بيزنطة^(٥٧). ويبدو أن هذا الطريق التجاري الهام الذي يربط بين اسكندنافيا وبيزنطة قد ازدهر تماماً بعد تحوّل الروس إلى المسيحية. وهذا يتفق مع الشواهد الأثرية بأن القلاع الحصينة على التروبيش والتيفيسك *Vitebsk* قد تم بناؤها في السنوات الأخيرة من القرن العاشر فقط^(٥٨).

ويؤكد هايد على أن هذا الطريق لم يكن حديث النشأة، بل كان مستخدماً قبل عام ٨٦٠م^(٥٩). وهذا الطريق مثلما جلب على بيزنطة هجمات عديدة عن طريق الروس، أمدها أيضاً بكثير من المرتزقة العاملين في جيشها ففى القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين من الفارانجيين والروس، كما ساهم في تنشيط حركة التجارة بين البلدين بدءاً من الربع الأخير من القرن العاشر، كما عمل على نقل النظم الحضارية البيزنطية إلى بلاد الروس أيضاً.

لياً كان الأمر، ينبغي أن نؤكد على أن تمركز التجارة في كييف قد أدى إلى نشأة شبكة من الطرق التجارية الداخلية، لاسيما مع غرب أوروبا. وربما أدى إلى ازدهار هذه الطرق السياسة الغربية التي انتهجها كل من فلاديمير وابنه ياروسلاف. فعلى سبيل المثال يذكر الرحالة اليهودي إبراهيم بن يعقوب أنه شاهد تجاراً من الروس في مدينتي براغ *Prague* وكراكو *Cracow*، والتي وصلوا إليها عن طريق جنوب بولندا^(٦٠). ويؤكد الحميري هذه الحقيقة عند حديثه عن مدينة براغ التي يطلق عليها اسم براغة، فيقول: "هي مدينة مجاورة لبلاد الأتراك (أي المجار) مبنية على نهر هناك بالحجر والجيار، وهي تصغر عن المدن وتكبر عن القرى؛ وبها سوق تجمع المرافق السفرية والحضرية. في أعلاها قلعة كبيرة حصينة، وبها عين ماء معنية

Shepard, *The Russian Steppe*, p. 225.

Shepard, *The Russian Steppe*, p. 227.

هايد، تاريخ التجارة، ص ٨٥.

Cross, *Contacts*, pp. 141-142.

بخترق ماؤها بسيط بكائها ، وهن أكثر البلاد متاجرة تأتيها من مدينة كراكو الروس والصقالية بالمتاجر ... يحملون من عندهم الرقيق والقصدير وضروب الأوبار...^(١١).
كما وصلت التجارة الروسية إلى ألمانيا، وبالتحديد إلى مدينة رينسبرج *Regensburg* ،
التي كانت مركزاً للتجارة هناك، حيث حمل الروس إلى أسواقها الفراء والجلود . وقد
ازدهرت العلاقات التجارية بين ألمانيا ونوفجورود بصفة خاصة ، واستمرت حتى بعد
سقوط روسيا في أيدي التتار بعد ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي^(١٢) .
وفي نهاية الحديث عن العلاقات التجارية بين الروس والبيزنطيين في الفترة
موضع البحث يمكننا القول أن علاقات الروس مع البيزنطيين عن طريق نهر الدنيبر
كانت أكثر دواماً من علاقات الروس التجارية بنهر الفولجا . وكان لوحدة الديانة أثر
كبير في هذا ، فقد نجحت القسطنطينية في تحويل الروس إلى المسيحية، فكان
القساوسة الروس يتلقون منها سلطاتهم ، وكانت الكنائس الروسية تتلقى منها لوازمها
وحليها^(١٣) .

^(١١) الحميري ، الروض الممطر ، ص ٨٦ .

^(١٢) Cross, *Contacts*, pp. 141-142.

^(١٣) هايد ، تاريخ التجارة ، ص ٩١ .

الروس وتجارة الفولجا

يشير كثير من المؤرخين والجغرافيين المسلمين إلى أن الروس قد مارسوا التجارة مع الأمم الواقعة على حوض نهر الفولجا ، وهي الخزر والبرطاس والبغار ، وكانت هذه الممالك تشكل عصب التجارة الشرقية القادمة من الفولجا في طريقها إلى شبه جزيرة اسكنديناوة ، مروراً بالمدن الروسية .

وتعتبر رواية الجغرافي العربي ابن خردادبه من أقدم الروايات العربية التي تشير إلى تجارة الروس مع قوى الفولجا ، بل إنه أشار إلى وصول التجار الروس إلى بغداد نفسها ، عاصمة الخلافة العباسية من أجل التجارة . ويقول ابن خردادبه^(١) عنهم أنهم 'جنس من الصقالبة ، يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم ، وإن ساروا في تنيس (أي نهر الدون) نهر الصقالبة ، مروراً بخمليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ، ثم يصيرون إلى بحر جرجان فيخرجون في أنى سواحله أحبوا ... وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد . ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ، ويدعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية' .

وقبل أن ننقل إلى روايات الكتاب المسلمين الآخرين عن التجارة الروسية مع قوى الفولجا ، نتوقف قليلاً أمام رواية ابن خردادبه نظراً لأهميتها البالغة . يذكر ابن خردادبه ، الذي ولد في عام ٢٠١هـ/٨٢٧م وتوفي عن عمر يناهز الخامسة والثمانين في عام ٩١٢م^(٢) ، أن التجار الروس كانوا جنساً من الصقالبة ، أي من السلاف . ويعتقد المؤرخ الروسي سولوفيف أن التجار الروس في ذلك الوقت ، زمن تحرير كتابه عام ٨٧٠م-٨٨٥م ، ربما تعلموا بعض كلمات سلافية تمكنهم من الحديث بالسلافية مع مترجميهم من الخدم الصقالبة حتى يستطيعوا ترجمة ما يريدون إلى العربية . وعندما سمعهم ابن خردادبه كيف يتكلمون في بغداد ظن أنهم قبيلة من السلاف^(٣) . وقد يكون ما يذهب إليه سولوفيف صحيحاً ، لكن علينا أن نشير إلى أن

(١) المسالك والممالك ، ص ١٥٤ .

Soloviev, *L'etat russe*, p. 260.

Soloviev, *L'etat russe*, p. 261.

(٢)

(٣)

اللغة التي كان يتحدث بها الروس في هذه الفترة لم تكن الروسية القديمة ، التي هي خليط من اللغة السلافية والسويدية واليونانية البيزنطية ، بل كانت اللغة السويدية القديمة ، وأن اكتساب التجار الروس للغة السلافية في هذه الفترة ، الربع الأخير من القرن التاسع الميلادي ، كان طبيعياً نظراً لأن الغلبة كانت للعنصر السلافي والفنلندي على طول الطريق من اسكتلندا إلى الفولجا . وقد أشار ابن خرداذبه إلى بعض السلع التي كان الروس يقومون بشحنها إلى البلاد الإسلامية ، إلا أنه لم يفصلها بالقول كما سبى بعد ذلك . والشيء الهام في رواية ابن خرداذبه عن تجارة الروس مع الفولجا وبغداد ، أنه أشار إلى ضريبة العشور التي كان الروس يدفعونها إلى الإمبراطور البيزنطي إذا ما مروا بأراضيه ، وإلى خاقان الخزر عند المرور بأراضيه أيضاً . وهو بذلك يشير إلى الفترة التي كانت تسبق عقد معاهدة أو اتفاقية ٩٠٧م بين الروس والبيزنطيين ، والتي بموجبها تم رفع هذه العشور عنهم . وهكذا يلقي ابن خرداذبه ضوءاً آخر على تجارة الروس مع بيزنطة . أما النقطة الأكثر أهمية في رواية ابن خرداذبه أنه بين لنا الطريق الذي كان يسلكه الروس في سبيل الوصول إلى بغداد . وقد كان من الطبيعي أن يسلك للتجار الروس الطريق الذي وصفه ابن خرداذبه للوصول إلى بغداد ، والذي يبدأ من مملكة الخزر ، بعد وصولهم إليها ، وينحدر جنوباً مع مصبات نهر الفولجا حتى بحر الخزر (بحر جرجان) فينزلون على سواحه ، ومن هناك عبر الإمارات الإسلامية الواقعة في القوقاز ينزلون جنوباً ثم صوب الجنوب الغربي حيث تقع مدينة بغداد . وكان من الطبيعي أن يركبوا السفن طوال رحلتهم حتى بحر الخزر^(١) ، ومن هناك كانوا يقومون بشراء الإبل وتغريغ حمولات السفن عليها ، ثم التوجه بها نحو بغداد . واستناداً إلى المسعودي لم يكن هناك طريق آخر أمام الروس للوصول بتجارتهن إلى هذه المناطق إلا عن طريق بحر الخزر^(٢) . ومما لا شك فيه أن التجار الروس لم يتعرضوا لمضايقات من أهالي بلاد القوقاز المسلمين آنذاك ، لأن الروس كانوا يدعون أنهم مسيحيون ، على حد قول ابن خرداذبه ؛ بينما كان لا يزال الروس في ذلك الوقت يدينون بالوثنية . وهذا يشير إلى أن الروس أدركوا حسن معاملة المسلمين لأهل الذمة ، لهذا ادعوا ؟تهم مسيحيون حتى يغموا من وراء هذا وينعموا بالأمن داخل أسواق بغداد . وعلى هذا فليس من المستغرب أن نقرأ عبارة المسعودي التي يقول فيها أن مسلمي القوقاز " لم يعمدوا عدوا يطرأ إليهم "^(٣) . وإذا

(١) المروزي ، طبائع الحيوان ، ص ٢٣ .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ، ص ٧٦ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ، ص ٧٦ .

كان الروس قد وصلوا ببضاعتهم حتى أسواق بغداد، فإن قسطنطين بورفيروجينيتوس يشير إلى أنهم أيضاً وصلوا بها إلى بلاد الشام Syria^(٩) .

على هذا النحو ، مضت بنا رواية الجغرافي العربي ابن خردادبه للحديث عن التجارة الروسية عبر نهر الدون (تنيس) وحتى وصولها إلى بغداد ، ثم إلى بلاد الشام على حد ذكر قسطنطين بورفيروجينيتوس . ولكن لنعد ثانية إلى المصادر العربية ، ونقف من خلالها عند حوض نهر الفولجا لنرى حركة التجارة في هذه المنطقة ، التي كان يعيش عليها ثلاث أمم هي الخزر والبرطاس والبلغار ، وكيف تبادل التجار الروس التجارة معهم ، أو بمعنى آخر ماذا قدموا وكيف وماذا أخذوا ؟

يذكر ابن حوقل أن " مصب تجارة الروسية على دائم الأوقات إلى خزران ، وكان عليهم فيما يوردونه نحو العشر من أموالهم " ^(١٠) . ويؤكد الاصطخري قول ابن حوقل بأن الروس كانوا يتاجرون مع الخزر ^(١١) . وقد سلك التجار الروس القادمون من كييف الطريق النهري عبر نهر الدون إلى أن يصلوا إلى نقطة التقاء بين هذا النهر ونهر الفولجا ، فينزلون في النهر جنوباً حيث مملكة الخزر، وهناك كان لابد وأن يدفعوا لخاقان الخزر المكوس البحرية عن بضائعهم بنسبة العشر ، وهي المكوس التي تعتبر مورداً من الموارد المالية الرئيسية لخاقان الخزر ^(١٢) . وقد أشار الوزير العباسي أحمد بن فضلان إلى وجود التجار الروس على نهر الفولجا ، فيقول " ورأيت الروسية ، وقد وافوا في تجارتهم ، ونزلوا على نهر إتل ، فلم أر أتم أيداناً منهم كأنهم النخل ، شقر حمر ، لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين ، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل على أحد شقيه ، ويخرج إحدى يديه منه ؛ ومع كل واحد منهم فأس وسكين لا يفارقه جميع ما ذكرناه ... وهم يجيئون من بلدهم فيرسون مسفهم بإتل ، وهو نهر كبير... " ^(١٣) . هكذا ، تثبت جميع الروايات التاريخية مجيء الروس إلى بلاد الخزر من أجل التجارة . وقد يبدو من المناسب قبل أن نتحدث عن السلع التي جاء الروس لبيعها في أسواق خزرانيا أن نتعرف على الأهمية الاقتصادية لمملكة الخزر ، حتى يمكننا التعرف على منتجاتها ، ومن ثم حصر السلع والمنتجات التي من الممكن أن يكون الروس يتعاملون فيها بالبيع والشراء هناك .

DAI, I, pp. 186 – 187.

^(٩) قسطنطين بورفيروجينيتوس ، الإزارة ، ص ١٥٠ .

^(١٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٧ .

^(١١) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٢٢ .

Hudud al-'Alam, p. 161.

^(١٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٠ .

^(١٣) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٧٥ – ١٧٦ .

يقول مؤلف حدود العالم عن مملكة الخزر ، أنها " إقليم سار مزدهر للغاية بثروات عظيمة ، فمنه تأتي الأبقار والأغنام والرقيق ... " (١٦) . أما الكرديزي فيشير إلى أنها " واسعة الأرجاء " (١٧) ، وفيها " تكثر الزروع والبساتين ، وتتوفر النعم ، ويكثر العسل ، ومن هناك يأتيون بالشمع الجيد " (١٨) . ويضيف الحميري أن لهم فواكه ونعم كثيرة ، وللخزر جمال فائق وحسن ظاهر ، والذي يقع من رقيق الخزر هم من أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم بعضا ... ، كما أشار أيضا إلى الأسواق التي تعقد عندهم (١٩) . وقد أشار الحميري أيضا إلى الأطعمة الشهيرة عند الخزر والتي تلقى إقبالا منهم وهي الأرز والسمك . كما أشار إلى هيئة ملابسهم وهي عبارة عن القراطق والأقبية (٢٠) . وأضاف إليه الاصطخري أن قراطقهم كانت تامة على عكس قراطق الروس التي كانت قصيرة (٢١) . ومن خلال عبارات الحميري السابقة يمكننا القول أن الرقيق الذين أشار مؤلف حدود العالم إلى وجودهم في مملكة الخزر ليسوا سوى أبناء وبنات الأمم الوثنية التي كانت تعيش في بلاد الخزر ، وقد سبق وعلمنا أن العنصر السائد في هذه المملكة كان المسلمون ، يليهم المسيحيون الخزر ، بينما الملك وخاصته كانوا يدينون باليهودية ، وجميعهم كانوا يحرمون الاسترقاق (٢٢) .

ونعود إلى المسعودي الذي يشير إلى أن الخزر كانت لهم مراكب تجارية تسير في نهر الفولجا فيما بين بلغار الفولجا شمالا ومملكة الخزر جنوبا (٢٣) . ولم تقتصر حركة الملاحة في هذا النهر على المراكب الخزرية فقط ، بل أشار في موضع آخر إلى وجود سفن قائمة من بلاد خوارزم الإسلامية محملة بالبضائع التجارية وشتى أنواع الأمتعة (٢٤) .

ومملكة الخزر كانت عامرة بالمدن ، التي أفاض المؤرخون والجغرافيون المسلمون الحديث عنها . ونظرا لأنه قد سبق الحديث عن هذه المدن عند حديثنا عن سياسة الروس تجاه قوى الفولجا ، فسنتكفي بإبراز الأهمية الاقتصادية لها فقط .

Hudud al-'Alam, p. 161.

(١٦)

(١٧) الكرديزي ، زين الأخبار ، ص ٤٦٣ .

(١٨) الكرديزي ، زين الأخبار ، ص ٤٦٥ .

(١٩) الحميري ، الروض المعطر ، ص ٢١٩ .

(٢٠) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٢ .

(٢١) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣١ .

(٢٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(٢٣) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٥٥ .

يشير الحميري إلى أن التجار كانوا يتخذون من الجزء الشرقي من عاصمة الخزر والذي كان يطلق عليه اسم أتل ، بينما كان يطلق على الجزء الغربي مقر ملكهم وحاشيته اسم خزران، مقرا لهم ؛ كما يشير إلى اشتغال سكان أتل بالزراعة^(٢١) . ويكاد بجمع الكتاب المسلمون على أن أتل كانت مدينة عامرة^(٢٢) . أما مدينة سمندر فقد كانت لها بساتين كثيرة ، يقال أنها كانت تبلغ أربعين ألف كرم^(٢٣) ، وانتشرت بها أشجار الأرز ، وحمل إليها العود^(٢٤) . والغالب على فاكهة هذه المدينة الكروم^(٢٥) . ويؤكد الكتاب المسلمون على أن هذه المدينة غنية ببساتين الكروم^(٢٦) ، كما كان يعقد بها العديد من الأسواق وإليها يقد التجار^(٢٧) . ويقول الاصطخري أنها كانت ملتقى للناس دوماً عن بقية مدن الخزر^(٢٨) . وقد اشتهرت مدينتا بلنجر والساكرل بأنهما من المراكز التجارية الهامة بخزاري^(٢٩) . وجدير بالذكر أن بلاد الخزر كانت تشتهر بإنتاج غراء السمك^(٣٠) ، كما كانت تخرج من أحد جبالها الفضة والقصدير إلى جميع الجهات^(٣١) . أما العسل والشمع والخز والأوبار فليس من إنتاجهم ، بل يجلب إليهم^(٣٢) ، كما أن الملابس كانت تأتي إليهم من جرجان وطبرستان وأذربيجان وبيزنطة^(٣٣) . على هذا النحو ، من خلال الروايات التاريخية السابقة نتبين لنا الأهمية الاقتصادية لمملكة الخزر ، التي كانت تحتل الجزء الجنوبي من حوض نهر الفولجا . بالإضافة إلى أن هذه المملكة امتلكت ميزة التحكم في الطريق التجاري الذاهب من فم نهر الفولجا إلى بلاد القوقاز عن طريق بحر الخزر ، ومن هناك إلى بغداد وبلاد الشام . على هذا اجتمعت كل العوامل لتجعل من بلاد الخزر غاية الروس في التجار في هذا الجزء من نهر

(٢١) الحميري ، الروض المطار ، ص ١١ .

(٢٢) الأديسي ، نزهة المشتاق ، ص ٨٣٤ ، ابن الوردي ، خريدة المجانب ، ص ٦٤ ، المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦٠ .

(٢٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٣ .

(٢٤) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ٦٣ .

(٢٥) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٠ .

(٢٦) الأديسي ، نزهة المشتاق ، ص ٨٣٥ ، المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦١ ، ابن السوردي ، خريدة المجانب ، ص ٩٤ .

(٢٧) Hudud al-'Alam, p. 161.

(٢٨) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٠ .

(٢٩) Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 114.

(٣٠) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣١ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٤ .

(٣١) الأديسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩٢٠ .

(٣٢) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣١ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٤ .

(٣٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ .

القولجا ، لاسيما وأن التجار المسلمين كانوا يقدون إلى الممالك الواقعة على نهر الفولجا بتجاريتهم . ويقول آخر يمكن القول أنه كانت هناك حركة تجارية نشطة بين التجار المسلمين من الران والجيل وطبرستان وجرجان ومدينة أتل^(٢٤) . وربما ساعد على هذا النشاط التجاري وجود ما يزيد على عشرة آلاف مسلم يعيشون في بلاد الخزر^(٢٥) ويتركزون في مدينة أتل ، ويطلق عليهم بلسان الخزر اسم اللارشيه^(٢٦) . وهؤلاء التجار المسلمون يذكر المسعودي أنهم وصلوا بتجاريتهم حتى مدينة كييف^(٢٧) . وقد رد الإدريسي نفس كلمات المسعودي بقوله "ويبلغ تجار المسلمين من أرمينية إلى كويابة"^(٢٨) . ومن المحتمل ، استنادا إلى الجغرافي العربي الزهري ، أن هؤلاء التجار المسلمين كانوا أيضا يحملون معهم أحجار الفيروز ، التي كانت متوافرة في المناطق المحيطة ببحر الخزر ، وأجلها المعروف بالراهوي؛ كذلك نوع من الأسماك حمراء اللون يطلق عليها اسم السقنقور ، تجفف من غير ملح وهي ذات رائحة طيبة بعد جفافها^(٢٩) . وقد يدعم هذا القول أن المسعودي يشير إلى ولع الروس بالأحجار الكريمة، وأنهم يتنافسون في شراء الزمرد المعروف باسم المغربي ، كتنافس ملوك الهند والصين في شراء النوع المعروف باسم البحري^(٣٠) . وبالمقاييس يمكن القول أنهم أيضا حرصوا على شراء أحجار الفيروز الكريمة مثلما كانوا يتنافسون في شراء أحجار الزمرد ، لأن كل هذه الأحجار الكريمة كانت تستخدم كحلي عندهم . ولنا أن نقرأ وصف المؤرخ البيزنطي ليو الشماس للأمير الروسي سفياتوسلاف عندما ذهب للقاء الإمبراطور البيزنطي يوحنا ترميسكس ، فقد ذكر أنه "كان يرتدي في إحدى أذنيه قرطا ذهبيا مزين بلؤلؤتين تتوسطهما ياقوتة حمراء"^(٣١) . ويؤكد ابن فضلان ولع الروس بالأحجار الكريمة ، وربما بإشارة ضمنية منه إلى الفيروز ، فيقول : " وأجل الحلي عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذي يكون على السفن يبلغون فيه ، ويشترون الخرزة بدرهم، وينظمونه عقودا لنسائهم"^(٣٢) .

(٢٤) الحميري ، *الروض المططر* ، ص ١١ .

(٢٥) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٠ .

(٢٦) فطر لفصل الخامس من البحث .

(٢٧) المسعودي ، *مروج الذهب* ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

(٢٨) الإدريسي ، *نزهة المشتاق* ، ص ٩١٧ .

(٢٩) الزهري ، *كتاب الجغرافية* ، تحقيق : محمد حاج صادق ، (القاهرة ، د.ت) ، ص ١٣٣، ٦٦ .

(٣٠) المسعودي ، *مروج الذهب* ، ج ١ ، ص ٧٤٨ .

(٣١) *Leo Diaconus*, pp. 156-157; Runciman, *Bulgarian Empire*, p. 213.

(٣٢) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٧٧ .

أياً كان الأمر ، كانت هذه رؤية شاملة للسلع المتوافرة في أسواق الخزر سواء التي تنتج عندهم ، أو التي تأتي إليهم عن طريق التجار المسلمين ، وتتقل من هناك إلى أسواق كييف . ولنتنقل الآن للحديث عن السلع التي كان يجلبها التجار الروس معهم إلى أسواق الخزر . وهذه السلع كانت بالدرجة الأولى العسل والشمع والوبر وجلود الخز^(٤٣) . ويذكر ابن حوقل أن أجمل أنواع هذه الجلود وأكثرها يأتي من بلاد الروس^(٤٤) . أما الكرنيزي فيذكر أن تجارتهم " السمور"^(٤٥) والسنجاب^(٤٦) وغيرهما من الغراء...^(٤٧) . ويشير مؤلف حدود العالم إلى منتجاتهم عند حديثه عن مدينة كييف ، فيقول : " هي أقرب مدن الروس للأراضي الإسلامية ، وهي موضع مسار ، ومقر الملك ، وتنتج فراء متنوعة وسيوفاً قيمة"^(٤٨) . ثم يؤكد في موضع آخر من مؤلفه على القيمة العالية والشهرة الواسعة التي كانت تحوزها السيوف الروسية^(٤٩) . ويؤكد ابن مسكويه على شهرة السيوف الروسية بقوله " أنها سيوف يتنافس فيها إلى اليوم لمضائها وجودتها"^(٥٠) . وبالإضافة إلى السلع الروسية السابقة يشير الاصطخري إلى تجار الروس بالسمور الأسود والرماس^(٥١) . ويضيف ابن حوقل إلى هذه السلع الثعالب السود والزئبق^(٥٢) ، بينما يذكر القلقشندي أنهم كانوا يتاجرون في الوشق^(٥٣) أيضاً^(٥٤) . أما آخر السلع التجارية التي كان يتاجر فيها الروس ويأتون بها إلى بلاد الخزر فكانت الرقيق المصقالية . فيذكر الكرنيزي أن الروس كانوا يركبون مراكبهم ويغشرون بها على القبائل السلافية التي تعيش في بلادهم ويسبون منهم السبايا لبيعهم رقيقاً في

(٤٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٢ .

(٤٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٢ .

(٤٥) السمور ، حيوان ثديي إيلي من الفصيلة السمورية من أكالت اللحوم ، يتخذ من جلده فرو ثمين . انظر ، المعجم الوجيز ، ص ٣٢١ .

(٤٦) السنجاب ، حيوان أكبر من الجرذ له ذنب طويل كثيف الشعر يرفعه صعداً ، ويضرب به المثل في خفة الصمود ؛ ولونه أزرق رمادي ومنه اللون السنجابي . انظر ، المعجم الوجيز ، ص ٣٢٢ .

(٤٧) الكرنيزي ، زين الأخبار ، ص ٤٧٤ .

(٤٨) Hudud al-'Alam, p. 159.

(٤٩) Hudud al-'Alam, p. 159.

(٥٠) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٦٦ . وعن صناعة السيوف الروسية ، انظر ، البيروني ، الجواهر ، ص ٢٤٨-٢٥٠ ؛ إيلي عبد الجواد ، الروس ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٥١) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٢٢ .

(٥٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٧ .

(٥٣) الوثيق ، حيوان بين القط والنمر ، رأسه كبير وعلى طرفي كل من أذنيه خصلة من الشعر ، وذيله قصير ، يقطن الغابات والصحارى والمناطق الزراعية . انظر ، المعجم الوجيز ، ص ٦٧٠ .

(٥٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٢١ .

أسواق التجارة العالمية^(٥٥) . ويضيف أن السلاف كى يأمنوا شر الروس كان الكثير منهم يذهب للعمل فى خدمة الروس ، وعلى حد تعبيره " حتى يأمنوا من الرق " ^(٥٦) على هذا النحو أحصت المصادر الإسلامية السلع التى حملها الروس للتجارة مع الأمم المجاورة لهم على ضفاف نهر الفولجا ومع التجار المسلمين هناك، وهى على النحو التالى:

- ١-المنتجات الطبيعية: العسل والشمع.
- ٢-المنتجات الجلدية: جلود الخنزير.
- ٣-الفراء: فراء السمور، السنجاب، الثعالب، الوشق، وشتى أنواع الوبر.
- ٤-المعادن: الرصاص، الزئبق. وعلى الرغم من إنتاجهم لمعدنى الذهب والفضة إلا أنهما كانا يستخدمان للاستهلاك المحلى.
- ٥-السيوف.
- ٦-الرقائق.

وبعد...لم تقتصر تجارة الروس مع التجار الخزر والمسلمين فى منطقة حوض الفولجا الأدنى، بل كانت لهم تجارة أيضا مع البرطاس، الذين كانوا يعيشون على ضفاف الفولجا فيما بين الخزر جنوبا والبلغار شمالا. ومن سوء الحظ أن المصادر التاريخية لا تقدم الكثير عن هذه التجارة مثلما تحدثت عن تجارة الروس مع الخزر، وربما كان ذلك راجعا إلى أن البرطاس كانوا قبيلة تخضع للخزر سياسيا، ويغلب عليها الطابع البدوى، حيث كانوا يعيشون فى خيام مضروبة فى وادى نهر الفولجا. ^(٥٧) ويشير المروزي إلى أن بلادهم كانت واسعة، وأنهم كانوا يملكون قطعانا من الخنازير والبقر. ^(٥٨) أما الحميرى فيذكر أن أكثر أموالهم تأتى من التجارة فى العسل، ^(٥٩) الذى لا حصر له على حد قول الكرديزى، ^(٦٠) والوبر؛ وأن لديهم سوائم كثيرة من البقر والغنم ^(٦١)؛ ويضيف إليها الكرديزى الإبل أيضا ^(٦٢) وينكر مؤلف حدود

Frye, Remarks, p. 121.

^(٥٥) الكرديزى، زين الأخبار، ص ٣٧٣-٣٧٤؛

^(٥٦) الكرديزى، زين الأخبار، ص ٤٧٥.

^(٥٧) الكرديزى، زين الأخبار، ص ٤٦٥؛ المروزي، طبائع الحيوان، ص ٢١؛ الاصطخرى، المسالك والممالك، ص ١٢٠ وانظر أيضا الفصل الخامس من البحث.

^(٥٨) المروزي، طبائع الحيوان، ص ٢١-٢٢.

^(٥٩) الحميرى، الروض الماطر، ص ٨٩.

^(٦٠) زين الأخبار، ص ٤٦٦.

^(٦١) الحميرى، الروض الماطر، ص ٨٩.

^(٦٢) زين الأخبار، ص ٤٦٦.

العالم أن ثروات البرطاس كانت تتمثل في فراء الحيوان^(٨٣) . ويكاد يجمع الكتاب المسلمين على أن البرطاس كانوا يشتبهون بتجارة جلود الثعالب سواء السوداء أو الحمراء ، وقد بلغت من شهرتها أنها صارت تعرف باسم البرطاسية^(٨٤)، وهي غايبة في الحسن^(٨٥) . كما كان يخرج من عندهم أيضا جلود الثعالب البيضاء^(٨٦) . وكانت جلود الثعالب السوداء غالية الأثمان على مستوى الأسواق عامة ، حتى أن الواحد منها كان يبلغ ثمنه مائة دينار^(٨٧) ، فقد كانت لا توجد في أي مكان في العالم إلا عند البرطاس^(٨٨) . وهذا النوع من فراء الثعالب كان يتباهى بلبسه ملوك الأمم والأعاجم والعرب ويتفاهسون في لبسه ، وهو عندهم أغلى من السمور وما شاكله . وهذا الفراء شديد الحرارة ، فقد كان جلده أشد حرا من جلود سائر الأوبار الأخرى ، حتى أنه يصلح للمرطوبين من المرضى والشيوخ على حد ذكر المسعودي^(٨٩) . ويلى هذا النوع من حيث القيمة فراء الثعالب الحمراء والبيضاء ، أما أقلها قيمة وأرخصها سعرا ففراء الثعالب المعروفة باسم الأعرابي^(٩٠) .

كانت هذه هي السلع التي ينتجها البرطاس ويتاجرون فيها في منطقة الفولجا ، فقد كانوا يركبون السفن إلى بلاد الخزر ، وأحيانا يتخذون الطريق البري^(٩١) . وبطبيعة الحال كانوا يحملون هذه السلع إلى أسواق الخزر ، حيث حركة التجارة الرئيسية في حوض الفولجا الآننى . كما أن الحميرى يشير إلى أن بلادهم كانت متصلة ببلاد الروس^(٩٢) ، وهذا بدوره قد يشير إلى وجود اتصالات مباشرة بين البرطاس والروس ، بالإضافة إلى تجارتهم القائمة في أسواق الخزر .

أما القوة الأخيرة من قوى الفولجا التي تعامل معها التجار الروس فكانت بلغار الفولجا . وقد سبق الحديث عن هذه المملكة ونظمها وأحوالها^(٩٣) ، لكننا نود التأكيد

(٨٣)

Hudud al-'Alam, p. 162.

(٨٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ، ص ١١٣ ؛ المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٥٥ ؛ ابن الوردي ،

خريدة المعجب ، ص ٩٥ .

(٨٥) قزويني ، آثار البلاد ، ص ٥٨٠ .

(٨٦) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٥٥ .

(٨٧) المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ، ص ١١٣ .

(٨٨) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٥٥ .

(٨٩) التنبيه والإشراف ، ص ٥٥ - ٥٦ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ، ص ١١٣ .

(٩٠) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٥٥ .

(٩١) الكندي ، زينة الأخبار ، ص ١٦٦ .

(٩٢) الحميرى ، الروض المعطر ، ص ٨٩ .

(٩٣) انظر الفصل الثاني ، من الباب الثاني .

على أن مدينة بلغار عاصمة مملكة البلغار قد احتلت مكانة هامة في التجارة الإقليمية في المنطقة الواقعة شمال نهر الفولجا ، ولعبت دورا هاما في نقل السلع الأسبوية إلى أوروبا الشمالية^(٧٤) . فقد كانت هذه المدينة آخر محطة تجارية تصل إليها قوافل التجارة العربية المتجهة نحو الشمال^(٧٥)، ومنها كانت التجارة تمتد نحو الكثير من المدن الشمالية المحيطة بها ، على نحو ما سنرى . وهذه المدينة اشتهرت بتصدير منتجات الصين ، والجلود والفراء ، وكذلك مقادير كبيرة من الشهد . وتطورت بها صناعة الدباغة ، فصارت النعال والأحذية من أهم ما تصدره إلى بلاد المسلمين ؛ وعندهم أخذ الروس هذه الصناعة^(٧٦) . وقد لاحظ دوبراينا ، خال الأمير الروسي العظيم فلاديمير ، تطور هذه الصناعة عندهم حيث كان الأسرى البلغار لديهم يلبسون أحذية جلدية ذات رقاب مرتفعة ، هذا في الوقت الذي كانت فيه أمم أخرى تلبس أحذية مصنوعة من ليف أو لحاء الأشجار^(٧٧) . ويبدو أن هذه المدينة قد ازدادت أهميتها التجارية باعتناق البلغار الإسلام في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، ويقول مؤلف حدود العالم أن البلغار " يشتغلون بالتجارة مع كل أولئك الذين يقيمون حولهم . وهم يملكون الماشية والأسلحة وألوات القتال "^(٧٨) . وهم يتاجرون مع الخوارزميين ، حيث ينكر البيروني أن التجار البلغار يحملون معهم لب ناب السمك ويذهبون إليهم^(٧٩) ، بينما ينكر ابن حوقل أن التجار الخوارزميين يذهبون إلى البلغار ويشترون من عندهم الخز والأبرار النفيسة^(٨٠) . أي أن كل من الطرفين كان له مصالح تجارية لدى الآخر ، وهذا ما يؤكد المسعودي صراحة^(٨١) . وبمدنا المقدسي بصورة كاملة عن السلع التي كان الخوارزمية يستوردونها من البلغار وهي "السمور والسنجاب وقاقون وفك^(٨٢) ونكسه والثعالب وخزبوست وخركوش ملون وبزبوست والشمع والنشاب والتسوز والقلانس

(٧٤) Gerard, *Bulgares*, p. 59.

(٧٥) Court, *La Russie*, p. 71.

(٧٦) بارتولد ، الترك ، ص ٦٧ .

(٧٧) R.P.C., p. 96; Franklin & Shepard, *Rus*, pp. 156-157.

(٧٨) *Hudud al-'Alam*, p. 160.

(٧٩) البيروني ، الجماهر ، ص ٢٠٩ .

(٨٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٢ .

(٨١) مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(٨٢) نوع من الثعالب ، فروته من أجود أنواع الفراء . انظر ، المعجم الوجيز ، ص ٤٨٢ .

وغراء السمك وأسنان السمك وخزميان وكهروا والكيمخت والعسل والبندق وأبوز والسيوف والدروع والخلنج والرقيق من الصقالبة والأغنام والبقر^(٨٧) . ولما كانت بلغار بهذا الثراء الاقتصادي واهمية التجارة العالية فقد ذهب إلى أسواقها التجار الروس ومعهم من السلع الروسية السمور والقاقم والسنجاب^(٨٨) ، وجلود الخنزير^(٨٩) ، والرقيق من الصقالبة^(٩٠) . ومقارنة هذه النصوص التاريخية بنص المقدسي الهام ، يتضح لنا أن مدينة بلغار كانت تشهد حركة تبادل تجاري كبير بين تجار المناطق الشمالية ، من الخوارزمية والروس والبلغار ، ويضيف إليهم الكرديزي الخزر أيضا^(٩١) . وسنجد أن العديد من السلع الروسية قد ذهبت إلى خوارزم ، ونحن نعرف منها السمور والسنجاب ، والشمع ، والسيوف ، والرقيق من الصقالبة . أما قراء التعاليل فمن المحتمل أنه جاء إلى أسواق بلغار عن طريق البرطاس ومنه إلى خوارزم . ويمكن أن نعتبر أن بقية السلع التي استوردها الخوارزميون من بلغار هي سلعاً محلية ، فالبندق على سبيل المثال كان كثير الإنتاج بأرض البلغار^(٩٢) ، وكذلك العسل^(٩٣) . ويروى ابن فضلان أنه رأى بنفسه سوقاً عظيمة يباع فيها المتاع الكثير النفيس ، وتبعد عند نهر الفولجا بأرض بلغار^(٩٤) . وقد كان ملك البلغار يأخذ العشر على التجارات الواردة إلى بلاده ، ويصف لنا ابن فضلان تفاصيل ذلك بقوله : " إذا قدمت السفينة من بلد الخزر إلى بلد الصقالبة (أي البلغار) ركب الملك فأحصى ما فيها وأخذ من جميع ذلك العشر . وإذا قدم الروس أو غيرهم من سائر الأجناس برقيق فللملك أن يختار من كل عشرة رؤوس رأساً^(٩٥) .

ويشير مؤلف حدود العالم إلى أن تجار مدينة صلابية *Slaba* الروسية يخرجون للتجارة مع أقاليم البلغار ، عندما يكون السلام سائداً^(٩٦) . ومن الصعب هنا

(٨٧) المقدسي ، *أحسن التقاسيم* ، ص ٣٢٤-٣٢٥ ، تجدر الإشارة إلى أن هناك بعض من هذه السلع لم نعر على تفسيرات لها وهي القلقون ، الخزيوست ، الفركوش ، البز بوس ، الخزميان ، الكهرو ، الكيمخت . ومن المحتمل أن هذه المسميات كانت سائدة في ذلك العصر واختفت تدريجياً بحيث لم تصل إلينا ، كما يبدو أنها مسميات غير عربية .

(٨٨) الكرديزي ، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٧ .

(٨٩) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ص ٣٩٢ .

(٩٠) الكرديزي ، *زين الأخبار* ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٩١) الكرديزي ، *زين الأخبار* ، ص ٤٦٧ .

(٩٢) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٥٧ .

(٩٣) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٦٢ .

(٩٤) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٦٤ .

(٩٥) ابن فضلان ، *الرسالة* ، ص ١٧١ .

أن نحدد ماهية هذه المدينة وأين موقعها من مدن الروس ، نظرا لأن الاسم جاء مشوها في المصادر العربية ؛ فيطلق الأندلسي عليها اسم صلاو^(٩٣) . وبالرغم من هذا ذهب أحد المؤرخين المحدثين إلى أن الصلاوية هؤلاء من الممكن أن تنطبق على صقلب ، وأنها ربما تشير بصفة خاصة إلى سكان نوفجورود الأصليين^(٩٤) . أما المؤرخ الروسي ريباكوف Rybakov فيعتقد ، دون ذكر أسانيد لذلك، أن مدينة صلاوة هي مدينة برياسلاف ، التي تقع جنوب كييف^(٩٥) . ولكن لنطرح آراء المؤرخين المحدثين جانبا ونحاول أن نحلل الكلمة لغويا ، ما دامت الروايات التاريخية التي تساعدنا في الوصول إلى معرفتها منعدمة . لقد وردت الكلمة في النسخة الإنجليزية لنص حدود العالم والمترجمة عن الفارسية بهذا الشكل *S.laba* . والحرف الأول منها يمكن أن ينطق في العربية " س أو ص " ، والحرف الرابع *a* نلاحظ أن عليه علامة مد وينطق في هذه الحالة مع حرف " L " " لا " ، أما الحرف الخامس فينبغي أن نقف عنده قليلا . فحرف الباء *b* يمكن أن ينطق كما هو ، ولكن في الصوتيات الهندوأوروبية يأتي هذا الحرف بمثل النفس ، وهو حرف شفهي ، ويقلظ *bh* أو *ph* ، وفي هذه الحالة يصير حرف " ف = f " ^(٩٦) ؛ ولنقرأ مثلا كيف كتب الكتاب المسلمون اسم مدينة كييف ، لقد سجلوها على هذا النحو "كويابة"^(٩٧) . وينطبق القاعدة الفيلولوجية السابقة عليها يصبح اسمها كويافة ، وهي أقرب ما تكون للمسمى الحقيقي للمدينة . وبالتقاس تصبح مدينة صلاو أو صلاوة كما يلي سلاف أو سلافا ، لأن الحرف الأخير في الكلمة الأخيرة يوازي حرف " a - أ " في الكلمة الأصلية وليس " ت " كما ورد في المصادر السابقة . وبناء على هذا يمكن القول أنه من المحتمل أن مدينة صلاو أو صلاوة هي مدينة سلافا أو برياسلافا ، الواقعة جنوب كييف على نهر الدنيبر ؛ وبهذا نكون قد قدمنا تفسيراً لوجهة نظر ريباكوف .

أيا كان الأمر ، يمكننا في هذه الحالة أن نقول أن الروس في مدينة برياسلافا قد تبادلوا التجارة مع البلغار . ولندع ثمانية إلى التجارة البلغارية مع المسدن الروسية الأخرى ، حيث يخبرنا المروزي أنه "على مسيرة عشرين يوما من البلغار نحو القطب

(٩٣) الأندلسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩١٧ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٣٦ .

(٩٤) يلي عبد الجواد ، الروس ، ص ١٤ .

(٩٥) Rybakov, *Russian History*, p. 28.

(٩٦) Crawford, D. S., *Greek & Latin*, (Cairo, 1939), pp. 78, 81.

(٩٧) الأندلسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩١٧ .

بلد يقال له أيسو^(٩٨) ووراءه أمة يقال لهم يوره ، وهم قوم متوحشون فسى القياض لا يخالطون الناس ، ويخافون شرهم . وأهل بلغار يسافرون اليهم ويحملون من الأمتعة الثياب والملح وأشياء أخرى على آلات تجرها الكلاب فوق الثلوج المتراكمة التسي لا تتحسر . وسير الرجال على تلك الثلوج لا يمكن إلا بأن يشدوا على أقدامهم عظام الثيران التى فى سوقها ، ويأخذون بأيديهم مرقين بضربون بها على الثلج إلى السوراء فتزلق بذلك أقدامهم ..^(٩٩) .

ويشير المروزي أيضا إلى طريقة البيع بين التجار البلغار وأهل 'يورة' فيقول "ويباعون أهل يورة بالإشارة والمغاية ، لاستحيائهم وخوفهم من الإيس ، وجلبسون من عندهم السمور الفائق وغيره من الوبر الجيد"^(١٠٠) . أما طريقة البيع بين التجار البلغار وأهل "ويسو" فهي على النحو الآتي : "يجعل كل واحد متاعه فى ناحية ، ويعلم عليه ويتركه ، ثم يرجع إليه فيجد إلى جنبه متاعا يصلح لبلاده ، فإن رضى بها أخذ العوض وترك متاعه ، وإن لم يرض أخذ متاعه وترك العوض ؛ ولا يرى البائع المشتري ولا يرى المشتري البائع"^(١٠١) . ويشير القلقشندي إلى البضائع التي يتركها أهل "ويسو" مقابل الحصول على البضائع البلغارية وهي السمور والوشق والثلعب وما شاكل ذلك^(١٠٢) . ويتضح من وصف المروزي لرحلة التجار البلغار إلى 'ويسو ويوره' أن هذين البلدين يقعان نحو القطب الشمالي ، شمال بلاد الروس ، وربما على طريق نهر الفولجا الذي يربط بين نوفجورود ومدينة بلغار . ومما يساعدنا في هذا الافتراض أنه تم العثور على حلية لطعم فرس موهبة بالفضة فى ولاية ياروسلاف ، وكانت تنتمى إلى أحد بلغاري الفولجا ، تمكن أحد العلماء من قراءة كلمتين عربيتين عليها^(١٠٣) . وينبغي ملاحظة أن اسم مدينة ياروسلاف ، الواقعة على طريق الفولجا الشمالي نوفجورود - بلغار ، يتشابه فى نطقه مع مدينة يوره . وقد يدفعنا هذا للوهلة الأولى أن نربط بين الإثنين ونعتبر يوره هى مدينة ياروسلاف ، ولكن مثل هذا الافتراض بدون أسانيد تاريخية أو فيلولوجية يعتبر فى غير محله وإن كنا لا نستبعد . كما يشير المسعودي إلى تبادل التجارة بين البلغار والروس فى منطقة أعالي نهر

^(٩٨) يذكر ابن فضلان (الرسالة ، ص ١٦٢) والقزويني (آثار البلاد ، ص ٦١٨) أن ويسو تقع على مسافة ثلاثة شهور من بلغار .

^(٩٩) المروزي ، طبائع الحيوان ، ص ٤٤ - ٤٥ .

^(١٠٠) المروزي ، طبائع الحيوان ، ص ٤٥ .

^(١٠١) القزويني ، آثار البلاد ، ص ٦١٨ .

^(١٠٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٢١ .

^(١٠٣) هيد ، تاريخ التجارة ، ص ٨٢ .

القولجا^(١٠٤) . والمقصود هنا بأعالى نهر الفولجا ، أو نهر الخزر كما يطلق عليه ، نهر كما *Kama* ، لأنه منبع نهر الفولجا القادم من الشمال رأساً^(١٠٥) . وفي الواقع كانت هناك جماعات من التجار البلغار يتاجرون مع المناطق الشمالية منذ فترة طويلة ، فقد كانت هناك جماعات منهم تعيش منذ القرن الثامن الميلادي في منطقة الفولجا الأوسط . ويمكننا القول أن التجارة بين سكان وادي كاما والشمال وتجار الجنوب كانت مستمرة بطول نهر الفولجا الأوسط^(١٠٦) . جدير بالذكر أن العلاقات التجارية بين سكان وادي كاما والبلاد الشرقية كانت قائمة حتى قبل ظهور الإسلام ، فقد عثر على أقداح خمر فضية ساسانية يعود تاريخها إلى القرن الخامس وحتى القرن الثامن الميلادي . ويمكننا أن نستنتج أن العلاقات التجارية بين هذه المناطق الشمالية والبلاد الشرقية ظلت قائمة منذ تلك الفترة وحتى العصر العباسي الثاني^(١٠٧) . ويشير المؤرخ فرأي *Frye* إلى أن سكان كاما كانوا معروفين بشقهم للفضة وحرصهم على تخزينها عندهم^(١٠٨) .

والآن ، وقد اتضح لنا حركة التجارة على طول نهر الفولجا سواء في حوضه الأدنى أو الأوسط أو الشمالي بين التجار الروس من ناحية وبين التجار الخزر والمسلمين والبرطاس والبلغار والخوارزميين وغيرهم من ناحية أخرى ، نجد الإشارة إلى الحدث الجلل الذي وقع على شواطئ الفولجا في عام ٩٦٥ م . ففى ذلك العام ، كما سبق القول^(١٠٩) ، هاجم الأمير الروسي سفياتوسلاف ممالك الفولجا كلها فقد هاجم بلغار الفولجا ، والبرطاس والخزر ، الذين تقوضت مملكتهم على يديه ، ثم أكمل زحفه العسكري على البلاد الواقعة شمال القوقاز . وقد ذكر الكتاب المسلمون آثار الدمار الشامل الذي لحقه سفياتوسلاف بمملكتي البلغار والخزر بصفة خاصة^(١١٠) . ولا يهمننا هنا أن نعيد نفس الكلمات التي تردت من قبل عند حديثنا عن العلاقات الروسية - الخزرية - البلغارية ، لكننا نود أن نشير إلى عبارة هامة أوردها ابن حوقل وهي أن مدينة سمندر ، الحاضرة الثانية لمملكة الخزر ، لم تسترد أنفاسها وتعود إلى ما كانت عليه قبل غزو الروس لها في عام ٩٦٥ م إلا بعد مرور ثلاث

(١٠٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(١٠٥) انظر الخريطة الملتقة بالبحث .

(١٠٦)

Franklin & Shepard, *Rus*, p. 61.

Frye R., "Byzantine and Sasanian Trade Relations with Northern Russia", *DOP*, 26 (1972), pp. 265 - 266.

(١٠٨)

Frye, *Sasanian trade*, p. 266.

(١٠٩) انظر ، الفصل الخامس من البحث .

(١١٠) عن هذا الدمار الشامل وآثاره ، انظر ، الفصل الخامس من البحث.

سنوات^(١١١)؛ وعلينا أن نضيف إلى هذا هجرة الكثير من الخزر من بلادهم وتشتت البرطاس في البلاد المجاورة بين الأمم . كل هذا أن يكون عاملا على تخلخل التجارة في الحوض الأدنى لنهر الفولجا ؟ ربما حدث هذا على الأقل طوال ما يقرب من ثلاث سنوات عندما استردت سمندر مكانتها ثانية كدليل على إعادة تعمير بلاد الخزر . ولكن ألا يقابل هذا التخلخل في الحوض الأدنى للفولجا في تلك الفترة زيادة في النشاط التجاري بين الروس والبلغار شمالا؟! لاسيما وأننا نعلم أن الدمار الذي لحقه سفياتوسلاف بالبلغار لا يذكر مقارنة بما أحدثه في بلاد الخزر . لقد كانت مملكة الخزر مستهدفة بالدرجة الأولى من الروس والبيزنطيين على حد سواء ، على عكس البلغار الذين كانوا يشكلون حلقة وصل هامة في الحياة الاقتصادية للروس بين التجارة الواردة من البلاد الإسلامية والحوض الأدنى للفولجا وبين التجار الروس القاديين من نوفجورود عبر طريق الفولجا الشمالي الواصل بين نوفجورود وبلغار مروراً بالعديد من المدن الروسية الهامة كمدينة ياروسلاف وروسوف وغيرها وكذلك سكان وادي نهر كاما الشمالي. وبمسح بسيط للحملات الروسية على منطقة الفولجا سنكتشف للوهلة الأولى حقيقة ما تذهب إليه فوثيقة كاميردج تعكس لنا بدايات الهجوم الروسي على الخزر ، تلاه هجوم سفياتوسلاف في عام ٩٦٥ م ، ثم هجوم فلاديمير عليهم في الفترة من ٩٧٩ - ٩٨٦ م ، ثم الهجوم الروسي - البيزنطي المشترك في عام ١٠١٦ م . هذا في الوقت الذي هاجم سفياتوسلاف البلغار في عام ٩٦٥ م فقط ، وكانت هناك محاولة للهجوم عليهم في عهد فلاديمير في عام ٩٨٥ م ، إلا أنه انصرف عنهم ولم يستكملها ؛ كما أنه ينبغي أن نضع في الحسبان أن مملكة البلغار كانت المصدر الرئيسي للروس في الحصول على الدراهم الفضية بالدرجة الأولى ، ولهذا فليس من صالحهم تقويض هذه المملكة التي لم تنافس الروس في السيادة في المنطقة ، على عكس مملكة الخزر ، التي لعبت دوراً هاماً في السياسة في منطقة حوض الفولجا ومنطقة السهوب .

وهناك قضية أخرى بالغة الأهمية وهي تأثير تحول الروس إلى المسيحية على التجارة البلغارية - الروسية . فمن المعروف أن التجارة بين الروس والقسطنطينية قد نشطت بصورة أكثر فعالية في الربع الأخير من القرن العاشر الميلادي والقرن الحادي عشر الميلادي وأن الروس بدأ يزداد طلبهم على السلع البيزنطية الترفيهية كالحلي والملابس الكنسية والكتب والأيقونات وغيرها . هذا في الوقت الذي حدث فيه تخلخل في تجارة الفولجا لاسيما في الحوض الأدنى من النهر ، بسبب الضغط الروسي على

(١١١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٨ .

قوى الفولجا والتوسع الروسى القارى صوب الشرق . لاشك أن الازدهار التجارى بين الروس والبيزنطيين فى تلك الفترة كان يقابله إن لم يكن انهيار فعلى الأقل ركود تجارى فى منطقة الفولجا ، خاصة حوض الفولجا الأدنى . ولعل هذا ما دفع بالبلغار فى عام ١٠٠٦م أن يرسلوا مبعوثين إلى الأمير الروسى العظيم فلاديمير محملين بالهدايا الثمينة لكى يطلبوا منه السماح لتجارهم بأن ينتقلوا فى المدن الواقعة على نهري الفولجا وأوكا^(١١٢) . وهذا ربما يشير إلى اتخاذ فلاديمير لإجراءات سابقة مع البلغار تقضى بمنع دخول التجار البلغار إلى الأراضى الروسية . وقد وافق فلاديمير على طلبهم وسلم إليهم تصريحاً مختوماً منه ليقدموه فى المدن التى يريدون التجارة معها . ولم يسمح للتجار البلغار إلا بالتنقل بين المدن فقط والتعامل مع التجار الروس فقط دون بقية السكان وكان محرماً عليهم بيع أو شراء البضائع من فئات الروس الأخرى ، وكذلك التنقل بين القرى الروسية بغرض التجارة^(١١٣) . إن حرص البلغار على استمرار التجارة مع الروس تؤكد المعلومات السابقة ، كما أنها تعكس شيئاً من التدهور الذى لحق بها فى تلك الآونة ، وبالتحديد بدءاً من النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى .

على أية حال ، فإن موضوع التجارة بين الروس والبلغار يدفعنا إلى الحديث عن قضية هامة وهى على أى أساس كان يتم البيع والشراء بين الطرفين ؟ هل كان نظام البيع بالمقايضة هو الأساس أم لعبت العملة دوراً رئيسياً فى هذا الأمر ؟ وللإجابة على هذه التساؤلات علينا أن نعرض لأهم الروايات التاريخية والنصوص المتعلقة بهذا الشأن . وتأتى رواية الوزير العباسى أحمد بن فضلان من الأهمية بمكان أنها تفوق الروايات التاريخية الأخرى ، لأنه أعطى فيها صورة كاملة عن التجار الروس وحياتهم وأسلوب معيشتهم أثناء التجارة فى الفولجا وكذلك أسلوب البيع والشراء عندهم . ولنبداً الحديث مع ابن فضلان ، وهو شاهد عيان ، فيذكر أن التجار الروس "يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل ، وهو نهر كبير ، ويبنون على شطه بيوتاً كباراً من الخشب"^(١١٤) . ويشير إلى أن البيت الواحد من هذه البيوت يجتمع فيه العشرة والعشرون والأقل والأكثر ؛ ولكل تاجر من التجار مقعد يجلس عليه وبصحبتهم الجوارى الحسان للترويح عنهم^(١١٥) . ويمضى بنا الحديث مع ابن فضلان

Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 17.
Baumgarten, *Saint Vladimir*, p. 17.

(١١٢)

(١١٣)

(١١٤) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٧٧ .

(١١٥) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٧٧ .

لنقرأ روايته الهامة التالية عن تضرع التجار الروس إلى آلهم حتى يتم لهم البيع حسبما يريدون ، وعن القرابين التي يتقربون بها إليها . وسنلاحظ بين ثنايا هذه الرواية أن الروس كانوا يحرصون على الحصول على الدنانير الذهبية والدرهم الفضية مقابل بضائعهم . إن هذه الرواية بالذات غاية في الأهمية ، الأمر الذي ينبغي علينا اقتباسها عن ابن فضلان بصورة تامة .

يقول ابن فضلان^(١١٦) : " وساعة نوافي سفنهم إلى هذا المرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبزه ولحم ويصل ولبن وينبذ حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة ، لها وجه يشبه وجه الإنسان ، وحولها صور صغار ، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في الأرض ، فيوافي إلى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول لها : " يارب قد جئت من بلد بعيد ، ومعى من الجوارى كذا وكذا رأسا ، ومن السمور كذا وكذا جلدا " حتى ينكر جميع ما قدم معه من تجارته . ثم يقول : " وجئت بك بهذه الهدية " . ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبة ويقول : " أريد أن ترزقني تاجرا معه دنائير ودرهم كثيرة فيشتري مني كل ما أريد ولا يخالفني فيما أقول " .

" فإن تعسر عليه بيعه وطالت أيامه عاد بهدية ثانية وثالثة ، فإن تضر ما يريد حمل إلى كل صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة وقال : " هؤلاء نساء ربنا وبنوه " . فلا يزال يطلب إلى صورة صورة يسألها ويستشفع بها ويتضرع بيسن يديها ، فرمما تسهل له البيع فباع ، فيقول : " قد قضى ربي حاجتي واحتاج أن أكافيه " . فيعمد إلى عدة من الغنم أو البقر فيقتلها ويتصدق ببعض اللحم ، ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها . ويلقى رؤوس البقر أو الغنم على ذلك الخشب المنصوب في الأرض . فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت جميع ذلك ، فيقول الذي فعله : " قد رضى ربي عني وأكل هديتي " .

لقد ألفت رواية ابن فضلان ضوئا هاما ليس على التاريخ الاجتماعي للروس فحسب بل إلى أسلوب البيع والشراء عندهم ، وحياتهم على ضفاف الفولجا . إن الفقرة الخاصة بدراسة هذه هي تلك التي نتحدث عن حرص التجار الروس الشديد على الحصول على الدنانير الذهبية والدرهم الفضية من التجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون معهم في أسواق الفولجا . وينبغي أن نضع في الحسبان أن التجار الروس في القسطنطينية لم يكن بمقدورهم التعامل في النوميذما البيزنطية وكانت تجارتهم هناك تعتمد على المقايضة ، لأن بيزنطة لم تكن لتسمح بخروج الذهب خارج أسوارها

(١١٦) ابن فضلان ، الرسالة ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .

للحفاظ على القدرة الشرائية للتوميزما . الأمر الذي كان يدفع التجار الروس للتضرع والابتغال لأهنتهم حتى تبعث لهم من لديه القدرة على الشراء بالدنانير والدرهم ، وهي لا تتوفر إلا مع التجار المسلمين القادمين إلى أسواق الفولجا ؛ لأن البلغار لم يكونوا قد أصدروا عملتهم المحلية بعد ، وهي دراهم فضية ، إلا في القرن العاشر الميلادي . فالكرديزي يذكر أن البلغار ليس لهم صامت ، كناية عن الذهب والفضة والنقود والجواهر ، * وهم عوضا عن ذلك يعطون فراء الدهن الواحد بدرهمين . ويأخذون من دينار الإسلام الدرهم الأبيض المستدير . فالمسلمون يحملون هذه الدراهم ، وهم يشتركون بها منهم كل شيء ، ثم يعطى البلغار تلك الدراهم للروس والصقالبة فهؤلاء القوم لا يبيعون الملابس والأقمشة والأمتعة إلا بالدرهم الصامت^(١١٧) .

إن كلمات المؤرخ الفارسي الكرديزي قد برزت كلمات ابن فضلان ، وأكثرت حرص الروس على الحصول على الدراهم الفضية ولا يقبلون البيع بدونها . كما أنها أوضحت وأكثرت أن البلغار كانوا كالروس تماما ليست لديهم عملة محلية ، بل يحرصون أيضا على الحصول على الدراهم الفضية من التجار المسلمين . وبطبيعة الحال، من خلال المعاملات التجارية ، كانت هذه الدراهم تنتقل من أيدي المسلمين إلى أيدي البلغار ثم إلى أيدي الروس ، الذين حملوها بطبيعتهم إلى بلادهم وإلى شبه جزيرة اسكندرياء أيضا . وقد كشفت الحفريات الحديثة عن الكثير من المواضع التي عثر بها على كميات كبيرة من العملات العربية من الدراهم الفضية . فقد تم اكتشاف سلسلة من الاكتشافات على طول الطريق التجاري الذي يربط بين مدينة بلغار وفنلندا عن طريق الفولجا . كما عثر على كميات أخرى من العملة العربية في منطقة القرم ، وعلى طول المنطقة الواقعة بحذاء نهر الفولجا ، والأقاليم الواقعة على المجرى العلوي لنهر الدنيبر ، وأخيرا الأقاليم المجاورة لبحر البلطيق وخليج فنلندا^(١١٨) . فقد عثر على أكبر كمية من النقود العربية في أقاليم البلطيق وقدرت بـ ١٣٠٠٠ قطعة نقد عربية ؛ كما عثر في جزيرة ألاند *Aland* الواقعة على الطريق بين فنلندا والسويد على ١١٢٢ قطعة في إحدى الحفريات ؛ وفي السويد عثر على كميات كبيرة منها بطول الساحل الشرقي لها ، كما عثر في الكثير من جزر الدانمارك على كميات من العملات العربية الفضية ، وقد كتبت عليها عبارات كوفية . ويرجع تاريخ أقدم هذه العملات إلى القرن السابع الميلادي وأحدثها إلى مستهل القرن الحادي عشر الميلادي^(١١٩) .

(١١٧) الكرديزي، زين الأخبار ، ص ٤٦٨ ؛ انظر أيضا ، ابن رسته ، الأعلام النفيسة ، ص ١٤٥ .

(١١٨) هايد ، تاريخ التجارة ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(١١٩) هايد ، تاريخ التجارة ، ص ٧٥ .

وبدراسة ما هو مكتوب على هذه النقود يمكننا التعرف على الأماكن التي جاءت منها إلى اسكندنافيا عبر الأراضي الروسية ، فقد جاء أكثر من ثلثي هذه النقود من الدولة السامانية التي حكمت فيما وراء النهر وخراسان منذ الربع الأخير من القرن التاسع وحتى نهاية القرن العاشر الميلادي^(١٢٠) . ونظرا لأن السامانيين قد بدأوا في إصدار الدراهم الفضية بكميات كبيرة بدءا من القرن التاسع فصاعدا ، وعملوا على تشجيع التجارة مع المناطق الشمالية ، فقد اتخذ بلغار الفولجا دراهمهم نموذجاً لهم عندما بدأوا في سك الدراهم الفضية الخاصة بهم في عهد ملكهم جعفر بن عبد الله ، المعاصر لزيارة الوزير العباسي ابن فضال . وقد استمر البلغار في إصدار هذه الدراهم السامانية الفضية وهي تحمل اسم الأمير الساماني مقرونة باسم عاصمتهم بلغار أو مدينتهم الثانية سوار حتى نهاية القرن العاشر الميلادي^(١٢١) .

وقد جاءت هذه العملات العربية أيضا من سمرقند وبخارى وطشكند وبلخ ونيسابور وغيرها ، كذلك جاءت من مناطق القوقاز الإسلامية مثل جرجان وطبرستان والديلم وبرذعة ؛ كما كان لبغداد نصيب كبير من هذه العملات ، في حين لا تظهر دمشق إلا قليلا على النقود^(١٢٢) .

جدير بالذكر أن هذه الدراهم الفضية قد بدأت في الانخفاض تدريجيا مع نهاية القرن العاشر الميلادي ، بل إن وجودها في القرن الحادي عشر الميلادي يكاد يكون معدوما^(١٢٣) . ويقدم هايد عدة أسباب لهذا الانهيار الذي أصاب الدراهم الفضية في ذلك الوقت ، ولم يعد يعثر على كميات كبيرة من نقود إلى تلك الفترة . لقد حدث ضعف تدريجي للتجارة في حوض الفولجا عامة بدءا من النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي والذي يمكن أن نرجعه إلى الآتي :

أولا : الهجمات الروسية المتتالية على قوى الفولجا في تلك الفترة ، وما أحدثته من تخلخل في تجارة الفولجا لاسيما الحوض الأدنى منه .

ثانيا : الحروب الأهلية التي دارت في بلاد الروس عقب مصرع سفياتوسلاف في عام ٩٧١م ، ثم عقب موت فلاديمير في عام ١٠١٥م ؛ وهذه الحروب من المحتمل أنها لعبت دورا كبيرا في انهيار التجارة الروسية في حوض الفولجا ، مما قل معه توارد الدراهم الفضية إلى بلادهم ، نظرا لقلّة الرحلات التجارية الروسية إلى منطقة الفولجا .

(١٢٠) هايد ، تاريخ التجارة ، ص ٧٦ .

(١٢١)

Franklin & Shepard, *Rus*, p. 63.

(١٢٢) هايد ، تاريخ التجارة ، ص ٧٦ .

(١٢٣) هايد ، تاريخ التجارة ، ص ٧٥ - ٧٦ .

ثالثا : وفي الشرق انهارت الدولة السامانية المستتيرة على أيدي الأتراك . وكانت بداية فترة من الحروب بين الأمراء الأتراك الذين خربوا بلاد ما وراء النهر ومنذ هذه الأونة بات الطريق التجارى الذى يربط بين بحر البلطيق والشرق غير صالحا للتجارة حتى انقضاء العصور الوسطى^(١٢٤) .

رابعا : اتجاه الروس بسياساتهم الخارجية نحو الغرب الأوربي بدءا من عهد فلاديمير لتبلغ ذروتها في عهد ابنه ياروسلاف الحكيم ، في نفس الوقت الذى كانت تجارة السلع الترفيحية مع بيزنطة قد بدأت في الازدهار وإقبال الروس عليها أكثر من ذي قبل .

هكذا ، لعبت تجارة الفولجا دورا خطيرا في الاقتصاد الروسى ، لاسيما من خلال العلاقات التجارية المتبادلة بين بلغار الفولجا ، أصحاب العلاقة القوية مع المسلمين ، وبين التجار الروس التواقين إلى الدراهم الفضية والدنانير الذهبية العربية ، لتصبح عملة للتداول بين الروس طوال القرن العاشر الميلادى بصفة خاصة . وربما من حسن حظ الاقتصاد الروسى والبلغارى آنذاك أن بيزنطة لم تحول عنايته لبلغار الفولجا الذين تحالفوا مع المسلمين ، على حد قول رنسمان^(١٢٥) .

وأخيرا ، قبل أن نختم حديثنا عن تجارة الروس مع قوى الفولجا لابد من ذكر الطرق التى سلكها الروس فى الوصول إليها .

يصف الجغرافى العربى ابن خرداذبة طريقا يسلكه التجار الروس للوصول إلى حوض الفولجا عن طريق نهر الدون ومنه إلى مدينة خمليج من مدن الخزر ، ثم يبحرون عبر نهر الفولجا حتى يصلوا إلى بحر الخزر ، ومن هناك يتحركون برا حتى يصلوا إلى بغداد^(١٢٦) ، ومن هناك إلى بلاد الشام كما أوضحنا من قبل استنادا إلى قسطنطين بورفيروجينيوتس . هذه هى المرحلة الثانية من هذا الطريق ، أما المرحلة الأولى منه فيصفها قسطنطين بورفيروجينيوتس ، ونعرف منه أن الروس يبحرون

^(١٢٤) هايد ، تاريخ التجارة ، ص ٨٤ . جنود بالسكر أن السامانيين كان لهم أكبر الفضل فى قيام نهضة اقتصادية وثقافية في بلاد ما وراء النهر ، وقد انهال كل هذا مع إسقاط الإمبراطورية لوتشهم . عن هذه النهضة انظر ، حسن أحمد محمود ، الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى ، (القاهرة ، ١٩٦٨) ، ص ١٤٢ - ١٥٠ .

^(١٢٥) Runciman, *Romanus Lecapenus*, p. 117.

^(١٢٦) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ١٥٤ .

جنوباً عبر نهر الدنيبر ثم بحيرة مايوتيك (بحر آزوف) للوصول إلى بلاد البلغار والخزر^(١٢٧). وبطبيعة الحال كان الروس مضطرون لسلوك بحر بوتس، بل بمحاذاة شواطئه للوصول إلى بغداد بعيداً عن نفوذ خاقان الخزر الذي يدفعون له العشر على بضائعهم. كما أن هذا البحر كان كثير الهيجان والاضطراب، وتهب عليه الرياح والعواصف مما يؤدي إلى تفريق المراكب فيه، على حد ذكر الدمشقي^(١٢٨). وبطبيعة الحال فإن التجار الروس الذين يسعون للوصول إلى حوض الفولجا للتجارة لا بد وأن يكون مخرجهم من مدينة كييف أو برياسلافا. أما سكان نوفجورود فكان عليهم أن يسلكوا طريقاً آخر غير هذا الطريق، وهو الطريق الذي يبدأ من بحيرة لادوجا ثم نوفجورود ثم يتبع مسار نهر الفولجا الأعلى مروراً بمدن ياروسلاف وروستوف ثم إلى المحطة التجارية الأخيرة فيه، أي إلى مدينة بلغار^(١٢٩)، التي تنتشعب منها عدة طرق نحو وادي نهر كاما شمالاً، نحو البرطاس والخزر جنوباً، نحو المسلمين شرقاً. وحول هذا الطريق كانت تنتشر الكثير من القبائل السلافية والفنلندية والتي لم تكن تجمعها أية روابط سياسية والتي لم تشكل أي عائق أمام حركة الملاحة النهرية التجارية^(١٣٠).

وهناك طريق آخر يصفه ابن خرداذبه، وهو طريق يرى يتخذ الروس للوصول إلى بلاد الخزر والمناطق الشرقية منها وينتهي إلى الصين، ويصفه على النحو الآتي: "فأما مسلكهم في البر (أي الروس) فإن الخارج منهم يخرج من بلاد الأندلس أو من فرنجة، فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى أفريقية ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ثم إلى السند ثم إلى الهند ثم إلى الصين. وربما أخذوا خلف روميه في بلاد الصقالية ثم إلى خليج مدينة الخزر ثم في بحر جرجان ثم

DAI, I, pp. 186 - 187.

^(١٢٧) قسطنطين بورفجورجيتس، الإدارة، ص ١٥٠.

^(١٢٨) نتيحة الدهر، ص ١٤٥.

Court, *La Russie*, p. 76.

Pares, *Russia*, p. 21.

^(١٢٩)
^(١٣٠)

إلى بلخ وما وراء النهر ثم إلى ورت تفرغز ثم إلى الصين^(١٣١). وعلى الرغم من أن ابن خرداذبه ينسب هذا الطريق إلى التجار الروس ، إلا أنه في الحقيقة يتكلم عن نفس التجار اليهود الذين تكلم عنهم في الفصل السابق على هذا النص^(١٣٢). ويعتبر سولوفيف، وهو محق في هذا ، أن الفصل الثالث الذي يتحدث فيه ابن خرداذبه هو استكمال للفصل الأول الذي يتحدث فيه عن التجار اليهود الرأذانية ، وليس استكمالاً للفصل الثاني السابق عليه الذي يتحدث فيه عن الروس^(١٣٣).

على كل حال ، يمكننا القول في ختام هذا الفصل أن التجارة الشرقية في حوض القولجا لعبت دوراً هاماً في بناء الاقتصاد الروسي في تلك الفترة ، لا سيما في القرن العاشر الميلادي ، وأن الدراهم الفضية العربية أثبتت أنها عملة عالمية .

(١٣١) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(١٣٢) فنظر ، ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(١٣٣) Soloviev, *L'état russe*, pp. 260 - 261.

الخاتمة

الخاتمة

وهكذا، رأينا عبر صفحات البحث كيف تمكن الروس من احتلال موقعاً على الخريطة السياسية للعالم الوسيط في نهاية الفترة محل البحث. وهذا الموقع الذي تبوأه الروس آنذاك لم يأت من فراغ بل جاء بعد سلسلة متصلة من الهجمات الخارجية والاحتكاكات السياسية مع الدول والممالك المجاورة لهم. فمنذ هجومهم الأول على بيزنطة في عام ٨٦٠م لم تتوقف هجماتهم على القوى المجاورة لهم، سواء شُرق أو غرب بلادهم. وقد كان هناك عاملان هامين ساعداً على تطور الروس سياسياً وحضارياً خلال تلك الفترة ألا وهما العلاقات الاقتصادية مع الأمم والدول المجاورة لهم، واعتناق الروس للمسيحية على أيدي الكنيسة البيزنطية.

وإذا كان الروس قد جنوا نتائج سياساتهم الخارجية مع بيزنطة بعقد عدة معاهدات سياسية-تجارية معها، وحصولهم على عدة امتيازات تجارية في القسطنطينية فإن بيزنطة قد ربحت من الروس أيضاً، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الحكومات. فقد كانت الإدارة الإمبراطورية تحرص كل الحرص على الحصول على السلع الشمالية الواردة مع التجار الروس، كما إنها ألزمت الأمير الروسي بموجب معاهدة ٩٤٥م بتقديم المساعدات العسكرية لبيزنطة وفقاً لثبته، بل وشن الحرب على أعدائها إذا ما طلبت من الأمير الروسي القيام بذلك. وهناك ثلاثة أمثلة بارزة تدل على ذلك، أولها عندما طلب الإمبراطور البيزنطي نيقفور فوقاس من الأمير الروسي سفياتوسلاف القيام بالهجوم على بلغاريا لصرف أنظار البلغار عن القسطنطينية؛ وثانيها عندما سلط الإمبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس الروس على الخزر بهدف زعزعة السيادة الخزرية في حوض الفولجا الأدنى؛ وثالث هذه الأمثلة عندما كانت القسطنطينية قاب قوسين أو أدنى من السقوط في أيدي التاتار بـرداس فوقاس، فاضطر الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني إلى اللجوء إلى الأمير الروسي فلاديمير طالباً المدد العسكري، الذي تمكن به من القضاء على تلك الثورة.

على أية حال، يمكننا أن نخلص من خلال صفحات هذا البحث إلى أن الروس قد مروا بمرحلتين سياسيتين متميزتين. المرحلة الأولى يمكننا أن نطلق عليها اسم "مرحلة الشباب والصعود"، والمرحلة الثانية يمكننا أن نطلق عليها اسم مرحلة "النضج والسكينة".

ففي المرحلة الأولى كانت القوة العسكرية الروسية في قمة عنفوانها، وكانت دائمة الانطلاق سواء داخل منطقة السهوب أو خارجها. فشن الروس عدة حملات على الإمبراطورية البيزنطية، حتى كانت أن تصبح الحرب ضد بيزنطة مبدأ من المبادئ السياسية التي يرثها الأمراء الروس عن آبائهم وأجدادهم. وكان من أبرز أحداث هذه المرحلة الحرب الطويلة، التي استمرت عدة سنوات بين سفياتوسلاف من ناحية والإمبراطورين البيزنطيين نفقور فوقلاس ويوحنا تريمسكس من ناحية أخرى. وفي هذه المرحلة لم يكن هناك صوت للعقل يمكن أن يسمع في كييف، اللهم صوت الأميرة أولجا، التي حاولت تنصير شعبها وكبح جماح ابنها سفياتوسلاف، كما حاولت أن تمنعه من الاستمرار في غزو البلقان. وفي هذه المرحلة لم يكن مسلمو القوقاز أحسن حالاً من بيزنطة، فقد شن الروس عليهم عدة هجمات عسكرية ككل بعضها بالنجاح والبعض الآخر أصابه الفشل. ولم تنج قوى الفولجا من مصيرها المحتوم، فقد شن سفياتوسلاف هجوماً كاسحاً عليها في عام ٩٦٥م تقوضت على أثره مملكة الخزر وإنهار نفوذها السياسي في المنطقة، كما تشتت البرطاس في البلاد، وانهمز البلغار أيضاً. على هذا النحو لم يلق الروس بالبقواعد وبرتوكولات التعاملات الدولية آنذاك، وكانوا يتحركون بوزع داخلي بحث يرمى إلى الكسب المادي الوفير واستشاق عير النصر أينما قاتلوا مهما كان الثمن.

أما في المرحلة الثانية والتي يمكن اعتبار أنها تبدأ من عهد الأمير فلاديمير وتنتهي بعهد ابنه الأمير ياروسلاف، فيمكن القول أن الروس قد اكتسبوا شيئاً من الخبرة السياسية جعلتهم يدركون قواعد السياسة الدولية وكيفية احترام موقعهم من الخريطة السياسية للعالم الوسيط. فقد هجر الروس آنذاك سياسة الأجداد التقليدية المعادية لبيزنطة. وبالرغم من غزو فلاديمير لخرسون البيزنطية في عام ٩٨٨م وحملة

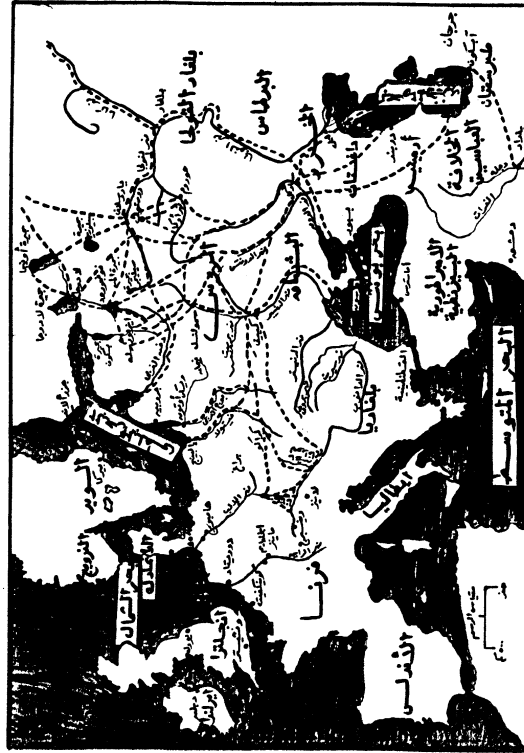
١٠٤٣م على القسطنطينية، وكانت لهما أسبابهما الخاصة، لم يلجأ الروس لمعاداة بيزنطة أو قتالها على غير وجه حق. وبدأ الروس ينتهجون سياسة التحالفات السياسية بينهم وبين الممالك المجاورة وذلك بعقد عدة زيجات سياسية مع الأسر الحاكمة فى بولندا والمجر واسكندنافيا وألمانيا وفرنسا بل وبيزنطة أيضاً وغيرهم. وبدأ الروس بولون وجوهم شطر الغرب الأوروبى منذ نهاية القرن العاشر فى عهد فلاديمير لتبلغ هذه السياسة ذروتها فى القرن الحادى عشر الميلادى، بدءاً من عهد ياروسلاف الحكيم فصاعداً. ونظراً لأن العقل كان سيد هذه المرحلة فقد أولى الروس اهتماماً لبناء وتعمير بلادهم .

بيد أن المرحلة الأولى تميزت بازدهار التجارة الروسية سواء مع بيزنطة أو مع قوى الفولجا من الخزر والبرطاس. أما فى المرحلة الثانية فقد بدأت مؤشر التجارة الخارجية مع قوى الفولجا فى الهبوط بينما أخذ يزداد تصاعداً مع بيزنطة، لاسيما بعد تنصر الروس وازدياد طلبهم على السلع الترفيحية كالأيقونات والحلى والملابس الكنسية وغيرها. وفى هذه المرحلة أيضاً ظل الروس على علاقات تجارية لا بأس بها مع بلغار الفولجا، الذين كانوا معبراً للدانايير والدرهم الإسلامية الذاهية إلى بلاد الروس . ويمكن القول أنه نظراً لحرص التجار الروس على الحصول على هذه الدنانير والدرهم الإسلامية فقد أصبحت عملة متداولة دولياً حتى وصلت إلى شبه جزيرة اسكندنافوة، هذا فى الوقت الذى لم تطلق فيه بيزنطة العنان للتوميذما لتجد لها طريقاً بين هذه الشعوب فيصبح بذلك الدرهم الإسلامى عملة للتداول العالمى بين الشعوب الشمالية.

أخيراً يمكننا القول أن المسيحية كان لها تأثير كبير على تحول الروس من مرحلة "الشباب والصعود" إلى مرحلة "النضج والسكنية". والفضل فى هذا لابد أن ينسب إلى بيزنطة التى سعت بطريقة أو بأخرى لتتصير الروس، وهو ما تم لها بالفعل. وإزاء هذا كان لابد أن تتغلغل الحضارة البيزنطية إلى بلاد الروس، سواء أبوا أم شاعوا، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك أن اللغة الروسية أصبحت مزيجاً من السلافية واليونانية البيزنطية. كما أن بيزنطة أصبحت الراعية الأم لكنيسة كييف، وصارت ترسل لها أساقفتها وكيهنتها بصورة مستمرة حتى عام ١٠٥١م عندما أصبح هيلاريون أول روسى يشغل منصب مطران روسيا؛ ومع هذا ظلت بيزنطة صاحبة اليد العليا فى تحضير الروس آنذاك.

الخـرائـط

الخريطة الأولى
بالتروس والطرق التجارية المتفرعة بها

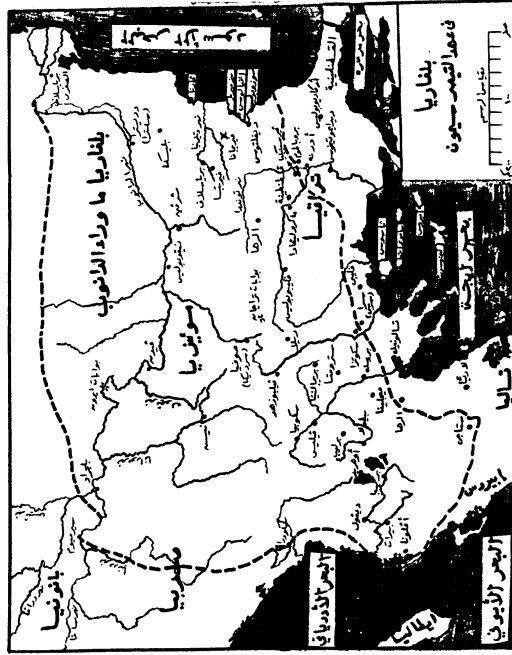


مراحل توسع بلاد الروس وخط سير حملاتهم العسكرية



الخريطة الثالثة

بلغاريا في القرن العاشر الميلادي



قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأجنبية

- Attaliothae, M., *Historia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1853).
- Cedrenus, G., *Historiarum Compendium*, ed. I. Bekker, *CSHB*, tome II, (Bonnae, 1838).
- Cecaumeni *Strategicon*, ed. by B. Wassiliewsky & V. Jernstedt, (Amsterdam, 1965).
- *The Chronicle of Novgorod 1016-1471*, Eng. trans. R. Michell & N. Forbes, with an Introduction by C. R. Beazley and an Account of the text by A. A. Shakhmatov, (London, 1914).
- Codinus, G., *De Aedificiis*, in: *Opera Omnia*, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 157, (Turnholti, 1970).
- Constantine Parphyrogenitus, *Vita Basilii*, in: *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1838).
- Constantine Porphyrogenitus, *De Cerimoniis Aulae Byzantinae*, ed. I. Reiskii, *CSHB*, tome I, (Bonnae, 1829).
- Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. by R. J. H. Jenkins, (Budapest, 1949); vol. II, *Commentary*, by F. Dvornik, R. Jenkins, B. Lewis, G. Moravcsik, D. Obolensky & S. Runciman, ed. R. J. H. Jenkins, (London, 1962).
- *Ephraemii Chronographi Caesares*, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 143, (Turnholti, 1977), cols. 10-379.

- **Geometrae, I**, *Hymni Quinque in Sanctissimam Deiparam*, in: S. P. N. Andreae et Arethae *Opera Omnia*, ed. J. P. Migne, PG, (Turnholti), cols. 854-1002.
- **Hudud al-'Alam** (372 A.H./983 AD.), Eng. trans. V. Minorsky, (Oxford, 1937).
- **Ibn Isfandiyar**, *Tarikhe Tabaristan*, Eng. trans. Browne, E. G. (London, 1905).
- **Le traité de Philothée**, éd. et trad. Fran. N. Oikonomidès, dans: *Les listes des préséance byzantines des IX^e –X^e siècles*, (Paris,1972).
- **Leo Grammaticus**, *Chronographia*, ed. I. Bekker, CSHB,(Bonnae, 1842).
- **Leonis Diaconi Caloensis Historiae Liberi Decem et Liber de Vilitatione Bellica Nicephori Augusti**, ed. C .B. Hase, CSHB, (Bonnae ,1828), pp.3-178.
- **Liutprand of Cremona**,*The Works of Liutprand of Cremona*, ed. B. G. Coulton and A. Power, Eng. trans. S. A. Wrght,(London,1930).
- **Michaelis Glycas Annatium**, in: *Opera Omnia*, ed. J. P. Migne, PG, tome158, (Turnholti,1966).
- **Nicholas I, Patriarch of Constantinople**, *Letters*, ed. and Eng.trans. R. Jenkins and L. G. Westerink, CFHB, vol.4, (Washingt-on, 1973).
- **Photii Constantinopolitani Patriarchae**, *Opera Omnia*, ed. J. P. Migne, PG, tome 102, (Turnholti).
- **Psellus, M.**, *Chronographia*, Eng. trans. Sewter, E. R., (Penguin Books, 1966).

- *The Russian Primary Chronicle*, Laurentian text, Eng. trans. & ed. by S. H. Cross & O. P. Sherbawitz - Wetzor, (Cambridge, Mass., 1953).
- *Στρατηγικὴ Ἑκθεσις καὶ Σύνταξις Νικηφόρου Δεσπότης*, Eng. trans. by Eric Mcgeer, in: *Sowing the Dragon's Teeth*, (Washington, 1995).
- *Symeon Magister ac Logothetae, Chronographia*, ed. I. Bekker, in: *Theophanes Continuatus, CSHB*, (Bonnae, 1838).
- *Τακτικά Ἦγουν Στρατηγικά Νικηφόρου τοῦ Οὐρανῶ*, Eng. trans. by Eric Mcgeer, in: *Sowing the Dragon's Teeth* (Washington, 1995).
- *Theophanes Continuatus, Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1838), pp. 3-481.
- *Thietmari Merseburgensis, Episcopi Chronicon*, ed. F. Kurze, lib. IX, (Hannoverae, 1889).
- *Yahya Ibn Sa'id d' Antioche, Histoire de Yahya d' Antioche*, éd. et trad. J. Kratchkovsky et A. Vasiliev, *PO*, XVIII (Paris, 1924).
- *Zonaras, Ioannis, Epitomae Historiarum*, vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB*, (Bonnae, 1897).

ثانياً : المصادر العربية والمعرية

- ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ / ١٢٢٢م)، الكامل في التاريخ، تحقيق/ نخبة من العلماء، عشرة أجزاء، (بيروت، ١٩٨٣).
- أحمد بن لطف الله منجم باشي، باب في الشدايد من كتاب جامع الدول، تحقيق ونشو/ فلاديمير مينورسكي V. Minorsky في كتاب: *Studies in the Caucasian History*, (London, 1953), pp.1-18.
- الإدريسي، أبي عبد الله إدريس الحموي الحسني (ت القرن السادس الهجري)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزءان، (القاهرة، د.ت.).
- الاصطخري، ابن اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت. النصف الأول من القرن الرابع الهجري)، المسالك والممالك، تحقيق/ محمد جابر عبدالمال، (القاهرة، ١٩٦١).
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي (٧٠٤-٧٧٩هـ / ١٣٠٤-١٣٧٧)، رحلة بن بطوطة، (بيروت، ١٩٦٠).
- البيروني، أبو الريحان محمد أحمد (ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٨)، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، (حيدر آباد، النكن، ١٣٥٥).
- ابن حوقل، أبي القاسم النصيب، كتاب صورة الأرض، (إين، ١٩٦٧).
- الحميري، محمد بن عبد المنعم (٩٠٠هـ / ١٤٩٤م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق/ حسان عباس، (بيروت، ١٩٨٠).
- ابن خرداذبة، أبي القاسم عبد الله بن عبد الله (٣٠٠هـ / ٩١٢)، المسالك والممالك، (القاهرة، د.ت.).
- الخوارزمي، أبو جعفر محمد بن موسى، كتاب صورة الأرض، تحقيق/ هانس فون فريك، (فيينا، ١٩٢٦).
- أبو نلف، الرسالة الثانية، تحقيق/ بطرس بولفاكوف و أنس خالوف، ترجمة/ محمد منير مرسى، (القاهرة، ١٩٧٠).
- الدمشقي، شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشره/ ميهرن، (ليزج، ١٩٢٣).

- الذهبي ، الإمام الحافظ (٧٤٨هـ / ١٣٤٧) ، المعرف في ديوان من غير ، تحقيق / صلاح الدين المنجد ، ج٤ ، (الكويت ، ١٩٦٣) .
- ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٣١٠-٣٣٧ هـ / ٩٢٢-٩٤٨ ؟) ، الأعلام النفسية ، مج ٧ ، (لبنان ، ١٩٦٧) .
- الزهرى ، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ، (ت. أواسط القرن السادس الهجرى / أواسط القرن الثامن الميلادى) كتاب الجغرافية ، تحقيق / محمد حاج صادق ، (القاهرة ، د.ت.) .
- أبو شجاع ، محمد بن الحسن (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٥٦) ، نيل كتاب تجارب الأمم ، تحقيق / ه.ف. أمروز ، ج٢ ، (القاهرة ، ١٩١٦) .
- ابن العديم ، كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م) ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق / سامي الدهان ، ج ١ ، (دمشق ، ١٩٥١) ؛ ج ٢ (دمشق ، ١٩٥٤) .
- ابن العبري ، أبي الفرج جمال الدين (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦) ، تاريخ الزمان ، ترجمة / الأب اسحق أرملة ، (بيروت ، ١٩٩١) .
- العظمي ، محمد بن العظمي الحلبي (ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م) ، تاريخ العظمي ، نشره / علي سويم ، (انقره ، ١٩٨٨) .
- ابن فضلان ، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ، رسالة ابن فضلان ، في وصف الرحلة إلى بلاد الترك و الخزر و الروس و الصقالبة سنة (٣٠٩ هـ / ٩٢١ م) ، تحقيق / د. سامي الدهان ، (دمشق ، ١٩٧٨) .
- أبو الفدا ، عماد الدين بن إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) ، تقويم البلدان ، نشره / رينو وماك كوكين دوسلان ، (باريس ، ١٨٤٠) .
- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (١٢٠٣-١٢٨٣ م) ، آثار البلاد و أخبار العباد ، (بيروت ، ١٩٦٠) .
- القلقشندي ، أبي العباس أحمد بن علي (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج ٤-٥ ، (القاهرة ، د.ت.) .
- ابن القلاسي ، أبي يعقوب حمزة (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) ، نيل تاريخ دمشق تحقيق / .ف. أمروز ، لبنان ، بيروت ، ١٩٠٨) .

- قسطنطين السباع بورفيروجينيوس ، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة/ محمود سعيد عمران، (بيروت، ١٩٨٠).
- ابن كثير ، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)، البداية والنهاية ، ج ١١ ، (القاهرة، د.ت.).
- الكرديزي ، أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود (ت ٤٤٢ - ٤٤٣هـ / ١٠٥٠ - ١٠٥١م)، زين الأخبار، ترجمة/ عفان السيد زيدان، (القاهرة، ١٩٨٢).
- ليو السادس ، كتاب والي المدينة ، ترجمة/ السيد البار العربي ، مجلة كلية الآداب بالقاهرة ، مج ١٩ ، ج ١ (١٩٥٧) ، ص ١٣٥-١٨٧.
- المسعودي ، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، أخبار الزمان، تحقيق/ عبد الله الصاوي (بيروت، ١٩٧٨).
- المسعودي ، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، التنبيه والأشراف، (القاهرة، ١٩٣٨).
- المسعودي ، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، (القاهرة، ١٩٢٧).
- ابن مسكويه ، أبي علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠م)، تجارب الأمم، ج ٦ ، تحقيق/ هـ. ف. أندروز، (القاهرة، ١٩١٥).
- المروزي ، شرف الزمان طاهر، أبواب في الصين و الترك و الهند، منتخبة من كتاب طبائع الحيوان، نشره/ ف. مينورسكي V.Minorsky ، (لندن، ١٩٤٢).
- المقدمي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (القاهرة، ١٩٩١).
- ابن التديم ، أبي الفرج محمد بن اسحق الوراق المعروف بابن أبي يعقوب التديم (ت ٣٧٧هـ / ٩٨٧م تقريباً)، كتاب الفهرست، تحقيق/ Gustav Flugel ، مراجعة و تقديم النص/ Johannes Roediger ، (بيروت، ١٩٦٤).
- ابن الوردي ، سراج الدين أبي جعفر عمر (ت ٨٥٠هـ / ١٤٤٦) ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، (مصر ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م).
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) ، كتاب معجم البلدان، ط ١، (القاهرة، ١٩٠٨).

ثالثاً: المراجع الأجنبية

- **Aherweiler, H.**, "Les relations entre les byzantins et les russes au IX^e siècle", dans : *Bulletin d'Information et de Coordination de L'Association International des Etudes Byzantines*, 5(Athens, Paris, 1971), pp. 44-73.
- **Anastasijević, D.**, "Les indications chronologiques de Yahya relatives à la guerre de Tzimiscès contre les Russes", *Melanges Charles Diehl*, tome 1, (Paris, 1930), pp. 1-5.
- **Anastasijević, D.**, "La chronologie de la guerre russe de Tzimiscès", *B*, 6 (1931), pp. 337-342.
- **Andréadès, A.**, "The Economic Life of the Byzantine Empire", in: *Byzantium, an Introduction to East Roman Civilization*, ed. Bayns, N. & Moss, H.S., (Oxford, 1948), pp. 51-70.
- **Angold, M.**, *The Byzantine Empire 1025-1204*, (London and New York, 1984).
- **Baneșcu, N.**, "Deux études byzantines. II La première attaque russe de Constantinople", *REB*, 6(1948), pp. 191-198.
- **Baumgarten, N.**, "Chronologie ecclésiastique des terres russes, du X^e au XIII^e siècles", *OC*, 17(Roma, 1930), pp. 1-?
- **Baumgarten, N.**, "Généalogies et mariages occidentaux des Rurikides Russes du X^e au XIII^e siècles", *OC*, IX, 35(1927), pp. 1-94.
- **Baumgarten, N.**, "Le dernier mariage de Saint Vladimir", *OC*, XVIII, 61(1930), pp. 165-16
- **Baumgarten, N.**, "Olaf Tryggwison roi de Norvege et ses relations avec Saint Vladimir de Russie", *OC*, 24(1931), pp. 3-35.
- **Baumgarten, N.**, "Saint Vladimir et la conversion de la Russie", *OC*, 27(1932), pp. 3-136.
- **Benediktz, B.**, "The Evolution of the Varangian Regiment in the Byzantine Army", *BZ*, 62(1969), pp. 20-24.
- **Blake, R., & Frye, R.**, "Notes on the Risala of ibn-Fadlan", *Byzantina - MetaByzantina*, 1(New York, 1949), pp. 7-38.
- **Browning, R.**, *Byzantium and Bulgaria*, (Oxford, 1980).
- **Bury, J. B.**, *The Imperial Administrative System in the Ninth Century*, (London, 1911).
- **Chadwick, W.**, *The Beginning of Russian History*, (Cambridge, 1946, reprinted 1966).

- Court, A., "La Russie à Constantinople", *RQH*, 1 (Paris, 1876), pp. 69-129.
- Crawford, D. S., *Greek and Latin*, (Cairo, 1939).
- Cross, S., "Medieval Russian Contacts with the West", *SP*, 10(1935), pp. 137-144.
- Cross, S., "The Earliest Medieval Churches of Kiev", *SP*, 11 (1936), pp. 477-499.
- Da Costa - Louillet, G., "Y eut-il des invasions russes dans l'empire byzantine avant 860?", *B*, 15(1940-41), pp. 231-248.
- Diaconu, *Les Petchénèges au Bas-Danube*, (Bucharest, 1970).
- Dimnik, M., *The Dynast of Chernigov 1054-1146*, (Toronto, 1994).
- Dölger, F., *Die Chronologie des grossen Kaisers Johannes Tzimisces gegen die Russen*, *BZ*, 32(1932), pp. 275-292.
- Dolly, R., "Oleg's Mythical Campaign against Constantinople", *BLSMPARS*, 40(1949), pp. 106-130.
- Fennell, J., *A History of the Russian Church to 1448 A. D.*, (London, 1995).
- Fine, J. V., *The Early Medieval Balkans*, (Michigan, 1993).
- Finlay, G., *History of the Byzantine Empire 716-1057 AD*, (New York, 1913).
- Finlay, G., *A History of Greece*, vol II, (Oxford, 1877).
- Frances, E., "Les relations russo-byzantines au XII^e siècle et la domination de Galicie au Bas-Danube", *BsL*, 20(1959), pp. 50-62.
- Franklin, S. and Shepard, J., *The Emergence of Rus' 750-1200*, (London, New York, 1996).
- Franklin, S., and McCormick, M., "De Ceremoniis", *ODB*, vol.1, (New York, 1991).
- Franklin, S., & Hollingsworth, P., "Nestor", *ODB*, (1991), p.1459.
- Frye, R., "Byzantine and Sasanian Trade Relations with North Eastern Russia", *DOP*, 26(1972), pp. 263-269.
- Frye, R., "Remarks on Some New Islamic Sources of the Rus'", *B*, 18 (1944-1948), pp. 119-125.
- Gerard, C., *Les Bulgares de la Volga et les Slaves du Danube*, (Paris, 1939).
- Göllner, C., "Les expéditions byzantine contre les Russes sous Jean Tzimiscès (970-971)", *RHSEE*, 13(1936), pp. 342-358.
- Grégoire, H., "La dernière campagne de Jean Tzimiskès contre les Russes", *B*, 12(1936), pp. 167-176.

- Grégoire, H., "Études sur le neuvième siècle: le batême des Russes Photius n'a pas menti ", *B*, 8(1933), pp. 515-550.
- Grégoire, H., "La légende d'Oleg et l'expédition d'Igor", *BacBelg*, 23(1937), pp. 80-94.
- Grégoire, H., "Miscellanea Epica et Etymological, I: la légende d'Oleg, II: l'expédition d' Igor", *B*, 11(1936), pp.601-607.
- Grégoire, H., "Saint Théodore, le Stratélate et les Russes d' Igor ", *B*, 13(1938), pp. 291-300.
- Grégoire, H. et Orgels, P., "La guerre russo-byzantine de 911 ", *B*, 24(1955), pp.155-156.
- Grégoire, H. et Orgels, P., "Les invasions russes dans le Synaxaires de Constantinople ", *B*, 24(1955), pp. 141-145.
- Halecki, O., "La Pologne et l' empire byzantine ", *B*, 7(1932), pp. 41-67.
- Hendy, M., Michael IV and Harold Hardrada, *Nusmatic Chronicle, ser. 7,10*.(London, 1970); reprinted also in: *The Economy, Fiscal Administration and Coinage of Byzantium*, (Northampton, 1989).
- Honigsmann, E., "Studies in Slavic Church History", *B*, 17(1945), pp. 128-182.
- Jenkins, R., *Byzantium the Imperial Centuries 610-1071 AD*, (London, 1966).
- Jenkins, R., "The Supposed Russian Attack on Constantinople in 907", *SP*, 24(1949), pp. 403-406.
- Karamsin, M., *Histoire de l'empire de Russie*, trad. Fran. S. Thomas et Jauffret, tome I, (Paris, 1819).
- Kazhdan, A., "De Administrando Imperio", *ODB*, vol.1, (New York, 1991).
- Kazhdan, A., "Kedrenus ", *ODB*, vol.2, (New York, 1991).
- Kazhdan, A., "Leo the Deacon", *ODB*, vol.2, (New York, 1991).
- Kazhdan, A., "Once More about the "Alleged" Russo-Byzantine Treaty (ca.1047) and the Pecheneg Crossing of the Danube ", *JOB*, 26(1977), pp. 65-77.
- Le Clerc, *Histoire physique, morale, civile et politique de la Russie ancienne*, tome I, (Paris, 1783).
- Liddle and Scott, *Greek – English Lexicon*, (Oxford, 1961).
- Litavrin, G., "A propos de Tmutorokan ", *B*, 35(1965), pp. 221-234.
- Lopez, R., "Silk Industry in the Byzantine Empire", *SP*, 20 (1945), pp. 1-42.
- Macarteny, C., "The Petchenegs ", *SEER*, 8(1928), pp. 342-355.

- Mcevedy, C., *The Penguin Atlas of Medieval History*, (New York, 1978).
- Mcgeer, E., *Sowing the Dragon's Teeth*, (Washington, 1995).
- McGovern, M., "Sarkel a Reflection of Byzantine Power or Weakness?", *BsL*, 50(1989), pp. 177-180.
- Minorsky, V., *Studies in the Caucasian History*, (London, 1953), With a chapter on al-Shadādiā.
- Minorsky, V., *Commentary on the book of Hudud al-'Alam*, in: *Hudud al-'Alam*, pt. III, (Oxford, 1937).
- Moravcsik, G., *Byzantium and the Magyars*, (Amsterdam, 1970).
- Mošin, V., "Les Khazares et les Byzantins", *B*, 6(1931), pp. 309-325.
- Nicole, D., *A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire*, (London, 1991).
- Noonan, T., "Byzantium and the Khazars: a Special Relationship?", In: *Byzantine Diplomacy Papers from the Twenty-Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990*, ed. J. Shepard and S. Franklin, (Hampshire, 1992), pp. 109-132.
- Obolnsky, D., "The Byzantine Frontier Zones and Cultural Exchanges", in: *Actes du XIV^e Congrès International des Études Byzantines, Bucharest, 1970*, vol. I, (Bucharest, 1974), pp. 303-313.
- Obolnsky, D., "The Byzantine Sources on the Scandinavians in Eastern Europe", in: *Varangian Problems. Scando-Slavica, supplementum I.*, (Copenhagen, 1970), pp. 149-164.
- Obolnsky, D., "Cherson and the Conversion of Rus': an anti-revisionist view", *BMGS*, 13(1989), pp. 244-256.
- Obolnsky, D., "The Crimea and the North before 1204", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978*, ed. A. Bryer, *Arch. Nov.*, 35(1987), pp. 123-133.
- Obolnsky, D., "Early Russian Literature", in: *Introduction to Russian Language and Literature*, ed. R. Auty and D. Obolnsky. *Companion to Russian Studies*, 2. Cambridge, (1977), pp. 56-89.
- Obolnsky, D., "The Relations between Byzantium and Russia (eleventh to fifteenth century), *XIIIth International Congress of Historical Sciences*, (Moscow, 1970), pp. 1-13.
- Obolnsky, D., *Six Byzantine Portraits*, (Oxford, 1988).
- Oikonomidēs, N., "Constantine VII^e Porphyrogénète et les thèmes de Céphalonie et de Longobardia", *REB*, 21(1963), pp. 119-123.

- **Oikonomidès, N.**, *Les listes des préséance byzantines des IX^e et X^e siècles*, (Paris, 1972).
- **Oikonomidès, N.**, "Presthlavitz, the little Preslav", *Sudost-Forschungen*, 42(1983), pp. 1-10. Reprinted also in: *Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade*, (Hampshire, 1992).
- **Ostrogorsky, G.**, "L'expédition du prince Oleg contre Constantinople en 907", *AIK*, 11(1940), pp. 47-62.
- **Ostrogorsky, G.**, *History of the Byzantine State*, (Oxford, 1956).
- **Palmer, L.**, *A Grammar of the Post-Ptolemaic Papyri*, (London, 1948).
- **Pares, B.**, *A History of Russia*, (New York, 1947).
- **Pargoire, R.**, "Saint - Mamas le quartier des Russes à Constantinople", *EO*, 11(1908), pp. 203-210.
- **Poppe, A.**, "La dernière expédition russe contre Constantinople", *BsL*, 32(1971), pp. 1-29, 233-268.
- **Poppe, A.**, "The Political Background to the Baptism of Rus', Byzantine - Russian Relations between 986-89", *DOP*, 30(1976), pp.195-244.
- **Pritsak, O.**, "The Pecings, a Case of Social and Economic Transformation", *AEM*, 1(1975), pp. 211-235.
- **Ramnaud, A.**, *Histoire de la Russie*, (Paris, 1878).
- **Runciman, S.**, *A History of the First Bulgarian Empire*, (London, 1930).
- **Runciman, S.**, *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign*, (Cambridge, 1963).
- **Rybakov, B.**, *The Early Centuries of Russian History*, Eng. trans.J. Weir, (Moscow, 1965).
- **Schlumberger, G.**, *L' épopée byzantine à la fin du dixième siècle, Jean Tzimiskès*, (Paris, 1896).
- **Schlumberger, G.**, " Russes et Byzantins dans les Balkans en l'an 972 ", dans: *Récits de Byzance et des Croisades*, (Paris, 1917), pp.22-33.
- **Schlumberger, G.**, *Un empereur de Byzance Nicéphore Phocas*, (Paris, 1930).
- **Sharf, A.**, *Byzantine Jewry from Justinian to the Fourth Crusade*, (London, 1971).
- **Shepard, J.**, "A Note on Harold Hardrada: The Date of his Arrival at Byzantium", *JOB*, 22(1973), pp. 145-150.

- Shepard, J., "Aspects of Byzantine Attitudes and Policy towards the West in the Tenth and Eleventh Centuries", *ByzF*, 13(1988), pp.66-118.
- Shepard, J., "Byzantine Diplomacy, 800-1204 A.D.: means and ends", in: *Byzantine Diplomacy*, ed. J. Shepard and S. Franklin, (Hampshire, 1992), pp. 41-72.
- Shepard, J., "Information, Disinformation and Delay in Byzantine Diplomacy", *ByzF*, 10(1985), pp. 233-293.
- Shepard, J., "John Mauropous, Leo Tornicus and an Alleged Russian Army: The chronology of the Pecheneg crisis of 1048-1049", *JOB*, 24(1975), pp. 61- 89.
- Shepard, J., "The Khazars' Formal Adoption of Judaism and Byzantine's Northern Policy", *OSP*, 31(1998), pp. 11-34.
- Shepard, J., "The Russian Steppe-Frontier and the Black Sea Zone", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978*, ed. A. Bryer, *ApX.IIov*, 35(1978), pp.218-237.
- Shepard, J., "Some Remarks on the Sources for the Conversion of Rus'", in: S. W. Swierkosz-Lenart, ed., *Le Origini e lo Sviluppo della cristianità slavo-bizantina* (Nuovi Studi Storici 17; Rome, 1992), pp. 59-95.
- Shepard, J., "Why did the Russians attack Byzantium in 1043?", *BNJbb*, 22(1979), pp. 147-212.
- Smedley, J., "Archaeology and the History of Cherson: A Survey of Some Results and Problems", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978*, ed. A. Bryer, *ApX. IIov*, 35(1978), pp. 123-133.
- Soloviev, A., "ΑΡΧΩΝ 'ΡΩΣΙΑΣ", *B*, 31(1961), pp. 237-244.
- Soloviev, A., "Domination byzantine ou russe au nord de la mer à l'époque des Comnènes?", *Actes des XI Internationalen Byzantinisten Kongresses, 1958*, (Munich, 1960), pp. 569- 580.
- Soloviev, A., "L'organisation de l'état Russe au X^e siècle", *L'Europe aux IX^e-XI^e siècles*, (Varsovie, 1968), pp. 249- 268. Reprinted also in: *Byzance et la formation de l'état Russe*, (London, 1979).
- Soloviev, A., "Marie fille de Constantin IX Monomaque", *B*, 33(1963), pp. 241-248.
- Soloviev, A., "Metropolitensiegel des Kiewer Russlands", *BZ*, 55(1962), pp. 292- 301.

- Sorlin, I., " Les traités de Byzance avec la Russie au X^e siècle ", *CMRS*, vol. II-3, (Paris, 1961), pp. 313-360.
- Sorlin, I., " Les traités de Byzance avec la Russie au X^e siècle: le traité de 944 ", *CMRS*, vol. II-4, (Paris, 1961), pp. 447-475.
- Tinnefeld, F., " Ceremonies for Foreign Ambassadors at the Court of Byzantium and their Political Background ", *ByzF*, 19(1993), pp. 193-214.
- Tyszkiewicz, S., " Moralistes de Russie ", *OCP*, 15(1949), pp. 341-367.
- Udal'cova, Z.V., " Kiev and Constantinople: Cultural Relations before the Thirteenth Century ", *The 17th International Byzantine Congress, Washington 3 - 8 August 1986*, (New York, 1986), pp. 399-421.
- Vasiliev, A., *The Russian Attack on Constantinople in 860 AD*, (Cambridge, Mass., 1947).
- Vasiliev, A., " The Second Russian Attack on Constantinople ", *DOP*, 6(1951), pp.161-225.
- Vasiliev, A., " Was Old Russia a Vassal State of Byzantium? ", *SP*, 7(1932), pp. 350-360.
- Vernadsky, G., *Kievan Russia*, (New Haven, 1948).
- Vernadsky, G., " Byzantium and Southern Russia ", *B*, 15(1940-41), pp. 67-86.
- Vernadsky, G., *The Origins of Russia*, (Oxford, 1959).
- Vernadsky, G., " The Rus' in the Crimea and the Russo - Byzantine Treaty of 945 ", *Byzantina- Meta Byzantina*, 1(1949), pp. 249-260.
- Whitton, M., *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (London, 1996).
- Zuckerman, C., " On the Date of the Khazars' Conversion to Judaism and the Chronology of the Kings of the Rus Oleg and Igor ", *REB*, 53(1995), pp. 238-270.

رابعاً: المراجع العربية والمعرية

- إبرار كريم الله، من هم للتتار؟ ترجمة/ رشيدة رحيم الصبروتي، (القاهرة، ١٩٩٤).
- أحمد فؤاد سيد، الإسلام والثقافة العربية في بلاد ما وراء النهر الإسلامية، (القاهرة، ١٩٩٦).
- أنثر كويستلر، إمبراطورية الخزر وميراثها، ترجمة/ حمدي متولي مصطفى، (دمشق، ١٩٧٨).
- أرشيبالد لويس: القوي البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة/ أحمد محمد عيسى، (القاهرة، ١٩٦٠).
- إسمت غنيم، الدولة البيزنطية وكريت الإسلامية، (الإسكندرية، ١٩٨٣).
- بارتولد، و.، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة/ أحمد السعيد سليمان، (للقاهرة، ١٩٥٨).
- السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، (القاهرة، ١٩٦٠).
- حامد زيان، الأسرى المسلمون في بلاد الروم، (القاهرة، ١٩٨٩).
- فنلوب، د.م.، تاريخ يهود الخزر، ترجمة/ سهيل زكار، (دمشق، ١٩٩٠).
- حسن أحمد محمود، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى، (للقاهرة، ١٩٦٨).
- رلفت عبد الحميد، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، (القاهرة، ١٩٩٧).
- رلفت عبد الحميد، قواعد الدبلوماسية البيزنطية، المجلة التاريخية المصرية، ٣٣ (للقاهرة، ١٩٨٦)، ص ٢٩-٨٢.
- الرمزي، تلفيق الأخبار وتلفيق الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك للتتار، ٢، (لونيورج، دت.).
- سعد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، (القاهرة، ١٩٦٧).
- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، جزءان، (للقاهرة، ١٩٨٣).
- عبد الرحمن محمد العبد الغني، موقف البيزنطيين و الفاطميين من ظهور الأتراك السلاجقة بمنطقة الشرق الأدنى الإسلامي، حواشات كلية الآداب-جامعة الكويت، ١٥ (الكويت، ١٩٩٥).

- عمر كمال توفيق، مقدمات العدوان الصليبي، الإمبراطور يوحنا تريمسكس وسياسته الشرقية، (القاهرة، ١٩٦٦).
- فايز نجيب اسكندر، الحياة الاقتصادية في أرمينيا إبان الفتح الإسلامي، (الإسكندرية، ١٩٨٨).
- ليلى عبد الجواد إسماعيل، تاريخ الروس من خلال المصادر العربية، (القاهرة، ١٩٩٠).
- ليلى عبد الجواد إسماعيل، الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل، (القاهرة، ١٩٨٥).
- المتولى السيد تميم، البشناق والبيزنطيون، دراسة في سياسة بيزنطة الشمالية (٨٥٠-١١٢٢)، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، (جامعة المنصورة، ١٩٩٦).
- محمد محمد مرسى لثويج، الخزر وعلاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ٤ (١٩٨٠) ص ٣٤٨-٣٧٧.
- المعجم الوجيز، إعداد نخبة من العلماء، (القاهرة، ١٩٩٠).
- هليد، ف.، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة/أحمد محمد رضا، ج ١، (القاهرة، ١٩٨٥).
- وسام عبد العزيز فرج، دراسات في تاريخ و حضارة الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤ -?/١٠٢٥، ج ١، (الإسكندرية، ١٩٨٥).
- وسام عبد العزيز فرج، "الدولة و التجارة في العصر البيزنطي الأوسط"، حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت، ٩ (١٩٨٧/١٩٨٨) ص ٨٤-١.
- وسام عبد العزيز فرج، الإمبراطور باسيل الثاني (سفاخ البلغار) (٩٧٦-١٠٢٥)، العوامل التي أثرت علي السياسة في عصره، ندوة التاريخ الإسلامي والوسط، ١ (١٩٨٢) ص ١٦٧-٢٠٢.

**The Russians
And The International
Community
945-1054 AD**

Dr. Tarek Mansour Mohammed

Associate Prof. of Byzantine History
Faculty of Arts, Ain Shams University

Cairo, 2000 AD

Publisher

Misr al-Arabia, 19 Islam St.,
Hamamat al-Koubba, Cairo.

Publisher :
Misr al-Arabia, 19 Islam St.,
Hammamat al-Koubba, Cairo.
P.O.Box 5740 Heliopolis Gharb,
Egypt. Tel.& Fax. 2562268

© Tarek Mansour Mohammed

All rights reserved. No part of this Publication may be reproduced, stored
in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means,
electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without
the prior written permission of the author or the publisher.

First Edition 2001

Egyptian Library Cataloguing in Publication Data
Dr. Tarek Mansour Mohammed
The Russians and the International Community 945-1054 A.D.
I-Russian History - Caucasian History
II- Byzantine History _ Byzantine Civilization
I.Mohammed, Tarek Mansour. II.Title
947.02-947.05
949.502
ISBN :15267/2000
ISBN: 977-5471-34-6

Printed in Egypt

The cover is the battle of the Novgorodians with the Suzdalians .
Novgorod school, last quarter of the 15th century.

To my Parents

T.M.

1
1
1

Contents

Contents.....	A-G
List of Abbreviations.....	D-'A
Prologue.....	F-Š
A presentation of the Sources.....	T-HH
Introduction.....	1-10

Part One: The Rus' and the Byzantine Empire

Chapter One: The Rus', Byzantium and the Treaty of 945 AD.....	12-40
Igor and Constantinople 944 AD.....	14
The text of the treaty of 945 AD.....	17
Dating of the treaty 944 or 945 AD.....	24
The analysis of the treaty.....	26
Chapter Two: The Rus', Byzantium and the Balkans.....	41-87
Olga and the throne.....	41
Olga's visit to Constantinople 957 AD.....	42
Nicephor Phocas and Balkans.....	49
The conquest of Svyatoslav of Bulgaria 968 AD.....	52
Jean Tzimiskes and Svyatoslav.....	61
The defeat of Svyatoslav and the treaty of 971 AD.....	79
Death of Svyatoslav 972 AD.....	86
Chapter Three: The Rus' between Byzantium and the European Powers.....	88-136
The civil war and the rule of Vladimir.....	88
Basil II and the Tsar Samuel.....	93
The embassy of Basil II to Vladimir.....	96
Vladimir and the conquest of Cherson 988 AD.....	104
Vladimir and the European Powers.....	114
The civil war and the rule of Yaroslav.....	120
The European policy of Yaroslav.....	121
The expedition of 1043 AD on Constantinople.....	127
The testament of Yaroslav.....	136

Part Two: The Rus' and the Eastern Powers

Chapter Four: The Rus' and the Moslems of Caucasus.....	137-164
The climate of Russia and its effect on the eastern policy	

of the Rus'	138
The Russian attack on Absukon in 864-884 AD	141
The Russian attack on Absukon in 910 AD	142
The Russian attack on Jilan, Tabaristan and Bakou in 912/913 AD	144
The Russian attack on Barda'a in 943-944 AD	151
The Russian attacks on Shirwan in 1030 and 1031 AD	159
The causes of these attacks	162
Chapter Five: The Rus' between the Petchenegs and the Powers of the Volga	
The Rus' and the Petchenegs	165-226
The Rus' and the Khazars	166
The Rus' and the Burtas and the Bulgars	183
	215
Part Three: The Rus' and the International Trade	
Chapter Six: The Rus' and the trade with Byzantium	
Discussion of the commercial items of the treaty of 945	227-245
<i>Eparchion Biblion</i> and the foreign traders in Constantinople	228
The Russian traders in Constantinople	230
The commercial great route Scandinavia, Kiev and Constantinople	236
	241
Chapter Seven: The Rus' and the trade of the Volga	
The trade with the Khazars	246-267
The trade with the Burtas and Bulgars	248
The commercial merchandises on the Volga	253
Islamic Derhams and Dinarii in Russia	255
The routes between the Russian cities and the Volga	261
	265
Epilogue	268-271
Maps	272-275
Bibliography	276-291

Introduction

There are so many studies on Medieval Russian History that one feels reluctant to think of writing on the history of Medieval Russia. There are two generations of Modern Historical Writings in Russia. The first is before the establishment of the Soviet Union, while the second is after that time. The Russian historians of these two generations produced many Writings, which vary in their value. However, there are many brilliant Modern and Contemporary Russian Historians, such as Shakhmatov, Vernadsky, Kokovtsov, Soloviev, Ostrogorsky and others.

The creation of Soviet Union at the beginning of the twentieth century pushed the historians of Western Europe to work on the Russian History, Ancient and Modern. Their Writings are very valuable, distinguished and very much inclined to reality, such as the writings of Profs. Obolensky, Shepard, Nonnan, Franklin and others. The historians of Central Europe added also important theories to the Medieval Russian History, like the Polish Poppe, who presented some serious studies.

With authorities such as these scholars, it is indeed a hard task for any researcher to contribute something as valuable as theirs. But there are many areas in Russian History, which still need to be studied carefully. Therefore, it is better to study an important period of Medieval Russian History, 945-1054 AD, which begins with the reign of Princess Olga until the reign of Prince Yaroslav the Wise.

I think that this period is very important; it may be called the time of construction and change in the Medieval State of the Rus'. Olga began her rule with retaliating against the murderers of her husband, Prince Igor. Afterwards, she turned towards Constantinople, in 957 AD, peacefully. She visited Byzantium in that year and was converted to Christianity there by Emperor Constantine Porphyrogenetus. This visit is a shining point in the history of the peaceful relations between the two sides, so that Emperor Constantine Porphyrogenetus recorded it as an example of Byzantium's reception of the foreign Princess, in his interesting book *De Cerimoniis*. When Olga was back home, she tried to spread Christianity among her people, but her efforts were unsuccessful.

The Russian Prince Svyatoslav Igorvitch, receiving the throne from his mother Olga, caused many changes in the political map of the Steppes. He attacked many of the powers of this area, such as the Slavic tribes, Petchenegs, Bulgars of the Volga, Burtas, Khazars, Yassians and

Kassogians. Afterwards, he turned his eyes towards Byzantium, i.e. the Byzantine possessions in Crimea. Then, Emperor Nicephor Phocas, who had suffered from the revolution of Bardas Sclerus, asked the Russian Prince to provide him with the military supplements to stop the Bulgarian incursions on the Byzantine territories. Svyatoslav hurried to bring the assistance to the emperor and overran Bulgaria rapidly. But this Russian assistance changed to an occupation of the Balkans, i.e. the eastern part of Bulgaria, and Svyatoslav decided to extend the frontiers of his state up to the Byzantine provinces of Thrace and Macedonia. His words to his mother Olga show that Svyatoslav decided to take the city of Pryaslava as a new capital for his state and that he would never leave the Balkans. This event and the aggressive policy of this Prince led to a chain of battles between Byzantium's emperors and Svyatoslav, which ended with the heavy defeat of the Russian Prince and his death at the hands of the Petchenegs in 972 AD.

There were strong cultural relations between the two sides, because the trade was very active, owing to the treaty of 945 AD. The Russian Primary Chronicle and the *Eparchion Biblion* show the distinguished status of the Russian traders in Constantinople in comparison with the other foreign traders there.

Any way, this Russian aggressive policy towards Byzantium decreased in the reign of Vladimir Svyatoslavich and his son Yaroslave the Wise. Vladimir abandoned the policy of his grandfathers and turned to the West, in spite of his successful conquest of Cherson. In fact, this event is one of the important points in the history of the relations between the two nations. Svyatoslav in the treaty of 971 AD pledged that he would never attack the Byzantine possessions or Crimea, i.e. Cherson. But his son Vladimir in 988 AD overran Crimea and conquered Cherson, although he provided the Byzantine Emperor Basil II with 6000 soldiers of the Varangians to suppress the revolution of Bardas Phocas. Vladimir succeeded to conquer Cherson and forced the Byzantine Emperor to marry him his sister Anna Porphyrogneta, but Constantinople succeeded to convert this Prince and his people to Christianity on the Byzantine doctrine. This latter event gave a strong push to the peaceful relations between Byzantium and Russia. The gates of Byzantine civilization had been opened before the Russians, for instance the scale of the Russian trade with Byzantium increased in the end of the tenth century and the first half of the eleventh century.

When Yaroslav became a Prince of the Russians, after a hard civil wars, he turned with his policy towards the West more than his father,

and didn't give attention to Byzantium, in spite of the Russian expedition of 1043 AD on Constantinople. He contracted many marriages with the kings and princes of Europe. He succeeded to gain a brilliant name among the royal dynasties of Poland, Hungary, Bohemia, France, Sweden, Norway and the Germans. This western policy had its negative bearings on the relations between Byzantium and Russia, and the Russian Prince lost his prestige in this side. Besides, Yaroslav took a serious step which may be one of the factors which led to the decline of the relations between the two sides. The *Povest* of Nestor tells us that the Russian Prince Yaroslav appointed the Russian bishop Hilarion as a metropolitan of the Russians in the church of *Hagia Sophia* of Kiev. This event, of course, was an unexpected strike to the Byzantine church, which appointed continually her bishops to Kiev.

Any way, Kiev struggled during the tenth and eleventh centuries to record its name on the political map of the Medieval World. It attacked many powers, held many treaties with Byzantium, and marriages with its neighbors. It must be shown that the Russians attacked many times the Islamic territories of Caucasus and arrived with their trade until Baghdad and Syria across the Moslem's lands. One of the Moslem authors says that the Russian traders, in the beginning of the tenth century, when they entered to the Islamic territories they pretended that they were Christians. This account proves that the Russians knew well the attitude of Moslems towards the Christians and Jews, i.e. the tolerance of Islam towards them. And may the Russians aimed at distinguishing themselves, as Christians, different from the Russian Pagan who attacked the Moslems of Caucasus.

Therefore, I think that this topic, *The Russians and the International community*, may be interesting and adds new facts and interpretation.

This study is divided into three parts, in seven chapters, beside an introduction, a presentation to the sources of the study, a conclusion, three maps and the Bibliography.

The first part is titled "The Russians and the Byzantine Empire", in which we meet three chapters. The first is "The Rus', Byzantium and the treaty of 945 AD." The second is "The Rus', Byzantium and the Balkans." The third is "The Rus' between Byzantium and the European Powers."

The second part is titled "The Russians and the Eastern Powers," in which we meet two chapters. The first is "The Russians and the Moslems of Caucasus." The second is "The Russians between the Petchenegs and the Powers of the Volga."

The third part is titled "The Russians and the International Trade," in which we meet two chapters. The first is "The Rus' and the Trade with Byzantium." The second is the "The Rus' and the Trade of the Volga."

Finally, I'd like to thank warmly my supervisor Prof. Dr. Ra'fat Abdul-Hamid, who provided me with his faithful advice, instructions, support, and urged me to carry on my studies in the Dept. of Classics. I am indebted also to my Prof. Dr. J. Shepard who gave me much of his time, provided me continually with his faithful advice, and provided me many specialized Papers and Books. He encouraged me to study the Russian in the Russian Cultural Center at Cairo, and tried to give me a chance to carry on my post-graduate studies at Cambridge. They both still give me the motive to advance more and more in my studies. I ask God to give them a good health and happiness. I thank also Prof. Sa'id Abel-Fattah Ashour and Prof. Issac Ebied for their useful remarks. Thanks also for Prof. Dr. Ahmed Itman, Prof. of Greek and Latin Studies, Faculty of Arts, Cairo University, who helped me to obtain a scholarship from the University of Athens to visit its libraries in the summer of 1997. I'd like to thank the librarians of the central library of Cairo University, IFAO of Cairo, AUC, Φιλοσοφική Σχολή of Athens, and the library of the Byzantine museum of Athens. Finally, thanks for my wife, son, parents and my friends, specially Mr. *Hanie el-Bashier* and Mr. *Abdul-Aziz Mohammed*.

List of Abbreviations

<i>AEM</i>	<i>Archivum Eurasie Medii Aevi</i> .
Ahrweiler, <i>Les relations</i>	H. Ahrweiler, "Les relations entre les Byzantins et les Russes au IX ^e siècle", dans : <i>Bulletin d'Information et de Coordination de l'Association Internationale des Etudes Byzantines</i> , 5(Athens, Paris, 1971), pp. 44-73.
<i>AIK</i>	<i>Annales de l'Institut Kondakov</i> .
Anastasijevic, <i>Tzimis-</i> <i>cès</i>	D. Anastasijevic, "Les indications chronologiques de Yahya relatives à la guerre de Tzimisès contre les Russes", <i>Melanges Charles Diehl</i> , 1, tome (Paris, 1930), pp. 1-5.
Angold, <i>Byz. Empire</i>	M. Angold, <i>The Byzantine Empire 1025-1204</i> , (London and New York, 1984).
' <i>Αρχ. Πον.</i>	' <i>Αρχαίων Ποντίου</i> .
<i>Attaleiates</i>	M. Attaliothae, <i>Historia</i> , ed. I. Bekker, <i>CSHB</i> , (Bonnae, 1853).
<i>B</i>	<i>Byzantion</i> , 1924ff.
<i>BACBelg</i>	<i>Bulletin de la Classe des Lettres de l'Académie Royal de Belgique</i> .
Bănescu, <i>Deux études</i>	N. Bănescu, "Deux études byzantines. II La première attaque russe de Constantinople", <i>REB</i> , 6(1948), pp. 191-198.
Baumgarten, <i>Chronologie</i>	N. Baumgarten, "Chronologie ecclésiastique des terres russes, du X ^e au XIII ^e siècles", <i>OC</i> , 17(Roma, 1930), pp. 1-?
Baumgarten, <i>Généologies</i>	N. Baumgarten, "Généologies et mariages occidentaux des Rurikides Russes du X ^e au XIII ^e siècles", <i>OC</i> , IX, 35(1927), pp. 1-94.
Baumgarten, <i>Olaf Tryggwison</i>	N. Baumgarten, "Olaf Tryggwison roi de Norvege et ses relation avec Saint Vladimir de

	Russie", <i>OC</i> , 24(1931), pp. 3-35.
Baumgarten, <i>Saint Vladimir</i>	N. Baumgarten, " Saint Vladimir et la conversion de la Russie", <i>OC</i> , 27(1932), pp. 3-136.
Benedikz, <i>Varangian</i>	B. Benedikz, " The Evolution of the Varangi- an Regiment in the Byzantine Army ", <i>BZ</i> , 62(1969), pp. 20-24.
ByzF	<i>Byzantinische Forschungen</i> .
BICAIEB	<i>Bulletin d'Information et de Coordination de l'Association International des Études Byzantines</i> .
BLSMPARB	<i>Bulletin des Lettres et des Sincres Moralles et Politique de l'Académie Royal de Belgique</i> .
BMGS	<i>Byzantine and Modern Greek Studies</i> , (Oxford, 1975-1983, Birmingham, 1984ff.).
BNJbb	<i>Byzantinische-Neugriechische Jahrbücher</i>
Browning, <i>Bulgaria</i>	R. Browning, <i>Byzantium and Bulgaria</i> , (London, 1975).
BsL	<i>Byzantinoslavica</i> , (Prague, 1929ff.).
Bury, <i>Adm. Sys.</i>	J. B. Bury, <i>The Imperial Administrative System in the Ninth Century</i> , (London, 1911).
Byzantina-Meta	<i>Byzantina-Meta Byzantina</i> , (New York, 1949 ff.).
Byzantina	
BZ	<i>Byzantinische Zeitschrift</i> , (Leipzig, München , 1892 ff.).
Cedrenus	G. Cedrenus, <i>Historiarum Compendium</i> , ed.I. Bekker, <i>CSHB</i> , vol.II., (Bonnae, 1838).
CFHB	<i>Corpus Fontium Historiae Byzantinae</i> , (Washington, 1967 ff.).
Chadwick, <i>Russian History</i>	W. Chadwick, <i>The Beginning of Russian History</i> , (Cambridge, 1946, reprinted 1966).
Chron. Novgorod	<i>The Chronicle of Novgorod 1016-1471</i> , Eng. trans. R. Michell & N. Forbes, with an Introduction by C. R. Beazley and an Account of the text by A. A. Shakhmatov, (London, 1914).
CMRS	<i>Cahiers du Monde Russe et Soviétique</i> , (Paris).
Const.Porph., <i>DeCerimoniis</i>	Constantine Porphyrogenitus, <i>De Cerimoniis Aulæ Byzantinae</i> , ed. I. Reiskii, <i>CSHB</i> , tome I, (Bonnae, 1829).
Court, <i>La Russie</i>	A. Court, " La Russie à Constantinople ", <i>RQH</i> ,

- 1 (Paris, 1876), pp. 69-129.
- Cross, *Chuches of Kiev* S. Cross, "The Earliest Medieval Churches of Kiev", *SP*, 11 (1936), pp. 477-499.
- Cross, *Contacts* S. Cross, "Medieval Russian Contacts with the West", *SP*, 10(1935), pp. 137-144.
- CSHB *Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae*, (Bonnae, 1828-1897).
- DAI, I; II. Constantine Porphyrogenitus, *De Administ-rando Imperio*, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. by R. J. H. Jenkins, (Budapest, 1949); vol. II, *Commentary*, by F. Dvornik, R. Jenkins, B. Lewis, G. Moravcsik, D. Obolensky & S. Runciman, ed. R. J. H. Jenkins, (London, 1962).
- Dimnik, *Chernigov* M. Dimnik, *The Dynasty of Chernigov 1054-1146*, (Toronto, 1994).
- Diaconu, *Petchénèges* P. Diaconu, *Les Petchénèges au Bas-Danube*, (Bucharest, 1970).
- DOP *Dumbarton Oaks Papers*, (Cambridge, Mass., 1941 ff.).
- ÉO *Échos d'Orient, Revue d'histoire, de géographie et de liturgie orientales*, (Paris, Bucharest, 1897-1942).
- Fennell, *Russian Church* J. Fennell, *A History of the Russian Church to 1448 A D*, (London, 1995).
- Fine, *Balkans* J. V. Fine, *The Early Medieval Balkans*, (Michigan, 1993).
- Finlay *Greece* G. Finlay, *A History of Greece*, vol. II, (Oxford, 1877).
- Finlay, *Byz. Empire* G. Finlay, *History of the Byzantine Empire 716-1057 AD*, (New, York, 1913).
- Franklin & Shepard, *Rus'* S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of Rus' 750-1200*, (London, New York, 1996).
- Frye, *Remarks* R. Frye, "Remarks on Some New Islamic Sources of the Rus ", *B*, 18 (1944-1948), pp.119-125.
- Frye, *Sasanian Trade* R. Frye, "Byzantine and Sasanian Trade Relations with North Eastern Russia", *DOP*, 26 (1972), pp.263-269.
- Gerard, *Bulgares* C. Gerard, *Les Bulgares de la Volga et les*

- Glycas* *Slaves du Danube*, (Paris, 1939).
Michaelis Glycas Annalium, in: *Opera Omnia*,
ed. J. P. Migne, PG, tome. 158, (Turn-
holt, 1966).
- Göllner, *Jean Tzimis-* C. Göllner, " Les expéditions byzantine contre
cès les Russe sous Jean Tzimisès (970-971)",
RHSEE, 13(1936), pp. 342-358.
- Grégoire, *Der. campa-* H. Grégoire, " La dernière campagne de Jean
gne Tzimisès contre les Russes ", *B*, 12(1936), pp.
167-176.
- Hudud al-'Alam* *Hudud al-'Alam* (372 A.H./983 AD), Eng.
trans. V. Minorsky, (Oxford, 1937).
- Ibn Isfandiyar, *Tabari-* Ibn Isfandiyar, *Tarikhe Tabaristan*, Eng. trans
stan E.G. Browne, (London, 1905).
- Jenkis, *Byzantium* R. Jenkins, *Byzantium the Imperial Centuries*
610-1071 AD, (London, 1966).
- Jenkis, *Russian attack* R. Jenkins, " The Supposed Russian attack on
Constantinople in 907", *SP*, 24(1949), pp. 403-
406.
- JOB* *Jahrbuch der Österreichischen Byzantinistik*,
18- Wien, (Köln, Graze, 1969 ff.) .
- Karamsin, *Histoire* M. Karamsin, *Histoire de l'empire de Russie*,
trad. Fra. S. Thomas et Jauffret, tome I, (Paris,
1819).
- Le Clerc, *la Russie* Le Clerc, *Histoire physique, morale, civile et*
politique de la Russie ancienne, tome I, (Paris,
1783).
- Le traité de Philothée* *Le traité de Philothée*, éd. and trad Fran..
N.Oikonomidès, dans: *Les listes des préséance*
byzantines des IX^e -X^e siècles, (Paris, 1972).
- Leo Diaconus* Leonis Diaconi *Caloensis Historiae Liberi*
Decem et Liber de Vilitatione Bellica Nicepho-
ri Augusti, ed.C.B.Hase, *CSHB*, (Bonnae, 1828),
pp.3-178.
- Macarteny, *Petchene-* C. Macarteny, " The Petchenegs ", *SEER*,
gs 8(1928), pp. 342-355.
- Mcgeer, *Sowing* E. Mcgeer, *Sowing the Dragon's Teeth*,
(Washington, 1995).
- Mcgovern, *Sarkel* M. McGovern, " Sarkel a reflection of Byzan-
tine Power or Weakness? ", *BsL*, 50(1989), pp.

- 177-180.
- Minorsky, *Commentary* V. Minorsky, *Commentary on the book of Hudud al-'Alam*, in: *Hudud al-'Alam*, pt., (Oxford, 1937).
- Minorsky, *Studies* V. Minorsky, *Studies in the Caucasian History*, (London, 1953), with a chapter on *al-Shadādiya*.
- Moravcsik, *Magyars* G. Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, (Amsterdam, 1970).
- Mošin, *Khazares* V. Mošin, "Les Khazares et les Byzantins", *B*, 6(1931), pp. 309-325.
- Nicholas I Nicholas I, Patriarch of Constantinople, *Letters*, ed. and Eng. trans. R. Jenkins and L. G. Westerink, *CFHB*, vol.4, (Washington, 1973).
- Nicole, *BDBE* D. Nicole, *A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire*, (London, 1991).
- Noonan, *Byzantium* T. Noonan, "Byzantium and the Khazars: a Special Relationship?", in: *Byzantine Diplomacy Papers from the Twenty Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990*, ed. J. Shepard and S. Franklin, (Hampshire, 1992), pp. 109-132.
- Obolnsky, *Byzantine Sources* D. Obolnsky, "The Byzantine Sources on the Scandinavians in Eastern Europe", in: *Varangian Problems. Scando Slavica, supplementum 1.*, (Copenhagen, 1970), pp. 149-164.
- Obolnsky, *Cherson* D. Obolnsky, "Cherson and the Conversion of Rus': an anti-revisionist view", *BMGS*, 13(1989), pp. 244-256.
- Obolnsky, *Crimea* D. Obolnsky, "The Crimea and the North before 1204", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978*, ed. A. Bryer, ' *Αρχ. Πόν.*, 35(1978), pp.123-133.
- OC *Orientalia Christiana*, (Rome, 1924 ff.).
- OCP *Orientalia Christiana Periodica*, (Rome, 1935 ff.).
- ODB *Oxford Dictionary of Byzantium*, (Oxford, New York, 1999), 3 Vols.
- Oikonomidès, *Les list-* N. Oikonomidès, *Les listes des préséance*

es	byzantines des IX ^e et X ^e siècles, (Paris, 1972).
Oikonomidès, <i>Presth-lavitza</i>	N. Oikonomidès, " Presthlavitza, the little Preslav", <i>Sudost-Forschungen</i> , 42(1983), pp. 1-10. Reprinted also in: <i>Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade</i> , (Hampshire, 1992).
OSP	<i>Oxford Slavonic Papers</i> , (Oxford).
Ostrogorsky, <i>Byz.State</i>	G. Ostrogorsky, <i>History of the Byzantine State</i> , (Oxford, 1956).
Pares, <i>Russia</i>	B. Pares, <i>A History of Russia</i> , (New York, 1947).
Pargoire, <i>Saint Mamas</i>	R. Pargoire, " Saint – Mamas le quartier des Russes à Constantinople ", <i>EO</i> , 11(1908), pp. 203-210.
PG	<i>Patrologia cursus completus, series Graeco-Latina</i> , ed. J. P. Migne, (Paris, 1857-1866, 1880-1903, reprinted in Turnholt), 161 vols.
PO	<i>Patrologia Orientalis</i> , ed. R. Graffin et F. Nau, (Paris, 1904 ff.).
Poppe, <i>The political background</i>	A. Poppe, " The Political Background to the Baptism of Rus', Byzantine - Russian Relations between 986-89 ", <i>DOP</i> , 30(1976), pp.195 -244.
Pritsak, <i>Pecenegs</i>	O. Pritsak, " The Pecenegs, a Case of Social and Economic Transformation", <i>AEM</i> , 1(1975), pp. 211-235.
Psellus	M. Psellus, <i>Chronographia</i> , Eng. trans E. R. Sewter, (Penguin Books, 1966).
Ramnaud, <i>la Russie</i>	A. Ramnaud, <i>Histoire de la Russie</i> , (Paris, 1878).
RÉB	<i>Revue des Études Byzantines</i> , (Paris, 1944 ff.)
RHSEE	<i>Revue Historique du Sud-Est Européen</i> , (Bucharest, 1963 ff.).
R.P.C.	<i>The Russian Primary Chronicle</i> , Laurentian text Eng. trans. & ed. by S. H. Cross O. P. Sherbawitz-Wetzor, (Cambridge, Mass., 1953).
RQH	<i>Revue des Questions Historiques</i> , (Paris, 1876 ff.).
Runciman, <i>Bulgarian Empire</i>	S. Runciman, <i>A History of the First Bulgarian Empire</i> , (London, 1930).
Runciman, <i>Romanus</i>	S. Runciman, <i>The Emperor Romanus Lecapenus</i>

- Lecapenus* and his Reign, (Cambridge, 1963).
- Rybakov, *Russian History* B. Rybakov, *The Early Centuries of Russian History*, Eng. trans. J. Weir, (Moscow, 1965).
- Schlumberger, *L'épopée* G. Schlumberger, *L'épopée byzantine à la fin du dixième siècle*, Jean Tzimiskès, (Paris, 1896).
- Schlumberger, *Russes* G. Schlumberger, " Russes et Byzantins dans les Balkans en l'an 972 ", dans: *Récits de Byzance et des Croisades*, (Paris, 1917), pp.22-33.
- SEER *Slavonic and East European Review*.
- Shepard, *Khazars* J. Shepard, "The Khazars' Formal Adoption of Judaism and Byzantium's Northern Policy", *OSP*, 31(1998), pp. 11-34.
- Shepard, *Russians attack* J. Shepard, " Why did the Russians attack Byzantium in 1043? ", *BNJbb*, 22(1979), pp. 147-212.
- Shepard, *Steppe Frontier* J. Shepard, " The Russian Steppe-Frontier and the Black Sea Zone", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978*, ed. A. Bryer, ' *Apχ. Πόv.* ', 35(1978), pp.218-237.
- SK *Seminarium Kondakovianum*
- Smedley, *Archaeology* J. Smedley, " Archaeology and the History of Cherson: A Survey of Some Results and Problems", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978*, ed. A. Bryer, ' *Apχ. Πόv.* ', 35(1978), pp. 123-133.
- Soloviev, *Domination* A. Soloviev, " Domination byzantine ou russe au nord de la mer à l'époque des Comnènes?" *Akten des XI Internationalen Byzantinisten Kongresses, 1958*, (Munich, 1960), pp. 569-580.
- Soloviev, *l'état russe* A. Soloviev, " L' organisation de l'état russe au X^e siècle ", *L' Europe aux IX^e-XI^e siècles*, (Varsovie, 1968), pp. 249- 268. Reprinted also in: *Byzance et la formation de l'état Russe*, (London, 1979).
- Sortin, *Les traités* I. Sortin, " Les traités de Byzance avec la

- Russie au X^e siècle ", *CMRS*, vol. II-3, (Paris, 1961), pp. 313-360.
- Sorlin, I., *Le traité de 944* I. Sorlin, " Les traités de Byzance avec la Russie au X^e siècle: le traité de 944 ", *CMRS*, vol.-4, (Paris, 1961), pp. 447-475.
- SP* *Speculum*.
- Symeon Mag.* Symeon Magister ac Logothetae, *Chronographia*, ed. I. Bekker, in: *Theophanes Continuatus*, *CSHB*, (Bonnae, 1838).
- Vasiliev, *Old Russia* A. Vasiliev, " Was Old Russia a Vassal State of Byzantium? ", *SP*, 7(1932), pp. 350-360.
- Vernadsky, *Crimea* G. Vernadsky, " The Rus' in the Crimea and the Russo – Byzantine Treaty of 945 ", *Byzantina-Metabyzantina*, 1(1949), pp. 249-260.
- Vernadsky, *Kievan Russia* G. Vernadsky, *Kievan Russia*, (New Haven, 1948).
- Vernadsky, *Russia* G. Vernadsky, *The Origins of Russia*, (Oxford, 1959).
- Whittow, *Byzantium* M. Whittow, *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (London, 1996).
- Yahya d'Antioche* Yahya Ibn Sa'id d'Antioche, *Histoire de Yahya d' Antioche*, éd. et trad. J. Kratchkovsky et A. Vasiliev, *PO*, XVIII (Paris, 1924).
- Zonaras Ioannis Zonaras, *Epitomae Historiarum*, vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB*, (Bonnae, 1897).
- AEM* *Archivum Eurasie Medii Aevi*.
- Ahrweiler, *Les relations* H. Ahrweiler, " Les relations entre les Byzantins et les Russes au IX^e siècle ", dans : *Bulletin d'Information et de Coordination de l'Association Internationale des Etudes Byzantines*, 5(Athens, Paris, 1971), pp. 44-73.
- AIK* *Annales de l'Institut Kondakov*.
- Anastasijevic, *Tzimis-* D. Anastasijevic, "Les indications chronologiques de Yahya relatives à la guerre de Tzimisces contre les Russes", *Melanges Charles Diehl*, 1, tome (Paris, 1930), pp. 1-5.
- Angold, *Byz. Empire* M. Angold, *The Byzantine Empire 1025-1204*, (London and New York, 1984).
- 'Αρχ. Πον.* *'Αρχαίον Ποντίου*.
- Attaleiates* M. Attalioetae, *Historia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1853).

<i>B</i>	<i>Byzantion, 1924ff.</i>
<i>BACBelg</i>	<i>Bulletin de la Classe des Lettres de l'Académie Royal de Belgique.</i>
<i>Bănescu, Deux études</i>	N. Bănescu, " Deux études byzantines. II La première attaque russe de Constantinople", <i>REB</i> , 6(1948), pp. 191-198.
<i>Baumgarten, Chronologie</i>	N. Baumgarten, " Chronologie ecclésiastique des terres russes, du X ^e au XIII ^e siècles", <i>OC</i> , 17(Roma, 1930), pp. 1-?
<i>Baumgarten, Généalogies</i>	N. Baumgarten, "Généalogies et mariages occidentaux des Rurikides Russes du X ^e au XIII ^e siècles ", <i>OC</i> , IX, 35(1927), pp.1-94.
<i>Baumgarten, Olaf Tryggwison</i>	N. Baumgarten, " Olaf Tryggwison roi de Norvege et ses relation avec Saint Vladimir de Russie", <i>OC</i> , 24(1931), pp. 3-35.
<i>Baumgarten, Saint Vladimir</i>	N. Baumgarten, " Saint Vladimir et la conversion de la Russie", <i>OC</i> , 27(1932), pp. 3-136.
<i>Benedikz, Varangian</i>	B. Benedikz, " The Evolution of the Varangi-an Regiment in the Byzantine Army ", <i>BZ</i> , 62(1969), pp. 20-24.
<i>ByzF</i>	<i>Byzantinische Forschungen .</i>
<i>BICAIEB</i>	<i>Bulletin d'Information et de Coordination de l'Association Internationale des Etudes Byzantines.</i>
<i>BLSMPARB</i>	<i>Bulletin des Lettres et des Sinces Moralles et Politique de l'Académie Royal de Belgique.</i>
<i>BMGS</i>	<i>Byzantine and Modern Greek Studies</i> , (Oxford, 1975-1983, Birmingham, 1984ff.).
<i>BNJbb</i>	<i>Byzantinische-Neugriechische Jahrbücher</i>
<i>Browning, Bulgaria</i>	R. Browning, <i>Byzantium and Bulgaria</i> , (London, 1975).
<i>BsL</i>	<i>Byzantinoslavica</i> , (Prague, 1929ff.).
<i>Bury, Adm. Sys.</i>	J. B. Bury, <i>The Imperial Administrative System in the Ninth Century</i> , (London, 1911).
<i>Byzantina-Meta</i>	<i>Byzantina-Meta Byzantina</i> , (New York, 1949 ff.).
<i>Byzantina</i>	<i>Byzantinische Zeitschrift</i> , (Leipzig, München , 1892 ff.).
<i>BZ</i>	
<i>Cedrenus</i>	G. Cedrenus, <i>Historiarum Compendium</i> , ed.I. Bekker, <i>CSHB</i> , vol.II., (Bonnae, 1838).
<i>CFHB</i>	<i>Corpus Fontium Historiae Byzantinae</i> , (Washington, 1967 ff.).
<i>Chadwick, Russian</i>	W. Chadwick, <i>The Beginning of Russian</i>

<i>History</i>	<i>History</i> , (Cambridge, 1946, reprinted 1966).
<i>Chron. Novgorod</i>	<i>The Chronicle of Novgorod 1016-1471</i> , Eng. trans. R. Michell & N. Forbes, with an Introduction by C. R. Beazley and an Account of the text by A. A. Shakhmatov, (London, 1914).
CMRS	<i>Cahiers du Monde Russe et Soviétique</i> , (Paris).
Const.Porph., <i>De Cerimoniis</i>	Constantine Porphyrogenitus, <i>De Cerimoniis Aulae Byzantinae</i> , ed. I. Reiskii, <i>CSHB</i> , tome I, (Bonnae, 1829).
Court, <i>La Russie</i>	A. Court, "La Russie à Constantinople", <i>RQH</i> , 1 (Paris, 1876), pp. 69-129.
Cross, <i>Chuches of Kiev</i>	S. Cross, "The Earliest Medieval Churches of Kiev", <i>SP</i> , 11 (1936), pp. 477-499.
Cross, <i>Contacts</i>	S. Cross, "Medieval Russian Contacts with the West", <i>SP</i> , 10 (1935), pp. 137-144.
CSHB	<i>Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae</i> , (Bonnae, 1828-1897).
<i>DAI</i> , I; II.	Constantine Porphyrogenitus, <i>De Administrando Imperio</i> , ed. G. Moravcsik, Eng. trans. by R. J. H. Jenkins, (Budapest, 1949); vol. II, <i>Commentary</i> , by F. Dvornik, R. Jenkins, B. Lewis, G. Moravcsik, D. Obolensky & S. Runciman, ed. R. J. H. Jenkins, (London, 1962).
Dimnik, <i>Chernigov</i>	M. Dimnik, <i>The Dynasty of Chernigov 1054-1146</i> , (Toronto, 1994).
Diaconu, <i>Petchénèges</i>	P. Diaconu, <i>Les Petchénèges au Bas-Danube</i> , (Bucharest, 1970).
<i>DOP</i>	<i>Dumbarton Oaks Papers</i> , (Cambridge, Mass., 1941 ff.).
<i>ÉO</i>	<i>Échos d'Orient, Revue d'histoire, de géographie et de liturgie orientales</i> , (Paris, Bucharest, 1897-1942).
Fennell, <i>Russian Church</i>	J. Fennell, <i>A History of the Russian Church to 1448 A D</i> , (London, 1995).
Fine, <i>Balkans</i>	J. V. Fine, <i>The Early Medieval Balkans</i> , (Michigan, 1993).
Finlay <i>Greece</i>	G. Finlay, <i>A History of Greece</i> , vol. II, (Oxford, 1877).
Finlay, <i>Byz. Empire</i>	G. Finlay, <i>History of the Byzantine Empire 716-1057 AD</i> , (New, York, 1913).
Franklin & Shepard, <i>Rus'</i>	S. Franklin and J. Shepard, <i>The Emergence of Rus' 750-1200</i> , (London, New York, 1996).
Frye, <i>Remarks</i>	R. Frye, "Remarks on Some New Islamic

- Sources of the Rus ", B, 18 (1944-1948), pp.119-125.
- Frye, *Sasanian Trade* R. Frye, " Byzantine and Sasanian Trade Relations with North Eastern Russia ", *DOP*, 26 (1972), pp.263-269.
- Gerard, *Bulgares* C. Gerard, *Les Bulgares de la Volga et les Slaves du Danube*, (Paris, 1939).
- Glycas *Michaelis Glycas Annalium*, in: *Opera Omnia*, ed. J. P. Migne, PG, tome. 158, (Turn-holti, 1966).
- Göllner, *Jean Tzimis-cès* C. Göllner, " Les expéditions byzantine contre les Russe sous Jean Tzimisès (970-971)", *RHSEE*, 13(1936), pp. 342-358.
- Grégoire, *Der. campa-gne* H. Grégoire, " La dernière campagne de Jean Tzimisès contre les Russes ", B, 12(1936), pp. 167-176.
- Hudud al-'Alam* *Hudud al-'Alam* (372 A.H./983 AD), Eng. trans. V. Minorsky, (Oxford, 1937).
- Ibn Isfandiyar, *Tabari-stan* Ibn Isfandiyar, *Tarikhe Tabaristan*, Eng. trans E.G. Browne, (London, 1905).
- Jenkis, *Byzantium* R. Jenkins, *Byzantium the Imperial Centuries 610-1071 AD*, (London, 1966).
- Jenkis, *Russian attack* R. Jenkins, " The Supposed Russian attack on Constantinople in 907", *SP*, 24(1949), pp. 403-406.
- JOB* *Jahrbuch der Österreichischen Byzantinistik*, 18- Wien, (Köln, Graze, 1969 ff.) .
- Karamsin, *Histoire* M. Karamsin, *Histoire de l'empire de Russie*, trad. Fra. S. Thomas et Jauffret, tome I, (Paris, 1819).
- Le Clerc, *la Russie* Le Clerc, *Histoire physique, morale, civile et politique de la Russie ancienne*, tome I, (Paris, 1783).
- Le traité de Philothée* *Le traité de Philothée*, éd. and trad Fran. N.Oikonomidès, dans: *Les listes des préséance byzantines des IX^e -X^e siècles*, (Paris, 1972).
- Leo Diaconus Leonis Diaconi *Caloensis Historiae Liberi Decem et Liber de Vilitatione Bellica Nicephori Augusti*, ed.C.B.Hase, *CSHB*, (Bonnae, 1828), pp.3-178.
- Macarteny, *Petchenegs* C. Macarteny, " The Petchenegs ", *SEER*, 8(1928), pp. 342-355.
- Mcgeer, *Sowing* E. Mcgeer, *Sowing the Dragon's Teeth*,
- Mcgovern, *Sarkel*

- (Washington, 1995).
- Minorsky, *Commentary* M. McGovern, "Sarkel a reflection of Byzantine Power or Weakness?", *BsL*, 50(1989), pp. 177-180.
- Minorsky, *Studies* V. Minorsky, *Commentary on the book of Hudud al-'Alam*, in: *Hudud al-'Alam*, pt., (Oxford, 1937).
- Moravcsik, *Magyars* V. Minorsky, *Studies in the Caucasian History*, (London, 1953), with a chapter on *al-Shadādiā*.
- Mošin, *Khazares* G. Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, (Amsterdam, 1970).
- Nicholas I V. Mošin, "Les Khazares et les Byzantins", *B*, 6(1931), pp. 309-325.
- Nicole, *BDBE* Nicholas I, Patriarch of Constantinople, *Letters*, ed. and Eng. trans. R. Jenkins and L. G. Westerink, *CFHB*, vol.4, (Washington, 1973).
- Noonan, *Byzantium* D. Nicole, *A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire*, (London, 1991).
- Obolnsky, *Byzantine Sources* T. Noonan, "Byzantium and the Khazars: a Special Relationship?", in: *Byzantine Diplomacy Papers from the Twenty Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990*, ed. J. Shepard and S. Franklin, (Hampshire, 1992), pp. 109-132.
- Obolnsky, *Cherson* D. Obolnsky, "The Byzantine Sources on the Scandinavians in Eastern Europe", in: *Varangian Problems. Scando Slavica, supplementum 1.*, (Copenhagen, 1970), pp. 149-164.
- Obolnsky, *Crimea* D. Obolnsky, "Cherson and the Conversion of Rus': an anti-revisionist view", *BMGS*, 13(1989), pp. 244-256.
- OC D. Obolnsky, "The Crimea and the North before 1204", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978*, ed. A. Bryer, ' *Αρχ. Πόντ.*, 35(1978), pp.123-133.
- OCP *Orientalia Christiana*, (Rome, 1924 ff).
- ODB *Orientalia Christiana Periodica*, (Rome, 1935 ff.).
- Oikonomidès, *Les listes* *Oxford Dictionary of Byzantium*, (Oxford, New York, 1999), 3 Vols.
- Oikonomidès, *Presth-lavitza* N. Oikonomidès, *Les listes des préséance byzantines des IX^e et X^e siècles*, (Paris, 1972).
- N. Oikonomidès, "Presthavitza, the little

- Preslav", *Sudost-Forschungen*, 42(1983), pp. 1-10. Reprinted also in: *Byzantium from the Ninth Century to the Fourth Crusade*, (Hampshire, 1992).
- OSP
Ostrogorsky, *Byz. State* *Oxford Slavonic Papers*, (Oxford).
- Pares, *Russia* G. Ostrogorsky, *History of the Byzantine State*, (Oxford, 1956).
- Pargoire, *Saint Mamas* B. Pares, *A History of Russia*, (New York, 1947).
- PG R. Pargoire, "Saint – Mamas le quartier des Russes à Constantinople ", *EO*, 11(1908), pp. 203-210.
- PO *Patrologia cursus completus, series Graeco-Latina*, ed. J. P. Migne, (Paris, 1857-1866, 1880-1903, reprinted in Turnholt), 161 vols.
- Poppe, *The political background* *Patrologia Orientalis*, ed. R. Graffin et F. Nau, (Paris, 1904 ff.).
- Pritsak, *Pecenegs* A. Poppe, "The Political Background to the Baptism of Rus", *Byzantine - Russian Relations between 986-89*", *DOP*, 30(1976), pp.195 -244.
- Psellus O. Pritsak, "The Pecenegs, a Case of Social and Economic Transformation", *AEM*, 1(1975), pp. 211-235.
- Rambaud, *la Russie* M. Psellus, *Chronographia*, Eng. trans E. R. Sewter, (Penguin Books, 1966).
- RÉB A. Rambaud, *Histoire de la Russie*, (Paris, 1878).
- RHSEE *Revue des Études Byzantines*, (Paris, 1944 ff.)
- R.P.C. *Revue Historique du Sud-Est Européen*, (Bucharest, 1963 ff.).
- RQH *The Russian Primary Chronicle*, Laurentian text Eng. trans. & ed. by S. H. Cross O. P. Sherbawitz-Wetzor, (Cambridge, Mass., 1953).
- Runciman, *Bulgarian Empire* *Revue des Questions Historiques*, (Paris, 1876 ff.).
- Runciman, *Romanus Lecapenus* S. Runciman, *A History of the First Bulgarian Empire*, (London, 1930).
- Rybakov, *Russian History* S. Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign*, (Cambridge, 1963).
- Schlumberger, *L'épopée* B. Rybakov, *The Early Centuries of Russian History*, Eng. trans. J. Weir, (Moscow, 1965).
- Schlumberger, *Russes* G. Schlumberger, *L' épopée byzantine à la fin du dixième siècle*, Jean Tzimiskes, (Paris, 1896).
- G. Schlumberger, " Russes et Byzantins dans les

- Balkans en l'an 972", dans: *Récits de Byzance et des Croisades*, (Paris, 1917), pp.22-33.
- SEER
Shepard, *Khazars* J. Shepard, "The Khazars' Formal Adoption of Judaism and Byzantium's Northern Policy", *OSP*, 31(1998), pp. 11-34.
- Shepard, *Russians attack* J. Shepard, "Why did the Russians attack Byzantium in 1043?", *BNJbb*, 22(1979), pp. 147-212.
- Shepard, *Steppe Frontier* J. Shepard, "The Russian Steppe-Frontier and the Black Sea Zone", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978*, ed. A. Bryer, 'Αρχ. Πόλ., 35(1978), pp.218-237.
- SK
Smedley, *Archaeology* J. Smedley, "Archaeology and the History of Cherson: A Survey of Some Results and Problems", in: *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978*, ed. A. Bryer, 'Αρχ. Πόλ., 35(1978), pp. 123-133.
- Soloviev, *Domination* A. Soloviev, "Domination byzantine ou russe au nord de la mer à l'époque des Comnènes?" *Akten des XI Internationalen Byzantinisten Kongresses, 1958*, (Munich, 1960), pp. 569-580.
- Soloviev, *l'état russe* A. Soloviev, "L'organisation de l'état russe au X^e siècle", *L'Europe aux IX^e-XI^e siècles*, (Varsovie, 1968), pp. 249-268. Reprinted also in: *Byzance et la formation de l'état Russe*, (London, 1979).
- Sorlin, *Les traités* I. Sorlin, "Les traités de Byzance avec la Russie au X^e siècle", *CMRS*, vol. II-3, (Paris, 1961), pp. 313-360.
- Sorlin, I., *Le traité de 944* I. Sorlin, "Les traités de Byzance avec la Russie au X^e siècle: le traité de 944", *CMRS*, vol.-4, (Paris, 1961), pp. 447-475.
- SP
Symeon Mag. *Speculum*. Symeon Magister ac Logothetae, *Chronographia*, ed. I. Bekker, in: *Theophanes Continuatus*, *CSHB*, (Bonnae, 1838).
- Vasiliev, *Old Russia* A. Vasiliev, "Was Old Russia a Vassal State of

- Byzantium? ”, *SP*, 7(1932), pp. 350-360.
- Vernadsky, *Crimea* G. Vernadsky, “The Rus’ in the Crimea and the Russo – Byzantine Treaty of 945 ”, *Byzantina-Meta Byzantina*, 1(1949), pp. 249-260.
- Vernadsky, *Kievan Russia* G. Vernadsky, *Kievan Russia*, (New Haven, 1948).
- Vernadsky, *Russia* G. Vernadsky, *The Origins of Russia*, (Oxford, 1959).
- Whittow, *Byzantium* M. Whittow, *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025*, (London, 1996).
- Yahya d'Antioche* Yahya Ibn Sa'id d'Antioche, *Histoire de Yahya d' Antioche*, éd. et trad. J. Kratchkovsky et A. Vasiliev, *PO*, XVIII (Paris, 1924).
- Zonaras* Ioannis Zonaras, *Epitomae Historiarum*, vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB*, (Bonnae, 1897).